بغـــــداد

في الأيام الخوالي

كونستانس .م. الكسندر

ترجمة

سعيد أحمد الحكيم

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ محمد السويدي

الأمين العام للمجمع الثقافي بابو ظبي

٩١٥,٦٧٢١
ال ب غ
الكسندر، كونستانس م.
بغداد في الأيام الخوالي / بقلم كونستانس م. الكسندر؛ ترجمة سعيد أحمد الحكيم. -أبوظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١.
٤٥٢ص
الكتاب: يتناول يوميات ومراسلات ورحلات كلوديس جيمس ريج المقيم البريطاني في بغداد في الأعوام (١٨٠٨-١٨٢١).
ببليوجرافية: ص ٤٠٩ - ٤١٢.
١- بغداد - وصف ورحلات.
٢- العراق - تاريخ - العصر العثماني (١٦٤٠-١٩١٧م).
٣- ريج، كلوديس جيمس، ١٧٨٦- ١٨٢١م-- المذكرات.
أ- سعيد أحمد الحكيم، مترجم.
ب- العنوان.

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب ٢٣٨٠-هاتف: ٦٢١٥٣٠٠
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

بغـــــــداد
في الأيام الخوالي

من يوميات ومراسلات كلوديوس ريج - الرحالة والفنان واللغوي وجامع العاديات الأثرية والمقيم البريطاني في بغداد في الأعوام (١٨٠٨ ١٨٢١م).

مقدمة المترجم

كانت الرحلات منذ أمد بعيد، وما تزال، مهوى أفئدة القراء والباحثين والعلماء وذوي الاختصاص، لانهم يجدون فيها صوراً شائقة وفرصاً متاحة للاطلاع على تاريخ الشعوب، الظاهر منه والخفي، الذي ما زال بحاجة إلى من يزيل عنه غبار الزمن لمعرفته والاستمتاع بنفائسه التي يتطلع إليها عموم الناس لتزداد ثقافتهم ومعارفهم.

وبالنظر إلى أن الشرق يشكّل مصدراً ثراً لحضارات بائدة تدل عليها الآثار البادية للعيان، فضلاً عن استراتيجية موقعه السياسي والجغرافي وما فيه من ثروات معدنية ذات قيمة ومخطوطات وكتب في شتى صنوف المعرفة، ويضاف إلى ذلك كله الصراعان -- العلني والخفي، بين الدول للاستحواذ على خيراته والسيطرة على مقدراته وتحقيق المكاسب السياسية والاقتصادية والثقافية، فقد قام بعض المستشرقين والمغامرين بسياحات مشبوهة في بلدان بأعذار ظاهرها مدّ العون لها، في حين أن الجانب الخفي منها لا يعدو أنْ يكون محاولات للهيمنة على شؤونه المختلفة.

ولابدّ من الاشارة إلى أن القيام بهذه الرحلات، على زعمهم، إنما يرمي إلى تحقيق الأمن ورغبة في التلاقح الثقافي، لكن الذي نراه هو أن البلد لم يجن من ذلك إلاّ النزر اليسير؛ إذ لم يستتب الأمن ولم تزدهر الثقافة، كما أن كثيراً من الكتب والمخطوطات وقطع النقود القديمة والعاديات الأثرية قد سرقها بعض أولئك الرحالة في غفلة من

أهلها أو اشتروها بثمن بخس لتباع إلى المتاحف والمؤسسات وجامعي الآثار، حيث حفظت هناك كأنها تراث وطني يخصهم، بعيداً عن أهله الحقيقيين وموطنه الأصلي.

وريج، الذي تخصص له قريبته–الآنسة كونستانس الكسندر–هذا الكتاب الضخم عن مذكراته ورسائله ورحلاته في الشرق–العراق ودول الجوار بخاصة–بالإضافة إلى بعض الدول الأوربية، هو أحد الرحالة. كان مقيماً في بغداد للفترة بين (١٨٠٨–١٨٢١م)، فشاهد عهود كل من سليمان باشا وسعيد باشا وداود باشا، ومن بغداد انطلق يزور أطلال بابل وكردستان ونينوى واسطنبول، ومن اسطنبول زار بعض الدول الأوربية والفارسية وأطلال اصطخر (برسوبوليس) وغيرها.

ثم غادر العراق عام (١٨٢١م)، وفي طريقة إلى بومبي زار مدينة شيراز حيث وافاه الاجل متأثراً بمرض الهيضة عام (١٨٢٢م).

يحتوي كتاب الآنسة كونستانس (بغداد في الأيام الخوالي)، على سرد عام لكل أنشطة هذا المقيم من رحلات وتنقيبات وما حدث له من شؤون مع باشا بغداد حينذاك، ولعل صلة القربى التي تربطها به جعلتها تغض النظر عن بعض دوافعه الحقيقية لرحلاته الكثيرة وارتياده مواقع الآثار داخل العراق وخارجه، وإن اضطرت أحياناً إلى ذكر إشارات عابرة عن مخصصات معينة يتسلمها من حكومته نظير بعض الخدمات. ومع ذلك، فقد وجدتني، بعد ما تردد من حديث

عن هذا المقيم وعن مختلف نشاطاته السياسية والأركيولوجية مدفوعاً لترجمة هذا الكتاب لأنه يشكلّ مع كتابين آخرين (رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠م) بقلم ريج وترجمة الأستاذ بهاء الدين نوري، وكتاب (رحلة المنشئ البغدادي) بقلم المنشئ البغدادي وترجمة الأستاذ عباس العزاوي، مادة تكاد تكون كاملة، وبالإضافة إلى ذلك، فإنني أرى أن الاطلاع على مثل هذه الكتب يعطي صورة للأحداث في بلادنا التي نكبت في مصائرها بين طامعين من دول شتى، إذ لم يكن لها يد في رسم سياستها التي كان يجب أن تكون حينذاك بيد أبنائها لا بيد الأجانب الجشعين.

وللحديث عن هذا الكتاب أكثر أورد هنا آراء بعض الكتّاب فيه :

قال سيتون لويد .. عالم الآثار الذي عمل في العراق ثماني سنوات .. في كتابه (أسس في الرمال) الذي كتبه في بغداد عام (١٩٤٧م) ما يأتي :

والاعتراف بالجميل يقضي مني أن اشكر الآنسة كونستانس م. الكسندر، التي تدين بالضرورة، فصول كتابي، فيما يتعلق بعائلة ريج، بالشيء الكثير إلى كتابها الرائع (بغداد في الأيام الخوالي) .

وقال الأستاذ الفاضل عباس العزاوي المحامي رحمه الله في ترجمته لكتاب (رحلة المنشئ البغدادي) المنشور عام (١٩٤٨م) ما يأتي :

(والمستر ريج، المقيم البريطاني، جاءت حياته مفصلة في آثار عديدة من أهمها كتاب الآنسة كونستانس م. الكسندر، من أقرباء

ريج، كتبت عن بغداد في الأيام التي كان قريبها مقيماً بريطانياً فيها، فاعتمدت مذكراته ورسائله وسائر الوثائق المتعلقة بأسرته وأوضحت تاريخه وعلاقاته. وهذا الكتاب على ما فيه من سعة، لم نعثر فيه على ما في «رحلة المنشئ البغدادي» من المطاليب. ولم يكن المستر ريج أول مقيم بريطاني في بغداد، وإنما نصّب مقيماً في بغداد عام (١٨٠٨م)، وكان عمره اثنتين وعشرين سنة).

وقال الدكتور الفاضل علاء نورس في كتابه (حكم المماليك في العراق) والمطبوع عام (١٩٧٥م) ما يأتي:

(ومن الكتب المهمة الأخرى كتاب الآنسة كونستانس م. الكسندر «بغداد في الأيام الخوالي»، وهو سجل حياة كلوديوس ريج. والمؤلفة تمت بصلة القربى إليه، لذا، فأنَّ كتابها مليء بالدفاع عنه). وأشار الدكتور الفاضل إلى أن الكتاب غير مترجم.

وعلى هذا، فإن هذا الكتاب تمكن أن يثير متعة القارئ بكونه عرضاً سياسياً لحقبة زمنية مرّ بها العراق، أو دراسة آثارية لمواقع شهيرة عرف بها البلد عالمياً، كونه مهداً لحضارة امتدت آلاف السنين. ناهيك عن أنه عرض تاريخي لصراع القوى في هذا الجزء من العالم، أو استعراض لبعض الصور الفولكلورية، أو رواية لسيرة ذاتية، أو حتى مذكرات لرجل لعب دوراً، وإنْ كان قصيراً، في مجرى الأحداث وما آل إليه مصيره في آخر الأمر. والجدير بالذكر هو أن الكتاب خال من الهوامش، ولذا فإن أغلبها من إعدادي أو من تعليقي الخاص، آخذاً

بنظر الاعتبار ملاحظات الباحثين الموثقة مع شكري لهم.

هذه إذن حكاية كتاب (بغداد في الأيام الخوالي)، الذي أضع ترجمته بين أيدي القراء الكرام بعيداً عن أي طموح شخصي غير الاطلاع على الحقيقة، ومن الله التوفيق.

المترجم

مقدمة المؤلفة

يبرز عذري الوحيد، حتى في محاولة تأليف هذا الكتاب وعرض الحقائق الآتية للجمهور فيما يتعلق بحياة خال أمي الأكبر، كلوديوس جيمز ريج، ومن الإحساس بالمتعة والرومانسية اللتين غمرتني بهما حكايات سيرته الذاتية ونوادرها حينما كنت لم أزل طفلة، فتلك الحكايات كانت تحمل، وما زالت تحمل، روح المغامرة وسرّ الارتحال في المجهول ونسج الأحلام البطولية التي لا تتحقق لأكثرنا في هذا العصر الخامل البليد الذي يخلو من الإثارة.

لقد امتد العمر بزوجة ريج- ماري- أو الخالة ريج، كما كانت أمي وبقية أفراد العائلة يدعونها - طويلاً، إذ وافاها الأجل عام (١٨٧٦م). كانت معروفة جداً لجيل والدتي، وقد عاشت بعد وفاة زوجها الشاب الحبيب، قرابة خمس وخمسين سنة. وكونها امرأة محافظة، كانت نادراً ما تتحدث عن كلوديوس إلى معاصريها ولداتها، غير أن الأمر يختلف بالنسبة إلى أحفاد إخوانها وأخواتها أو حفيداتهم، فقد زايلها التحفظ كثيراً فأخبرتهم عن حياته ومغامراته في كل من بغداد وفي الرحلات المثيرة في أعماق الصحراء والجبل، فضلاً عن عواصم أوربا الكبيرة. وأخيراً، وليس آخراً، كانت ستتحدث عن كلوديوس، الذي شغفت به حباً، بوجهه الوسيم وسحر خلقه وموهبته اللغوية والتقدير الذي علق بشخصه بين المستشرقين الذين قضى أكثر من نصف عمره القصير معهم.

لقد شكل هذا النسيج كله حكايةً من أكثر الحكايات الخرافية سحراً، وبخاصة أن بعض مقتنياته الشخصية الحميمة وعلب السعوط، والقفل والمفتاح الخاصين بصندوق ثياب سفره وكرة البايسبول وعلبة الذرور الخاص بتلك اللعبة، وحتى بعض بدلاته الأنيقة التي ارتداها في الاحتفالات الرسمية في بغداد، لم يزل باقياً لإقناع المرء بأن تلك القصص كانت صادقة حقاً، كتلك القصص التي أحببناها في عهد الطفولة.

تلقيت هذه الحكايات مع بعض مدخراته القليلة، وبما أنها أحيطت بذلك السحر الذي ما يزال يغلفها، كما أرى، وجدت أن الواجب يحتم عليّ كشف شيء ما عن الحياة الحقيقية لهذا الرجل المتألق الذي يثير الاعجاب. لقد فاتتني أجزاء كثيرة من حياته المبكرة تماماً، ومن باب المصادفة أن أكون قد توصلت، من خلال القصاصات التي ضمت بعضها إلى بعض، إلى شيء ما على أية حال. ثم من خلال العون الودي الذي أبداه لي مختلف الأقرباء، الذين بحثوا في أصفاطهم أو في رفوف كتبهم المزدحمة، وجدت لي منفذاً للدخول إلى رسائله ويومياته، وإنّ إضافة هذه الموجودات إلى التقارير الرسمية لشركة الهند الشرقية وإلى المقالات في الصحف القديمة وكتب المؤلفين المعاصرين، لا بد أن تمدنا بما يصلح أن يكونّ صورةً واضحة لأنشطة حياته العملية القصيرة.

وبعد مرور خمس عشرة سنة من وفاته، نُشِرَ موجز عن حياته

ليكون مقدمة لكتابه الموسوم (حديث الإقامة في كردستان وفي نينوى القديمة) وذلك الكتاب الذي أشرفت على تحريره زوجته، ماري، وإن ظل كاتب السيرة مجهولاً، كما أن أي ذكر للمقيم ريج في (المعجم الوطني لكتابة السيرة) لا يعدو أن يكون مجرد اقتباس من ذلك الكتاب.

إن أغلب الحقائق، وإنْ كان صادقاً، تنقصه التفصيلات الدقيقة، ويخالطه إطناب مزوّق، فضلاً عن أن تكرار القول بشأن سمو أعماله يرهق المراقب وإن لم يقنعه. وعلى هذا، فإنني ألتمس الرفق بي إذا كان ما أنجزته غير ناضج أو إذا أخفقت في إثارة الاهتمام، لأن ذلك يعزى إلى قصوري في رسم صورة كاملة لشخصيته كما أراها، بكونه رجلاً متحمساً، سابحاً في دنيا الأحلام، عالماً، سريعاً في اتخاذ القرار والبدء بالعمل ورائداً حقيقياً في الإمبراطورية ومسانداً لحقوق (المضطهدين)، يعمل، كما أرى، على وفق أعلى مستويات الجنس البشري وهو الشيء الذي يضطلع به الإنكليزي المهذب عادة.

ولابد لي هنا أن أعبر عن تقديري المقترن بعرفان الجميل إلى الأشخاص الآتية أسماؤهم الذين أظهروا ما يكفي من العطف، والذين وضعوا، بكل لطف ودون تذمر، كل ما لديهم من معرفة ودراية، بالإضافة إلى وقتهم الثمين، تحت تصرفي، وهم: السير وليام فوستر من دائرة الهند، والسيد الموقر و. أوتيل من الدائرة نفسها، والسيد المبجل ل. ورتون من المتحف البريطاني، والسيد المبجل

سدني سمث من المتحف نفسه، والسيدة سترانغمان من شركة ووتر فورد، تلك السيدة التي كانت قبل الزواج من عائلة (كوكبرن)، والدكتور د. كار من جمعية التبشير الكنسية في شيراز.

وأود كذلك أن أزجي الشكر إلى أولئك الذين أعانوني في بحوثي، وهم من الكثرة لدرجة لا أستطيع ذكر أسمائهم جميعاً، فضلاً عن جميع أقربائي، مدركةً كم كنت مصدر متاعب كثيرة لهم في أثناء بحثي في الأركان المهملة عن أية مفاتيح لحل الألغاز، أو تعكير سكون الغبار المتراكم عن الحروف ذات الحبر الباهت الذي اصفر بفعل تقادم الزمن. ومع كل ذلك، يمكنني القول دوماً وبكل صدق: (إنني حظيت بكثير من المساعدة والتشجيع والاستجابة العامة لكل طلباتي).

الآنسة كونستانس م. الكسندر

شباط ١٩٢٨

الفصل الأول

الطفولة والشباب (١٧٨٦-١٨٠٧م)

تعلن الكاتبة، وفقاً لرسم الصورة الوصفية للسيرة التي أوردتها في المقدمة، قائلةً، (ولد كلوديوس جيمز ريج في الثامن والعشرين من آذار عام « ١٧٨٦م » بالقرب من ديجون في بورغندي[١]، وفي الوقت الذي كان فيه ما يزال رضيعاً، انتقلوا به إلى بريستول[٢] حيث أمضى السنوات الأولى من حياته في رعاية والديه).

أما الان، فإن الحقائق التي اكتشفها لا تؤيد هذا التصريح بالمرة، ففي المكتب الهندي توجد سجلات شركة الهند الشرقية الموقرة فيها ورقة كتب عليها ما يأتي: (نشهد هنا أن كلوديوس جيمز ريج ولد في جنوب فرنسا وأكمل السابعة عشرة في آذار الماضي، وقد سلمت هذه المعلومات بإشرافنا في بريستول في « ١٣ كانون الأول عام ١٨٠٣م »).

جيمز كوكبرن

أندرو جوينت

---

(١) بورغندي : مقاطعة في شرق فرنسا، سميت فيما بعد Franche Comte

(٢) بريستول: مدينة وميناء في الجنوب الغربي من انكلترا.

إن هذا يجعل تاريخ ولادته في (١٧٨٦م)، ويحتمل أن يكون اليوم هو الثامن والعشرين من آذار، في فرنسا، لكن أحداً، كما أعتقد، لم يستطع القول إن ديجون في بورغندي كانت الجنوب.

وهذه، على أية حال، مسألة ثانوية، إذ إن فرنسا كانت مهد ولادته، وبما أن تلك البلاد في ذلك الوقت كانت تمر بمخاض سياسي أفضى بعد سنوات قليلة إلى الثورة، فإن السجلات المطلوبة كانت غير متاحة.

وعند الإمعان في النظر في بعض الرسائل الخاصة بحياة ريج المتأخرة، نجد أن ثمة اشارة تقول: «أخي السير وليام كوكبرن» وبعد قليل من التحري وجدت أن السير كوكبرن كان الابن الشرعي الوحيد إلى شخص حقيقي هو الكولونيل جيمز كوكبرن، الذي يعتقد بأن البارونية قد آلت إليه في عام (١٨٠٠م)، ولكنه لم يطلق على نفسه ذلك اللقب لسبب واضح سوف أشرحه فيما بعد.

ومن هذه الحقائق أعتقد أن لديّ من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد في أن كلوديوس جيمز ريج كان ابناً غير شرعي للكولونيل جيمز كوكبرن. ومما يزيد قوة افتراضي هذا هو حقيقة وجود صورة رائعة، صغيرة جداً، في مقتنيات أحد أقاربي، يشاع أن أحد الفنانين الفرنسيين هو الذي رسمها، والصورة هي لأحد الضباط ببزته الرسمية (الفرقة الخامسة والثلاثون/مشاة)، ومعها ختم جميل جداً تظهر فيه شارة تدل على النبالة – صياح ديك مميز، وإن كان شعار – النصر أو

الموت، ليس هو الشعار الذي تستخدمه العائلة في الوقت الحاضر.

أما من يحتمل أن تكون والدة كلوديوس، فمسألة يتعذر الحصول على أي حل لها. والمرء يشعر بأنّها كانت تتصف بشخصية حلوة جذابة نقلتها إلى ابنها، ولا يمكن أن تكون امرأة عادية مهما يمكن أن يكون السبب في ارتكابها خطأ عدم ارتباطها بالكولونيل كوكبرن، وعن هذا الرجل سوف أعرض موجزاً نظراً لما آلت اليه سمعته السيئة عام (١٧٨١م).

انحدر هذا الكولونيل من أسرة أسكتلندية معروفة في لولاند، وهو حفيد السير جيمز كوكبرن من ريسلو. استقر أبوه، جون، الابن الأصغر، في كيلكيني، ايرلندا، بوصفه طبيباً جراحاً، واقترن بـ(مارثاريج) من تلك المدينة. أما الأبن الأكبر من هذا الزواج فدخل الكنيسة وارتقى ليصبح رئيس شمامسة اوسوري، في حين هرب، كما يقال، الابن الثاني، جيمز، الذي كان يتوق، على الدوام، إلى أن يصبح جندياً فتطوع في الجيش. بيد أنه في عام (١٧٥٦م) حصل بطريق الرشوة على رتبة ملازم، ثم أصبح عام (١٧٧٦م) عقيداً مكافأة لعمل بطولي قام به في الميدان. وكونه عسكرياً لامعاً، فقد كانت مدة خدمته في أمريكا وكندا، حيث أمضاها تحت إمرة (وولف). ونال الحظوة عند الجنرال فوغان، الذي أمضى خدمته معه كضابط ركن، حينما استولى ذلك الجنرال على جزيرة سنت بوستاتيوس من هولندا أوائل عام (١٧٨١م) كان هذا الموقع قريباً من

سنت لوشيا[1] ، غير بعيد عن المارتنيك[2] ، حيث كانت للفرنسيين قاعدة بحرية كبيرة . والجنرال فوغان، الذي أعاد جزئياً بناء سنت يوستاتيوس وقوّى تحصيناتها، ترك العقيد كوكبرن قائداً من بعده على ذلك الحصن. ومن خلال إهمال كبير، أو من خلال الرشوة التي تأكد حدوثها، استولى الفرنسيون على سنت يوستاتيوس بقيادة الماركيز دي بويل، دون إطلاق نار. وعندها أخذ العقيد كوكبرن وثمانمائة من أفراد الحامية العسكرية أسرى. لقد عوملوا معاملة حسنة جداً. وكوكبرن الذي استطاع أن يبين أن مبلغ الستة آلاف باوند، الذي وجد في صناديق الحصن، كان يعود اليه شخصياً، سمح له بالاحتفاظ بذلك المبلغ، وقد أصبح كل هذا معروفاً أمام المجلس العرفي العسكري، الذي عقد بعد سنة ونصف، وأثار لغطاً فظيعاً في حينه. ونشرت الصحف اللندنية ومعها صحف المقاطعات في ذلك العهد المقالات القاسية عن السلوك الشائن لضابط بريطاني، غير أن العقيد كوكبرن أنكر التهم، لكن البينة كانت ضده، مما استوجب طرده من الوظيفة في مايس عام

(١) احدى جزر الهند الغربية البريطانية . كانت محاولات بريطانيا لاستعمارها أوائل القرن السابع عشر، قد جوبهت بمقاومة عنيفة. تنافس الفرنسيون والبريطانيون للاستيلاء عليها حتى عام (١٨٠٣م) . وبعد أن استولت عليها بريطانيا ، استاجرتها أمريكا (٩٩) سنة واتخذتها قاعدة بحرية إبتداء من عام (١٩٤٠م).

(٢) تقع جزيرة المارتنيك ، التي هي جزء من الجمهورية الفرنسية ، في جزر الهند الغربية . اكتشفها كولومبس عام (١٥٠٢م) . تبلغ مساحتها (٤٢٧) ميلاً مربعاً، وزراعتها قصب السكر ، كما يشكل شراب الرم أحد صادراتها الرئيسة . ويعرف عن هذه الجزيرة تعرضها لأمواج المد العالية والهزات الأرضية والبراكين

(١٧٨٣م).

ومنذ ذلك الوقت حتى مشاهدتنا له يعيش بهدوء عام (١٧٩٨م) في (٣ شارع سمر سيت في كنغز داون إحدى ضواحي بريستول)، لم يشاهد قط. توفي في حزيران عام (١٨٠٩م) ودفن في أبرشية ستابلتن القريبة من بريستول.

في عام (١٧٧٠م) اقترن بـ(لاتشيا)، بنت لوك ليتل من مقاطعة كارلو، التي توفيت قبله بحوالي خمس سنين، وله منها ثلاث بنات وابن واحد، وليام، الذي انخرط في السلك العسكري أيضاً، وخلف أباه في البارونية بعد وفاته.

لم يشر العقيد كوكبرن في وصيته إلى أي واحد من بنيه، تاركا جميع متاعه الدنيوي إلى خادمته، ماري جونز، وقد شهد على هذه الوصية أندرو جوينت، الجراح والصيدلي في بريستول.

كان كلوديوس يكتب على الدوام وبكثير من الود عن أبيه مشيرا إلى المحن الكبيرة التي ألمت بحياته واللوم الذي القوه عليه دون وجه حق.

وعن هذه الطفولة المبكرة التي أمضاها كلوديوس ريج، لا نحصل إلا على ملامح باهتة ذلك أنه أمضى أكثر وقته في بريستول، من العاشرة إلى السابعة عشرة، على ما يحتمل، ونال قسطا وافرا من الدراسة على أيدي مدرسين خصوصيين، ولكن من المؤكد أيضا أنه أمضى بعض سني حياته الأولى في كيلكيني، التي كان يكتب عنها

بشغف كبير على الدوام، ملمحاً إلى نفسه بكونه إيرلندياً، ولد وعاش في ذلك البلد. ولا بد أن المرء سوف يتذكر أن أبوي الكولونيل جيمز كوكبرن كليهما عاشا في كيلكيني، وتوفيا قبل ولادة كلوديوس، غير أن آنسةً تدعى ماري كوكبرن، التي عاشت هناك حتى عام (١٧٩٤م) ربما شعرت بعطف على الطفل، أو ربما بقيت مع بعض أقارب كوكبرن أو ريج الذين ما زالوا يعيشون هناك. وكونه يدعى ريج، يشير إلى حقيقة أنه ربما كان يعد طفلاً ينتمي إلى أحد أفراد عائلة جدته من أمه البعيدين عائلة مارثاريج.

كان ريج، منذ بداياته الأولى، فتى نبيهاً، تمتع، على نحو بارز، بقدرة عالية على تعلم اللغات، تعلم اللاتينية والإغريقية في صفوف المدرسة، لكن شغفه بدراسة اللغات الأجنبية أعانه على اكتساب معرفة واضحة بعدة لغات حديثة من غير معلم، أو بقليل من التعليم، وذلك بمساعدة الكتب العامة وكتب النحو بصورة رئيسة.

اصطحبوه يوماً ما لزيارة شخص يدعى مستر شارلس فوكس، يقيم في بريستول ويحتفظ في تلك الأيام بمكتبة شرقية كبيرة. كان باحثاً في العربية والفارسية ويتمتع ببعض الشهرة، وقد سر بمقابلة كلوديوس. وفي سن التاسعة أو العاشرة من عمره، سلبت لب ريج المخطوطات العربية التي عرضت عليه، فالتمس أن تتاح له الفرصة لتعلم طريقة قراءتها. كان ذلك مبعث إعجاب مستر فوكس، إذ ليس ثمة كثير من الأشخاص المولعين في ذلك الوقت بهوايته المفضلة،

وفكرة تدريس هذا الفتى التواق للتعلم قد أبهجته كثيراً. أعاره كتب النحو الخاصة ومعجماً وبعض المخطوطات، فاصبح كلوديوس، خلال سنة أو سنتين، وهو يدرس تحت إشرافه، باحثاً بالدراسات العربية يبشر بالنجاح، فهو لم يتعلم القراءة والكتابة وحسب، بل تعلم كذلك التحدث بهذه اللغة الصعبة بشيء من الطلاقة، كذلك نشر بعض القصائد باللغة الانكليزية بعنوان (التياعات أحمد الأرزبيلي المنفي الفارسي) مع كثير من الملاحظات المضافة باللغة الفارسية. وكان يفترض أن مستر شارلز فوكس هو الذي علّم كلوديوس هذه اللغة أيضاً، ناهيك عن اللغة التركية.

ومن الواضح جداً، بالنسبة إلى أي شخص، وبخاصة إذا كان طالب مدرسة، أنه إذا أراد السيطرة على تعقيدات هذه اللغات، كان لا بد له من تركيز كبير وممارسة لا تعرفان الكلل. كان، بالطبع، في عمر لم تكن للفتيان فيه مثل هذه الألعاب ووسائل التسلية التي تجهز لهم في وقتنا الحاضر، ومع ذلك، فقد توصل قليل من الدارسين إلى ما تحقق له من انجازات لغوية. وليس مؤكداً فيما اذا تلقى تعليمه في احدى كليات بريستول، وان لم يذكر اسمه في أي سجل من سجلاتها، أو فيما اذا كان قد نال تعليمه عل أيدي مدرسين أو أساتذة خصوصيين، ولكن في سني حياته المتاخرة يظهر اطلاعه، على الكلاسيكيات والرياضيات، فضلاً عن الأدب والتاريخ اللذين تكلم لغتيهما بحذق ومهارة، علماً واسعاً، وعلى هذا، فإن الأساس لا بد أن يكون راسخاً

جداً.

ومن بين أساتذته كان هناك شخص يدعى الدكتور مارشمان، الذي كان أستاذاً في مدرسة (برودميد) ثلاث سنوات في بريستول، وإنْ عرف عن هذا الأستاذ أنه كان يدرس بعض الطلاب دروساً خصوصية.

وكثيراً ما كان يشير ريج إليه قائلاً: (أستاذي في الرياضيات)، إذ لا بد أنه درسه دراسة شاملة، يمكن مشاهدة ذلك في دفاتر التمارين التي وقعت في أيدينا حيث كانت فيها صفحات كثيرة من الحسابات العميقة وقضايا تتعلق بخرائط المسح الهندسي، وكانت إحدى هواياته المفضلة -القذائف والمدافع، وكذلك كان مارشمان طالب دراسات لغوية، يجيد منها اللغة العبرية والسريانية وقليلاً من الصينية. وبما أن كلوديوس اكتسب معرفة واسعة باللغتين الاوليين ومعرفة سطحية بالأخيرة، فمن المحتمل جداً أن يكون قد تتلمذ على يديه. ذاع اسم مارشمان فيما بعد، فقد اشتهر كرائد في حقل العمل الذي تقوم به بعثة التبشير المعمدانية في جنوب الهند.

لقد اجتاحت إنكلترا موجة عارمة من المسيحية المتطرفة في ذلك الوقت، لعلها كانت بمثابة حاجز ضد التيارات الاشتراكية واللادينية التي راجت في فرنسا متدفقة عبر القنال خلال الثورة الفرنسية وما بعدها. وبدأ الحافز للعمل التبشيري، فقد كان مدراء شركة الهند الشرقية سنوات طويلة لا يتعاطفون مع تغيير عقيدة الوثنيين، إذ سمح

لعدد قليل فقط من رجال الدين المسيحي بدخول المستوطنات الكبيرة بما يكفي لتلبية طلبات الأجانب البيض التي ينقصها الوضوح إلى حد ما، ولكن فيما وراء ذلك ساد شعور قوي ضد البعثة التبشيرية على أساس أن التجارة سوف تعاني جراء ذلك التدخل، وفيما إذا كان من خلال تأثير الدكتور مارشمان أم لا، فقد أصبح ريج مسانداً قوياً للبعثة التبشيرية وقدّم لها الدعم بشكل ثابت خلال حياته القصيرة في الشرق، واضعاً بذلك المعتقدات المسيحية في مواجهة المعتقدات الإسلامية.

كان مارشمان فخوراً بتلميذه الذكي المثير للاهتمام وغير العادي، فقدّمه إلى الدكتورين ريلاند وروبرت هول، اللذين كانا واعظين معمدانيين، بالإضافة إلى تقديمه إلى عدة أدباء، إذ كانت بريستول معروفة بعلمائها وشعرائها، ومع ذلك، فقد بدا كل هذا مشرفاً في كآبته وعلميته اللتين ينقصهما البريق بالنسبة إلى شاب من أمثاله، ثم إن أيَّ امرئٍ في مثل هذه الحال لابد أن يامل ويفكر في أن روح كلوديوس ريج المرحة لا يستغرب منها أن تتخذ بين حين وآخر انعطافات طائشة منفلتة، فقد التقى فتيةً آخرين سايرهم بما يلائم عمره، فامضى معهم ساعات مرحة يمارس فيها الألعاب المختلفة. لم ينشأ كلوديوس متزمتاً، وعلى هذا كان لابد أن تتطور مراحل صباه بصورة طبيعية، فضلاً عن أنه حافظ على آرائه وفقاً لمستوى الفتى الاعتيادي.

وحدث يوماً، في أثناء تجواله قريباً من بيت أبيه، أن قابل أحد الأتراك الذي ميزه بسهولة من ملابسه. ففي مثل ميناء بريستول غالباً ما يشاهد

المرء جميع الجنسيات المختلفة، وحتى الآن، فإن كل اللغة التركية التي تحدث بها كان مع مستر فوكس، وبقية ما تعلمه منها كان من خلال الكتب والكتابة. كلوديوس، وهو يتلهف على اكتشاف ما إذا كان ممكناً أن يكون مفهوماً لدى الآخرين، خاطب الرجل التركي بلغته. أما الرجل، وقد أخذته الدهشة واستحوذت عليه الفرحة لمقابلة شخص في بلاد غريبة أمكنه التحدث إليه، تدفق كلامه معلناً عما جرى من محنة. كان تاجراً ركب البحر فتحطمت سفينته بعيداً عن ساحل إيرلندا، ومن هناك جيء به إلى بريستول. لقد أبهج كلوديوس أن يكون في وضع يستطيع فيه تقديم خدماته لذلك الرجل، كما أبهجه أن تكون لغته التركية رائعة. فقد قدّم الرجل إلى شخص استطاع تقديم العون له، ثم غادر الرجل التركي ميناء بريستول وهو يلهج بالعرفان بالجميل مع وعود بمساعدة ريج إذا استلزم الامر زيارة تركيا في أي وقت.

ها هو كلوديوس ريج يكبر الان. ففي عام (١٨٠٣م) ندرك أنه بلغ السابعة عشرة من عمره، ولابد من اختيار عمل يمارسه، وهو، بما يجيد من لغات شرقية اتجهت أفكاره نحو الشرق. وبواسطة أحد أصدقائه، منح مقعداً دراسياً كطالب حربي متدرب في شركة الهند الشرقية. وكلوديوس، الذي أسرته فكرة الارتحال، راودت خياله أحلام مدهشة للقيام بمغامرات مثيرة وبسالة بطولية في الجيش، ولكنها لم تكن أحلاماً لروتين ممل لضابط فوج في معسكر تسعفه الشمس جنوب الهند، على أية حال. وبعد توديع والده وأصدقائه، انطلق بفرح غامر وآمال عريضة،

ولكن لم يقدّر له أن يعود إلى بريستول ثانية. وبعد أن سافر ممتطياً جياد البريد إلى لندن، صعد هناك إلى مركز الفحص في (بيت الهند) الذي يقع في ليدنهول. وخلال القيام ببعض الاجراءات القانونية، قُدّم إلى السيد (فيما بعد) السير شارلس ويلكنز المستشرق الباحث وأمين مكتبة شركة الهند الشرقية. جذب ريج اهتمام ذلك الرجل، الذي سحرته معرفة الأول باللغات الكثيرة. وبعد مقابلة تمّ فيها اختباره في موضوعات مختلفة، ابتهج ويلكنز بما كان يتمتع به ريج من إنجازات لغوية لدرجة أنه ضغط على مدراء شركة الهند الشرقية لإيجاد عمل له اكثر مردوداً وملاءمة من مجرد رتبة ملازم في أحد أفواج المشاة لتلك الشركة.

وهكذا تحول عمل ريج إلتي بوساطة كلمات المديح التي أطراه بها أمين المكتبة البارز. وقدّمه السيد أدوراد باري -أحد مدراء الشركة- في اليوم الرابع من كانون الثاني عام (١٨٠٤م) مع كتاب توصية إلى المؤسسة في بومبي.

ومن الممتع أن نجد في عدد جريدة التايمز لليوم (١٣ كانون الثاني عام ١٨٠٤م) مقالة قصيرة تتحدث فيها عن شاب مهذب ظهر عند اجتياز الشكليات الضرورية لترشيح طالب كلية عسكرية في شركة الهند الشرقية أن (أحد مدراء الشركة اكتشف عرَضاً أن الشاب - طالب الكلية الحربية - كان استاذاً ذا ثقافة ذاتية كاملة وتعليم عال في العربية والفارسية ولغات شرقية أخرى، وهي حقيقة خضعت إلى اختبار أمين مكتبة الشركة، السيد ويلكنز. وهذه الحالة الاستثنائية قد حققت،

برعاية من مدراء الشركة عامة، الحصول على وظيفة كتابية في مكتب بومبي ولتقدّم فوراً إلى دنيا الإعجاز الأدبي!). كان كلوديوس متلهفا على بلوغ الكمال في تعلم العربية والتركية، ولاشك في أن ذلك سوف يفيد الشركة في الحصول على رجل له تلك الكفاءة العالية في اللغات، رجل يمكنه العمل لصالحهم في الشرق الأدنى بوظيفة تابعة لهم. وبالفعل، فقد أسسوا قبل ست سنوات مقيمية في بغداد وفي البصرة، وفي غضون ذلك أقاموا على طول شواطئ الخليج العربي مصانع ذات وكلاء خاصين، ولهم وكلاء آخرون في اسطنبول والولايات التركية الاخرى في آسيا، لقد امتدت التجارة في كل مكان وان كانت ما تزال مقيدة بظروف الحروب النابليونية، وسارت القوافل هنا وهناك تحمل شحنات البضائع، الصادرات منها والواردات، وكلها تعود إلى شركة الهند الشرقية. وكان للفرنسيين كذلك وكلاء منافسون في جميع أنحاء تركيا، كما للهولنديين. وعلى هذا، فقد أصبح من الضروري أن يكون البريطانيون على تماس قوي بالمشرق والأقطار المجاورة.

لم تتوفر وظيفة شاغرة في بومبي، فانصب التفكير في أن الفرصة لابد ستكون رائعة فيما لو أرسل الشاب ريج ليصبح سكرتيراً للمستر شارلس لوك، الذي أصبح لتوه القنصل العام لصاحب الجلالة في منطقة البحر الأبيض المتوسط حيث يوجد مركز تلك القيادة الرئيس في القاهرة، التي قام بمهام الوكيل العام للشركة فيها براتب سنوي مقداره (١٥٠٠ باوند).

كان مستر لوك موضع اعتزاز كبير، واكتسب ودّ مدراء الشركة، كما نرى ذلك في جريدة التايمز المؤرخة في (٢٠ كانون الثاني عام ١٨٠٤م) ما يأتي : «أقام مدراء شركة الهند الشرقية أمس حفلة رائعة للمستر لوك-القنصل الجديد في مصر» .

ولابد أن يتبادر إلى ذهن المرء أن كلوديوس قد دعي إلى هذه الحفلة الرائعة بجسمه النحيل ووسامته التي تتجلى في أجمل بدلة يرتديها، وربما كان يشعر بشيء من الحياء والغربة بين هذا الجمع الذي يرتدي أكثر الملابس أناقة وحداثة . لقد حدد راتبه قبل رحيله، إذ تسلم (١٨٠ باونداً) سنوياً بوصفه كاتباً و(٢٢٠ باونداً) سنوياً خلال إقامته في مصر . إن مبلغ (٤٠٠ باوند) سنوياً كان بمثابة مخصصات سخية لشاب في بداية نشاطه العملي .

كانت إحدى الحقائق التي شكلت حياة ريج كثيراً هي رسالة أرسلها في كانون الأول الماضي عام (١٨٠٣م) روبرت هول من مدينة بريستول إلى صديق قديم له يدعى السير جيمز ماكنتوش، الذي كان على وشك الإبحار إلى الهند ليشغل منصب القاضي الأول في بومبي . أبحر ريج في السفينة (غلاتون) إحدى سفن الهندية الشرقية -- كان هذا قبل تعيينه في مصر...، أما عائلة ماكنتوش فقد أبحرت في السفينة (وينجلسي)، وكلا السفينتين أبحرتا في الأسطول نفسه لأن البحار كانت محفوفة بالمخاطر لدرجة يتعذر إبحار كل سفينة بمفردها .

وكتب روبرت هول يثني على ريج قائلاً :

« ثمة شاب مهذب يبحر في نفس الأسطول معكم كضابط متدرب في شركة الهند الشرقية، في طريقه إلى بومبي. إنه رائع إلى حد بعيد وسليل عائلة طيبة ويتسم بالجاذبية واللباقة. فهو، بقليل من العون، أو دون عون، أمكنه الاطلاع على اللغات الشرقية ومعرفتها، فضلاً عن اللغتين اللاتينية والإغريقية ولغات حديثة أخرى، لقد أتقن اللغات الآتية: التركية والكلدانية والعبرية والفارسية والعربية، وتراود ذهنه رغبة جامحة في السفر إلى الهند، ويحدوه أمل في إمكان إشباع شغفه بدراسة الآداب الشرقية. وإذا كان مما ينسجم مع آرائك تكريمه بما تقدمه له من تأييد وتشجيع فهو، وأنا على يقين، لن يتيح لك أيّ سبب لأن تأسف على ما أسديت له من معروف ولطف ».

لم يقابل السير جيمز الشاب كلوديوس شخصياً، ويعود ذلك إلى التغيير الذي طرأ على خططه، ومع ذلك، فقد بقيا يتراسلان. أبحر السير جيمز وعائلته إلى بومبي، في حين ألغى ريج رحلته وأمكنه الحصول بشيء من الصعوبة على مقعد له في السفينة التجارية «هندستان» التي كانت تبحر بالمؤن إلى جبل طارق وإلى الأسطول بقيادة نلسن. كانت سفينة رائعة ذات خمسة وأربعين مدفعاً وعلى ظهرها مائتان وعشرون رجلاً تحت قيادة الكابتن ليغروس. غادرت ميناء بورت سموت في الثامن من شباط مع حماية عسكرية لاتجاه البحر الأبيض المتوسط، غير أن أنباءً سيئة وصلت إلى انكلترا بخصوص السفينة في الأيام الأولى من شهر مايس مفادها أنها بعد مغادرتها جبل طارق، وفي

الوقت الذي كانت فيه ما تزال بعيدة عن ساحل اسبانيا الشمالي، شبت فيها النار التي بدأت من عنبرها ولم يستطع البحارة إخمادها، وبعد إغلاق البوابات الأرضية المؤدية إلى عنبر السفينة أمكنهم الوصول إلى خليج روساس، على شواطئ كاتالونيا حيث دفعوها إلى الشاطئ. نجا الجميع عدا خمسة بحارة. وفي اليوم الثاني من نيسان أتت النار على السفينة كلها.

جاء المدد على شكل فرقاطة تدعى »جونو« حملت أكبر عدد من البحارة الذين أمكنها استيعابهم، غير أن أي مدني من امثال كلوديوس كان عليه البقاء على اليابسة. كان ذلك على مسافة حوالي (٥٠) ميلاً شمال برشلونة. لكن تاجراً من «الكويكرز»[1] من ميناء بريستول، الذي كان يمارس التجارة في تلك المدينة، وهو يسمع ما يدور حول ورطة أحد أبناء مدينته، يسارع إلى مد يد العون له ويضيّفه في بيته ومن ثم يتقدم للبحث عن سفينة تبحر إلى مالطة حيث يجب أن يلتحق ريج برئيسه فيها. لقد أتت النار على اكثر متاع مستر لوك ومتاع ريج في السفينة - هندستان.

كانت نسبة التامين على متاع مستر لوك عالية (١٦ جنيهاً لكل مائة جنيه، أما بالنسبة إلى أمتعة ريج المتواضعة، فقد كانت فاتورة حسابه كلها ثلاثين جنيهاً وشلناً واحداً وأحد عشر بنساً). يا للشاب المسكين،

---

(١) الكويكرز: طائفة من الأصحاب او المهتزين الذين يركزون على البساطة في الملبس ويكرهون الطقوس الخارجية ويقاومون الحرب.

فهو بعد أن تركته الأقدار خالي الوفاض في بلد غريب، وليس معه غير مبلغ ضئيل جداً، على ما يحتمل، ودون ملابس، عدا قليل منها أتاح له الوقت الاحتفاظ بها. وهكذا، فقد شعر بما يفوق حدود الامتنان نحو صديقه الذي تعرف عليه حديثاً. كان الابحار في مياه البحر المتوسط غير آمن بسبب وجود الأساطيل المتنافسة لكل من فرنسا وبريطانيا فيها، ناهيك عن القراصنة في شمال أفريقيا الذين انتشروا للسلب. وهكذا، استطاع ريج الوصول إلى إيطاليا بواسطة سفن ساحلية تجارية صغيرة وبطيئة. مكث هناك حوالي ثلاثة شهور، في نابولي على وجه الخصوص، حيث بدأ دراسة ما أصبحت احدى هواياته المفضلة في حياته–الموسيقا. واظب على الحضور لمشاهدة أوبرا «سان كارلو» وسمع عدداً كبيراً من المغنين المعروفين في تلك الأيام. درس الموسيقا، نظرياً وعملياً، فأصبح بارعاً في العزف على الفلوت والقيثارة، الآلتين اللتين اعتبرتا إنجازات رائعة للشباب المحدثين.

يبدو أن مستر لوك كان موجوداً في نابولي في مايس، قبل سفره في مهمة رسمية إلى تركيا في حزيران، وكان مقرراً أن يلتقيه ريج لدى عودته، أو أن يوافق على أية ترتيبات مناسبة مهما كان نوعها.

وفي أثناء مكوثه في نابولي درس ريج اللغة الإيطالية أيضاً، لكي يتحدث بها، ناهيك عن الاطلاع على تاريخها وآدابها. وعلى هذا أصبحت اللغة الإيطالية لغته الأثيرة، فأثار مجمل الأمور المرتبطة بتلك البلاد اهتمامه الكبير. وفي صيف عام (١٨٠٤م)، ربما كان ذلك حوالي

شهر آب، أبحر ريج إلى مالطة، غير أن القدر تدخل في سير الأمور كذلك، إذ وقف خاشعاً في الحادي عشر من شهور أيلول إلى جانب السرير الذي لفظ عليه مستر لوك أنفاسه الأخيرة، فهو، بعد أن عاد من اسطنبول، زار سهل طروادة حيث أصيب بالحمى التي لم يشف منها، وعاد إلى مالطة ليموت فيها في الأخير. وقبيل وفاة مستر لوك كان هذا الرجل قد أهدى ساعته الفضية إلى ريج الذي استخدمها على الدوام واحتفظ بها تحفةً رائعة طوال حياته.

ومن الواضح أن مجلس مدراء الشركة شعر إلى حد ما بالحيرة والتردد ازاء ما يمكن البت فيه بخصوص « معجزتهم الأدبية »، ولذا، فقد اقترحوا إما وجوب بقائه في مالطة حتى قدوم القنصل العام الجديد أو سفره إلى اسطنبول ليزداد حذاقة في كلتا اللغتين العربية والتركية. وريج الذي فضل الفكرة الثانية على الأولى، أبحر بمفرده، في حين غادر بقية أفراد الملاك الخاص بالمستر لوك، متوجهين جميعاً إلى اسطنبول. وبما أنهم كانوا على ظهر سفينة تجارية، فقد توقفوا في كثير من الجزر التي رصّعت بحر إيجة، إما لغرض تجاري أو بسبب الرياح المعاكسة. وفي إحدى الأماسي لاحت أمامهم سفينة صغيرة مريبة ظن الكابتن أنها ربما كانت إحدى سفن القرصنة، ولذا وضعت سفينتهم التجارية في حالة دفاع مستنفر، ولكن عند تفحصها عن كثب ظهر أنها إحدى السفن التجارية التركية. وجه قبطانها والذي يتكلم الانكليزية الدعوة الى ريج للانتقال إلى تلك السفينة التركية. وريج، المولع الشغوف بكل شيء، قبل الدعوة

بسرور بالغ، ولدى صعوده إلى ظهر السفينة رأى أحد الأتراك، رجلا يرتدي ملابس أنيقة يرمقه بشيء من الدهشة، ثم تقدم نحوه قائلا: «سيدي، إنني أعرفك!»، فأجابه ريج، «وأنا سبق لي أن رأيتك.» ثم تبع ذلك توضيح الأمر، إذ ظهر أن ذلك الرجل هو التركي الذي تحطمت سفينته، ثم التقاه ريج وقدّم له العون في ميناء بريستول. ولاشك في أن التاجر التركي كان بإمكانه تقديم نوع من المساعدة له، وهو ما يأمله كل إنسان على أية حال. إن هذا اللقاء يبدو وكأنه قصة خيالية غير معقولة، ولكنها، مع ذلك، مدعاة للتصديق كواقعة حقيقية.

ذهب ريج، عند وصوله إلى اسطنبول، لزيارة مستر تووك - القنصل البريطاني - الذي توثقت عرى صداقته به، وكتب بعد وصوله مباشرة في كانون الأول إلى السير جيمس ماكنتوش، الذي هو الآن في بومبي عارضاً عليه أن يراسله ويوافيه بما يجمع من أخبار. وهذه بلا شك كانت رغبة السير جيمز، ثم إن الرسائل التي أرسلت بهذه الطريقة براً، وهي تحتوي على المعلومات المضطربة المفككة، كما كانت عليه الحال في ذلك الوقت الذي عمت فيه الفوضى جميع أنحاء أوربا، تمّ تسلمها بطريقة أسرع مما لو كانت قد أرسلت بوساطة السفن من إنكلترا التي كانت تستغرق عادة ستة أشهر في الأقل لإنجاز الرحلة إلى الهند.

أمضى ريج خمسة عشر شهراً في تركيا، في الأقاليم الآسيوية بصورة رئيسة. بقي أسابيع قليلة فقط في العاصمة، ومن ثم سافر إلى أزمير حيث حضر محاضرات في كلية للشباب في مثل عمره وتحصيله

الدراسي. وبعد عقد صداقات مع أناس آخرين، كما كان يفعل في كل مكان يذهب إليه، استطاع أن يكيّف نفسه بكل سرعة لينسجم مع أساليب حياتهم، وتعلم كثيراً من آداب المعاشرة (الأتيكيت) والسلوك ووسائل التسلية وأتقن اللهجة العامية التي تحدث بها المسلمون الشباب المهذبون الذين انحدروا من عوائل كريمة المحتد. وريج، على الرغم من كونه أجنبياً، استقبلوه بحفاوة، جزئياً لكونه شاباً، وبطريقة يتعذر استقباله بمثلها لو كان أكبر سناً.

وفي صيف عام (١٨٠٥م)، بعد قرابة ستة أشهر، غادر أزمير. ومن ذلك الوقت حتى مرور سنة تقريباً، لا نكاد نلمحه إلا قليلاً، هنا وهناك، مرة في حلب وثلاث مرات في أنطاكيا، حيث يمكن تعقبه من خلال تقديم نفسه إلى وكلاء الشركة لتسلم راتبه. ومن المعروف أنه قد تجول في الأناضول فوصل شمالاً حتى مدن «بولي وأماسيا وتوكات»، مع العلم أن السبب الذي دفعه إلى ذلك غامض جداً، غير أن المرء يمكنه ان يخمن، وإن لم تكن ثمة معطيات حتى في أكثر التقارير حفاظاً على الأسرار، أنه قد أرسل إلى هناك بكونه وكيلاً سرياً، إذ يتضح أنه نظراً إلى تقاضيه راتباً خاصاً، فذلك يعني قيامه بعمل معين مقابل ذلك الراتب.

كان فتى رشيق الحركة، ذكياً، في التاسعة عشرة من عمره. وإبان ذلك الوقت، وهو يعيش كمواطن تركي ويتحدث اللغة التركية بطلاقة، استطاع أن يجمع المعلومات الخاصة بالتجارة أو الشؤون السياسية أو كل

ما يوكل إليه. ومن الطبيعي أن يكون حاد النظر، وإن هذا التدريب يعدُّ شيئاً مضافاً لكفاءته إلى حد بعيد.

ومع ذلك، كان ريج صغير السن لدرجة لا يمكن تركه فيها فترة طويلة دون مساعدة أو إرشاد، وعلى هذا، طُلب منه السفر إلى الإسكندرية في ربيع عام (١٨٠٦م) ليعين مساعداً للكولونيل ميسيت -القنصل العام الجديد- الذي أعقب مستر لوك. وجد، بعد شروعه بالسفر إلى أزمير مرة أخرى، سفينةً مبحرة إلى قبرص، وبعد إقامة قصيرة في تلك الجزيرة استقل سفينة أخرى إلى الاسكندرية التي بلغها في شهر مايس، ومن ثم التحق بالكولونيل ذميسيت - في القاهرة.

وخلال مكوثه في القاهرة اجتهد كثيراً لتعلم اللغة العربية فأصبح فيها بارعاً كبراعته في اللغة التركية، فضلاً عن قراءة الكثير في كلتيهما. وثمة الآن شيء آخر استغرق اهتمامه، أعني بذلك الخيول والفروسية. فهو ربما لم تتوفر له، خلال فترة طفولته والحياة التي عاشها في بريستول، الوسيلة أو الفرصة للانغماس في متابعة هذا المضمار، لكنه، وهو في القاهرة، قد أتيح له كل ما يمكن أن يفيد منه، إذ لم يكن الحصول عل الخيول الأصيلة متعذراً، وخاصة بالنسبة إلى شاب أجاد التحدث باللغة العربية ومناقشة كل ما يخص الميزات الجسدية لتلك الحيوانات، فضلاً عن عقد الصفقات مع التجار العرب في الخانات المخصصة لذلك الغرض.

كان المماليك في هذا الوقت أسياد القاهرة تقريباً، وفقاً لما يشاؤون إن

لم يكن وفقاً لأسمائهم المعروفة. وهؤلاء الناس الأشداء الذين يخشى جانبهم في جميع الولايات التركية، هم أحفاد الأرقاء القوقازيين. كانوا ذوي بشرة وشعر أشقرين، يرتدون الملابس الأنيقة ويعتمرون على رؤوسهم قلانس غريبة بالاضافة إلى تجهيزات غريبة أخرى. عقد ريج عدة صداقات مع هؤلاء الرجال الذين علّموه كثيراً من الحركات البارعة في الفروسية واستخدام السيف والرمح، اللذين كانوا مشهورين بهما، ناهيك عن كيفية ارتداء ملابسهم الخاصة - العمّة المائلة بزهوٍ وخيلاء -- والطريقة التي يرتدون بها الجبب التي تليق بأناس يحتلون مكانة رفيعة.

كان كلوديوس ينظر إليه كشخص أثير في حياة القاهرة الاجتماعية. فقد راق لرئيسه - الكولونيل ميسيت- وتوثقت عرى صداقته بالنقيب رولاند، الذي كان ضمن ملاك موظفي اللورد فالنشيا، الذي جاء معه من الهند حيث تولى مركزاً قيادياً. لم يكن العمل شاقاً، والمجتمع الصغير للإنكليز المقيمين هناك كان بلا شك يسعى حثيثاً لإدخال المتعة في نفوس أفراده.

وعلى أية حال، ففي نهاية السنة أخذ مجلس إدارة مدراء الشركة يعيد تنظيم تعييناته، ولذلك كتب أولئك المدراء العامون يستدعون ريج للتوجه إلى بومبي. ربما كانت التجارة في القاهرة غير كافية للسماح بأكثر من وكيل واحد في الإسكندرية كما كان الأمر سابقاً. وهكذا نجد كلوديس مرة أخرى يسحب النقود لنفقاته، مائتين وخمسين

باونداً هذه المرة، مائة باوند تشكل ربع راتبه ومائة وخمسين باونداً بمثابة النصف الأول من المخصصات لنفقاته. وبقدر علمنا، لم يظهر للسفر أي طريق معين. فأحد الطريقين الأكثر احتمالاً هو طريق السويس، ومن ثم بوساطة المراكب الشراعية المحلية في البحر الأحمر، حيث يتواصل الإبحار على امتداد الشواطئ الجنوبية وعبر المحيط الهندي، وهذا الأخير محيط لا يخلو من المخاطر بالنسبة للزوارق الصغيرة. وهو، فضلاً عن المخاوف الناتجة عن وجود القراصنة عموماً، ثمة خطر أكبر يتمثل بالوقوع أسرى بواسطة سفن القراصنة الفرنسيين. أما الطريق الآخر فهو عبر سورية، اجتياز الصحراء السورية التي تحفها المخاطر، أو السير شمالاً من طريق حلب وأورفا وماردين. وعلى ما هو واضح، فإن الطريق الأخير هو الذي اختاره كلوديوس، وربما كان قد ارتحل حتى ديار بكر لوجود أصدقاء له هناك، وهو تخمين ينقصه الدليل.

كلوديوس ريج، الذي تنكر بزي أحد المماليك، دون أن تشكل بشرته الشقراء عائقاً أو غرابة، وبسبب من معرفته بتقاليد الناس ولغتهم، استطاع تقمص دوره دون أن يثير الشكوك في هويته. وبعد مغادرة القاهرة شق طريقه نحو فلسطين ومنها إلى سورية. كانت لغته التركية رائعة بالإضافة إلى أن الدروس الخاصة بالسلوك الشرقي والتصرف الصحيح، التي حضرها في الكلية في أزمير، ومع المماليك في القاهرة، كانت من الدقة لدرجة أنه لم يواجه أيّ صعوبة في قبوله كفرد منهم في

أي مكان ذهب إليه.

كان لمكانة المماليك ثقل كبير في جميع الولايات العثمانية فاستقبلوا بحفاوة بالغة في كل مكان، ولعل مردَّ تلك الحفاوة هو الخشية منهم. وهكذا تنقل ريج من مدينة إلى أخرى ضيفاً مكرَّم الوفادة.

وحدث أنه كان في دمشق خلال موسم الحج، عند انتقال ستارة الكعبة إلى مكة المكرمة التي كانت تعج بكل القوميات التي ارتضت الإسلام ديناً. كانت الحشود كبيرة يسودها جو من التشدد والتعصب، وأن أي مسيحي يدخل المسجد الأموي الكبير كان لابد سيفقد حياته إذا اكتشف أمره.

وكلوديوس، بروح المغامرة العنيفة التي انطوت عليها تصرفاته وتأكده من عملية التنكر التي أضفاها على مظهره، كان بإمكانه الذهاب إلى أي مكان يشاء وحضور أي احتفال لا يسمح به لغير المسلمين.

وخلال مكوثه في دمشق حدث أن ساكناً، تاجراً سورياً-تركياً افتتن بوسامة المملوك الشاب، دون اعتبار لغطرسة واستبداد أغلب أفراد طبقته، وهو أمر يصعب تعليله، فناشده البقاء معه. عرض عليه المساعدة بأية وسيلة ممكنة، لأجل أن يحظى بالاهتمام اللائق به في الدوائر العليا، لو أنه رضي بالبقاء هناك فقط. وكإغراء أخير عرض عليه أن يزوجه ابنته! ومع ذلك، فقد رفض ريج كل تلك العروض الشائقة مؤكداً للتاجر عرفانه بالجميل اللامحدود ومشيراً إلى أن الواجب يقتضي منه أن يستأنف رحلته!

ولعله، وهو يواصل رحلته عبر حلب وديار بكر وماردين، قد توقف في الموصل ومن هناك انحدر إلى بغداد سالكاً نهر دجلة ومن ثم إلى البصرة حيث تعرَّف على المقيم الذي عينته الشركة، السيد مانستي، الذي كان يكن له بغضاً شديداً! وبعد أن وجد زورقاً في الميناء، أبحر إلى بومبي فوصل إليها في شهر أيلول عام (١٨٠٧م).

الفصل الثاني

بومبي والزواج عام (١٨٠٨م)

لدى وصول كلوديوس ريج إلى بومبي مباشرةً، قُدمت له دعوة للبقاء مع السير جيمس ماكنتوش وزوجته في بيتهما في باريل، إحدى ضواحي الجزيرة. وكما نعلم، فإن السير جيمس كان قاضي مدينة بومبي الأول، وذلك المركز المهم الذي احتفظ به حتى عام (١٨١٢م) عند عودته إلى إنكلترا، قُدمت إلى ريج تلك الدعوة بناءً على توصية السير روبرت هول وتبادل الرسائل بين ريج والسير جيمس خلال سنوات النزاع بين الدول. وبعد قضاء أسابيع قليلة في باريل، ذهب كلوديوس للسكن مع السير وليم أرسكن، سكرتير السير جيمس الخاص الذي كان يعيش في بيكيولا. لم تكن الليدي ماكنتوش في وضع صحي جيد، وعلى هذا، فقد غادرت، هي والسير جيمس إلى بومبي في رحلة استجمام وراحة، ولم يعودا من هناك حتى كانون الاول. وربما يجدر بنا أيضاً عرض وصف لحال أفراد تلك العائلة، فنشير إلى أن السير جيمس كان قد اقترن في شباط عام (١٧٨٩م) بالفتاة كاثرين ستيوارت، التي أصبح أخوها، دانييل ستيوارت، صاحب امتياز جريدة المورننغ بوست. توفيت هذه السيدة عام (١٧٩٧م) فخلفت وراءها ثلاث بنات – ماري المولودة في تشرين الثاني عام (١٧٨٩م) وميتلاند، التي وُلدت عام (١٧٩٢م) وكاثرين، التي وُلدت عام (١٧٩٥م). وفي عام (١٧٩٨م) تزوج السير

جيمس ببيمبروكشاير. وكانت حصيلة هذا الزواج ثلاثة أطفال - بيسي في عام (١٧٩٩م) وفاني في عام (١٨٠٠م) وروبرت في عام (١٨٠٦م)- يقيمون جميعاً في بومبي في الوقت الحاضر.

وخلال غياب الزوجين ماكنتوش، كان الشابان ذريج وارسكن - في البيت في باريل باستمرار، ويبدو أنهما أصبحا على علاقات حميمة مع الأسرة، كان أرسكن في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره، شابا رصيناً ومجداً في عمله، ظهر على مسرح الحياة الهندية ملازماً لعائلة ماكنتوش.

بدت وسائل التسلية غير مشوقة في تلك الأيام، وتنقصها الحرارة إذا ما حُكم عليه وفقاً للمعايير الحديثة. بدت الحفلات الموسيقية، التي ظهر فيها ريج عازفاً رئيساً على آلتيّ الفولت والقيثارة، ويكتب القصائد إلى هذا وذاك عن أية حادثة يومية بسيطة، ويقوم ببعض النزهات غير بعيد عن أنظار زوجة القاضي الأول، أو التجول مساءً عند اعتدال الطقس في «شارع البحر»، كأنها تلخّص كل ما وصلت إليه وسائل التسلية حينذاك.

كانت ماري ماكنتوش، الابنة الكبرى، وإن كان مظهرها غير جذاب، كما وصفها أبوها، ذكية ذات اطلاع واسع وفرته لها قراءاتها المختلفة. ولا شك في أنها إحدى أوائل الفتيات الإنكليزيات التي غامر ريج كثيراً للاتصال بها، فقد كانت طفولته المتوحدة بكل أبعادها الفكرية والثقافية، بالإضافة إلى ارتحالاته المتأخرة التي استمرت ثلاث سنوات في

بلاد الأناضول، حاجزاً منعه من الانغمار في المجتمع الذي يألفه الشباب، وأبعده عن الاتصال بفتيات في مثل عمره ومنزلته. كانت إحدى التسريات المتبادلة تعليم ماري فن الرسم بنوعيه -- التخطيطي واللوني- وقد شكل هذا ذريعة قوية للبقاء طويلاً، أحدهما مع الآخر. ومن النادر أن يثير دهشة المرء، على هذا الأساس، وقوع أحدهما في حب الآخر بعمق وعاطفة متأججين -- ذلك الحب الصادق إلى حد بعيد- الذي نما وترعرع طوال سني حياتهما الزوجية، فقد بدا، بالنسبة لها حينذاك، ودون شك، بطلاً رومانسياً. لقد أسعد هذه الفتاة الذكية الخجول إلى حد ما كان يرويه لها من قصص رحلاته وفروسيته الرائعة بالإضافة إلى براعته الفائقة في العزف على الفولت والقيثارة والقدرة على الكتابة، وبكل ما ينطوي عليه وجهه من وسامة وسلوكه من فتنة وسحر. كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وقد شغفت حباً، وبشكل استثنائي، بأبيها الذي يتسم بالزهو والعظمة، في حين لم تُظهر ميلاً إلى زوجة أبيها أو حباً نحوها.

كان الغزل وقتذاك خاضعاً لضوابط يحددها إطار من السلوك المحتشم، وتفرض عيون أولياء الأمور التي لا تنام رقابة مشددة على الفتيات، ومع ذلك، فقد مرت بضع ملاحظات عابرة صغيرة بين كلوديوس وماري يخاطبها فيها بلغات مختلفة من قبيل «أختي السنيورة الرائعة» وفيما بعد «الآنسة الأغلى ماري» وانتهاءً بالرسالة المازحة نوعاً ما »ثقي أنني، مع حبي الشديد، أظل ذلك المخلص حتى الموت»-، التوقيع: أورلاندو

فيريوسو! .

لقيت الألقاب رواجاً كبيراً في العائلة، فقد أطلق أطفال عائلة ماكنتوش على ريج لقب «ايرل كلكيني» و«أبوماندو» وكذلك «فريشي الثرثار»، فهو، على ما يظهر، كان كثيراً ما يستثمر في كلامه العبارة الإيطالية، »فريشي السيامي»، سيامو فريشي.

عاد السير جيمس ماكنتوش وعقيلته في الثالث والعشرين من كانون الاول، وبعد يوم أو يومين قابل كلوديوس السير جيمس، الذي سمح له بالتقدم لطلب يد ماري، فتمت الموافقة على الزواج. وعلى أية حال، فالأمر لم يكن يخلو من بعض العقبات التي واجهت الشابين، لأن ريج كان قد عُرضت عليه وظيفة تبعد عن بومبي كثيراً، حيث يتعذر على ماري مرافقته إلى هناك. وإبان ذلك طرأت تغييرات في أفكار وآراء مجلس مدراء الشركة العامين، إذ قرروا أن رجلاً كفئاً ذا معرفة واسعة بتقاليد تركيا وأساليبها السياسية سيكون مرغوباً فيه في بغداد. وقد بدا كلوديوس أنه كان يتمتع بخبرة ضرورية تفوق ما كان يجب ان تتوفر في أي موظف مدني لإشغال ذلك المركز. لقد جعله تمكنه من اللغات الشرقية واطلاعه على أحوال تركيا، فضلاً عن مكوثه ثلاث سنوات في الولايات العثمانية، الشخص الوحيد لتسنم ذلك المنصب.

وأخيراً، صدر أمر تعيينه مقيماً في بغداد في السادس عشر من كانون الثاني عام (١٨٠٨م)، قبل شهرين من عيد ميلاده الثاني والعشرين، علماً أن إجراءات زواجه من ماري ماكنتوش تمت في بومبي في الثاني

والعشرين من كانون الثاني، وقد وقع على عقد الزواج السير وليم أرسكين وثمانية شهود آخرين، أمضيا ذلك اليوم في «مالابار بوينت» حيث قاما بنزهة ممتعة، بيد أن أكثر ما كان يعتمل في ذهنها من عدم رضا أو أنها لم تُقدم لها ملابس جديدة في تلك المناسبة، وأن زواجها قد تم ببدلة كانت قد جلبتها من إنكلترا حينما كانت في الثالثة عشرة من عمرها.

كان السير جيمس ماكنتوش يشعر بعاطفة جياشة تجاه كلوديوس، إذ أدرك أنه قد نال الهبة والحلية اللتين لا حدود لروعتهما، لقد افتتن عموم الكبار بشخص كلوديوس وميله الشديد للانهماك في الاطلاع على كل شيء، فهو طاقة وحدّة ذكاء وشخصية تتجسد فيها الحماسة فيما يتعلق بقضايا التعلم وميادين الفروسية وأنواع الرياضة السائدة في تلك الأيام، وفي إحدى رسائل السير جيمس إلى أحد أصدقائه يُظهر بعض مقتطفاتها إعجاب هذا الرجل الشديد وإشادته بمزايا زوج ابنته، إذ يقول:

«لعلك تتذكر ما قرأته في صحف عام (١٨٠٣م)، وهو أن السيد باري، الرئيس الحالي لشركة الهند الشرقية، كان قد أصدر كتاب توصية بخصوص شاب يُدعى ريج وفقاً لما جاء في تقرير السير ويلكنس، الذي أشار فيه إلى ما يتمتع به هذا الشاب من قدرة فائقة في اللغات الشرقية لقد أوصاني به صديقي روبرت هولة فدعوته إلى بيتي، ولدى وصوله في شهر أيلول جاء لزيارتنا، لقد فاق كل توقعاتنا وجعلنا

على الفور نعدّ أن معارفه الشرقية ما هي إلاّ جزءٌ يسير مما يتمتع به من مزايا. وكذلك وجدته باحثاً كلاسيكياً كبيراً وله القدرة على التحدث والكتابة باللغتين -الفرنسية والإيطالية - كأحد أبنائهما. ومن خلال الفضائل التي يدل عليها مظهره استطاع أن يضم كل مأثرة رائعة إلى أية ممارسة رجولية يقوم بها ويربط بين روح الدعابة والشعور بالمسؤولية بطهارة العذراء الرقيقة. لقد أدخلت مواهبه وابداعاته السعادة إلى قلبي إلى حد بعيد. وعند عودتي من رحلة الاستجمام أقتضتها حالة السيدة ماكنتوش الصحية، أصبح تواقاً إلى أن يكون زوجاً لابنتي. صحيح أن ليس له ما يؤهله لذلك الزواج من محتد كريم أو ثروة كبيرة أو حتى وظيفة معينة، ولكن، مع ذلك، لا يمكن أن تشك في أنني وافقت بطيب خاطر على اقترانه بابنتي الكبرى. وبعد ذلك فوراً استدعت الضرورات الملحة الحكومة لتعيين مقيم في بغداد. وعلى هذا، كان كلوديوس المرشح الوحيد الذي اجتمعت عليه الكلمة بالكامل كونه مؤهلاً لإشغال هذا المركز. وهكذا، فقد عُيّن مقيماً فنال مرتين، قبل سن الرابعة والعشرين، الترقية على وفق ما يتمتع به من فضائل. لقد تزوجا ثم ارتحلا إلى بغداد».

كان الزوجان السعيدان، في الواحدة والعشرين والثامنة عشرة على التوالي، صغيرين حقاً، لدرجة يصعب تصور قيامهما بهذه الرحلة الطويلة، إلى جهة لم يطرق مسالكها إلاّ قليل من الأوربيين. صحيح أن كلوديوس كان على دراية بأحوال بغداد ونمط الحياة فيها وفقاً للطريقة

التركية، وصحيح أن ماري قد أمضت في الشرق ثلاث سنوات ونصفاً اعتادت خلالها، على ذلك الأساس، الانسجام مع بعض مظاهر الحياة الشرقية وبيئاتها، إلا أن هذا السفر يعني نقلة سريعة إلى عالم المجهول يسلخها عن أهلها بمسافة تقدر بألف وثمانمائة ميل. إنها، في الحقيقة، مغامرة بالنسبة إلى فتاة صغيرة، في خضم صعوبات في وسائل الاتصال، وعدم وجود سيدة أوربية تأخذ بيدها وتسدي لها النصح، ثم ليست ثمة مجتمع ملائم لها، فضلاً عن خلو المكان من أية تسريات تتطلع إليها أغلب الفتيات.

لقد غمر الزوجين حب جارف، لم يذلل تلك الصعوبات التي كان منها الشيء الكثير وحسب، بل بدا كأنه يحيلها إلى سلسلة أحداث سعيدة أكثر منها سلسلة أحداث مملة مضجرة.

وفي الثامن من شباط، بعد أسبوعين من زواجهما، نشاهدهما على رصيف الميناء، يوشكان على الإبحار مودعين الجميع بالحسرات والابتسامات وبكثير من التلويح بالمناديل للعائلة والأصدقاء، الذين احتشدوا على الشاطئ.

وبعد الوقوف على سطح السفينة ـ الاميرة أوغستا (إحدى السفن الشراعية الضخمة في الهند) ـ راقبا اليابسة حتى غاصت وراء الأفق، تلك الارض التي قضي على كلوديوس ألا يراها ثانية.

لم تكن السفينة مزودة بوسائل الراحة تماماً، ولكن، بما أن الزوجين كانا يشكلان المسافرين الوحيدين في الأسطول، فقد كانا موضع اهتمام

كبير. فالكابتن، جوشوا ألن، الذي كان صديقاً لتلك العائلة، كان يلقب بـ« كاليبان »، ومن الممكن أن يخمن المرء أن نظراته لا تدل على الغاية التي تكمن وراءها. وفي غضون ذلك الوقت، استبد القلق بالخليج العربي لوجود القراصنة[1] على امتداد الشواطئ بالإضافة إلى البحر نفسه، فيما أرهق السفن البريطانية ضغط السفن الحربية الفرنسية والقرصنة التي اعترضت سبل التجارة بين الشواطئ العربية والفارسية والهندية. وعلى أية حال، فقد كانت الرحلة محفوفة بالخطر، مما اضطر السفن الإنكليزية إلى الإبحار تحت حماية عسكرية مشددة يفرضها الأسطول البحري البريطاني.

وبعد مضي عشرة أيام حارة مضجرة وصلوا إلى بعض مسافة من مدينة مسقط حيث احتجزتهم العاصفة خمسة أيام. ومسقط، التي هي بالذات مدينة كئيبة موحشة ذات صخور سود كبيرة على طول الشاطئ، ليست المكان الذي يغري الإنسان بزيارته، ومع ذلك، فهي مرفأ أمين. وفي أثناء وجودهما هناك، أرسل ضباط الأسطول البحري رقاع الدعوة إلى الضيوف لتناول العشاء، إلى جانب إرسال هدايا صغيرة من مختلف الأنواع. بداية، كانت ماري ريج تشعر بخجل كبير لدرجة فضلت عدم تلبية الدعوة. ومع ذلك، فقد ذهب كلوديوس إلى المكان

(١) القرصنة اصطلاح أوربي اطلق على السفن العربية، العُمانية منها بالذات، التي كانت تحمي مصالح بلادها التجارية ضد السفن الاوربية التي اعتادت أسر السفن العربية والاستيلاء على بضائعها.

واستمتع بما رأى، وقال إنه وإن كان الضباط ملتزمين بقواعد السلوك الصارمة، فقد أمضيا سهرة ممتعة! وعلى أية حال، فقد زالت مشاعر الخجل لدى ماري فاشتركت العائلة مع واحد أو آخر من ضباط البوارج الحربية في تناول الطعام في أغلب الايام عند الساعة الرابعة عصراً.

ونتيجة لسوء الأحوال الجوية التي أعاقت الرحلة، فقد مضى على وصولهما إلى مدينة بوشهر قرابة شهر، ظهرت خلاله عدة مرات مراكب صغيرة في الخليج العربي ومصب نهر الفرات.

وخوفاً من غارات القراصنة، فقد تمت الاستعدادات للمواجهة، ولكن إما أن تكون تلك المراكب قد خشيت المواجهة أو أنها كانت تحمل مجرد بضائع لا يخشى منها، فقد مرت السفينة (الأميرة أوغستا) بسلام. وخلال ساعات الهدوء والصحو الممتعة، اشغلت العائلة نفسها في أثناء ذلك المتسع من الوقت بالقراءة والرسم والعزف على القيثارة، تلك الآلة التي علّم ريج زوجته العزف عليها، أو بما كانت تكتبه ماري من رسائل طويلة مسلية إلى أختها ميتلاند.

وأخيراً، ألقيت مراسي السفينة بعيداً عن البصرة في الثالث والعشرين من شهر آذار، بعد ستة أسابيع من بدء رحلتهما.

كان المقيم، الذي عمل مع شركة الهند الشرقية، هو المقيم الحالي في بوشهر- المستر مانستي، الذي سبق أن قابله ريج كما نعلم. وبما أنه مكث أكثر من عشرين عاماً في هذه المدينة الموبوءة بالحمى، وسيطر بالتدريج على تجارة واسعة، فضلاً عن أنه الممثل الوحيد للمصالح البريطانية في

ذلك الميناء، فلم يكن لأي أحد الحق في معارضته. لقد راعى كثيراً من التقاليد المحلية، فسيدة بيته امرأة أرمنية عاشت معه سنين طويلة وأنجبت له أربعة أو خمسة أطفال، وبدا أنه في هذا الوقت بالذات قد جعل ذلك الارتباط شرعياً.

لدى وصول العائلة دعاهما إلى بيته، ملتمساً من السيدة ريج بصورة خاصة المجيء لمقابلة زوجته. غير أن كلوديوس تميز غضباً لهذه الإهانة لتجرّئه على قول أن السيدة مانستي تود استقبال السيدة ماري. ومع ذلك، فقد أجابه ريج بأدب ملمحاً إلى أن زوجته تفضل البقاء على ظهر السفينة. وبالطبع، نزل ريج إلى الشاطئ واستقبل بحفاوة رسمية كبيرة بوصفه مُقيماً في بغداد، لكن الحدث التراجيدي بين السيدتين أخذ يعتمل كثيراً في ذهن مانستي مع ما كان يختزنه من غضب وضغينة في قلبه. ازداد كرهه إلى ريج فبادله الأخير كرهاً بكره. ولاشك في أن ريج قد كشف عن قدر معين من زهو الشباب، وإن كان دائماً ذا أخلاق دمثة تتسم بالشكليات والآداب العامة. وبما ان ريج كان جديداً في عمله، فقد اقترح مانستي أنه لابد أن يخضع لأوامره ويسترشد بنصائحه ومعلوماته لكي يتقن الأساليب الصحيحة تماماً، وقد أثار هذا الرأي غضب ريج وارتيابا ته، ولما كشف مانستي عن نياته بهذا الشكل السافر، أفسد ريج خططه. ومع أن مانستي كان على علم بأن ريج قد أمضى السنوات الأربع الاخيرة بين المشرقيين، فهو لم يعرف إلا القليل عما كان ريج قد تعلمه فعلاً في ذلك الشرق من دروس عظيمة. فهذا

الإنكليزي يتمتع بنظرة ثاقبة تتمثل في قدرته الخارقة على الكلام والحركة والبراعة الفائقة والمعالجة السريعة للمواقف الصعبة. صحيح، أنه رقيق، دمث الأخلاق، لكنه يتحلى، في الوقت نفسه، بحكمة تكفي ألا يظهر عداءه لأحد أو ينفر منه أي شيء، ظاهرياً في الأقل، ويحتفظ لنفسه بكثير من التحفظات الفكرية. وعلى هذا، كتب إلى السير جيمز ماكنتوش يسأله النصح والعون، إذ يقول:

«أخيرا، يا عزيزي السير جيمز، يسعدني أن أخبرك عن وصولنا إلى هذا المكان بسلام، بعد تحاشي كثير من المخاطر والعواصف والقراصنة.. الخ، وسأشرع بإبلاغك عما دار بيني والسيد مانستي. لقد أرسلت اليه الكابتن ألن مع طرد ورسالة، فكتب لي جواباً عن رسالتي رسالة مناسبة تماما، أرسل إليك طياً نسخة منها راجياً إطلاعي على رأيك فيها. اتخذ، في الأقل، مظهراً ينم عن صداقة، وهو كل ما كنت أصبو إليه، مع إدراكي بانه غير قادر على تنفيذ أي عمل صادق. ومع ذلك، فإن الذي أثارني هو تجرؤه على إيراد اسم السيدة مانستي خلال توجيه الدعوة وتوقعه بأنني كنت سأسمح للسيدة ريج بمصاحبة امرأة أرمنية بغيضة. وعلى أية حال، كتبت إليه بأدب جم فأدرك الإشارة. ثم رحلت إلى البصرة حيث استقبلت باحتفاء رسمي كبير أدى فيه الحرس المدجج بالسلاح التحية اللائقة...الخ، ثم هنأني على تعييني مشيراً إلى ما أسبغه ذلك من قناعة عليه لمقابلة زميل يتمتع بهذه القدرة العالية في تلك الأيام العصيبة. ومن ثم دارت بيننا مناقشة طويلة فيما يتعلق

بالمقيميتين في البصرة وبغداد. اتخذت موقفاً بدوت فيه كأنني أطلب مشورته وأخضع إلى رأيه في كل شيء - متجاهلاً، على أية حال، مسالة إقامة الإتصالات أو تبادل الآراء بيننا - فبدا أنه قد سّر بذلك الموقف. لقد راود ذهنه أن يخضعني له خضوعاً تاماً في بغداد، ومن ثم لن أصبح أكثر من مساعد له، وإن كنت احمل لقب مقيم، ومن أنني سوف أرسل جميع رسائلي إلى الحكومة شرط أن تكون رسائل مفتوحة له، وهذا، وإن كان يعني شيئاً معقولاً بالنسبة إلى وكيل مقيم فقط، إلا أنه لن يروق لي بالطبع، لأنه لا يتصور انني أدرك حقيقة نواياه الخفية، وهو الاستحواذ عليّ كلياً، كما يظن!

أسعدني جداً أن أجد أنه يعدُّني للشروع بالسفر إلى بغداد فوراً، ولذا فقد اصررت على استشارته فيما يخص خططي الخاصة بهذا الامر. حمّلني رسالة شخصية مهمة إلى الباشا وأخرى إلى صديقة - شيخ المنتفك. ثم هاهو يطلب مني ناصحاً أن أكتب فاخبره حتى عن أتفه الحوادث، لأنه ميال إلى التدخل كثيراً في مجريات الأمور الدقيقة في مقيمية بغداد. إنني أمقت الرسائل المفتوحة، إذ كيف يتسنى لي أن أكتب إلى الحكومة سراً، كما تأمرني بذلك، إذا كان يتحتم على رسائلي أن تكشف علناً أمام السيد مانستي؟ وهو، بعد ذلك، سيختار بعد غربلتها فقرات من المعلومات الاستخبارية الخاصة وتوجيهها إلى الحكومة بكونها معلومات وقع عليها اختياره شخصياً فيجعلني بذلك أبدو أمامهم كأنني لا أصلح لشيء بالمرة. أعلم تماماً أن ليس بإمكانه

الحصول على أوامر بهذا الصدد، كما أنني لا يمكن أن أفعل بهذا دون صدور أوامر لي تبيح ذلك. سوف ألتزم بتعليمات الحكومة التزاماً شديداً، ومن ثم لن أستطيع الاعتراض على شيء. وفي الوقت نفسه، لا بد من ملاحظة أن ثمة في الوقت الحاضر شعوراً ودياً بيننا، وأعتقد أنني سوف يمكنني تدبر الأمر معه جيداً، ولكن ألا يوضح ما سردته عليك آراءه الحقيقية؟

اتجهت العائلة إلى بغداد نهراً في يخت المقيمية الذي أطلقت عليه اسم «الأميرة أوغستا» تحيه للكابتن ألن ومجاملة له، لدرجة كسر زجاجة شراب البورت على مقدماتها. كان سير اليخت في أعالي نهر دجله، بانعطافاته وضفافه الرملية الكثيرة، مملاً، ولذا فقد تقدموا ببطء في النهار على وفق ما تسمح له الريح، والقوا المراسي ليلاً.

وفي كثير من القرى الصغيرة والمدن ذات الأسوار الطينية التي رسوا عندها، كان الشيخ أو زعيم القبيلة يصعد إلى سطح اليخت لتقديم احتراماته الودية ومعه هدايا من الخراف والفاكهة، وفي القرية التي كان شيخ المنتفك يقيم فيها، نزل ريج من السفينة يصحبه تابعاه التركيان (الخادمان الحكوميان) مع حارس عربي، وانطلق لزيارة الشيخ حاملاً رسالة السيد مانستي للتعريف به. كان شيخ المنتفك من أكثر الرجال أهمية في تلك المنطقة، إذ كان يسيطر على مساحة كبيرة من الصحراء ويهيمن على اتحاد كثير من القبائل العربية. استقبل ريج بحفاوة كبيرة في مضيف الشيخ الذي اتخذ مجلسه على الأرض يحيط به نحو مائة

عربي مدجج بالسلاح. وبما أن كلوديوس كان يتحدث العربية بطلاقه، لذا فقد انتفت الحاجة إلى وجود المترجمين، وانتهت المقابلة بفيض من عبارات الصداقة الحميمة. هكذا مرت بهما الأيام نحو أعالي نهر دجلة وسط مظاهر الحفاوة الرسمية في أغلب القرى وأماكن إقامتهما المؤقتة. وغالباً ما يحدث في أثناء الأماسي لدى رسوهما قريباً من الشاطئ ان يقوم البدو في مضاربهم القريبة بتسلية المسافرين مرددين الاغاني الشجية وأداء رقصات الحرب فضلاً عن عرض براعاتهم الفروسية في استخدام السيف والرمح. كانوا بصورة رئيسة من قبيلة تعد إحدى أقوى القبائل في المنطقة، وقد كتبت ماري عنهم الوصف الآتي:

« تبدو بشرتهم للعيان شديدة السمرة، مع ما يتصفون به من الجفاء والبدائية[1] وينم لباسهم عن غرابة وعدم تحضر، فهو يتألف من دشداشة بيضاء من الكتان أو الحرير حصرت من وسطها بحزام جلدي يثبتون فيه خنجراً، ويحملون، على العموم، رماحاً طويلة يسندونها إلى أكتافهم بحبال حريرية. شعورهم طويلة، حالكة السواد، تتدلى باهمال حول أكتافهم، وفوق الشعور يضعون كوفيات واسعة، وفي بعض الأحيان، حينما يرتدون ملابسهم الكاملة، يضعون شالات

(١) هؤلاء العرب ليسوا جفاة أو بدائيين كما تدعي السيدة ريج. وليس لباسهم غريباً، فكل قوم لهم طريقتهم فيما يلبسون أو يتصرفون، ثم إنهم أحفاد اولئك العرب الذين علموا الغرب من طريق الأندلس كيف يتصرفون وياكلون ويلبسون، وما قام به زرياب في الأندلس دليل على ذلك.

(المترجم)

مربوطة بلا إحكام حول رؤوسهم فوق الكوفيات التي يرتدونها على الدوام، ولكن حينما يتوجهون إلى ساحات الحرب يرتدون دروعاً وخوذات حربية يثبتون في كل واحدة منها ريشتين بيضاوين من ريش النعام».

الفصل الثالث

بغداد (١٨٠٨م)

بغداد! مدينة ألف ليلة وليلة التي يستحضر اسمها السحري في الذهن صورة رومانسية مدهشة. وخيال الإنسان يرسم منظرها الرائع بأنه منظر لمدينة ذات بياض يشبه بياض المرمر، تبرز من خلاله القباب الذهبية الصقيلة لكثير من المساجد، فتتلألأ كخيط من أحجار كريمة ملونة في شمس الظهيرة الملتهبة، وتشمخ منائرها الهيفاء بوضوح في قلب السماء اللازوردية العميقة - ولعلها ذات قصور تخفي صوراً جمالية أخّاذة لحريم الباشا، يرتدي فيها الخدم الملابس الجذابة الآسرة، ويندفعون هنا وهناك في الافنية الواسعة أو يحرسون بوابات تلك القصور حراسة مشددة في وقت تزدحم فيه الشوارع والأسواق بحشد مندفع طلق الأسارير لتجار الأقاليم وأثرياء الشرق.

يمكنك مشاهدة الجواهر النادرة والحلي الذهبية والفضية ذات الصنعة الرائعة، فضلاً عن قطع الحرير النفيس المعلقة على الحبال والشرائط من شرفات الباعة لكي تجلب انتباه المارة للمعان طياتها الجميلة.

إنها خليط منتخب مما جاء في ألف ليلة وليلة وما عرفنا عن عظمة الملك سليمان فضلاً عن خيالات فاتنة لحكايات الأطفال الخيالية. غير أن واقع بغداد الحقيقي لم يظهر مثل ذلك المنظر المتخيل، فهي مدينة

غير مشرقة، أزقتها ضيقة وأسوارها خاوية. مساجدها وأسواقها كثيرة، ولكن ليس لها سمة بارزة أو واقع جدير بالاهتمام يفوق ما هو موجود في أي مدينة تركية أخرى.

كانت بالتأكيد سوقاً تجارية كبيرة ومدينة مهمة، ولم يكن النفوذ البريطاني كبيراً في هذه الفترة الزمنية من عام (١٨٠٨م) عدا الانتصارات الإنكليزية في البحار. أما الفرنسيون وعلى رأسهم بونابرت فهم وحدهم يشكلون أمة يخشى جانبها. وحالة الحرب السائدة في أوربا والقلق الفظيع في الشرق الأوسط، من خلال الرعب الذي يثيره اسم نابليون، جعلا لفرنسا السيادة على الأمم الأوربية الواقعة ضمن الإمبراطورية العثمانية. لقد أثار الشيء المرعب لوجود بونابرت، الواضح في كل مكان، وحشود الوكلاء الخاصين والجواسيس الذين تعج بهم تركيا وبلاد فارس والدعاية المناوئة لانكلترا، دعاية عدائية ضد إنكلترا، في حين لم يجرؤ اولئك المهتمون بالتجارة مع الهند وبريطانيا على إظهار كثير من الود نحوها.

كان ينظر إلى بغداد بكونها إحدى المدن التي كان نابليون يزمع أن يقيم فيها مركزاً لقيادته في طريقه لاحتلال الهند، وهو هدف يسعى إليه لتحقيق طموحاته، وقد ظنوا أنه الرجل الذي لا يقهر في ذلك الوقت. كانت بغداد تعج بالجواسيس والوكلاء الخاصين والوكلاء المضادين، ووضعها كان يعد مفتاحاً لجعلها مدينة ملائمة. ونظراً إلى وقوعها على ضفتي نهر دجلة، فقد أصبحت ملتقى للطرق الرئيسة

بالإضافة إلى طرق القوافل خلال صحارى ما بين النهرين الموحشة.

ومن الأراضي الجبلية للأناضول حتى موانئ الخليج العربي البحرية ومن سورية إلى بلاد فارس، التقى تجار من جميع الجنسيات الشرقية، يتنقلون بجمالهم أو حميرهم الموسقة بالبضائع، مكونين بذلك جزءاً من تلك القوافل الضخمة المحملة ببضائع الشرق التجارية التي تتوقف في بغداد. فلا عجب والحال هذه، أن تكون بغداد في ذلك الوقت مركزاً لقيادة الجيش الذي سيجتاح الهند.

وبناءً على الشعور المعادي إلى إنكلترا، لم يكن دخول ريج إلى بغداد، بكونه مقيماً بريطانياً، بتلك الحفاوة الكبيرة التي كان سيلقاها لو كان الأمر خلاف ذلك، فالباشا كان يخشى الظهور بمظهر المتباهي لوجود الممثل الإنكليزي.

وريج، الذي تقدَّم أولاً على صهوة حصانه، كان محاطاً بحرس من الجنود السباهيين الهنود وبعشرين من الفرسان الأتباع، وكانت ماري ريج تجلس في المحفة (التخت زوان) المحمولة على ظهر أحد البغال، يحيطها حرس من الخدم الأرمن، في حين رعت مؤخرة الجنود مفرزة صغيرة من السباهيين. وبعد الوصول إلى المقيمية، استقبلهما السيد هاين- الطبيب الجراح والقائم بأعمال المقيم. بقي هذا الرجل المهذب ملازماً للسيد ريج، يمارس وظيفة ثنائية مقتدرة -جراحاً ومساعداً. كان الدور الذي قام به الرجل صعباً، لأنه كان يعمل تحت سلطة مانستي شهوراً كثيرة، ويعيش الآن في بغداد بعيداً عن الاتصال بأي

أوربي أو، على أية حال، بأي مجتمع إنكليزي. ومما لا شك فيه أن طموحاته الخاصة كانت محدودة، لأنه، فجأة، وجد نفسه مساعداً لرجل كان سنوات طويلة أقل منه رتبة. وعلى الرغم من أنه، مرة أو مرتين، كان ثمة ما يثير بغضاءه قليلاً، إلاّ أنه بقي لبقاً ومخلصاً في عمله ومتذرعاً بالصبر في وظيفته.

وبعد يوم من وصوله إلى بغداد، زار ريج باشا بغداد سليمان الصغير- زيارة رسمية مع السيد هاين وقدّم له أوراق اعتماده. استقبل بأدب كبير، فكانت تلك، بكل وضوح، أعظم إيماضة تسجل لصالحه. ومع ذلك، فقد ترك الباشا انطباعاً سيئاً على ريج، إذ يقول:

« يبدو أنه لا يتميز باشياء بارزة تستلفت النظر، ولا يتمتع باي وقار في سلوكه أو مظهره. » وكلوديوس، الذي كان عالماً لبقاً في اللغتين، العربية والتركية، لم تعد له حاجة بوجود المترجمين، كذلك كان يتمتع بموهبة، لم تقيّض إلاّ إلى قليل من الاوربيين، لفهم عقلية الشرقيين ووجهة نظرهم . فهو يجلس ساعات يتحدث عن أكثر الاشياء تفاهة وشيوعاً، وقبل أن يميل عن الموضوع ميلاً مدروساً، يكون قد تمكن من حسم وتسوية ذلك الموضوع أو أي عمل آخر يريد استكماله بكلمات قليلة حسنة الاختيار. كان على علم بربابطة جاش الشرقيين وجلدهم، وبانه، هو الآخر، يمكن أن يصبح شرقياً مثلهم.

---

(١) تستند عقلية الشرقيين إلى حقيقة مفادها ان الأجانب غير صادقين في التعامل مع الشرقيين، لأن مصالح الأجانب توضع فوق كل اعتبار، وهو امر ترفضه وجهة نظر الشرقيين.

وبما أن وصول العائلة كان في شهر مايس، فقد بدأت تشعر بتأثير بواكير المناخ الحار فيها، ثم إن أوربيي تلك الأيام لم يعتادوا الذهاب إلى محطات الهند الجبلية الموجودة حالياً، ولذا تقبَّل ريج وزوجته موسم الصيف بالصبر وقلة الراحة، ومن المعروف أن بغداد كانت أشد حرارة من أغلب الاماكن في الهند، وهكذا، فنحن حين نترك كلوديوس يستقر لممارسة واجباته وينظم شؤونه مع السيد هاين ومقابلة كثير من الأتراك والنبلاء الأرمن الذين زاروه باستمرار، سوف نعود للاطلاع على الحياة العائلية والمحلية لهذين الزوجين المغامرين كما وصفتها ماري في رسالة إلى زوجة أبيها – الليدي ماكنتوش:

«البيت واسع وجميل، على الطراز التركي تماماً. يحتوي على ثلاثة أقسام مختلفة، يعود أحدها لي شخصياً، وهو الحريم الأكثر راحة، الذي يشكل مكاناً منعزلاً من البيت. لديّ غرفة جلوس واسعة جميلة خصصنا جزءاً منها للمكتبة والجزء الآخر لتناول الفطور، وفي هذه الغرفة أجلس على الدوام لأستقبل زواري الكبار. وهناك ليس أقل من ست غرف صغيرة مريحة أخرى فضلاً عن شرفة كبيرة رائعة مفتوحة تحيط بالغرف بالاضافة إلى فناء مفتوح. وهذه الوحدات السكنية مفصولة عن الجزء الآخر للبيت الذي لا أزوره حتى المساء حينما تنتهي ساعات لعمل. الطقس في هذا الوقت حار لدرجة أننا نتناول طعام الغداء أو العشاء على الشرفة، وفي أقل من شهر سوف تصبح الحرارة أمراً لا يطاق مما نضطر إلى النوم في العراء، وذلك لأن أحداً في

بغداد لا يمكنه البقاء في غرفة مغلقة خلال الشهور الحارة. إن وجهة نظري عن هذه المدينة الشهيرة هي أنها ليست المدينة الأجمل، فشوارعها ضيقة للغاية والمدينة بأكملها مبنية من الآجر المفخور بالشمس فيكسبها مظهراً مضجراً إلى حد بعيد. لا شيء في بغداد يمكن عدّه رائعاً، والباشا فيها يحتفظ بسلطة سياسية ضئيلة، وإن كان الأمر يبدو خلاف ذلك.».

تباينت حياة عائلة ريج اليومية في السنة على وفق فصول المناخ المتطرفة. ففي شهور الصيف الحارة غالباً ما يستقر مقياس الحرارة على (١٢٠ درجة فهرنهايت) في الظل عند الساعة الثالثة عصراً، فقد (كان كلوديوس شديد الحرص على متابعة جميع تأثيرات الأرصاد الجوية والمناخية). ومن المحتمل أن يكون أول شخص سجل بانتظام درجة الحرارة في بغداد بوساطة المحرار عدة مرات في اليوم. في الصيف كانا يخرجان مبكرين، بحدود الساعة الخامسة صباحاً، ويعودان في السابعة، ثم يتناولان الفطور. وفي الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة ينكفئان إلى القبو (السرداب) المشيد تحت الأرض طلباً للبرودة. وعند الساعة السادسة يخرجان فيرتديان ملابسهما استعداداً للعشاء الذي يتناولانه على الشرفة. وفي هذا المكان غالباً ما يبقيان طوال الليل، ينامان خارج الغرف، والحرارة كبيرة مروعة (١٠٠ درجة فهرنهايت في الساعة العاشرة ليلاً)، وهي درجة حرارة مألوفة تماماً.

وعلى ما يتصور المرء، فإن الطقس الحار مضنٍ، والبرودة التي

يتوخاها الإنسان أمر يتجاوز في أهميته الأمور المهمة الأخرى، كما يبدو أن وسائل الحصول على الثلج أو حتى المراوح غير معروفة. فالماء يبرد في قلل خزفية مسامية صغيرة، وهذه القلل، التي توضع حتى في التيار الحار، يمكنها أن تمنع سخونة الماء أو درجة فتورته.

كانا، خلال شهور البرد، من تشرين الأول حتى نيسان، يمارسان، التمارين الرياضية صباحاً، لأن الهواء بارد يبعث على النشاط، وعلى هذا، كانا يمتطيان الخيل أو التنزه مشياً على الأقدام، من الساعة السابعة صباحاً حتى الظهر، اعتاد ريج إجراء مقابلاته الرسمية. وفي الرابعة كان يتناول مع زوجته طعام الغداء، الذي يرتديان عند تناوله ملابسهما الرسمية. أما الأماسي فقد خصصت للقراءة أو لسماع الموسيقا، أو تقضيها ماري بالقراءة جهراً في حين كان كلوديوس يرسم بالفحم أو بالاصباغ المائية.

أما عن إدارة شؤون البيت، فإن ماري كانت على علم، في بادئ الأمر، بأنها لقمةٌ سائغة لجشع خدمها، لأنها لم يسبق لها أن مارست إدارة شؤون البيت، وكانت على علم تام بأن الكماليات المنظمة أفضل من الحاجات أو الرغبات الملحة التي يتطلبها ذلك البيت. لم تكن تفهم لغة أولئك الناس أو الأسعار المتداولة، ومترجمها الخاص، أحد المستخدمين المميزين، الذي كان يتحدث الفرنسية قليلاً، كان لابد أن ينال نصيبه من العلاوات والهبات كما هي الحال بالنسبة للطباخ مثلاً. وبمرور الوقت، على أية حال، أخذت تدقق في محاسبة الآخرين

وتمكنت أكثر فأكثر من التغلب على الأعباء التي يخلقها المساعدون لها. الطعام رائع والفاكهة وافرة، وها هي تكتب إلى أختها قائلةً:

«نستمتع بتناول كمية كبيرة من الفاكهة – الخوخ الاعتيادي والرحيقي والمشمش والتفاح والأجاص والتوت – وإن لم تكن ثمة خضراوات جديرة بالذكر، وكذلك الحال فيما يخص الزبدة، فهي غير جيدة، أما لحم الضأن فهو رائع، فضلاً عن أننا نحصل على لحم البقر أحياناً. وهناك خمر ممتاز يمكن الحصول عليه من شيراز، وهو نوع الشيري، ثم إن الخبز جيد للغاية.». يمكنهم الحصول على الخمور الأوربية وبعض المؤن، من بينها مربى البرتقال والفواكه الأخرى، على وجه الخصوص، من بومبي. اما البطاطس وبضعة أنواع أخرى من الخضراوات التي يحتاجون إليها فقد كانت تزرع في حديقتهم ولكن بنجاح قليل، والبطاطس، بهذه المناسبة، قد دخلت بلاد ما بين النهرين قرابة هذا الوقت.

وكلوديوس ريج، الذي له إلمام كبير بأحوال الفرد الشرقي وأساليب حياته، أدرك، باعتباره ممثلاً لبريطانيا العظمى في ولاية تركية، أنه لابد أن يتمتع بنوع معين بمن الألُهة لكونه رمز السلطة، وعلى هذا، فقد احتفظ بعدد كبير من التابعين، وكان له حرس خاص من السباهيين الهنود الذين تصرف لهم شركة الهند الشرقية الرواتب بالإضافة إلى رواتب عدد آخر من الفرسان، وعاش حياة شرقية تماماً.

أما زوجته – ماري – فقد اعتادت ملازمة أقسام الحريم عند وجودها

في البيت، ولم تغامر في الخروج من البيت قط إلا عندما ترتدي الملابس التركية. وهي حينما تخرج لممارسة رياضتها، تركب حماراً ولابد أنها كانت تبدو مثاراً للسخرية، فعلى رأسها كانت تضع حجاباً من الشال الأسود المخرم (الفوطة) مربوطة بشريط أسود، وفي الوقت نفسه تطرح على رأسها فتغطي جسدها كله، حتى يديها، قطعة قماش فضفاضة واسعة ذات مربعات زرق (عباءة)، ثم تنتهي هذه البدلة الغريبة بجزمة صفراء نصفية تتجاوز الكاحل بعض الشيء.

كانت ماري متوحدة وحياتها موحشة، ولا يعني هذا أنها كانت متبرمة أو كثيرة الشكوى، أو أنها قد وقعت أسيرة كلوديوس وأعماله التي خيمت عليها، لكن تلك الحياة بالنسبة لفتاة في العشرينات من عمرها كان لابد أن تكون كئيبة أحياناً.

عند وصولها إلى بغداد صادف أن كانت هناك سيدة أوربية تدعى ـالسيدة رينو ـ زوجة إنكليزية لرجل هولندي. لم تكن بينهما ميول أو آراء مشتركة، فالسيدة رينو غالباً ما تثرثر بما كان يشيع من قيل وقال وما تدور في السوق المحلية من إشاعات، بالإضافة إلى الحديث عن شؤون الخدم وما عليه ابنتها الصغيرة، التي أفسدها الدلال كثيراً، من أهواء لا يمكن التنبؤ بها. ومع ذلك، فإن تلك السيدة وماري أمكنهما مناقشة كل شيء بلغتهما الخاصة. أما جميع السيدات الأخريات من الطبقة الراقية اللواتي زاروها أو زارتهن، فكن سيدات تركيات أو أرمنيات، وهي وإن درست كلتا اللغتين، فإنها لم تستطع

إلا متابعة القليل مما يقال. كانت تلك الزيارات مبعثاً لحب الاستطلاع وإثارة الاهتمام، إلا أنها أصبحت مضجرة عند تكرارها المتواصل، فقد تميزت، بصورة رئيسة، باحتساء القهوة وتناول الحلوى المستمر حدَّ السأم وحرق البخور برائحته الزكية وتضوع عطر الورد. وبما أن مثل هذه الزيارات قد اقترن بلغو حاد لم تفهم منه ماري كلمة واحدة، فقد مرَّ الوقت متباطئاً. وعلى العموم، لم تعتد السيدات التركيات زيارة الأوربيات، والنساء القليلات اللواتي أقمن في بغداد أو مررن بها، لسن من طبقة اجتماعية عالية تكفي للاختلاط بالسيدات التركيات ذوات المكانة الرفيعة، ولذا استمتعت هذه النسوة كثيراً بزيارة ماري، التي، بعد أن تعلمت قليلاً من اللغة فيما بعد، سردت على مسامعهن حكايات عن الحياة الإنكليزية وسلوك الناس، وهي حكايات لم يشعرن بملل من سماعها.

حينما وصل ريج إلى مقره لم يبدد وقته سدىً قبل الشروع بعمله الفعلي. فأول شيء أولاه عنايته الخاصة كان موضوع الاتصال بين اسطنبول والبصرة، فضلاً عن الشروع بتنظيم عمل الوكلاء الخاصين، أو ما يمكن أن يصطلح عليه اليوم بعبارة إدارة المخابرات، فهو شخصياً، كان مؤهلاً لهذا العمل نتيجة إلى أسفاره في إطار استيعابه لتلك المهمة في أنحاء تركيا الواقعة ضمن قارة آسيا. وها هو الآن يقوم بتعيين الوكلاء تدريجاً ويقيم المراكز التي غالباً ما كانت ذات طبيعة سرية جداً في المدن الرئيسة في الأناضول والقوقاز وسورية وبلاد

فارس. وقد وضع لهذا الغرض جهازاً دقيقاً من المرشدين التتر لتنظيم السفر بين اسطنبول، مروراً ببغداد، إلى البصرة. وكما يتبادر إلى الذهن، فإن الأخبار الموثوقة في مثل هذا الوقت لم يكن الحصول عليها إلاّ بصعوبة كبيرة، كما أن الجو كان ملبداً بالشائعات.

كانت صحف إنكلترا، الواردة بوساطة دوائر بريد مالطا واسطنبول، تصل على فترات ولكن بعد أن يكون قد مضى على صدورها شهران أو ثلاثة شهور عادة. وكثيراً ما تسلم ريج نسخاً من صحف فرانكفورت غير أنها صحف لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً. وعلى أية حال، فعند تسلم هذه الصحف تعمل لها ملخصات ترسل بوساطة مبعوث خاص، ينتظر إنجازها، إلى مدينة البصرة، ومن هناك تحمل في سفن معدّة لنقل البريد إلى بومبي وكلكتا. فهذا الطريق هو الأسرع من إنكلترا إلى الهند حينذاك، إذ يستغرق السفر ما بين ثلاثة إلى اربعة شهور، نعم، هو الأسرع من حيث الوقت ببضعة أسابيع من الطريق الاعتيادي حول رأس الرجاء الصالح. والحقيقة، هي أن جمع الأخبار وإرسالها إلى بومبي كان أحد أهم واجبات المقيم مما جعل ريج يصف نفسه بأنه مجرد مدير للبريد!

أخذ السيد مورير على عاتقه مهمة فتح مركز الاتصال في اسطنبول في حين قام أخوه بتلك المهمة في مالطا، والسيد باركر – القنصل البريطاني – في مدينة حلب. وجميع هؤلاء بريطانيون يمكن الاعتماد عليهم، في وقت كانت فيه الأنباء التي يرسلها الوكلاء السريون أو

الجواسيس، كما كان ريج يدعوهم، غريبة وإلى درجة لا تصدق، مما اضطره إلى أن يزن محتواها ويمحصها ويكثر التأمل فيها قبل إرسالها.

يبدو أن كثيراً من التماحك قد حدث مع الباشا خلال السنتين الأوليين من وجود ريج في مقره بكونه مقيماً، فقد اعتاد الباشا التحكم بشؤون الموظف الإدارية أياً كان، وانتهز كل فرصة لإرهاب الموظفين الذين سبقوا كلوديوس أو العبوس في وجوههم، من أمثال السير هارفورد جونز ومانستي. ومع ذلك، فقد كان وجود ريج في مقره تعزيزاً لحقوق بريطانيا. لقد حصل نوعاً ما على إسناد ضعيف من حكومة بومبي، ولكنه فيما بعد، حينما وصل السفير البريطاني إلى اسطنبول، تشجع كثيراً واتخذ موقفاً ثابتاً في مواجهة أية إهانة نحوه أو نحو أي فرد من الرعايا البريطانيين. وقد حقق ذلك الثبات النجاح المطلوب، إذ أدرك الباشا أن ثمة شخصاً أقوى شكيمةً منه فاظهر تودداً نحوه. كان السفير المذكور هو السيد أدير، الذي لم يصل إلى العاصمة التركية حتى ربيع عام (١٨٠٨م)، حينما كان التفاوض قائماً بين الباب العالي والبريطانيين. وعلى الرغم من أن ريج كان مستخدماً في شركة الهند الشرقية وممثلاً لإنكلترا في إحدى الولايات التركية، فقد كانت له مخاطبات كثيرة مع السفير البريطاني ووزارة الخارجية، إذ كتب ريج في ذلك الصيف إلى السير جيمز ماكنتوش قائلاً:

«إن الامبراطورية العثمانية في أوربا تسير بخطى حثيثة نحو هزيمتها

ثم سقوطها. فالمشاريع الفرنسية والروسية فيما يتعلق بتركيا، وتأخير توقيع المعاهدة التي تحدد المواقف، فضلاً عن النطاق الذي يضربه سبعون ألف جندي إمبراطوري مستعد لكل طارئ على الحدود التركية، كلها ذات مغزى خاص، ثم إن الولايات التركيةفي الوقت الحاضر وفي كل مكان هي في أفظع حالات الاضطراب والتمرد والفساد».

ظل السيد مانستي شوكةً في جنب ريج، يواصل الكتابة مبدياً إقتراحات تثير السخط. كان متلهفاً على وجوب تغيير دار المقيمية، لأنه ظن ان من العار أن يكون الوكيل البريطاني مديناً بالفضل إلى حكومة بغداد من أجل تلك الدار. وعند التحري عن الأمر، وجد ريج ان مانستي كان قد حصل على دار بائسة إلى حد ما كانت قد ارتهنت من شخص أرمني في حي غير راق تماماً من المدينة، فحاول تبرئة ذمته من الصفقة وذلك بفرضها، وفقاً لأسلوب يخدع به ريج، كمقيمية جديدة! ولابد من الإشارة إلى أن البيت الذي يسكن فيه الزوجان كان أحد أفضل البيوت في بغداد، وليس ثمة التزام محدد بخصوصه إزاء الحكومة التركية. ثم إن العادة كانت تقضي أن يقدم المقيم هدية إلى صاحب الدار تفوق قيمة الدار كثيراً. وبهذا الشكل تواصل هذا النوع من الاحتكاك السخيف.

وبعد مضي بعض الوقت كتب ريج إلى السير جيمز مرة أخرى يقول:

«لابد أن يكون حياً في ذاكرتك أنني عند تعييني مقيماً، أخبرني السيد دنكان (حاكم الهند) أن أحد الأهداف الرئيسة لتعييني كان يتمثل بأن أكون الرقيب المدقق لكل ما يقوم به السيد مانستي وأن آخذ على عاتقي المهمة البغيضة المثيرة للاستياء المتعلقة بالتعبير عن مشاعري دون مواربة فيما يخص جميع الإجراءات العامة التي يقوم بها، وتبعاً لهذه الخطة فقد أُرسِلت إليّ نسخ من رسائل السيد مانستي الموجهة إلى الحكومة من بومبي، وانصياعاً لأوامر السيد دنكان، فإني عندما كنت أبدي أية ملاحظات فيما يتعلق بسلوك السيد مانستي العام كنت أرسلها له تلقائياً!».

يبدو هذا الأمر وضعاً غريباً بالنسبة لشاب مثله، أعني بذلك التجسس على رؤسائه ومن هم أرفع منه مركزاً وظيفياً، وقد كان هذا سلاحاً فظيعاً في يدي ريج، الذي لو كان شخصاً آخر أقل أمانة منه لأمكنه ايذاء الناس الآخرين بلا حدود.

وابتداءً من وصول ريج إلى بغداد عام (١٨٠٨م)، وخلال السنوات الثلاث التي بقي فيها السير جيمز في الهند، قاضياً أولاً في بومبي، كانت هناك سلسلة طويلة من الاتصالات بين الرجلين. وريج، بما يتصف به من دوافع نابضة بالحياة وحساسية مفرطة ومثالية عالية في الأمانة، وجد في السير جيمز ناصحاً موثوقاً به، يمكنه إسداء النصح له وتهذيب أفعاله عندما تبدو متسرعة لا تنسجم مع الروتين الحكومي. لقد رأينا كيف أن السير جيمز كثيراً ما أخبر زوج ابنته، في حالات

كثيرة، عن اتجاهات التفكير الحكومي والأفعال المستقبلية المحتملة بالإضافة إلى السياسات التي تتبعها تلك الحكومة. كان هذا كله عوناً كبيراً للمقيم الشاب الذي يعيش في دوامة هذا الاضطراب السياسي - بغداد.

وبمعزل عن السيد هاين، مساعده الذي اعتاد السفر بين الفينة والفينة، لم يكن ثمة إنكليزي آخر يمكنه مناقشة الشؤون العامة معه أو يستنير بآرائه. كان ما يزال شاباً، في سنيه العشرين الاولى فقط، وعلى هذا الاساس، فإن رسائل السير جيمز هذه كانت مصدر عون كبير له، ليس من وجهة النظر الرسمية الخاصة بالموظفين وحسب، بل في تهيئة ذهنه لمفهوم العصر فيما يتعلق بمجموع الآداب السائدة والشؤون السياسية والآراء العامة المألوفة في تلك الأيام. وكذلك أجاب ريج بدوره عن كل شيء بشكل مفصل مدروس إلى أبعد حد، ورسالته الآتية مثيرة للاهتمام كونها تبين السياسة التي نسير على وفقها فضلاً عن استخدامه العبارات اللفظية المتعارف عليها التي لها صلة بالسياسة التي نتبعها في تركيا. كما تمنح هذه الرسالة، في الوقت نفسه، ذهن الشرقي نفاذ بصيرة غير عادية لدرجة ان السير جيمز ماكنتوش، حينما رآها، فكر أنها رائعة إلى حد أنه نصح ريج كتابة نسخة ثانية لها وإرسالها إلى السيد باري، أحد أصدقائه بين المدراء العامين في الشركة. وهذه هي الرسالة:

«لقد أظهر سلوكنا بكل وضوح، خلال الحرب التركية كلها، ليناً

في غير موضعه ابتداءً من تجاهلنا المؤسف إزاء الشعب الذي كان لابد من التعامل معه. فالشرقي، بخاصة التركي، لا يمكن كسبه خلال إطالة المناقشة معه أو إخضاعه بالقوة، لا شيء يستطيع جذبه إلى دعواك غير توقعه المباشر للفوائد التي يتوخاها، أو دوافع الخوف المستحوذة عليه. ولا شيء يمكنه فعل ذلك غير التصرف الأكثر حسماً للأمور، وإلاّ فإن أيٌ شيء آخر غير ذلك سوف يزيد من نزعته المتغطرسة. إنني أبعد ما أكون مؤيداً أو مدافعاً عن فكرة استخدام القوة والعنف، غير أن الخط الضعيف لسلوكنا الذي تبعناه مضر، بكل وضوح، بأمانتنا ومصالحنا، وأخشى أن ذلك سوف يشعر به ممثلونا في الولايات التركية إلى حد بعيد. إنني على ثقة بأن الاتراك يعدّون أن تساهلنا وتجملنا بالصبر ناشئان عن خوفنا وعجزنا لا غير، وهو ضعف يمكن أن يشعر به أي شخص عاش في تركيا. فليس ثمة مقيم أو قنصل أو وكيل في أي جزء من أجزاء الشرق إلا وسيخبرك أنه، إذا تعين عليه ان يتورط في أي نزاع مع، أو في تقبل الاهانة من، الحكومة القائمة هناك، سوف يجد أن من العبث تقديم طلب للحصول على الإنصاف من وزير صاحب الجلالة في الباب العالي، فهو إما سيبقى محايداً أو منحازاً إلى جانب الأتراك ضد نفسه، وفي كلا الحالين سوف يجد المتظلم نفسه أمام خيار مقبول وهو اما خضوعه إلى غطرسة التركي وعجرفته أو الاستقالة من عمله.. إن هذه الحاجة إلى المساندة تخلق في سلوك الوكلاء جبناً وحيرة. أما المستعمرون الفرنسيون والروس فهم، على نقيض ذلك،

يساندون ممثلي دولتيهما الأقل منهم رتبة بأقوى أسلوب ممكن.

إن التقاليد والعادات السائدة في حياة الأتراك، فضلاً عن اختلاف اللغات، تجعل من المستحيل لأي سفير أوربي أن يتصل اتصالاً مباشراً بأعضاء الحكومة العثمانية، شخصياً كان ذلك أو من طريق الكتابة. فبعد وصول ذلك السفير مباشرة يجري لقاءات رسمية بالسلطان ورئيس وزرائه، ولكننا نراه بعد ذلك يدفع للخضوع قسراً إلى كثير من الإذلال الذي يثير القرف، وفيما بعد لم يعد بوسعه حتى مقابلة ضباط الحكومة الرسميين.

إن هذا العرف السائد قد أوجد مؤسسة غريبة خاصة بالفرد الشرقي، مؤسسة قوامها وسيط سياسي يدعى (إذا أمكنني استخدام مثل هذا التعبير) الترجمان. يقوم هؤلاء المترجمون بالإجراءات الكاملة لعمل المفوضيات وبالشكل الذي يرونه مناسباً. فجميع المعلومات والرسائل الخطية والشفهية من المبعوث فوق العادة لدولة أجنبية إلى الباب العالي ترسل أولاً إلى ذلك الوسيط السياسي، فيضعها بدوره في صيغة تلتزم بالشكليات الفارغة عادة ثم يرسلها بالأسلوب الذي تجعله معرفته بطبائع الناس قادراً على الحكم بما هو الأفضل في مثل هذه الحالات. وعلى هذا، فسوف يبدو الأمر أنهم، من خلال خدمتهم المهمة ذات المصداقية الاستثنائية، لابد قد وهبوا كل شيء- ثقة وشجاعة وكمالاً ومعرفة، فضلاً عما كانوا يتمتعون به من معرفة دقيقة بلغات الناس الذين ينبغي التعامل معهم.

إن مترجمي البعثات الفرنسية والروسية مواطنون محترمون في الدول التي يخدمونها. أما فيما يخصنا فالأمر مختلف تماماً، إذ أن شؤوننا، مهما كانت صعوبتها أو أهميتها، مودعة كلها إلى إدارة مجموعة من اليونانيين المرتزقة أو مواطنين هجناء في مدينة اسطنبول. وهل يفترض أن هؤلاء الناس، ابتداءً من فترة طفولتهم أنهم كانوا يعلّمون أن يضمروا الخوف والاحترام المطلقين للمسلم، ولا يمكنهم إلا الحصول على أقل جزء ممكن يجنونه من وراء الاستقامة، التي لا يشوبها الفساد، أو المصلحة الثابتة وذلك إكراماً وخدمة لشعب لا ينالون منه فائدة عامة غير مكافأة مالية محدودة؟ وعلى هذا الأساس، فإن قلة التجربة التي يتمتع بها السفير في الشؤون التركية ترمي به كلياً تحت سيطرة مترجمه. أما السفير في البلاطات الأوربية الأخرى فقد اعتاد التعامل مع أناس أنداد له يكون الاحترام والتنازل عن المواقف متبادلين فيما بينهم. يأتي السفير منا إلى اسطنبول حيث ينبغي له عقد الاجتماعات وإجراء الاتصالات مع زمرة من أناس يعدّونه كافراً بغيضاً.

وحتى الأعمال المتسمة باللياقة المتعارف عليها التي يقوم بها شخصياً تؤول على أنها خضوع ذليل واعتراف بعلو مقامهم. فالسفير، الذي يعرف تباين السلوك والعادات في تلك البلاد، يشعر انه بحاجة إلى العون، ويجد الضابط من أهل البلد المعين في البعثة الدبلوماسية، الذي سبق له أن خدم أسلافه من قبل، جديراً بالمسؤولية طبعاً،

وبموجب هذا نراه يضع في هذا الضابط ثقته المطلقة اعتماداً على ما يتمتع به من مهارة واستقامة.

كانت شؤوننا الوطنية بأكملها تدار حينذاك وفقاً للطريقة التي يقترحها الترجمان. وبالطبع، فإن مصلحته تقتضي منه دفع الطرفين إلى الانسجام ومداراة أحدهما الآخر. ومما يثير الدهشة حقاً هو تلك الصعوبة التي سيواجهها كل جانب للوصول إلى مشاعر الطرف الآخر الدقيقة وأساليب التعبير عنها. ولقد اطلعت على رسالة قاسية جداً وإن بدت في ظاهرها رسالة إطراء مجاني إلى حد ما.

وهكذا، فان صلف الأتراك كثيراً ما يفوّت الفرصة على الرسالة لتنال ما تستحقه من تقييم واعتبار، ولست أشعر، في حقيقة الأمر، أنني بحاجة إلى الإشارة إلى ما يفرزه مثل هذا الموقف. ولابد أن يجد المرء أن من المستحيل توقع أن يغامر أي مواطن من أصل غير تركي في اسطنبول بتقديم رأسه قرباناً لملك إنكلترا. وعلى هذا، فهو يتمتع بتفاهم تام مع أعضاء الديوان السلطاني عموماً، وله أصدقاء أتراك يطوق أعناقهم بأفضاله،، ويعتقد أنه إنما يؤدي ما عليه من واجب إلى السفير إذا كان ينقل إليه الأقوال الحكيمة التي يفوه بها الصدر الأعظم (رئيس الوزراء). وبهذا، يزرع بذور الثقة مع رؤسائه الذين تنطلي عليهم الخديعة. وإذا قدَّم أحد الوكلاء من مواطنينا شكوى في احدى المناطق النائية من الإمبراطورية العثمانية ضد حاكم محلي، يحضر التركي عموماً إلى المحكمة العليا من أجل العمل لصالحها قبل كل

شيء، ويأتي الترجمان إلى مجلس الشورى يحمل تفويض السفير له للعمل لصالح الوكيل. يتعامل الوزير مع تلك الشكوى بعجرفة ويستخدم ذرائع لا يمكن أن تخفى على أي أحد من أبناء الشرق. وعلى هذا، يعود الترجمان ليقدم تقريراً مؤدباً يتضمن معلومات معقولة تمجد الحاكم التركي وتشيد بنزاهته وتنحى باللائمة كلها على الوكيل. والسفير، قليل الخبرة بأساليب الحياة في الشرق، يحتمل أن يكون، هو الآخر، على خلاف في الرأي بخصوص وكيل الأمن، مما يجعله بالتالي مرتاحاً من نتائج المناقشات المعقولة للوزير. أما وكيل الأمن سيئ الحظ، الذي لم يعد يجد من يدافع عنه، فقد تُرِكَ له المجال للخروج من ذلك المازق بأفضل طريقة ممكنة، في حين يأخذ الأتراك بالسخرية منه ضاحكين ويستخفون بالممثل الديبلوماسي لميله إلى الشك وعدم التصديق.

لبضع سنوات خلت درست اللغة التركية واطلعت على أنواع السلوك والتقاليد والقوانين والسياسة، وأتيحت لي أفضل الفرص لمعاينتها بإدراك عميق، ربما أكثر مما أتيح للكثير من الأوربيين الآخرين. لقد عايشتهم ورافقتهم في السفر وشاهدتهم على الطبيعة في جميع الرتب والأوضاع دون قناع، لست بكوني أحد الفرنجة، بل بوصفي واحداً منهم. إنني على قناعة تامة من أن الشخص الذي كان لا بد ان يتعامل معهم، ينبغي له أن يكون حازماً وذا عزم أكيد في سلوكه، كما يجب ان يضع له مبدأً لا يحيد عنه يتمثل في أن من

المستحيل الحصول على أي شيء من الفرد التركي من خلال الخضوع له، ذلك الخضوع الذي يعزونه بكل تأكيد إلى الخوف والعجز وعدم الأهلية، أو إلى الاحترام الذي يجب إظهاره لذلك التركي، لكونه مسلماً، ثم استغلال ذلك الامتياز وفقاً لطلباته. والإنسان الذي لا يعاني شخصياً، وعلى نحو بات، مما يفرض عليه من اقتراحات ذات دوافع أنانية يمليها عليه مترجمه أو الأحاديث الطلية التي تعرضها الحكومة، يمكنه تأكيد النجاح لنفسه. فأنت إذا فسحت المجال للتركي لتسجيل نجاحه عليك، فإن ذلك يعني أن هذا الشيء أقرب ما يكون إلى تعذر استرداد ما تصبو إليه من سيادة، في حين أنك ومن خلال الشدة القليلة التي تبديها، ستجده على الفور متحلياً بالأدب ومذعناً إلى أبعد الحدود.

وفي وقت ما زال فيه ريج شاباً (فقد كان في الثالثة والعشرين من عمره في آذار عام ١٨٠٨)، اطّلع ليس على شؤون السياسة التركية وحسب، وهو ما ظهر جلياً في الرسالة السابقة، بل كانت له فكرة عامة عن أهمية المراسيم والتشريفات، كان ريج شخصياً يتمتع بسلوك حريص على الشكليات ويدقق النظر في كل الشعائر الضرورية الخاصة بمركزه الوظيفي.

لقد أدرك أن الأتراك وكل الشرقيين في حقيقة الأمر، يتأثرون كثيراً بما تقتضيه الشعائر والطقوس الدينية فضلاً عما يرغبون فيه من النظر اليهم على أنهم على حق، إذ إن التمسك بالشكليات عندهم فرض

يملي على الشخصيات البارزة بالإضافة إلى الأحداث الكبرى الخاصة ببلادهم، ولم تكن للمقيم ريج فكرة أن يبدو رجلاً قليل الشأن أو أن يجعل بلاده تبدو كذلك أمام حكومة بغداد من خلال عدم الاكتراث بما يجري . وهذا مقتطف من رسالة كتبتها ماري إلى أختها – ميتلاند – تصف فيها حضورها لاحتفال رسمي أقامه باشا بغداد :

« ليس لديك فكرة عن مدى تغيير موقفنا كثيراً نحو الأفضل منذ إبرام اتفاقية السلام مع تركيا (شباط ١٨٠٨) . فقبل شهر تقريباً زار المقيم كلوديوس باشا بغداد بخصوص إحدى المناسبات، وكان الموكب في طريقه إلى البلاط قد أحدث دوياً كبيراً في أوساط مدينة بغداد، وعلى هذا، فسوف أورد لك نبذة مختصرة من جريدة البلاط اليومية تحت عنوان– »استقبال جماهيري عام للمقيم« :

« كان الوقت المحدد لاستقبال المقيم في ساعة إقامة صلاة العصر– الساعة الثالثة بعد الظهر. ففي ظهيرة ذلك اليوم بدأت جموع الناس تحتشد في الشوارع امام المقيمية والطرق المؤدية إلى البلاط، وحتى في ساحة البلاط نفسه. وقبل مرور وقت طويل غصت جميع الشوارع بالناس لدرجة تعذر اجتيازها. وعلى أية حال، فقد كادت العراقيل أن توقف الاحتفال مما أثار قلقاً عاماً لدى الناس بسبب نزوة بدرت من الباشا الذي قرر معارضة بعض سلطات المقيم وأرسل له كلمة بصدد تسليم السلطة لشخصه. وحينذاك أجابه المقيم أنه لم يستطع إدراك أي حق يدفعه إلى التدخل، وكان عليه (أي الباشا) قبل التسرع

بفرض أحد أفراد حاشيته لاستقباله، أن يعلن صراحة عن عدم رغبته في انتظاره أساساً. ومرة أخرى أرسل الباشا كلمة أشار فيها إلى أنه لا يسعه القبول بذلك، فأجابه المقيم أنه لن يأتي دون إقرار بذلك. وأجابه الباشا، فاحتج المقيم. وفي الوقت الذي كان فيه المقيم منهمكاً في إلغاء الاستعدادات بعد تسلمه ما كان يفكر فيه أنه الجواب النهائي، أرسل الباشا حامل أختامه علناً لتقديم ما يشبه الاعتذار، وبالتالي التخلي عن مطلبه معلناً عن استعداده لاستقبال المقيم بكل ما يحمله ذلك الاستقبال من امتياز وتشريف، وابتدأ الإحتفال على وفق الأسلوب الآتي:

– ثلاثة ضباط اتراك من الرئاسة يحملون بأيديهم قضباناً ذهبية–فضية، ويمتطون خيولاً مروّضة ذات سروج مزخرفة موّهت بألوان ذهبية–فضية، لإخلاء الطريق.

– خمس خيول تقاد بالأيدي عليها سروج مخملية مزركشة تصل حتى ذيولها، تغطيها صور من الفسيفساء مموهة كذلك بلون فضي براق، ذلك اللون الجميل الذي زين، أكثر من ذلك، كلاً من ركاباتها وأغطية رؤوسها وصدورها وجباهها، ويقود كلَّ حصان رجل يرتدي بدلة قرمزية، لكنه يمتطي حصاناً آخر.

– ضابط تركي آخر من المشاة يمتشق حساماً.

– حرس من السباهيين يقرعون الطبول وينفخون آلات الناي بمقطوعات شجية.

- أربعة من الحراس أو الجبدار يرتدون ملابس ذات ألوان قرمزية وفضية وثبتت في أحزمتهم مدىً موهت قبضاتها بلون فضي براق، ويحملون العصي بأيديهم.

- المقيم -

على صهوة جواده بكامل بزته الرسمية مع المشرف على خيوله راجلاً، بالإضافة إلى خدم المقيمية في معاطف قرمزية فضفاضة على جانبيه، وموكبه كما يأتي:

- مساعد المقيم على صهوة حصانه في بزته الرسمية.
- ترجمان المقيم على ظهر جواده.
- ضابط تركي من سلاح الفرسان.
- حرس المقيم على ظهور جيادهم.

سار الموكب خلال فناء البلاط الخارجي، الذي استعرض فيه حرس الباشا المكوَّن من جنود نظاميين يحملون البنادق، ثم اتجه إلى بوابة الفناء الداخلي حيث تشكل حرس المقيم وأدوا التحية في أثناء مروره على صهوة جواده. وفي هذا المكان ترجل المقيم فتقدم أمامه رئيس التشريفات وضابط من الإنكشارية، يتبعه المساعد والترجمان خلال صفين من الجورجيين في كامل بزاتهم حتى قاعة الاستقبال الرسمية، التي جلس الباشا في نهايتها العليا في حين جلس في نهايتها السفلى أعضاء المجلس الذين نهضوا احتراماً عند دخول المقيم القاعة. انحنى ريج ومساعده تحية للباشا وجلسا معتمرين قبعتيهما على كرسيين

أُعدّا لهما سلفاً، بينما وقف الترجمان خلفهما. وبعد ترديد كلمات الثناء وأداء المجاملات وزعت الحلويات والقهوة، وبعد ذلك مباشرة أحضر الضباط المختصون قطعة قماش بخيوط من ذهب ومحشو بالفراء الثمين قدِّمت على سبيل الهدية للمقيم، كما قدمت خلع أقل شأناً لكل من المساعد والترجمان. ارتدى الجميع تلك الخلع، وبعد الانحناء تحية للباشا، عادوا بنفس النسق فنهض أعضاء المجلس مثلما فعلوا عند دخول الوفد في القاعة.

ولدى البوابة وجد المقيم، بدلاً من حصانه الخاص، حصاناً ذا سرج مزركش وفقاً للطريقة التركية كان المشرف على خيول الباشا يمسكه ليقدَّم هدية للمقيم من الباشا. امتطى المقيم صهوة هذا الحصان وتقدم نحو الكهية، رئيس الوزراء، الذي نهض لاستقباله. وهنا تمت نفس المراسيم تقريباً عدا خلوِّها من تقديم الخلع، وذلك بعد تقديم القهوة والنارجيلة لكل من المقيم ومساعده. ومن مقر الكهية عاد الموكب بنفس الطريقة مصحوبين ببعض ضباط الكهية. وبين مظاهر الفرح والابتهاج وتصفيق الناس المحتشدين. وبعد وصول ريج إلى مقره في المقيمية، اتخذ مجلسه في الشرفة لتقبل تحيات أولئك الذين جاؤوا لتقبيل يده وإظهار مشاعر الاحترام له بهذه المناسبة.

وعند اصطفاف الحرس قرعت الطبول وتواصل النفخ بالنايات ووزعت الهبات السخية على جميع الحاضرين، ومن ثَمَّ انتهى الاحتفال.».

حـدث هذا ولـم تمض إلاّ سنة واحـدة على وجـود ريج في بغـداد. وريج الذي يتـمتع بشباب غض واندفاع لا يقاوم وتحرك زئبقي وتحكم بسير الأمور على ما يحتمل، كانت له سيطرة استثنائية على الطبيعة الشرقية الحساسة. لقد استحوذ عليهم بما كان له من سلوك ساحر وشجاعة مطلقة وفكر رائع في العدل والقانون والنظام. وكما قيل عن الإيرلنديين، إذ كان ريج يصف نفسه إيرلندياً على الدوام، كان ميالاً لتقصي كل ما له علاقة بمصالحه، ولكنه لم يفصح عن ذلك أو يظهره للعيان، كذلك لم يسئ استخدام أي حق من الحقوق أو أية سلطة أخرى لزيادة مدخولاته الشخصية. ولم يسمح بأن يفرض عليه ما لا يرضاه.. لقد كان أحد الأوائل الذين رفعوا اعتبار إنكلترا وما تتمتع به من امتياز في بلاد ما بين النهرين. فهو في بحثه المتواصل الوحيد لتحسين سمعة بلاده، ينتمي إلى ذلك الجيش الذي طوى النسيان ذكر أبطاله تقريباً، أولئك الذين عملوا وجاهدوا منافحين ضد العوائق الكبيرة من أجل تحقيق مجد وتقدم إمبراطوريتنا.

الفصل الرابع

سفارات وسياسات (١٨٠٨ – ١٨١٠م)

وقعت معاهدة «سلام تيلسيت» بين فرنسا وروسيا في اليوم السابع من تموز عام (١٨٠٧م)، فتحوّل بموجبها الامبراطوران إلى صديقين في الظاهر وفسح المجال لخلق رابطة مشتركة قوية، أعني بذلك امتداد إمبراطوريتهما نحو الشرق. فقد راقبت روسيا كلاً من بلاد فارس وأفغانستان، في حين كان نابليون يحلم بأنه (إسكندر) ثانٍ في زحفه خلال بلاد ما بين النهرين حتى نهر السند .

اهتز مجلس وزراء إنكلترا هلعاً، وتلهف حاكم الهند – اللورد منتو– قلقاً لما يحدث. استغرقت الاتصالات بعض الوقت، وهكذا، فقد حدث في عام (١٨٠٨م) أن أصبحت أغرب البعثات الديبلوماسية إلى فارس أمراً لا يصعب تصوره: إذ أرسل مبعوثان بريطانيان فوق العادة في آن معاً إلى نفس الدولة صاحبة السلطة!

عين السير هارفورد جونز، الذي كان أول مقيم بريطاني في بغداد عام (١٧٩٧م)، مبعوثاً فوق العادة لصاحب الجلالة إلى الشاه. أسند ترشيحه لتلك المهمة المدراء العامونْ في شركة الهند الشرقية، الذين كان له من بينهم عدة أصدقاء، فأضافوا بذلك تأييدهم إلى اقتراح الوزارة. لهذا، أبحر السير هارفورد من إنكلترا متجهاً إلى بومبي، في

---

(١) يقع هذا النهر جنوب آسيا موافياً من التبت ثم يتخلل باكستان ليصب أخيراً في البحر العربي..

طريقه إلى بلاد فارس. كانت الحكومة البريطانية تخشى أن تكون فارس قد تحالفت مع فرنسا، على الرغم من وجود معاهدة مبرمة منذ عدة سنوات بين بريطانيا وبلاد فارس، تعهدت فيها الأولى على تقديم العون للثانية. وبعد مناشدات متكررة إلى إنكلترا، لم تؤخذ بنظر الاعتبار أية ملاحظات عنها، أشاحت فارس، بعد شعور بأنها قد تقطعت بها السبل، بوجهها عن إنكلترا واتجهت إلى فرنسا التي لم تتلكأ في استغلال الموقف.

ذعرت الحكومة البريطانية التي أخذت على حين غرة، فأقدمت على تشكيل تلك البعثة المذكورة أعلاه وفي الوقت نفسه، مايس عام (١٨٠٨م)، أرسلت حكومة البنغال سفيراً خاصاً بها، هو الجنرال الذي أصبح فيما بعد السير جون مالكولم ترافقه قوة عسكرية ضاربة. كان هذا الرجل معروفاً في أوساط الفرق العسكرية والمدنية، وهو بالذات الذي وقع المعاهدة الأصلية السابقة مع فارس.

وبينما كان الجنرال مالكولم يبحر في أعالي الخليج العربي، كان السيد هارفورد قد بلغ بومبي فعلاً. أبقاه اللورد منتو هناك في محاولة منه لتأخيره بعض الوقت ولإعادة تنظيم الأمور، وأرسلت الرسائل إلى مالكولم على عجل، ولم تكن أية سفارة مطلعة على ما يجري في السفارة الأخرى. كانت بعثة الجنرال مالكولم عسكرية في جزء منها ودبلوماسية في الجزء الآخر. ففي الجانب العسكري كان عليه أن يتحقق من إمكان إنزال قوة صغيرة في أحد موانئ الخليج العربي لإعاقة زحف

الفرنسيين على نهري دجلة والفرات في حال هجومهم على بلاد ما بين النهرين. وفي الجانب الدبلوماسي كان عليه أن يرسل إلى طهران ما يشير إلى تبرمه بصورة رسمية من العلاقة التي وطدها الفرس مع فرنسا، تلك العلاقة، التي كما يقول، لا قيمة تجارية لها ولا يمكن أن تنطوي على كل شيء غير تسهيل هجوم فرنسا على الهند. طلب الجنرال مالكولم ان يكون الجواب إيجابياً، فضلاً عن طلب إبعاد السيد جوردان-السفير الفرنسي- من البلاد.

وبهذا الصدد يكتب السيد جيمز ماكنتوش إلى ريج موضحاً:

«إذا كان الأمر يستلزم وجود جيش فرنسي يتقدم فعلاً، فعلى الجنرال مالكولم أن يسعى إلى تسليح الفرس لمواجهته، على أساس أن رغبة بريطانيا تتطلب منع وجود الجنود الأجانب في تلك البلاد. وبواسطة هذه الخطة، يمكن جعل باشوية بغداد وسيلة لإغراء ملك الفرس لدخول الحرب ضد اعدائنا! ويبدو ان باشوية بغداد يمكنها أن تصبح مسرحاً للمفاوضات السياسية الساخنة أو حتى مسرحاً للعمليات العسكرية».

كانت فارس تمر بوضع متأزم، فهي بعد ان تجاهلها البريطانيون، اتجه حكامها ساخطين نحو فرنسا، التي استغل سفيرها المتسم بالدهاء هذا الوضع لتحقيق أهدافه وذلك بإغراق البلاد بعدد كبير من وكلائه. وفارس التي كانت في حرب دائمة مع تركيا، وتقاطعاتها الحدودية التي كثيراً ما كان جيش كل منهما يجتاحها بشتى الذرائع، عُرِّض سكانها

إلى انتزاع الضرائب الباهظة منهم. وكذلك شكلت روسيا تهديداً على حدودها الشمالية الشرقية، مما جعل فارس تشعر بسوء معاملتها التي تتمثل بتوبيخها وتلقي الأوامر التي تصدرها لها صديقتها السابقة وحليفتها المفترضة، إنكلترا.

والسير هارفورد، بكونه سفيراً لبلاط سنت جيمز إلى حكومة صاحب الجلالة–شاه فارس–لم يعد بوسعه السكوت على إيقافه ما لا نهاية في بومبي، حتى وإن صدر أمر بذلك من اللورد منتو نفسه، وعلى هذا، فقد تحرك في أعقاب الجنرال مالكولم بعد أسابيع قليلة. أرسلت الرسائل إلى مالكولم تتضمن سحب جزء من سلطاته الدبلوماسية، وإن تركت له السيطرة على الاستطلاعات العسكرية التي كان يتولاها على الدوام، وقد أثار ذلك رعباً في بومبي يتمثل في أن مالكولم قد قدم استقالته نتيجة للمعاملة المتسرعة التي عومل بها.

لم يكن السير هارفورد جونز شخصاً مرغوباً فيه في الهند، فهو لم يحظ بالحب هناك مطلقاً مثلما لم يحظ به في بغداد. فعند عودته إلى إنكلترا، كان تمسكه المتواصل بمطاليب المدراء العامين في شركة الهند الشرقية، بالإضافة إلى عروضه الذليلة لهم، هي التي رفعت مقامه عندهم، في حين أصبح مالكولم، الذي كان تقديره عالياً والثقة به كبيرة في الهند، فضلاً عن كونه صديقاً شخصياً وجنرالاً مجرباً لـ« اللورد ويليسلي » موضع شك وريبة لدى المدراء العامين بسبب نفقاته السخية على السفارات السابقة. وكما يتبادر للذهن، فإن هذه المفاوضات

الخاصة دفعت للسطح إشاعات غريبة في أسواق بغداد وجعلت من الإنكليز قوماً لا يحظون بالتقدير. تطلب الأمر كثيراً من البراعة والحذر الشخصي غير الاعتيادي من قبل المقيم الشاب، الذي رمته الأقدار فجأة في دوامة هذه الخدعة السياسية، في وقت كان فيه مانستي يحضُّ مالكولم على ضرورة سفره (أي مانستي) إلى بغداد ليقوم بمقام ضابط اتصال بين مالكولم وحكومة الهند، وهذا الأمر، لحسن حظ ريج على أية حال، قد رفض، بيد أن وضعه لم يكن مريحاً، وإن جعل هذا مدينة بغداد في موقع بارز يحظى فيه ريج بالبروز أيضاً.

والجنرال مالكولم، الذي صادق على المعاهدة الأصلية مع الفرس، كان معروفاً ومحبوباً في تلك البلاد، فالفرس، على أية حال، الذين ساورهم شعور بتجاهل الآخرين واستخفافهم بهم وريبتهم فيهم، أودعوا بغدر اثنين من مبعوثيه السجن، متذرعين باقتراحات ماكرة. لكن براعة مالكولم وسلوكه الوظيفي في إدارة الشؤون الخاصة بالدولة قد أجليا غموض الموقف فأطلق الفرس السجينين، وإن رفضوا قبول أية اتصالات بينهم عدا تلك التي تتم بواسطة حاكم شيراز. في غضون ذلك كان السفير الفرنسي يقطف ثمار جولته الناجحة داخل العاصمة، وفي نهاية تموز عام (١٨٠٨م) لم يستطع مالكولم دفع الفرس إلى عقد أي نوع من العلاقات أو الاتفاقات معهم. وخلال أشهر الصيف هذه كانت الشكوك التي اكتنفت الشؤون الأوربية، بالإضافة إلى يأس الحكومة العثمانية، قد جعلت الحياة شاقة وبغيضة في مدينة لا يكتم فيها العداء

للإنكليز إلا جزئياً. لقد استمد باشا بغداد سلطته على باشويته من الباب العالي الذي كان في موقف تصالحي مع فرنسا، ومن هنا لم تكن علاقة بريطانيا ودية، كما أن السلام بين إنكلترا والدولة العثمانية لم يبدأ التفاوض بشأنه إلا في عام (١٨٠٩م) فقط. ولقد أجرى ريج عدة مناقشات مع الباشا، ويبدو أنه كان على الدوام يؤدي مهمته بنجاح في تلك المناقشات، وهو أمرٌ أكسبه تقديراً متزايداً بين المواطنين الذين عانوا كثيراً من حكامهم الطغاة، وابتهجوا ابتهاجاً غامراً حينما أدركوا أن هناك من يتحدى أولئك الحكام ويزدري بهم.

بدأت حكومة بغداد تهتم بهذا الانكليزي الشاب الذي لا يمكن أن يكون شخصاً مرتشياً أو جباناً، وبعد إحدى المشادات الخطيرة، طلب الباشا، الذي لم يظهر في أفضل حالاته، أن يشرفه ريج بزيارته، وتظاهر بالرقة العالية وحسن المعاشرة وبالرغبة في الإبقاء على أطيب العلاقات بالبريطانيين.

تنامى حب الناس للمقيم ريج لأنه اتخذ مساراً سلوكياً مستقيماً وثابتاً إلى أبعد الحدود، كان يجيد كثيراً من اللغات ويفهم شعائر الطوائف المختلفة في كل مدينة، ولم يظهر خوفاً من أي شيء ولا تحيزاً إلى شيء آخر، واستطاع بالتدريج ترسيخ قاعدة لاحترام كبير تتمتع به فيما بعد، حدث كل ذلك في خضم مكائد ساخنة طغت على سياسات الأتراك

---

(١) وجهة نظر منافية للحقيقة يروج لها المستعمرون لاستعباد الشعوب والسيطرة على شؤونهم.

والفرنسيين والفرس والبريطانيين.

وفي شهر تموز أصاب بغداد ذعر شديد نتيجة للغارة التي شنها الوهابيون المتطرفون، فقد جاء هؤلاء بأعداد غفيرة من قلب الصحراء واستولوا على مدينة الحلة التي اتخذوها مستقراً لهم، وهذه المدينة لا تبعد بأكثر من خمسين ميلاً إلى الغرب من العاصمة.

كان الوهابيون وما يزالون طائفة من المسلمين تتبع عقيدة شخص يدعى محمداً بن عبد الوهاب، أحد الإحيائيين السلفيين الذين يتسمون بالعنف. كان واعظاً يبشر بمبدأ نقاء التعاليم الإسلامية، فشن حرباً شعواء على وسائل الترف وارتكاب الخطأ المتعمد. لقد وصف أتباعه، الذين كانوا ضيقي التفكير، ويقاومون بعنف تقديس الصور والتماثيل أو عبادتها، بالعنف وجمع المؤيدين لإنكارهم بشتى أنواع المغريات وبالميل إلى إنزال العقاب بكل الطوائف التي لا تخضع لوجهات نظرهم. اتخذت الجيوش الوهابية وضعها كمصدر ضوء روحي متحرر، غير أن الآخرين عدّوهم منشقين عن العقيدة الإسلامية، ولصوصاً، وبرهنوا على أنَّهم كانوا قساة لا رحمة في قلوبهم. والباشا، الذي وضع جنوده على أهبة الاستعداد في ميدان القتال، توجه لمقاومتهم، وبعد عدة مناوشات أضطر أولئك الوهابيون إلى التراجع إلى معاقلهم المنعزلة في قلب الصحراء.

وشهد تموز عام (١٨٠٨م) مرة أخرى استمرار مكيدة الفرس التآمرية، وقد كتب اللورد منتو ينصح السير هارفورد جونز للعودة إلى الهند أو

إنكلترا بدلاً من تقديم أي احتجاج آخر إلى الشاه. لقد زود ريج بكثير من هذه المعلومات والد زوجته -السير جيمز ماكنتوش، الذي كان، من خلال مركزه الوظيفي، على اطلاع تام بما يدور في أكثر المنتديات الحكومية خصوصية. أخبر ريج، بوساطة الرسائل، بآخر الأنباء وأسدى له النصح بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ثم استدعى مالكولم كذلك، ولكن إلى جزيرة خَرَج التي تقع على رأس الخليج العربي.

وفي شباط من عام (١٨٠٩م)، ذكر اللورد منتو -حاكم الهند العام- السير هارفورد جونز بأشد الكلمات تأنيباً وقسوة. وقد أبلغه أنه إذا لم يطع ما يؤمر به، فإن جميع نفقاته المستقبلية سوف تسجل على حسابه الخاص وأن رسالة تنصل من المسؤولية سوف ترسل إلى الشاه. ومع ذلك، فإن هذا الأمر لم يغير شيئاً في خطط المبعوث الديبلوماسي، فقد استمر بقاؤه في طهران. وفي آذار صادق السير هارفورد جونز على معاهدة سلام أُبرمت بين بلاد فارس وإنكلترا. وجونز. كما يجب أن يخطر على البال، يمسك بزمام سلطته بأمر من الوزارة في إنكلترا، وكان بإمكانه تحدي اللورد منتو، حتى وإن كان الحاكم العام في الهند، وهو ما استمر القيام به فعلاً، ولا بد من الإشارة إلى أنه على الرغم من مغادرة السفير الفرنسي، فإن تأثير ذلك السفير لم ينطفئ أواره بأي حال من الأحوال، إذ تواصلت رسائل رئيس وزراء الفرس إلى الوكيل الفرنسي الذي لم يزل مقيماً بتبريز. لقد تمَّ التحقق من هذا الأمر من رسالة، أُعترض سبيلها، كان قد أرسلها ريج، الذي يذكر فيها أن جاسوسين

وصلا إلى بغداد يحملان علبتين إلى السير جونز، وكذلك جلبا، لإطلاع ريج، نسخاً من الرسائل التي أرسلها اللورد باثوريست، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية، فضلاً عن معلومات أخرى من لجنة أمانة السر. فقد أعلن باثوريست أن طلب استدعاء السير هارفورد جونز من قبل منتو قد ألغي وأنه قد أمر بالعمل وفقاً للتعليمات الأصلية. كانت خلاصة رسالة لجنة أمانة السر للورد منتو قد حملت في طياتها أشمل ما يمكن أن ينطوي عليه سلوكه من استهجان، إلى جانب قناعة تامة بخصوص سلوك السير هارفورد. ثم أمر بإقرار جميع فواتير السير هارفورد، وأن أيّ دين مسجل على حسابه الخاص يجب أن يرحَّل فوراً إلى حساب الشركة. وقد اختتم كل ذلك بإعلان: «إن السير هارفورد جونز سوف يواصل اتصالاته بك كالسابق، ويصغي باهتمام كبير إلى تعليماتك عندما لا تتقاطع مع تعليماتنا».

ويكتب ريج معلقاً على هذا الأمر إلى السير جيمز:

«لو كنت في مكان اللورد منتو لقدَّمت استقالتي واتخذت قراراً بعدم الاستمرار لحظة واحدة في خدمة أولئك الذين فكروا في أنه سيكون من المناسب توجيه الإهانة لي، فهم يضعون شخصاً تحت أوامري، لكنه لا يذعن لتلك الأوامر، ويستخف بما أتمتع به من سلطة ويهينني. وإزاء هذا كله نراهم يقدمون له الدعم في حين لا أنال لا أيَّ شيء غير الاستهانة. وهذا الأمر في آخر المطاف، يخترق بعنف جوهر النظام.

يبدو أننا، في الحقيقة، نسلك اقصر الطرق لتدمير الهند البريطانية، ثم إن نتيجة سلوك السير هارفورد جونز ستكون وخيمة إلى أبعد الحدود في هذه الأقطار. لا يمكنك تصور من هو أحقر وأجدر بالازدراء من هذا الممثل الديبلوماسي! وإذا لم يتم احتلال خَرْج (الجزيرة الواقعة في الخليج العربي) بسرعة بواسطة حامية بريطانية، فسوف يسخر منا الفرس ويرمون بأنفسهم في أحضان الفرنسيين، وسوف يجد بونابرت أن كل شيء هو في أفضل الاحتمالات التي يسودها التوتر لفرض آرائه على الهند. إن الشؤون العامة تتسارع يومياً إلى هذه النتيجة بسبب حماقتنا وبخلنا الشديدين وترددنا!».

وخلال أشهر الصيف الفظيعة عام (١٨٠٩م) ارتفعت وتائر الاحتكاك، مرة أخرى، بين ريج وسليمان، باشا بغداد، أحد أكثر الناس، الذين يمكن تصورهم، جهلاً وغروراً، فقد تدخل بشكل سافر في كل شيء أمكنه التدخل فيه. إنه رجل اعتسافي، بذيء اللسان وشديد الغطرسة، كثيراً ما هدد بطرد ريج، الذي يواصل رسالته قائلاً:

«لقد اضطررت إلى تقديم طلب لسفيرنا للتدخل في الأمر، وكذلك عمدت إلى تقديم طلب إلى بومبي، وإن كنت اتوقع القليل من تلك الجهة؟؟؟! فشعب الباشا وجيشه، وحتى وزراؤه، مستاؤون منه، في حين أقف في ذروة تقديرهم واحترامهم لي. وحتى تنحية هذا الباشا من منصبه أو كبح جماحه بقوة، فإن بلادنا لا يمكنها توقع أية معاملة طيبة منه.

ومنذ بضعة أيام حضرها هنا من موريشيوس فرنسي متنكر بزي رجل مسلم ثم غادر إلى بلاد فارس. تحققت من أنه لم يكن يحمل أية رسائل رسمية مهمة، وإلا كنت استحوذت عليها بكل تأكيد. ومع ذلك، فقد اكتشفت بأنه أحد الجواسيس. ثم إنَّ هناك مخاطبات بين الباشا والفرنسيين، ومصدرها حلب وفارس، تعزز رأيي في أن الخصومة لم تكن مجرد خصومة شخصية، ومع ذلك، فلا شيء سيوقظ رؤساءنا الذين استسلموا لنوم عميق غير ظهور مائة ألف جندي فرنسي في البنجاب.

وبمساندة قوية لي أجد أن ليس ثمة ما يتعذر عليَّ القيام به في هذه الأقطار، أما دون ذلك، فماذا يمكن توقعه من أحداث؟».

وخلال فصلي الربيع والخريف اعتادت عائلة ريج للإقامة في مخيم كرارة[1] على ضفاف نهر دجلة، فالإقامة هناك بمثابة استراحة قصيرة قبل

---

(١) جاء في كتاب «رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠» - الجزء الأول هامش ص٢٤٦، لمترجمه بهاء الدين نوري، والمطبوع ١٩٥١ ما ياتي:

«كرارة موقع على دجلة، يبعد بضعة أميال عن بغداد، اعتاد ريج وزوجته ان يخيما فيه بعد انتهاء شهور الحر الشديدة - من أول تشرين الأول حتى نهاية كانون الثاني، وخلال هذه المدة كثيراً ما تهب الرياح الشرقية الجنوبية». يلاحظ انه سماها «كرارة».

ولكن جاء في كتاب «من تاريخ الكرادة الشرقية» تاليف شاكر جابر، المطبوع عام ١٩٩٠، ص١٥٠ ما ياتي «نشرت مجلة «لغة العرب» لمؤسسها المرحوم الكرملي، في عام ١٩١٣، مقالة للشماس فرنسيس جبران بعنوان «تطواف في جوار بغداد» عن جولة قام بها عام ١٩١١، ذكر فيها البساتين واشجار النخيل التي رآها ممتدة من منطقة الباب الشرقي حتى منطقة كوارة «قرارة» التي تقابل الزعفرانية حالياً. حاء ذلك في كتاب السيد شاكر جابر ص٥٧. وتجدر الإشارة إلى ان الاسم المتداول الآن هو كرارة.

وعلى هدا يمكنني لقول ان كلمة «كرارة» اقرب للاسم الوارد في النص الإنكليزي (Gherara) منه إلى الكرادة. على ما يتبادر إلى ذهن بعض الباحثين، ولكل مجتهد نصيب.

حلول الطقس الحار وبعده. لقد استمتعا بهذه الأسابيع خارج بغداد، لأنها أحدثت تغييراً في الهواء والحياة لتلك المدينة، وبما لهما من علاقة بحياة ماري خاصة، لأنها لم تكن مضطرة إلى تلك العزلة أو الالتزام بقواعد التشريفات الصارمة التي فرضت عليها. وعادة الإقامة في مخيم كرارة استمرت طوال السنوات التي أمضتها العائلة في بغداد. كان الموقع على مسافة نحو خمسة فراسخ من بغداد، في بستان ظليلة بالنخيل، إلى جوار قرية صغيرة. وفي هذه السنة: في تشرين الأول الذي كانا فيه في المخيم، كما جرت العادة، تصاعد الاحتكاك بين ريج والباشا ليصبح انفجاراً ينذر بقطع العلاقات.

وحينما كان ريج يعد العدة للرجوع إلى المقيمية، رفض الباشا دخوله إلى بغداد. وريج، كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن، قد استشاط غضباً لهذا الاجراء، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يحدث أي شيء الآن دون تدخل اسطنبول في هذا الأمر. وفي نهاية تشرين الأول، وصل إلى بغداد تتري يحمل فرماناً من الباب العالي يتضمن تأنيباً شديداً للباشا، الذي سخر من فحوى الفرمان وأخبر أن ريج إذا لم يعمل على وفق رغباته (أي الباشا) قي كل شيء، فهو ربما سيؤمر بمغادرة حدود الولاية فوراً. ولم يساعد هذا إلى سد الثغرة بين الاثنين. أما السيد أدير - السفير البريطاني الجديد في القسطنطينية - فقد كتب رسالة، مع ذلك، فيها كثير من الود إلى كلوديوس مشيراً فيها إلى أنه إذا لم يكن للفرمان أي تأثير، فلا مناص من إخبار الباشا بأنه سوف يتقدم بطلب إلى

سلطة أعلى لعزل الباشا . كانت لغة الرسالة قوية، فأضفت على ريج شعوراً بمساندة حقيقية .

ومع ذلك، فقد ازداد صلف الباشا وغطرسته، وأصدر أمراً بوجوب أن يتلقى خدم ريج ألف ضربة بالعصا على أخامص أقدامهم ما لم يتركوا العمل عند المقيم . ومن العدل القول أن الجميع،عدا اثنين أو ثلاثة منهم، بقوا على إخلاصهم له، في ظل الحماية التي وفرها لهم حرس المقيمية، وبذلك تحاشوا، لغبطتهم، تنفيذ العقوبة التي فرضها الباشا .

وبهذا الصدد يكتب ريج :

« يحاول الباشا أن يجعل من هذا الشجار قضية وطنية بدلاً من جعلها قضية خاصة، وهو شيء له مردود مفيد جداً لنا. وفضلاً عن ذلك، فقد حاول التدخل في ما يحمله التتري من رسائل إلى القسطنطينية . أنه على علاقة بالفرنسيين، وما محاولته للتسامح معنا إلا وسيلة لكسب الفوائد التي يجنيها من التجارة الأنجلو- هندية ليس غير . هذا وإن شيئاً لن ينتهي بيننا وبين الأتراك ما لم يكونوا قد تعلموا كيف يحترمون سلطتنا . وعلى هذا فقد أصبحت مقيمية بغداد مركزاً أثيراً عندي إلى أبعد الحدود وذلك نتيجة للصعوبات التي تكتنفها . »

وها إنني أورد إشارة وضاءة إلى شخصية ريج فأقول إن الأسابيع الأولى من عام (١٨١٠م) سجلت انتصاراً حقيقياً له، فهو يكتب إلى السير جيمز قائلاً :

« لقد أذل الباشا نفسه إذلالا تاماً وتخلى عن كل المبادئ التي حاور

فيها وكافح من أجلها، فقدم لي عن طواعية امتيازات تفوق ما كان يمكن أن تقدّم إلى أي مقيم في باشويات بغداد. فقد ألزم نفسه من خلال ما كتبه شخصياً، ووافق أن يعترف علناً بلقبي مقيماً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وهذا ما لم يستطع أي مقيم في جميع أرجاء الإمبراطورية التركية تحقيقه، حتى ولا المقيم في مصر.

ومن المعروف أن الباب العالي لا يعترف بهذا اللقب، ولهذا فهو كثيراً ما يوبخ المقيمين أو القناصل فقد وجه مثل هذا التوبيخ إلى سلفي بالإضافة إلى السيد مانستي والمقيم في مصر، وهما المقيمان الوحيدان في تركيا. لقد اعترف الباشا بي الآن «مقيماً» مستخدماً العبارة الخاصة بذلك في ما يكتب بمعزل عن براءات حمل الأوسمة وفرامين الباب العالي، معتبراً أن تعييني من قبل الحكومة البريطانية بمثابة سلطة كافية تفي بالغرض. هذا، وقد علق الباشا أهمية كبيرة على البنود التي نحن بصددها، إذ سبق أن أعلن بصراحة أنه لن يوافق عليها، وإن كان على ثقة بأنه سوف يفقد ميزته الخاصة إذا لم يوافق عليها. وفجأة غيّر لهجته فاغدق عليّ أكثر مما كنت أتوق اليه. وعلى هذا، فقد اتخذت قراراً باستخدام ما حققت من نجاح بشيء من الاعتدال وأقنعت نفسي بكفالة حقوقنا وامتيازاتنا بأكثر الأسس ضماناً وقوة.

أما المواطنون، من جهتهم، فيعلنون أن انتصاري كان كاملاً، وبأنني أظهرت نفسي مسلحاً بسلطة تفوق سلطة الباشا، إن أكثر ما يدخل السرور في قلبي تماماً هو أن ذلك قد تم نتيجة لما بذلته من جهود

شخصية.

وهكذا، فقد عاد ريج إلى بغداد بعد هذا النجاح التام يحرسه في الحقيقة،حرس الباشا الخاص الذي يتألف من ثلاثمائة جندي جورجي، وأقام احتفالاً جماهيرياً عاماً. تألق نجم ريج في صعوده المطّرد، ولم يعد ينظر إليه عضواً ثانوياً في شركة الهند الشرقية الموقرة، بل رجلاً ذا سلطة ومركز مرموقين وشخصاً يحسب له حساب خاص.

لدى عودته، وبعد شعور بالاطمئنان في مكتبه الرسمي، استقر آمنا على نحو يتطابق مع فكرته الخاصة لما هو ضروري بالنسبة إلى مركز المقيم الوظيفي. وكما ذكر سلفاً، كان ثمة حرس يتألف من ثلاثين جندياً سباهياً يعملون تحت إمرة صبهدار (ضابط صف هندي) ينتمي أفراد هذا الحرس إلى فوج هندي منظم، يعسكر في بومبي أو قريب منها عادة، وتدفع لهم الشركة الرواتب، ويرسلون إلى بغداد على حسابها. لقد حشد ريج نفسه مجموعة صغيرة من سلاح الفرسان، وكلهم من الأوربيين، فشكل هؤلاء الفرسان فصيلاً من خمسة عشر رجلاً وضابط صف واحد، قوامهم من الروس والسلافيين وأحد الانكليز. والحقيقة، هي أن كل إنسان يمكنه التباهي بسريان بعض الدم في عروقه والاطلاع على مقتضيات الشؤون العسكرية، إذ ليس من المتعذر وجود أمثال هؤلاء في بغداد، في تلك الأيام.التي كانت فيها أوربا تشهد دوامة حرب مضطربة لدرجة أصبح الجميع فيها جنوداً بصورة طبيعية. بدايةً كان هؤلاء رجالاً جابوا الأمصار حينما تشتّتت جيوشهم أو أفواجهم بحثاً

عن مغامرات جديدة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد الحق بهذا الحرس طبيب بيطري، إذ أمر ريج بتدريب هذا الطبيب على الطريقة التي يغطي بها أرجل الخيل بالحدوات على وفق الأسلوب الإنكليزي، بكونه أسلوبا أكثر رحمة وراحة من الاسلوب التركي. كذلك تم تهيئة قهرمان سلافي من القسطنطينية له القدرة على التحدث باللغتين- الإيطالية والتركية. تكفّل هذا القهرمان بالإشراف على خدمات الموائد وفقاً للطريقة الأوربية، وبذلك أراح ماري التي تعذر عليها قبل ذلك تمرير أفكارها، بخصوص متطلبات المطبخ، إلى الطاهي، فضلاً عن توجيه الخدم وإدارة شؤونهم. وهكذا، فقد أخذ بيترو على عاتقه القيام بدور المشرف على شؤون البيت، وبقي مع ريج حتى وفاته.

وكان كلوديوس ريج سيروقه كثيراً لو أن زوجته احتفظت بعدد من الوصائف، كما جرت العادة عند سيدات الطبقة العليا اللواتي كن يحتفظن بما لا يقل عن عشرين واحدة منهن، لكن ماري كانت متشددة فيما يخص هذا الموضوع، إذ رفضت ذلك واحتفظت عن قناعة، بخادمة أرمنية واحدة. ومع ذلك، فقد كان هناك عدد كبير من الخدم الآخرين. ولم يكن ليستمر بقاء الأسرة دون إنفاق مقدار معين من المال، كما لم تكن لأي من ريج أو ماري، على ما يمكن التأكد منه، مصادر مالية خاصة، فضلاً عن أن مسألة المال والعلاوات والراتب كانت مصدراً لنقاش طويل بين ريج والشركة.

وهاهو ريج يكتب:

« إن ما يغيظني حقاً هو أن صديقيّ– السيدين باري وغرانت بالذات لم يحسما مسألة راتبي الإضافي في مركزي الوظيفي الجديد، بدلاً من ترك الأمر للسيد دنكان. إن ما أريد الحصول عليه هو مخصصات إضافية سخية لنفقاتي العامة وفقاً للاطلاع على ما يقتضيه أسلوب العيش في تركيا، وإن تثبيت تلك المخصصات المالية تحتمه الضرورة لمواكبة ذلك الاسلوب. ان جميع مخصصاتي الإضافية الحالية في بغداد لا تكفي تقريباً إلاّ لحاجات الأسرة والمساعدين دون النّظر للمواد التي لا بد من شرائها، وأنه حتى باتباع أضيق الحدود الاقتصادية، فليس ثمة فائدة تذكر من تواصل تعييني في الوظيفة حتى سنتي الثانية. »

كان الشرق، حتى العقد الثالث أو الرابع من القرن التاسع عشر، ينظر إليه بكونه « أرض توم تيدلر »[1] –مكاناً يلتقط فيه المغامرون الذهب والفضة. كانت التجارة رائجة، وحتى الموظفون الكبار في الشركة لم يعدّوا المعاملات التجارية قضية تحط من أقدارهم، تلك المعاملات التي تفسح المجال لتكديس الثروة لإنفاقها على ما يريحهم عند إحالتهم على التقاعد.

إن كثيراً من رسائل السيد جيمز إلى صهره (ريج) يتسم بالكآبة والحزن، بخاصة حينما اكتشف أن طقس مدينة بومبي لم يلائم صحته

(١) تعني هذه العبارة لعبة يمارسها الأطفال، إذ يتصدى الطفل الموجود في دائرة لإمساك أو دفع كل من يحاول دخول تلك الأرض الخاصة المحروسة، التي يفترض أنها مليئة بالذهب.

ولم يستطع بسرعة جمع مال كثير يكفيه عند التقاعد إذا رغب في ذلك!

ومن الممكن، على هذا الأساس، فهم عبارة كلوديوس فهماً جيداً إلى حد ما:

«إذا أمكنني الحصول على مخصصات إضافية تربو على (ثلاثة آلاف روبية) شهرياً تنفق على الحاجات الضرورية الخاصة بشؤون المقيمية، وراتب (الف وخمسمائة أو حتى ألف روبية)، فإنني سأكون مقتنعاً بذلك. سوف تهيئ لي تلك المخصصات عيشاً كريماً، كما ينبغي لأي ممثل دبلوماسي عام أن يحياه، في حين يمكنني الاحتفاظ براتبي دون احتمال التطفل عليه، وبدل أن يتراكم في أيدي الوكلاء! إنني، لكي أحتفظ بحق العاملين معي، أجد أن من غير المحتمل أن يكون بوسعي التهيؤ لذلك بأقل من (ألفين وخمسمائة روبية). ولابد من الإشارة إلى أن مخصصات الشركة لا تفي بالغرض، إذ أن خطتي تقتضي أن يكون مبلغ (ثلاثة آلاف روبية) للمخصصات و(ألف وخمسمائة روبية) للراتب. سيتضمن ذلك كل سبل الإنفاق عدا نقل الرسائل ومتطلبات البريد، وجميع الهدايا التي تقدم شهرياً إلى ما يعادل (خمسمائة روبية) سوف يمكن تغطيتها كذلك. إن مبلغاً أقل من ذلك سيجعلني أخسر الموقف، إذا لم يسمح لي بممارسة الأعمال التجارية.»

والسيد مانستي، على ما يبدو، كان قد سمح لي بممارسة الأعمال التجارية، والسير هـ.جونز، حينما كان مقيماً، مارسَ، هو الآخر، تلك

الأعمال التجارية أثناء وجوده قي بغداد.

وفي هذا المجال نجد أن ماري كانت تدعم موقف زوجها، فهي تكتب إلى أختها ميتلاند قائلة:

« يشيع زوجي المخلص جواً من البهجة في كُلّ أرجاء بغداد إكراماً لصاحب الجلالة. وأنا أعتقد بلا ريب، أن عيد ميلاد جورج في حزيران لن يكون مرغوباً فيه في أي مكان آخر أكثر مما قد يكون مرغوباً فيه أو مثاراً للمتعة في هذه المدينة. يتناهى إلى سمعي ضجيج يثيره المشعبذون والراقصون والمصارعون والمغنون بكل ما يعرضونه من فقرات مسلية. ونحن، إذا كانت تحدونا الرغبة في دفعهم مرة ليكونوا من رعايانا، أجدني مسؤولة عما أشير إليه من أن المقيم أعدهم لحب الملك! وما دمنا نكفل لهم حقهم بالاحتفال وتناول الطعام في كل مناسبات الاحتفاء بعيد ميلاد الملك، فإنهم سوف يصبحون بعض أفضل رعايا التاج الملكي[1]. هذا، وقد بات من المقرر تهيئة أضواء الزينة والألعاب النارية مساء مع حفلة عشاء يقيمها المسيحيون تحت إشرافي، وإن كنت أعتقد أنه ستكون ثمة نحو ثلاث حفلات عشاء يقوم بها الأتراك والفرس والعرب، الذين لن يتاح لهم مقابلتي شخصياً بالطبع.

وسأوافيك فيما يأتي بقائمة الأشخاص المتأنقين الرئيسين الذين سيحتشدون تحت رعايتي:

---

(١) من هذه الإشارة وغيرها يستشف المرء أن ثمة محاولة جادة خلال السنوات (١٨٠٨-١٨٠٩م) لاحتلال العراق وضمه إلى التاج البريطاني.

-السيدان موكيل وميناس- مترجما المقيمية.

-الأبوان الموقران- فينسنزو وكاميلو- الرئيسان الأقدسان للكنيسة الكاثوليكية.

-الموقر كافالبير دي لاغامبا، المعروف بـ«هوبي كيركي» والشهير بـ«دون تروفاني»، المشرف على الكنيسة الكاثوليكية في أصفهان.

-السنيور أباتيه دون سيرافينو، مايسترو كابيلو في المقيمية.

-المسيو أنتونيو سادير- الرجل الحلبي الشهم (الموكل بتوزيع الأخبار الإعلامية المهمة التي تعلن على الدوام قبل شاقامة المهرجانات الكبيرة، ويهيئ الباب للخروج!)

-السيد فارتانس ورتابيت- قس أمريكي مرح اعتاد ضرب النساء بعصاه- فهو يحافظ على انتظام النساء مستخدماً عصا يحملها بيده خلال قداس الكنيسة.

-السيد أوانيس ديار بكلي - تاجر أرمني كاثوليكي.

-السيد كاغنيس - تاجر أرمني.

-السيد أوانيس - السكرتير الثاني للمقيم.

(ومن نافلة القول ذكر اسم السيد هاينة، ولكن بما أنه يفترض أنه كان يعيش في الدار، فمن المسلم به أن يكون حاضراً).

وتواصل ماري حديثها:

وبعد الانتهاء من تناول العشاء، والطلب من الحضور الغناء، ونظراً إلى أن الجمع يتألف من القسس بصورة رئيسة، فإننا نلتمس من أحدهم

تقديم الترنيمة الخاصة بتسبيحة الشكر ومن الآخر الترنيمة الخاصة بتسبيحة مريم العذراء. ولا يخفى أنه سيكون ثمة بعض الأشخاص الواقفين في أثناء تناول العشاء، يتناولون، في نصف انحناءة فوق مائدة الطعام، حصتهم من الأطباق الشهية التي يحتمل أن تستقبل عدداً كبيراً من أكمامهم الطويلة القذرة. وهناك آخرون أكثر لياقة، فهم، بدلاً من تقديم خدماتهم للمجاورين لهم بأصابعهم، نراهم يلحسون الملعقة التي يتناولون الطعام بها ثم يغطسونها في الاناء الذي يوشكون على تقديمه خدمة لأولئك التعساء المجاورين لهم! ومرة أخرى، سوف يشعر بعضهم بالإرهاق نتيجة لقعودهم الطويل وقد تدلت سيقانهم من كراسيهم، ولذا، فسوف يطوونها تحت أجسادهم لبعث الراحة فيها ثانية! أما النساء الأرمنيات فهن لا يتناولن طعام العشاء خارج منازلهن عادة، وعلى هذا، لن يكون معي رفيقات من النسوة لمساعدتي ».

يمكن ملاحظة أنه من خلال هذه الإيضاحات، يبدو ان حياة عائلة ريج لم تسيَّر وفقاً لخطوط مقتصدة في إنفاقها. فقد أصر كلوديوس على ارتداء أجمل وأفضل ما لديه من ملابس، وأن ماري لابد أن تحذو حذوه. وهذا الشيء، بالطبع، كان مبعث نشوة لذوقها الأنثوي، في وقت كانت فيه خزانة ملابسها، حتى موعد زواجها، لا تتعدى خزانة ملابس عادية لا تفي بالغرض تماماً. وها هي تبدي توصياتها الدقيقة الآتية، وتطلب من أختها – ميتلاند– إرسال تلك الطلبات إلى « هول » ومن هناك إلى أفضل ترزي في بومبي له علم بقياسات ملابس العائلة:

– (١٢) سروالاً من الكتان الإيرلندي، عالياً في منطقة الخصر وفضفاضاً في الساقين.

– (٢٤) بنطلوناً من قماش قطني متين، لكل واحد أربطة في الكاحلين مع ارتفاع كبير في منطقة الخصر.

– (٦) سراويل ملونة، وبالمواصفات المذكورة أعلاه.

– (٦) صدرات بيض.

– (٢٤) زوجاً من الجوارب الطويلة نصف القطنية.

– (١٢) قميصاً من نسيج قطني رقيق، ليس من ذلك الذي يرتديه الطفل الرضيع.

ومن المعروف أن ريج لا يمكنه ارتداء القمصان الخشنة، ولذا فإن سراويله لابد أن تكون من الكتان الإيرلندي الخالص. وإذا حدث أن أرسل الترزي، خطأً، سراويل ذات نوعية عادية جداً، فإنها سترفض على الفور وترمى إلى الحارس من جنود الفرسان.

يبدو، مما تقدم، أن خزانة ملابس ماري كبيرة للغاية، فهي تقترح: «صندوقان في كل عام، إذا كانا كبيرين، سيفيان بالغرض. وأرسلوا لي باستمرار بعض القمصان البنية لركوب الخيل مع أشرطة وقفازات ومناديل حريرية. كما أرجو أن تواصلوا إرسال مجموعة من الدبابيس والمقصات وبكرات الخيوط والإبر والمخرمات الخاصة بالعنق »ثماني عشرة منها يكفي في كل عام، وكذلك أي قبعة يمكن أن تناسبني، فأنا مولعة

بقبعات الغجر».

وبعد سنة ازدادت طلباتها:

« (٢٤) ثوباً نسوياً تحتانياً مع تنورات وقمصان نوم وقبعات وثياب للصباح، و(٢٤) قميصاً قطنياً ناعماً بالإضافة إلى فرش أرضي يلائم الجلوس بثياب المساء أو فرش من الكتان القطني الرقيق مصمم لهذه الغاية، مع عدد من المناديل القطنية لراحة اليد، مع (١٢) زوجاً من أكمام عادية لغطاء الذراع من نسيج قطني، و(١٢) قفازاً قصيراً وبعض فرشات الأظافر.

تسلمت تواً (٢٠) زوجاً من الأحذية من كلكتا، ولكن أرجوكم أن تبعثوا لي (١٢) زوجاً آخر مصنوعاً في إنكلترا من جلد الجدي. وأحب أن ألفت انتباهكم إلى أن ألواني المفضلة هي الأسود والأرجواني والزيتوني والذهبي. وكذلك ارسلوا لي بضعة قفازات من الحرير الخالص للاستعمال الاعتيادي، لركوب الخيل والمشي، مع أنني أستعمل القفازات الجلدية في أوقات أخرى. ». وتقترح رسالة أخرى إرسال مظلتين من المشمع الواقي من المطر من المتجر الصيني وأربع أو خمس كورسيهات، تحتوي على عاج من الأمام وأربطة من الخلف، بالإضافة إلى ثياب الصباح، العالية من جهة الرقبة، من الموصلين أو النسيج الرقيق، مع ثوبين ملونين. ».

وإلى جانب التوصيات التي أرسلت إلى بومبي، اعتادت ماري تسلم علب من الملابس الجديدة والقبعات، مع نشريات تتضمن الأشرطة

والأربطة والمخرمات والقفازاتة. . .الخ من عمتها، الآنسة اليزابيث ستيورات، وعمها دانييل ستيورات، الذي أصبح فيما بعد صاحب جريدة « مورننغ بوست » واعتاد إرسال شحنات من الكتب إلى كلوديوس في نفس العلبة.

وبالطبع، ثمة طلبات لا حدود لها تتعلق بالمواد المنزلية والكتب ووسائل التسلية التي كان يطلب من ميتلاند أن تجهد في الحصول عليها:

« أرجو إرسال رقعة شطرنج مع بيادقها ومزمار جديد إلى كلوديوس. هل يمكنك الحصول لنا على جهاز استنساخ من نوع ويجوود، إذا كان مثل هذا الجهاز موجوداً في بومبي؟ وإلاّ فاكتبي إلى البنغال للحصول عليه. » أما الكتب، فان ذوقيهما فيما كانا يتسمان بالشمول، إذ ان بعضها كان للقراءة الجادة والمرجعية وبعضها مجرد روايات شائعة في ذلك الوقت. فمن بين القسم الأول كان كتاب رينيل »جغرافية هيرودوتس »، وكتاب دانفيل « الجغرافية القديمة »، وكتاب وارتون »المذكرات التاريخية لشعراء إيرلندا الملحميين »، وأية كتب تعالج القضايا العسكرية والفلسفية والتاريخية والأثرية التي يستطيع السير جيمز أو أرسكين الحصول عليها. ومن أجل القراءة الخفيفة كانا يقرآن بنهم بعض روايات سكوت التي ظهرت حينذاك بالإضافة إلى قصائده الشعرية. إن روايات من أمثال « هنري كمبرلاند » و« قصر صاحب المزرعة » و« جولات ورويك »، أصبحت الآن طي النسيان، كما نسي أغلب الأغاني والألحان

الصوتية أو المصاحبة لآلة الفلوت التي كانت ماري ترافقها على البيانو الذي حصلت عليه من كلكتا بكثير من العناء والإنفاق. كانت الأغاني المذكورة أغاني إنكليزية وإسكتلندية قديمة: «السيدة الجميلة» و «نانسي» و« ألَنْ تذهبي معي؟» و« البوق يعزف ألحان النصر» و« الحب والمجد» و« تفجع الملكة ماري» و« لوشابر» . . . .الخ.

ومن الواضح أن تلك الألحان الغريبة والأوبرات لم تكن قد وجدت طريقها إلى بغداد حتى ذلك الوقت، وإن قام ريج بقسط وافر من تبادل الرسائل مع الناشرين الأجانب في كل من باريس وفيينا. وكما يلاحظ المرء، فإن التوصيات الخاصة بالشراء أو تنفيذ ذلك الشراء كانت على نطاق واسع وإن لم تحقق النجاح كاملاً، فالمسكينة ميتلاند كثيراً ما كانت توبّخ لسوء ذوقها أو لرداءة المواد التي تختارها. فهي، مثل بقية أخواتها لم تتح لها فرصة الحصول على الأشياء الجميلة، ولم يكن بإمكانها دائماً المقارنة بين ما هو جيد فعلاً وما هو مزوق خال من الذوق. كانت تشتري ما تظنه مناسباً، وهو ما يرقى إلى مستوى أفكار كلوديوس وماري عادة.

أصاب أحد الصناديق، الذي وصل في نهاية شهر كانون الأول عام (١٨١٠م)، الزوجين بخيبة أمل كبيرة، لأن ماري عدّتْ أكثر تلك المواد رديئة الصنع والأشرطة مبتذلة فظة!

وعلى هذا، فإن رسالتها تنتهي بالقول:

« أدرك ما تفكرين فيه، وهو أن الفرصة لا يمكن أن تتاح لارتداء

الملابس الخاصة بتناول العشاء في حالة خلو المكان من الناس، ولكن لابد من إخبارك أن هذه هي الطريقة التي تعاملين بها زوجك بزهو وخيلاء، ورأيي هو، بما أن أحداً لا يشاركك العشاء، فان ثوبك الصباحي القذر سوف يفي بالغرض. وأنا، إذا لم أنزل في كامل هندامي كما كنت أفعل ذلك في بومبي، في حفلة تضم خمسة عشر أو عشرين شخصاً، فإن السيد ريج يستشيط غضباً!».

وفي نهاية عام (١٨٠٩م) أعلن نبأ وفاة والد ريج - الكولونيل جيمز كوكبيرن - في مدينة ستابلتن القريبة من بريستول في السابع والعشرين من حزيران عام (١٨٠٩م). كان طاعناً في السن، يبلغ السادسة والثمانين من عمره، ولم يكلف موته أية صعوبات مالية لابنه - ريج - كما أعلنت عن ذلك مسبقاً، فقد ترك جميع ممتلكاته لخادمه الخاص.

كان ذلك آخر حلقة تربط ريج بعائلته شخصياً، على قدر ما أمكن التحقق منه، ولم يعثر على مزيد من المراسلات معهم. والسير جيمز ماكنتوش، في رسالة لابنته ماري، بعد ستة شهور يقول:

« تسلمت باهتمام ما أشرت إليه من توضيح عن والد ريج وعائلته، فقد سمعت جزءاً منه فيما سبق، ولو أنه يحدث عموماً، أن كثيراً من تلك الإيضاحات مشوه. إن الود الذي أظهرته تجاه ريج واختياري له صهراً، اعتمد كلياً على مؤهلاته الشخصية التي ما كان لها أن تتأثر، ولو قليلاً، بظروف ولادته أو حالته المادية أو حتى انحداره الطبقي، فهي أمور لا أعزو اليها في حقيقة الأمر إلا قيمة ثانوية. إنني أحتفظ له بحب وتقدير

عاليين على وفق ما هو عليه وليس لما كان عليه أبواه. ومع ذلك، فإنني أشعر باهتمام بالغ بخصوص عدم تعاطفه شعورياً نحو أبيه، الذي كان تعيساً على نحو غريب، والذي حينما كان ابنه يتصرف تصرفاً ينسجم وطبيعته الخاصة، مع عدم اكتراثي فيما إذا كان ذلك عادلاً أم لا، فقد ظن ذلك الأب أنه قد عرِّض إلى إساءة قاسية.».

وفي رسالة أخرى ثمة إشارة إلى عائلة ريج، فقد وبخ السير جيمز كلوديوس لتفكيره في التخلي عن وظيفته للانخراط في الجندية وذلك دون أن يكمن وراء ذلك التفكير أي تأثير معين، وبهذا الصدد يجيب كلوديوس قائلاً:

«لي أخ، والسر بيننا، هو السير وليام كوكبيرن، الذي كان في أوائل الأربعين من عمره جنرالاً في الجيش، دون أن يكون له اهتمام يذكر بالحياة البرلمانية اكثر من اهتمامي بذلك، وبمصادر مالية أكثر مني قليلاً.».

وعلى الرغم من أن الرسائل القادمة من حكومة بومبي، التي كانت على الدوام، بالنسبة إلى ريج، أقسى أنواع الرسائل، وهو، وإن بدا أنه لم يتسلم أيَّ راتب حتى الآن، فقد عين مقيماً في عموم باشوية بغداد عام (١٨١٠م)، بضمنها مدينة البصرة، في حين طلبت من خصمه العتيد – السيد مانيستي – أن يتقاعد عن العمل بعد خدمة امتدت خمساً وعشرين سنة، فقد عبّر أولئك المديرون عن استيائهم الشديد من بقائه الطويل في عمله!

ومانيستي الذي غادر بغداد مع زوجته وعائلته، الكبيرة، سافر عبر اسطنبول إلى إنكلترا، بعد أن عاش طويلاً في ربوع الشرق، وارتحل بصفته حاكماً شرقياً. أما ريج، فقد قدَّر أن تكاليف رحلة مانيستي إلى العاصمة التركية ستكون حوالي أربعين ألفاً إلى خمسين ألف روبية. وهذا الرجل البائس، بعد أن أمضى سنوات قليلة في إنكلترا مبدداً لثروته ومنغمساً في ملذاته، أقدم على الانتحار مخلفاً وراءه أرملة أرمنية تعيسة وعدة أطفال تقطعت بهم السبل في إنكلترا. وحدث أن كان هناك رجل أحبه ريج كثيراً يدعى كولكوهون، وقد منح هذا الرجل وظيفة مساعد مقيم في مدينة البصرة، أما السيد هاينة فقد استقر به المقام في بغداد، وقد حدث بينهما (هو وكلوديوس) بعض الاحتكاكات والعقبات الصغيرة، خصوصاً أن السيد هاينة كان إلى حد ما صديقاً مقرباً لكل من السيد مانيستي والسير هارفورد جونز، ولذا كان ريج كثيراً ما يتوقع أن خططاً تحاك من وراء ظهره بين هؤلاء الثلاثة.

فها هو يكتب:

«يتمتع السيد هاينة بطبيعة متكتمة، ولذا يتعذر سبر أفكاره الحقيقية. فقد كانت له اتصالات سرية بالسير هارفورد جونز خلال الفترة التي اشتد فيها نزاعي مع الباشا، وتوالى سفر الرسل بينهما باستمرار، كما كان كثير التملق لإشباع رغباته دون علمي، غير أن ما هو مؤكد هو أن الباشا لجأ إلى السيد «أدير» من أجل إلغاء تعييني ووضع السيد هاينة بدلاً مني. ليس ثمة ما يوجب الاستنكار بحد ذاته

فيما يخص المراسلة ما بين السيد هاينة والسير هارفورد جونز، ولكن لم كل هذه السرية والتكتم؟

أعتقد أن دمج منصبي الجراح ومساعد المقيم في شخص واحد غير مرغوب فيه إلى حد بعيد.

وحتى عام (١٨١١م) كانت الأمور معنية، بصورة رئيسة، بتجنب المكائد المحلية مع تأكيد حقوق بريطانيا. لقد اكتسب ريج كثيراً من الاحترام والثقة بين الأتراك والعرب، وانتشرت مظاهر العجب والدهشة بخصوص استقامته وعدالته (وهما عاملان نادران قي هذه الولايات) حتى بلغت العاصمة نفسها. كانت شخصيته مصدر قوة، قي حين كان مثار إعجاب المسيحيين والمسلمين وفاق حبه ما كان يتمتع به القنصل الفرنسي من حب، ونظر إليه، في حقيقة الأمر، باحترام وتقدير عاليين أكثر من أي إفرنجي آخر في باشوية بغداد.

حدث في عام (١٨١٠م) اضطراب داخلي، فقد وصل إلى بغداد «الريس أفندي»-وزير الخارجية والمستشار الذي سبق أن شغل منصب السفير في باريس- لمقابلة الباشا بصورة رئيسة ولجمع الأموال.

كانت تلك الاضطرابات الداخلية في جميع أرجاء الحكومة العثمانية ذات صلة خاصة بالمال الذي كان لا بد من جمعه بوساطة قرض الضرائب الجائرة. وكذلك تشاور (الريس أفندي) طويلاً مع ريج، الذي وجد في شخص ذلك الموظف الكبير رجلاً دمث الأخلاق، مثقفاً. لم ينل مبعوث الباب العالي ما كان يهم السلطان الحصول عليه، فانكفأ عائداً إلى

الموصل وهيأ الفرامين الخاصة بخلع الباشا، ثم دعا جميع الباشوات المجاورين والقبائل للزحف على بغداد. وعلى هذا، فقد ابتهج الكرد، بصورة خاصة، لحصولهم على سبب قديم لقتال خصم قديم ، فبدؤوا بالسلب والنهب وتدمير المقاطعات النائية. أما ريج، فقد أرسل على الفور مندوباً منه إلى الوزير يرجوه أن يكف عن القيام بأي عمل، إذ إن الباشا كان غبياً، وإن لم يكن طاغية، وعلى هذا، فقد ساد سلام نسبي تحت ظل حكومته. والقبائل المعادية، التي كانت تقاتل على أبواب بغداد، وحتى أنها اقتحمتها وشرعت في نهبها، لم تستطع المرور دون اعتراض. أما الباشا، من جهته، فقد أظهر في هذا الوقت وداً صادقاً تجاه ريج واعتمد كثيراً على ما يقدمه من عون. وفي خضم هذه الأزمة ظهر الجنرال مالكولم وأركان حربه في بغداد، أو بالاحرى في كرارة حيث أقامت عائلة ريج مخيمها. قدموا من فارس بعد أن نجح مالكولم في تهدئة روع الشاه وتحقيق تفاهم رسمي مع السير هارفورد جونز، الذي تريث بضعة شهور. كان مالكولم شخصاً أثيراً لدى الفرس على الدوام، وفي هذه المهمة الدبلوماسية الطويلة نجح في رفع درجة تأثير إنكلترا وإعادته إلى الحياة ثانية، مخلفاً وراءه في طهران ضابطين بريطانيين كان عليهما محاولة إعادة بناء الجيش الفارسي وفقاً للنموذج الخاص بالقوات البريطانية.

ابتهجت عائلة ريج كثيراً بوجود الجنرال مالكولم بين ظهرانيهم،

(١) وجهة نظر استعمارية قديمة لتفريق أبناء البلد الواحد... ولا يفلح الساحر حيث أتى.

فكتب رسالة إلى زوجته قائلاً:

«إن كرم ضيافة ريج لا يرضيه شيء أقل من المشاركة في العيش معه في بغداد، ولابد أن استضافة اثني عشر رجلاً جائعاً تعني امتحاناً عسيراً!»

أعاقت الاضطرابات السائدة في باشوية بغداد تحركات الجنرال، لأن السفر كان محفوفاً بالمخاطر في تلك البلاد. ففي أحد الأيام سُمع صوت إطلاق نار متواصل في المدينة التي سادها اضطراب وهيجان عظيمان، وتحولت مشاعر الناس ضد الباشا الذي عبأ القلعة بحشد كبير من العرب، ولذا فقد اندفع الأهالي لاحتلالها فضلاً عن تطويق قصره. وعند ذاك تصرف الباشا بلباقة كبيرة، إذ قام بهجوم مباغت من قصره في القلعة على رأس مجموعة من جنوده الجورجيين.

فهو، بعد أن جمع شتات جنوده، زحف خارج بغداد لمواجهة قوات «الريس أفندي» - وزير الخارجية -. ومع ذلك، فهو لم يكن قوياً بما يكفي، إذ قتل عدد كبير من أتباعه وتخلى عنه الباقي، مما اضطر، والحال هذه، إلى الهرب طلباً للنجاة.

كان الجنرال مالكولم مطمئناً جداً لمكوثه في مأواه بمخيم المقيم في كرارة. ولم يساور تلك المجموعة خوف من الهجوم عليها من أي جانب، وها هو يعاود الكتابة قائلاً:

«نقضي الوقت في غمرة بهجة طاغية هنا حيث نمارس سباقات الجري على الخيول، ونلعب الشطرنج بعد تناول الفطور ونسبح في

دجلة مساءً ونلعب البولينغ.».

لم تكن السباقات على ظهور الخيل مجرد رياضة بحد ذاتها، فقد تناهى إلى سمعنا في أحد الأيام أن جماعة من الناس ألقت القبض على أحد أكابر الناس في المقيمية وسلبت منه مبلغ (٥٠٠ قرش) من العملة السائدة حينذاك. وللتو عرض مالكولم مشاركته لتعقب تلك الجماعة على سبيل الحماية، فالتحق، هو وضباطه، بالمقيم ريج وحاشيته متعقبين أولئك الناس. وبعد مطاردة سريعة مرهقة على الخيول مسافة عشرة أميال تقريباً، استطاعوا القبض على أربعة لصوص وأعادوا النقود، تاركين السرّاق مذعورين للسرعة والقدرة اللتين أبداهما البريطانيون في تعقبهم. وفي أمسية أخرى، في غمرة انشغالهم بلعب الورق، تعالت ضجة أشاعت الاضطراب في المخيم، فقد بدأ قرع الطبول، ومع تزامن قرع الطبول والنفخ على الأبواق، ظهرت مجموعة من الفرسان لاهثة من الإرهاق. تأكد لديهم أن أحدهم كان (رئيس الديوان)، مستشار الباشا أو وزير خارجيته، هارباً من ميدان المعركة مع جميع رجاله طالباً الحماية في مخيم المقيم. وبما أنه كان صديقاً حميماً للمقيم، فقد فسح له المجال بالاستقرار هناك. ومما يثير البهجة كذلك هو أنه بناءً على ما قدمه ريج من احتجاجات ومزاعم، فقد صدر عفو «الريس أفندي» عن مستشار الباشا. وفي اليوم الثاني أعلن نعي الباشا التعيس، الذي اعتقله العرب في أثناء هروبه إلى البصرة، وضرب عنقه. وعلى هذا، كان لابد من

تعيين باشا جديد مكانه، لأن بغداد كانت ما تزال ولاية مضطربة.

وهكذا، فقد ترك مالكولم، بناءً على التماس من ريج، أحد ضباطه لقيادة الحرس القليل من المشاة المحليين والفرسان، وهذا الضابط، السيد فريدريك، الذي بقي ستة أشهر برهن على أنه يشكل إضافة تبعث الارتياح في قلوب تلك المجموعة الصغيرة. وإذا كان مالكولم قد سره البقاء مع عائلة ريج، فإن العائلة، من جانبها، قد أسعدها إدخال البهجة على قلبه، فقد كتبت عنه ماري تقول: «إنه من اكثر الرجال تعاطفاً وروعة. وهو شخص أثير جداً إلى نفسي، وإن كان مولعاً أكثر مما ينبغي بالاستحواذ على النقاش في كل شيء. يتحدث بطلاوة ولكنه لا يصغي للآخرين أبداً! ثم إنه يتمتع بمزاج عقلاني مدهش معلناً أنه خليع في بغداد وإن لم يذق الخمرة في فارس. وفي الليلة الماضية، حينما صب له الخادم شراب البورت في قدحه صرخ بأعلى صوته: «إملأه، تحرك أيها الرجل لأنني سوف أثمل!» لا يمكن أن يكون المرء أكثر مرحاً وبهجة مما نحن فيه الآن. فسباق الخيول وممارسة الألعاب المختلفة هي النمط السائد جداً فيما بيننا، إذ نحضر إلى حلبة السباق صباحاً ونلعب الورق مساء، ونحن، لو كانت بيننا سيدتان أو ثلاث فقط، لشرعنا نرقص دون ريب.»

لقد أعجب كلوديوس بمالكولم وقوة شخصيته المميزة، وبطبيعته الرائعة ودفء قلبه. لكن ريج كان رقيق الشعور، حساساً، وملتزماً بقواعد الأتكيت إلى درجة كبيرة. وحينما زار مالكولم مدينة بغداد

خلال الفترة التي كان فيها السير هارفورد جونز مقيماً، كان ثمة كثير من الشكليات الرسمية، غير أن مالكولم، في أثناء مكوثه مع ريج، سعى إلى إلغائها جميعا مما جعل ريج يتألم ويتميز غضباً من محاولاته تلك. فكر أنه قد ازدري به لكونه شاباً وكذلك عَدَّ تصرفات مالكولم أموراً تسيء إلى الهيبة البريطانية في بلد يكون فيه التمسك بالرسميات جزءاً من حياة الموظفين. ومع ذلك، فقد افترقا عن حبٍ وسلام، وقدم مالكولم الدعوة إلى العائلة بالإقامة معه في اسكتلندا عند عودتها إلى أوربا، وكتب بهذا الصدد قائلاً:

«سأغادر بغداد بمشاعر دافئة جداً لما قامت به المقيمية. ان ريج شاب ذو مكتسبات رائعة وسيدته الجميلة من أكثر النساء الأثيرات إلى نفسي دون شك، فقد أمضيت برفقتها، بكل تأكيد، ساعات بهيجة لدرجة لم أعرف مثيلاً لها في غيابي عن الوطن. إن قلبها يوازي عقلها تماماً، ولذا، لا يمكنك وضعه في منزلة عادية.».

الفصل الخامس

جمع العاديات والرحلات القصيرة (١٨١٠م-١٨١١م)

حتى إذا شهد تشرين الأول رحيل الجنرال مالكولم وحاشيته إلى الهند ودخول عائلة ريج إلى بغداد، فإن المدينة لم تكن مستقرة تماماً. و«الريس أفندي»، بعد أن تخلص نهائياً من باشا واحد، راح يتطلع حواليه بحثاً عن شخص آخر يساعده على تحقيق أهدافه، فقد كانت العشائر الكردية خارج دائرة السيطرة تمارس النهب في طول البلاد وعرضها، في حين دأب وزراء النظام السابق على وضع خططهم التآمرية لتحقيق أهدافهم الخاصة. ثم جاءت جميع الأحزاب للتشاور مع المقيم، لكن الأخير لم يستطع بالطبع إلا اتخاذ جانب الحكومة ومظاهرتها وحسب، على الرغم من أنه كان على معرفة تامة بكل مكائد تلك الحكومة، فهو يكتب قائلاً:

«أتوقع أن يكون هم الريس أفندي منصباً على نيل الباشوية لنفسه. ومع رجل كهذا، يتبوأ منصب باشا بغداد، سوف يساور المقيمين سرور كبير. لقد صقلت السنوات الثلاث التي قضاها في باريس أفكاره وهذبت سلوكه دون ان يتمسك، ولو قليلاً، بالفرنسيين، كما يمكنني أن أستمتع بثمار ما فعلته جاهداً منذ تسلمي مهام عملي، فضلاً عما أشعر به من راحة وحرية تنأيان عن كل مظاهر القلق. والحقيقة، هي أن الحالة هنا منذ مجيئي مثقلة بشعور من المهانة والعار

والاضطراب، لدرجة اقتنعت فيها أن قليلاً من المسؤولين سوف يتقبل اشتراطات تلك الحالة. إنني أعيش بين نارين – نار الاصغاء إلى مطالب الأتراك، ونار ما هو أسوأ من ذلك أعني به إطلاق النار على حكومتي. أشعر بضيق شديد تجاه أكثر الأوامر والقيود كراهية إلى نفسي، وبقيت في ترقب قلق يحتمل فيها إبعادي عن وظيفتي في أية لحظة. يحدث كل هذا دون تسلم روبية واحدة من راتبي. وفي مثل هذه الأوامر البغيضة الصادرة من الحكومة، يسبب لي ورود علبة قادمة من البصرة صداعاً وحزناً قاسيين.».

كانت بغداد، خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول بأكملهما، تمر بحالة من الاضطراب الشديد، ولم تكن مكاناً آمناً لسكانها التعساء، وعلى هذا تقول ماري ريج:

«يعيش الناس في هذه المدينة حياة مثقلة بالشكوى المريرة فهم يشعرون بالاختناق ويعرَّضون للضرب على أخامص أقدامهم وينفَون عن بلادهم وتصادر جميع ممتلكاتهم. في الليلة الماضية تناهى إلى أسماعنا أن أحد ضباط الجيش الإنكشاري قد خُنق، فأطلقوا عياراً نارياً للإعلان عن ذلك النبأ، وهي عادة مألوفة حينما يُنفذ حكم الإعدام بأحد الانكشاريين.».

ومع ذلك، ففي خلال الأيام الماضية من هذه السنة أنتخب المدعو عبد الله باشا الملقب بـ«التوتونجي» باشا من لدن الحكومة العثمانية واستقبل المقيم رسمياً. كذلك قامت ماري بزيارة رسمية لحرم الباشا

فأهديت لها حلية جميلة من الماس عربون صداقة ومحبة. لقد فاق عبد الله باشا أي إنسان اعتيادي آخر، فهو ينحدر من أرومة جورجية، وهذا الشيء، الذي يشير إلى عنصر موثوق به لعائلة كبيرة يغاير المعنى المألوف للكلمة الإنكليزية. اكتسب هذا الباشا قسطاً وافراً من التعليم أتاح له مجالاً لمناقشة الأوربيين على شروط متوازنة، وكان رجل عدلٍ وسخاء، يروق الآخرين إلى حد بعيد.

حُسمت هذه القضية، إذ أزالت من عاتق ريج عبئاً ثقيلاً أرهقه بين آونة وأخرى، غير أن المضايقات من بومبي تواصلت باضطراد نحو الأسوأ. لقد أمضى في بغداد ثلاث سنوات دون الحصول على فلس واحد براتب أو مخصصات، والنقود التي تطلبها مركزه الوظيفي كانت تقترض بنسبة عالية من الأرباح. وعلى ما يبدو، لا يمكن تصديق وجوب أن تدار أية وظيفة رسمية بهذا الشكل، كما لا يظهر على الرسائل المتكررة إلى إنكلترا وبومبي أنها قد تمخضت عن أي علاج لتلك المسألة، فلم يصدر من بومبي بالذات غير الشتائم والسباب.

وفي غضون ذلك بدأت صحة كلوديوس تعاني الكثير، ولا غرو أن يصبح شديد الحساسية ومتوتر الذهن وتحيط به المكيدة والنزاعات المتواصلة، دون تغيير في المناخ خلال ذلك الفصل الحار الفظيع، ثم وهن جسده وبدأ يعاني كثيراً من آلام الرأس الشديدة والحمى. أضف إلى ذلك أن العلاجات الطبية بسيطة في تلك الأيام فالكنين لم يجد

طريقه إلى الشرق، والعلاجات التي قدمها السيد هاينة خففت آلام المريض قليلاً، وإن لم نقض على المرض نهائياً. وعلى هذا، فقد لجأ، بحثاً عن السلوى والهدوء، إلى الإفراط في التدخين، وهو إفراط أقلق زوجته التي قالت:

«حالما يغادر فراشه يتناول الغليون والقهوة، وعند الافطار يُدخن الغليون الآخر، وخلال النهار يدخن أربعة أنواع من الغلايين، وبعد الغداء غليوناً آخر، وأربعة أخرى بين الغداء والعشاء، واثنين أو ثلاثة بعد تناول الشاي عصراً وآخر قبل أن يأوي إلى فراشه.».

ومن هذا يبدو أن عقب الغليون لم يفارق فمه قط.

في ذلك الشتاء كانت متعة العائلة تضاهي متعة المجتمع حواليها، فقد أكرم أعضاء العائلة وفادة عدة أشخاص مروا بمدينة بغداد، كان منهم رجل يدعى السيد ماكدونالد، وهو شاب مغامر تنكر بلباس عربي على ظهر جمل، شرع بالسفر إلى حلب مع أربعة مرشدين. رحلة من سبعمائة ميل لم يكن يحمل فيها من مؤونة غير الخبز والتمر. وبعد مسيرة يومين، أو ما يتجاوز مائة ميل تقريباً، هوجم هذا الرحالة وجُرد من جميع ما يملك بالإضافة إلى علبتين كان ريج قد حمله إياهما. ومع ذلك فقد عاد سالماً إلى بغداد بمساعدة مرشد مخلص من رجاله.

أخيراً، وصل إلى أوربا سالكاً طريقاً آخر، وشاهد اسطنبول بعد ثلاثة أسابيع من مغادرته بغداد. لا شك في أن ألفاً وخمسمائة ميل

من سفرٍ قاسٍ لا يخلو من المخاطر إلى حدٍ ما، وهو سفر يُعد انتقالاً سريعاً في تلك الأيام.

ومن المثير للاهتمام بهذا الصدد تقديم النصح فيما يتعلق بالطرق التي يجب سلوكها والنفقات الضرورية لذلك. وبهذا الصدد كانت تلك الضجة التي قدمها ريج إلى السيد جيمس ماكنتوش والد زوجته، حينما كان الأخير يفكر في العودة إلى إنكلترا عبر بغداد، تحدوه الرغبة في زيارة ريج من ناحية والاستمتاع بطبيعة الرحلة نفسها من الناحية الأخرى. لقد درست تلك الرحلات جيداً وأعطيت لها كل أنواع التفاصيل الخاصة، ومن الممتع حقاً أن تعرف، بعد مائة سنة من ذلك الوقت، أن تعرف التكاليف والأساليب الدقيقة المتبعة خلال تلك الرحلات. قال ريج:

«لابد أن تغادر بومبي إلى الخليج العربي بعد موسم الرياح الموسمية فوراً، في منتصف شهر آب مثلاً، لأن ذلك سيتيح لك قضاء شهر معنا، وسوف ينقلك يخت دار المقيم من بوشهر. ومن بغداد ثمْة خيار لسلوك أحد طريقين، أولاً، من طريق حلب أو إلى اسطنبول مباشرة. ومن خلال الطريق الأول، إذا تعذر وجود قافلة من العربات أو الجمال، يصبح لزاماً عليك تهيئة فريق صغير لحمايتك، وسوف تستغرق الرحلة ٢٥ يوماً تقريباً، وتكلفك حوالي ألفي روبية. أما إذا كانت هناك قافلة، فسوف يكلفك ذلك نحو نصف المبلغ، وهذا مجرد احتمال فقط، الا إذا أمكنك الانتظار هنا شهرين أو ثلاثة. يمكنك أن

تركب في (التخت روان) أو المحفة على ظهر أحد البغال ولكن ذلك سيكلفك نفقات إضافية. وإذا كنت ترغب في زيارة القدس وبعلبك وغيرهما، فيجب أن تشرع بالسفر من حلب غير أنك يجب أن تذهب إلى هناك من حلب وسوف يستغرق ذلك قرابة الشهر، ولن تكون النفقات كثيرة.

والسيد باركر، القنصل البريطاني هناك، سوف يوفر لك كل شيء، وسيمكنك مواصلة السفر على ظهور الخيل، علماً أن ليس ثمة خطر يُذكر.».

ثم يواصل حديثه قائلاً:

«وفي السفر من حلب إلى اسطنبول براً ثمة فرق ضئيل، فيما يعانيه المرء من إرهاق أو نفقات، بين ذلك وبين الرحلة المباشرة من هنا إلى ذلك المكان. إن أفضل طريقة لك هي السفر إلى اللاذقية، ومن هناك، إما بحراً إلى أسطنبول أو إلى قبرص، حيث توجد هناك زوارق متجهة إلى الإسكندرية وأزمير والقسطنطينية ومالطا وموانئ إيطالية مختلفة. ورحيلك إلى القسطنطينية لن يكلفك أكثر من (٢٠٠ – ٣٠٠روبية)، ويكلفك أقل من ذلك إلى الإسكندرية. وفي أي من هذه الموانئ تستطيع أن تجد وسائل النقل إلى مالطا وحتى إلى إنكلترا مباشرة. أما الرحلة إلى إنكلترا من أزمير فستكلف على الاكثر نحو (١٠٠ – ١٥٠روبية)، ومن قبرص إلى القسطنطينية يمكنك الإبحار في مدة تستغرق عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً، وإلى الإسكندرية

في ثلاثة أو أربعــة ايام، علمــاً أن الرياح مــتــغــيــرة والمناخ رائع على العــمـوم. والطريق الثــاني إلى القــسطنطينيــة هو الطريق المبـاشـر عـبـر الأناضول (آسيا الصغرى)، وهذه الرحلة يمكن أن تتم براحة ويسر في ثلاثين يومـاً. يجب ان تركب طوال الطريق، بيـد أن هناك مـحطات للوقوف على مسـافـات مناسبـة لتجـديد نـشاطك بالطعام والشـراب والخلود للنوم، فـضـلاً عن تبـديل الخيـول. هذا، وسـوف أرسل مـعك أحد التتريين ومترجماً ليكونا في خدمتك تماماً ويقوما بكل ما تتطلبه استـعـداداتك ويزيلا مـا يسـاورك من قلق وصـعـوبات. تقـدر تكاليف الرحلة هذه بنحـو ١٥٠٠ روبية مع خلوها من أي خطر، عدا نقطة تقع بين الموصل وماردين، ولكن باشا الموصـل - صـديقي - سـوف يوفـر لك حرساً يكفي لنقلك عبر مكمن ذلك الخطر.

إن اختيـار الطرق التي تسلكهـا يعتـمـد بدرجـة كبيرة على مـا يتوفر لك من وقت وعلى اخـتـلاف المواسـمـة... الخ، وان عوائق الطريق إلى أعلى نهر دجلة، من بوشـهـر حتى بغـداد ليست بذات بال ولا تـنطوي على أية مجازفة. أما الأمتعة، فالواجب يقتضي منك تدبير جلب أقل كـمـيـة ممكنة منهـا، لأن المتاع الثـقـيل مـزعج للغـاية ويكلف نفـقـات باهظة. إن نحو عـشرين باونداً منه يفي بالغرض. احـزم حاجـياتك في حـقـيبـة سـفـر خـفـيـفـة مريحـة، وليس في علب أو صناديق ثقـيلة، ولا تجلب معك كثيراً من الفراشة الخ، نظراً إلى أنني أستطيع تدبير ذلك هناك.».

كان يمكن أن يصبح ريج رجلاً لا تقدر جهوده بثمن في مكتب وكالة للسفر مثلاً، وذلك لما كان يتمتع به من وضوح في الرؤية ومعرفة بأحوال البلاد. ومع ذلك، فمشروع الرحلة لم يتضح قط، لأن صحة السير جيمس في نهاية خدمته، قد ساءت ولم يعد بإمكانه مواجهة المزعجات وما يخبئه المجهول في السفر براً مما جعله يعود إلى وطنه عام (١٨١١م) بحراً.

بدأ ريج حياته، بعد وصوله إلى بغداد مباشرة، بما اصبح بشكل بسيط هواية له في الحياة خلال سنواته اللاحقة - أعني بذلك جمع التحف والعاديات، فقطع النقود المعدنية ونوادر المخطوطات كانت تمثل له بهجة كبرى. وفيما بعد، حينما زار مواقع بابل ونينوى، أصبح لقطع الأواني الآشورية أو المنحوتات أو أية مادة تتعلق بالشرق الأدنى سحر كبير عليه. ومن خلال ما يتمتع به من براعة في تكلم وقراءة كثير من اللغات وكتابتها، اكتشف وجود حشد كبير وغريب من الناس الذين تركزوا في المناطق التي تقع بين البحر الأسود وبحر قزوين في الشمال والمحيط الهندي في الجنوب، ابتداءً من البحر المتوسط إلى جبال الهملايا فأمكنه بذلك دراسة تواريخهم وقوانينهم ودياناتهم بلغاتها الأصلية ويناقشها مع العلماء وأكثر ناس تنويراً في أية أمة أو حتى في أية قبيلة.

وعلى هذا، فقد أصبحت مجموعاته من النقود والمخطوطات بمثابة دراسة تثير الاهتمام ليس من وجهة نظر المقتني لها، ولكن لكونها

وسيلة لتثبيت الاحداث وجدولتها – تاريخياً ورؤيوياً (سفرياً). وأكثر المخطوطات التي كانت بوجه عام دينية أو موضوعات مسيحية، ساعده على الاستيعاب والتحقيقات في عدد من الطوائف ذات العقيدة المسيحية المعروفة بدرجة أقل من غيرها، في وقت كانت فيه الكنيسة المسيحية الشرقية غير معروفه إلاّ تحديداً – في إنكلترا على الأقل.

كان أكثر المخطوطات الدينية باللغة الكلدانية والأرمنية والسريانية، والنص السرياني القديم لألف باء تلك اللغة . أما غير الدينية فكانت لغاتها تركية وعربية وفارسية، ومع ذلك، فقد احتفظ ريج بنسخ جميلة مختلفة للقرآن الكريم، وطالت مقتنياته النقدية والميداليات أوسع الحقول لأنها شملت اليونان وأوربا كذلك.

وكون ريج أحد أوائل الذين يقتنون العاديات في بغداد، فإن كثيراً من سقط المتاع لجميع أنواع وأوصاف تلك العاديات كانت تجلب إليه لشرائها، ولكن بما أنه قد عرف فوراً أن المقيم أو »باليوز بهادورس المقدام–كان رجلاً حصيفاً بإمكانه مخاطبة إنسان بلغة قبيلته، فان ما هو الاجمل والافضل هو الشيء الوحيد الذي كان سيتنازل فيلقي نظرة عليه. وبهذه الطريقة استطاع أن يجمع تشكيلة كبيرة خلال الثلاث عشرة سنة التي أمضاها في بغداد، ولو أن جزءاً محدوداً منها فقط، لسوء الحظ، بقي ليعاد إلى إنكلترا فيباع إلى المتحف البريطاني.

لقـد راودت ذهن ريج فكرة الكتابة عن تاريخ بلاد مـا بين النهـرين والأقطار المجـاورة بعنوان « تاريخ آسيـا الغـربيـة »، ولكن هـذا لـم يتـحـقق لسوء الحظ، وإن كان معروفاً أنه قد دون ملاحظات وافرة مستقاة من المؤرخين الإغـريق والرومـانيين والعـرب والعـبـرانيين، وحـتى أنه ربما بدأ هذا العـمـل الضـخـم، إلا ان تلك الملحـوظات لـم تتـرك أثراً ذا فائـدة في الوقت الحـاضـر. كـان رجـلاً يقـرأ على نطاق واسع في مـخـتـلف الموضـوعـات، كـمـا يظهـر ذلك من خـلال المقـتطفـات الكثـيـرة التي يستـشـهـد بهـا على الدوام، حتى في مـذكـراته الشـخـصـيـة، لمختلف المؤلفين. وكذلك كان شديد الاهتمام بمعرفة الأديان والعقائد المختلفة، وشرع في جميع البيانات القيمة لكثير من الطوائف والعقائد الموجودة في الإمبـراطورية التـركـيـة، التي كـان أكثـرها مـجـهـولاً عند الأوربيين حينذاك، كـان مؤيداً كبيراً لعـموم المسيحـيين في تركـيا كلهـا، وبرهن على أنه البطل. وبكونه مسيحياً وممثلاً لملك مسيحي، لم يسمح بمرور أية إهانه دون تعقيب، ومن هذا المنطلق، ساعد مرات كثيرة الجاليات المسـيـحـيـة الصـغـيـرة المنتـشـرة في كـل مكـان - الجـاليـات الأرمنيـة والكاثوليكيـة والكلدانيـة والنسطورية - من خـلال تمثيله الدبلوماسي المميـز لدى الحكام الأتراك، وحـتى الدوائر العليـا، أو مـن خـلال عـونه الشخصي.

ومـا تزال ثـمـة رسـائل لافتـة للنظر لغـرابتـهـا مكتـوبـة باللغـة الأرمنيـة. فهناك مثلاً إحدى الرسائل التي بعثها بطريرك القدس الأرمني - الموقر

ثيودورس فارادبيت – إلى صاحب السعادة، كلوديوس جيمز ريج المحترم، المقيم البريطاني وعضو المجلس الكنسي للإمبراطورية البريطانية المنتصرة، والأشهر الموجودة في بغداد. وبعد افتتاحية بلاغية أنيقة وعاطفية حدّ الإفراط، جاء فيها:

« . . . .وأكثر من ذلك، فقد تناهى إلى سمعي ما ينم عن تعاطفك وحمايتك للأرمن الذين يعانون دونما حماية، وسمعت كذلك عن عملك الرائع الشهم حينما توفي هناك رئيس الأساقفة – هاكوب–، المندوب الديني للقديس أجرينا دزين، وعرفت أنهم واروا جسده التراب خارج المدينة، فما كان منك عند سماعك لذلك الخبر، بعد شهور قليلة، أن قمت، سعادتك، بالترتيبات اللازمة في الحال لجلب جسده المقدس من خارج المدينة ليدفن في احدى كنائسها، والحقيقة، هي أن هذا العمل رائع في مثل هذه البلاد وتلك المدينة، لأننا لم نسمع قط أن مثل ذلك يمكن حدوثه في مثل هذه السلطنة. عمل رائع، سيفخر به الأرمن حقاً. والآن، طي هذه الرسالة، أبعث لك بآيات الشكر للعمل الذي أسديته لقومي، معتبراً إياه عملاً قدم لي شخصياً وللدير الذي يضمنا بين جوانحه. »

الرسالة تعبر عن نفسها، وأعتقد أنها تنطوي على ملحق يثير نفس الاهتمام لرسالة سبق أن أرسلت في تشرين الثاني عام (١٨١٠م)، يتمثل ذلك بصورة تعود إلى أحد أخوالي، ابن أخ بعيد للمقيم ريج. لقد برهن خالي على عطفه الشديد وذلك لسماحه لي باستنساخ

الكلمات على ظهر تلك الصورة، بالإضافة إلى أخذ صورة فوتوغرافية لتلك الصورة. والكتابة بخط يد ماري ريج، كما يأتي:

«بطرس الكبير. نسخة أصلية مهداة من السيدة ريج إلى الموقر وليام ارسكن – ١٨٢٤م، أدنبرة.» يشير تاريخ هذه الصورة كثيراً من الدهشة، إذ حينما فكر بيتر بمشروعاته الطموحة ضد أرمينيا، كان بالطبع، يتطلع إلى استمالة مسيحيي تلك البلاد والتقرب اليهم. فمن بين هدايا أخرى، أرسل صورته الشخصية إلى البطريرك، فاحتفظ هذا بها نحو قرن من الزمان في الجميا دزين – حاضرة الكنيسة الأرمنية، وبعد الحصول على المساعدات القيمة من سخاء المبجل كلوديوس ريج وجهوده المبذولة، بكونه مقيماً بريطانياً في بغداد، أرسل له البطريرك ورجال الدين معه، عرفاناً بالجميل عليهم وتقديراً منهم، صورة القيصر التي راودهم الأمل في قبولها. وتنقلت هذه الصورة، على هذا الأساس، من روسيا إلى القوقاز وإلى إيجميا دزين، ومن هناك إلى بغداد ثم إلى الهند، والعودة إلى اوربا عبر رأس الرجاء الصالح، عام (١٨٢٦م).

والمفروض، وان لم يكن ذلك موثقاً، ان ذلك الجوال الرومانسي – بطرس الاكبر– قد سافر إلى القوقاز عام (١٧٢٢م). وبما أن الصورة تشبه شبهاً كبيراً ما كان معروفاً عنه، فإنني أعتقد أن بإمكاني تقبلها كصورة أصلية. والمرء يدرك أن واهبي تلك الصورة قد منحوا أفضل ما لديهم من أثر حينما أرسلوها. ومن المحتمل أن يكون ثمة القليل مما

يمكن أن يعدّ ذا قيمة تذكر في الدير الذي استقر فيه آباء ايجميا دزين الطيبون على الرغم من أن ذلك الدير هو الأبرشية الرئيسة لرئيس الكنيسة الأرمنية. كان الكهنة المسيحيون والقسس الآخرون يتصفون بفقر الحال في جميع أنحاء الولايات التركية، فقد سحقتهم الضرائب المفرطة وعُدّوا فريسة شرعية لجشع الحكام جميعاً، وحينما ازدادت النفقات ولم تثمر الجبايات الضريبية على مواسم الحصاد بما فيه، الكفاية، مورس الضغط عملياً، وفي حالات كثيرة، على التجمعات المسيحية، فعرّض رجال الدين، بصورة خاصة، إلى معاناة فظيعة. وحدث في كثير من الأحيان أن كافح بعض المؤمنين الجهلاء فبذلوا اقصى ما لديهم من طاقة لتحقيق الرفاه الروحي والمادي لأبرشياتهم ورعايا كنائسهم المنتشرين في كل مكان.

وعلى هذا، فلا عجب والحال هذه إذا كان ينظر إلى ريج بكونه منقذاً لهم مما أحاق بهم من ظلم، إذ لم يسبق لأي مسيحي آخر من رعايا الكنيسة، إفرنجياً كان أو عثمانياً، أن كانت لدية السلطة على تهدئة مشاعر السلطات التركية ضد أولئك المسيحيين، فيطالب بحقوق أولئك الناس، التي أهملت ردحاً طويلاً من الزمن. وريج، كما يمكن أن يدرك المرء تماماً، قد حظي باحترام كبير، ولذا أرسلت له، بما يعد تعبيراً عن احترام وتقدير الناس له، الوثائق المختلفة وكتب القداسات[1] القديمة والمخطوطات المهترئة السريعة التلف، التي كان

---

(١) كتب الصلوات المقامة.

أغلبها من الأناجيل والطقوس الدينية وكتب الصلاة العائدة إلى كنيسة أو دير منعزلين نأى بهما الدهر بعيداً. ودفع ريج مقابل ذلك نقوداً سخية، يحدوه شعور متزايد بأن النقود هي الأكثر تقبلاً واحتياجاً إليها من الأبرشيات التي جلبت منها تلك الكنوز، حيث تضمنت تلك الكتب معاني يكتنفها الغموض تماماً ويتعذر على القسس ورعاياهم فك طلاسمها.

اعتاد ريج أن يتحدث عن الأرمن بأرق العبارات وأميزها، فقد كانوا، كما يقول، يكرمون الضعيف ويتصفون بالسخاء ولا يعرفون الكلل. ويبدو أنه قد اختار أفراداً من هذا العرق لإنجاز كثير من الأعمال في بيته، وكذلك أعان كثيراً أحد قسس الأبرشيات المجاهدين بتوزيع الأناجيل المختلفة والكتب المقدسة المدونة باللغات – الأرمنية والتركية والسريانية والعبرية– التي ترجمتها وطبعتها جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية، ومن ثمَّ توزيعها بلغتها الأولى، وبذلك أمكنه استبدال كثير من المجلدات البالية التي تعذرت قراءتها، بحالتها المهترئه تلك، على القس الذي استطاع فيما بعد أن يلتقط الكلمات المطبوعة حديثاً.

وتبين المقتطفات الصادرة عن أوراق « جمعية الكتاب المقدس » مقدار العون الكبير الذي قدمه ريج للأرمن، فتتحدث بأسمى العبارات رقة على مدى مساعدته وشعورهم الوديين نحوهم، وذلك من خلال نشر المعارف المسيحية ومعتقداتها العلمية.

ومن بين التحف النادرة التي حصل عليها ريج، المتعصب دينياً، مخطوطة يصفها بقوله:

«أصبحت كالممسوس نتيجة لحصولي على تحفة أدبية رائعة للغاية، أعني بذلك ورقه واحدة لمخطوطات فارسية تتضمن بياناً عن »كورتيس وتقدمه نحو المكسيك!»، وكانت هذه الورقة قد سقطت من بين أوراق مخطوطات كثيرة كنت قد اشتريتها، ولا يمكنني أن أخمن عائديتها في الأصل إلى أية واحدة من تلك المخطوطات وذلك لعدم احتوائها على أي من المرجعيات التي تؤدي إلى افتراض معين، وعلى هذا، فانني أخشى أن تذهب جميع بحوثي للحصول على عمل متكامل أدراج الرياح. وكورتير هذا يدعونه كورتوز - السردار الإسباني الكبير.»[1]

لقد دفعت تلك المجموعات القديمة كلوديوس ريج إلى الاتصال بكل الأطراف دون استثناء، مستخدماً سنوات كثيرة ديللي سان أو «سيمون المجنون» كما كان يطلق عليه، وهو مسيحي سرياني، للطواف في أرجاء البلاد لكي يشتري له قطع النقود المعدنية والكتب الأثرية القديمة وغيرها من العاديات. وكذلك ساعد هذا الاتجاه ريج ليتحرك رسمياً للاتصال بالرجال الذين، بعد خضوعهم للاختبار، عملوا فيما بعد، بشكل أو بآخر، وكلاءً سريين عنده، فقاموا باتصالات سياسية بكثير من العاملين في المدن الرئيسة في بلاد

(١) هرنان هرناندو (١٤٨٥-١٥٤٧م) - قائد أسباني فتح المكسيك.

الأناضول.

وفضلاً عن ذلك، قام باتصال مباشر بمدينة فيينا للحصول على الكتب التي تخص البحث العلمي والتاريخ الشرقي، ومن بين الدراسات الاخرى، انكب ريج على دراسة التشريع الإسلامي، لأن الفرصة أمامه كانت متاحة في بغداد لجمع المعلومات من رجال تشريع ذوي معتقدات متباينة وبلدان مختلفة. ووجد كذلك أن من المفيد له حقاً اصدار الأحكام، على وفق ما يتمتع به من دراية رسمية، بالإضافة إلى سعيه الحثيث لتحسين قدراته اللغوية في اللهجات المحلية للغتين – العربية والتركية.

وأثار اهتمامه على نطاق واسع فرع معرفي آخر، هو الجغرافية بأنواعها. ففي أوائل القرن التاسع عشر، لم تكن هناك خرائط موثوقة لبلاد ما بين النهرين، أو في الحقيقة لآسيا الغربية كلها. فالجغرافيون العرب قاموا بمسح أجزاء معينة من البلاد ووضع الخرائط لها، وثمة تقارير تعود إلى مؤرخي العصرين – الاغريقي والروماني– بالإضافة إلى تلك التقارير المستقاة من الرحالة القليلين خلال القرون التي تداخلت في فترتين من التاريخ، غير أن ما كان يحدث كثيراً هو أن آثار المواقع المذكورة قد طمست كلياً أو كانت مجرد تخمينات لتلك المواقع لا غير. والأوربيون أمثال ماركو بولو وبنجامين توديلا في

---

(١) هو بنيامين التطيلي من مدينة تطيلة الاسبانية. عرف برحلته الشهيرة التي طاف بها في العالم الإسلامي حوالي القرن الخامس عشر.

العصور الوسطى، وتافيبرنييه دانفيل ونيبور، في القرون المتأخرة كثيراً، قد اجتازوا أقطار الشرق الأدنى بيد أن أوصافهم غالباً ما كانت عصية على المتابعة أو أن حساباتهم كانت غير دقيقة.

ومع ذلك، فقد ظهر في هذا الوقت رجل انكليزي يدعى ميجر رينيل. قام هذا الرجل بمسح أراضي فارس وأجزاء من الجزيرة العربية ووضع الخرائط لها التي كتب ريج عنها إلى السير جيمز، طالباً بلهفة كبيرة إرسالها إليه بأسرع وقت ممكن.

وجميع المخطوطات التي جمعها قام بتغليفها بجلد روسي رخيص الثمن في بغداد، حيث أرشد أحد الأتراك ان يغلف المجموعة على وفق الطريقة الإنكليزية، وقد عرف الرجل كيف ينجز ذلك ببراعة. والوصف الذي يكتبه عن نفسه لا يخلو من طرافة، فهو يقول:

«منذ أن جئت إلى بغداد تحللت لأصبح نوعاً من مادة بسيطة صالحة تتسم بالاستقرار والهدوء لرجل واقعي، مغرم كبير بأكل التمر، ومتابع عظيم لاقتناء الكراريس والكتيبات. يرضيني التجول في طريق معتم لانجاز عمل هام، ونادراً ما أقوم بجولات خارج الطريق المباشر لقطف أزهار الوهم والخيال. لقد أصبحت، باختصار، منبسطاً كالصحارى التي أحاطتني من كل مكان!».

ماري ريج، وهي على مسافة نائية جداً من أخواتها اللواتي شغفت بهن حباً، لم تكن سعيدة تماماً بما نلنه من معاملة الليدي ماكنتوش. فقد أهملت هذه السيدة الفتيات الثلاث، ولم تظهر نحو بنات زوجها

أي شعور بالحب قط وهو شيء قابلنه بالمثل. وما كان السلم ليتوطد ويشيع في جو البيت لولا ما كنَّ يبدين من إخلاص وحب شديدين نحو أبيهن. ففي عام (١٨٠٩م) علمت ماري أن صحة ميتلاند ليست على ما يرام، وأن رحلة بحرية قد اقترحت لها، وهو التغيير الوحيد المتاح في ذلك الوقت. لقد سمح لها بالارتباط بالسيد وليام أرسكن، وان كانت في السادسة عشرة من عمرها وهو في ضعف عمرها. أرسلت إلى مدراس لاستعادة عافيتها من الحمى التي لازمتها، فأقامت هناك مع بعض الأصدقاء. أما أرسكن فقد سافر إلى كلكتا لإنجاز عمل يتعلق بأخ له في تلك المدينة، ثم عاد عبر مدراس التي تمَّ فيها الزواج، بموافقة السير جيمز طبعاً. وهذا الإجراء، بكل وضوح، لم يحقق، بما يكفي، رغبة الليدي ماكنتوش التي قررت ألا تسافر إلى هناك أو تسمح بسفر زوجها. ومن الطبيعي أن تتألم ميتلاند لذلك كثيراً. وماري ريج، التي استهامت بحب أبيها، لا ترى في هذا شيئاً غير قسوة أبدتها زوجة أبيها. ومع ذلك، فإن المرء ليشعر أن السير جيمز ربما كان سيتخذ خطوة تمهيدية خاصة في مثل هذه القضية.

بعثت ماري اكثر الرسائل حباً وشغفاً إلى أختها الصغرى، والتمست من أسرة أرسكن تمديد شهر العسل ثم المجيء للبقاء بعض الوقت في بغداد. لقد ناشدتهما على مدى سنوات طويلة ان يأتيا إلى بغداد، ولكنهما كانا بعيدين جداً ولم تكن الإجازة متاحة على الدوام، كما ازداد عدد أفراد العائلة في كل سنة ليضيف عبئاً ثقيلاً إلى السفر

وصعوباته. وعلى هذا، فلم تقم عائلة أرسكن بزيارة بغداد مطلقاً، واستقرت في بومبي فقط.

وفضلاً عن ذلك، فقد ساءت صحة الليدي ماكنتوش، هي الأخرى، مما اضطرتها للعودة إلى انكلترا عام (١٨١٠م) مع اطفالها الثلاثة، تاركةً السير جيمز يندب حظه لكونه عاش حياة الأعزب التعيس على الرغم من وجود ابنته الثالثة ذكيتي- معه، وهي في سن الرابعة عشرة من عمرها، بعد أن رفضت اصطحاب زوجة أبيها. وماري، التي تأتمن ميتلاند على أسرارها وتفي إليها بمكونات قلبها تقول:

«أشعر بسعادة غامرة للتوضيح الذي توردها الحبيبة كيت، فهي لن يسعها الرضوخ إلى استبداد زوجة ابيها وإهمالها، تلك المرأة التي أخشى أنها لم تؤد ما عليها من التزامات تجاه بنات زوجها».

وفي عام (١٨١٠م) تزايدت المراسلات مع السير جيمز بخصوص إرسال كيتي إلى بغداد عند سفره إلى إنكلترا، السفر الذي كان ينوي القيام به فنفذه في تشرين الأول عام (١٨١١م). وفي بداية تلك السنة، عين السير غور أوسلي وزيراً في فارس خلفاً للسير هارفورد جونز، وكان السير غور في طريقه إلى طهران لتسلم مهام منصبه الجديد. وعلى هذا، فقد أتيحت الفرصة إلى الفتاة الشابة - كاثرين ماكنتوش- لإيجاد هذا الرفيق المناسب في مثل هذه الرحلة البحرية المحفوفة بالمخاطر، ووافق السير جيمز بفرح غامر، وهو يعهد بها إلى رعاية أسرة أوسلي، كان كلوديوس وزوجته في اوج حالات الإثارة

والانفعال، فقد انطلقا لاستقبال كيتي على ظهر يخت المقيمة مع السير فردريكس الذي كان في طريق عودته إلى الهند. وعلى الرغم من أنها كانت مجرد رحلة بحرية، فقد أقاموا حفلة عشاء كبرى في الثامن والعشرين من آذار في غمرة الفرح والابتهاج احتفاءً بعيد ميلاد كلوديوس.

وكانوا، إذا أثار انتباههم، في أثناء رحلتهم المائية اسفل نهر دجلة، أي مكان مهم أو خرائب أثرية ممتعة، ألقوا بمراسيهم ونزلوا إلى الشاطئ لاكتشاف تلك الأماكن، لأن المجهول كان له سحر كبير على قلب ريج، وفي مكان يدعى «العزير» ربطوا اليخت وانصرفوا لتفقد ما يفترض أنه ضريح – العزير–، ذلك المرقد الذي يبجل كثيراً. كانت البناية تشبه الجامع، شيدها، قبل ثلاثين سنه تقريباً، أحد رجال الدين المتحمسين، وأحيطت بسور، أما القبة، فقد كسيت بالآجر الأخضر. والمعروف أن المرقد شيد عام (١٧٨٠م) لأول مرة.

كان كلوديوس طالباً يتمتع بعطلته الرسمية، خلي البال، جذلاً، تطفح روحه بالبشر. لقد غمرت كيانه سورة الفرح والتفكير في وجوده خارج بغداد أسابيع قليلة، فالتغيير، هو الآخر، بعد حياة المدينة المملة، قد أسرَّه إلى حد بعيد. وأبهجه كذلك توقع لقاء أخت زوجته الشابة وقضاء بعض الأعمال التجارية الرسمية في البصرة. كان الحاكم قد خرج من اليد إلى حد ما، فوجد الدكتور كولكوهون أن من الصعب التعامل معه، غير ان ذلك الموظف التركي، بعد أن سمع

بخبر اقتراب ريج من المدينة رضخ فوراً إلى مطاليب الوكيل البريطاني. وعند وصول الزوجين إلى البصرة افترقا لأول مرة منذ زواجهما، فقد تابعت ماري رحلتها إلى بوشهر لإحضار كيتي، حيث مكثت هناك أسبوعين. وعلى هذا، فهي تكتب»:

«لن نفترق ثانيةً، حتى لو كان أسبوعاً واحداً. ربما يسخرون منا معتقدين أننا زوجان معتوهان، لكننا، مع ذلك، نتباهى بذلك الزواج لأنه يبرهن على أن حبنا قي العموم أسمى من أي حب سائد، وما أقل أولئك الذين يشعرون شعوراً جدياً!».

ولدى وصولها إلى مدينة بوشهر، وجدت ماري نفسها في مأزق. فأسرة أوسلي التي سافرت إلى فارس، تركت كيتي ماكنتوش مع السيدة بروس، زوجة الوكيل، وقد أبدت تلك العائلة موافقتها على اقتران كيتي بضابط لا يملك شروى نقير، وهو السير وليام. لقد أصيبت ماري بصدمة كبيرة لمجرد التفكير في اضطرار الشاب إلى التقدم لطلب يد كيتي، التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها حينذاك، دون توجيه خطاب رسمي بذلك الخصوص إلى أبيها أو إليهما، هي وكلوديوس، وبقلق شديد عادت ماري مسرعة إلى البصرة بصحبة أختها. ومن هناك كتبت الرسائل موضحة هذا الوضع اللامألوف إلى السير جيمز مقترحة ان كيتي صغيرة لدرجة يتعذر فيها إتمام ذلك الزواج، بخاصة من رجل معدم، وإن كان يحمل لقب بارونيت. لقد أشبع غرور كيتي كثيراً ما أظهره الشاب من اهتمام بها، ومع ذلك،

يتضح أنها لم تعر اهتماماً لافتراقها عن ذلك الشاب، في وقت كانت تتأجج حماسة وسعادة لرؤية ماري وكلوديوس. كانت عصبة مرحة صاخبة، تلك التي أبحرت في طريق العودة إلى بغداد. والثلاثي كان في غاية البهجة، إذ يستطيع المرء تحسس تلك البهجة التي جاء بها حلول كيتي في دار المقيم، وها هي ماري تكتب قائلة:

«ان كيتي وكلوديوس هما اللذان يثيران هذا الصخب الشديد، فهما يتنازعان ويتشاحنان ويتصارعان كالديكة ويتبادلان القبل من الصباح حتى الليل، ويعتبراني عدواً مشتركاً لهما، لأنني أغامر أحيانا فأدعوهما إلى التحلي بضبط النفس. وكيتي تهيم به اعجاباً لدرجة جعلتني أدعوها «المتملقة الصغيرة»، ان هذا يشبع غروري فأقول إن كلوديوس ما يزال ساحراً الآن كما كان في بومبي سابقاً، وكثيراً ما أخبره انه إيرلندي طائش بحاجة إلى من يذله قليلاً!»

كانوا جميعاً في أوج مرحهم النفسي، فقد لازمتهم روح الشباب مرة أخرى، بعد أن حسر عنهم الضوء مؤقتاً نتيجة لمضاعفة المكائد وأحابيل السياسة والصعوبات المالية.

أخذت عائلة ريج على عاتقها تثقيف كيتي، فقد قرأت التاريخ مع ماري في حين كان كلوديوس يعلمها الموسيقا والرسم ويساعدها على تعلم اللغتين الإيطالية والفرنسية. كانت مفعمة بالصحة، مرحة تحب الحياة الخلوية بعيداً عن البيت، ولهذا فقد ابتيع لها حصان روّضه كلوديوس، فاعتاد كل منهما امتطاء جواده معاً في أغلب ساعات

اليوم. هذا وحدث أن كان هناك راهب كاثوليكي جوال اتخذ من المقيمية مستقراً له في ذلك الوقت. كان هذا الراهب قد نال تعليمه في إيطاليا، واعتاد التحدث بالإيطالية فحسن بذلك لهجتي الأختين بتلك اللغة. وبكلمات كيتي يمكننا الحصول على إيضاح رائق بسيط، فهي تقول:

«أما عن السيد امبودنس المعروف بـ« أخونا الساحر » فأقول إنه رجل « فظيع » اكثر من أي وقت مضى. إنه لغز محير يثير الشفقة، فهو وأنا في شجار ومشاحنات لأتفه الاسباب، بقدر ما اعتمدتما ذلك تقريباً (الرسالة إلى ميتلاند) وهو يسرد علينا حكايات ويردد أشعاراً كثيرة، كهذه الأغنية مثلاً:

أكوام البودنغ وقطع الخبز التي
أعطتني إياها أمي حينما كنت في سرير النوم
وإذا كنت لا تصدق، تعال وانظر بنفسك
أية أكوام من البودنغ أعطتها لي أمي

أليس هذا رائعاً. السيد « مادكاب » يتضرع إليك بأفضل ما لديه من حب، ليس لديك فكرة عما يستحقه اسمه من معنى. يقول إنني فتاة شقية تثير الضجر والبغض، وإنني افعل ذلك عشرين مرة يومياً، وذلك لأنني أميل إلى إزعاجه، بخاصة حينما يصبح فظاً سريع الغضب. ومع ذلك، فأنا اساعده كسكرتيرة له ».

وعلى الرغم من ذلك، فإن الحياة ليست كلها مزاحاً وضحكاً.

فحينما اقتربت أيام صيف عام (١٨١١م) الحارة، شعر كلوديوس بأعراض مرضه تعاوده ثانية. لقد جاءت الحرارة المفرطة بالحمى الشديدة والتشنجات الحادة في رأسه، فضلاً عن أن عمله المرهق قد ترك فيه أثراً قاسياً. وهو، وإن حقق نجاحاً باهراً في شؤون بغداد الإدارية وفي تعامله مع الأتراك، فإن حكومة الهند لم تجامله كثيراً أو تطري عمله، فها هو يكتب:

«السيد دنكان، بسلوكه المميز معي، الذي جعلني أخدم ثلاث سنوات دون أن يقدم لي فلساً واحداً، بعد أن أبقاني عائماً فوق آمال كاذبة، كان على وشك تدمير مهامي الوظيفية. فهو لا يمكن أن يكون جاهلاً بمبالغ النفقات المطلوبة، ولابد أن يعلم أنني أعاني من تراكم ربح مركب هندي كبير على عاتقي. وبالإضافة إلى ذلك، فهو لا يني ينتهز الفرص لتثبيط عزيمتي وبالتالي إهانتي والحط من كرامتي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتعين عليَّ الصمود أمام جميع مكائد السير هارتفورد جونز الدنيئة الذي، وأنا على يقين من ذلك، يعمل جاهداً لاضعاف مركزي ورفع معنويات أصدقائه. لست متلهفاً على تكديس الثروة، ولكنني بالتأكيد لا أريد تبديد وقتي أو تدمير وجودي في هذه البلدان فأستمر فيها للأبد. أرغب فقط في مخصصات مناسبة لتغطية نفقاتي على وفق الخدمات العامة التي أديتها حتى الآن، وإن راتباً معقولاً سوف يفي بمتطلباتي.»

يبدو هذا التماساً معقولاً بما يكفي، لكن حكومة بومبي أرادت

تأكيد مصداقية ميزانيتها ومن أن النفقات الباهظة لصيانة المقيمية في بغداد لا تنسجم ورغباتها. فالتجارة من بلاد بين النهرين لا تكاد تستحق مثل هذا الجهد، وأن اعتبار إنكلترا، الذي ينبغي ان يعزز ويتواصل دون انقطاع، لا يعني هيكلية التجارة وحدها.

لقد أسس مقيمية بغداد وزراء التاج البريطاني على مبدأ يناقض تماماً الأسس التي أقيمت عليها المقيمية التجارية في البصرة. فالتجارة، وإن كان يدير شؤونها المدراء العامون لشركة الهند الشرقية، فهي لم تترك وفقاً لتصرف المقيم في بغداد. وعلى الرغم من أنه يعد خادماً لتلك الشركة، فهو يبدو جزئياً تحت إمرة السفير البريطاني في القسطنطينية ويتسلم الأوامر منه ويجري اتصالاته المفتوحة معه. كان دنكان، حاكم بومبي، يبغض ريج ويعلن عن بغضائه تلك بكل وسيلة ممكنة. ولعل ريج كان مفرط الحساسية فتزداد أوهامه نحو كل ما يوجه إليه من إهانات، في حين أنه كان يمكن عدّها مجرد عبارات حادة من رجل يتسم مزاجه بسرعة الغضب إلى حد ما، رجل وهنت أعصابه نتيجة لإقامته الطويلة جداً في الشرق.

ومن الإنصاف القول أن دنكان يحظى بتقدير عال من مجلس ادارة المدراء العامين للشركة باعتباره شخصاً مستقيماً وكُفْئاً، وإن كان صعب المراس، ضيق التفكير في نظرته إلى الحياة.

ويحتمل أنه لم يوافق من حيث المبدأ على تعيين ريج في منصبه، وهو لما يزال في الثانية والعشرين من عمره، مقيماً في بغداد. ومهما

كان السبب، فقد اتسع الخرق وبعدت الشقة بينهما. هذا، وقد وصل مزيد من الرسائل من مدير الحسابات العام هذه المرة، وهي رسائل مهنية صرفة أضافت الحطب إلى النار، فأجاب ريج عنها باندفاع شديد.

وعلى أية حال، فقد سحب المدير العام للحسابات رسالته وأجرى السيد دنكان بعض التعديلات عليها فبدا الجو أنقى قليلاً.

وأعقبت ذلك رسالة أخرى، هذه المرة من السير جيمز، تتحدث عن «التبذير»! يا للمسكين، كانت أعصاب ريج مرهقة، وصعوبة السنوات الثلاث المزعجة الموحشة إلى حد ما قد أنهكت تفكيره السليم تقريباً. أما الآن، وبعد تعرضه للتوبيخ رسمياً من صديق فكر أنه هو الذي سيأخذ بيده ويسند موقفه، فهو يعتقد أن ذلك أكثر قليلاً مما يمكن تحمله، ولذا فقد أعلن عن حقيقة مشاعره إلى وليام أرسكن في رسالة تطفح بالمرارة الشديدة. وكذلك أجاب مبرئاً نفسه من كل ذنب نسب إليه إلى السير جيمز، ويضيف على نحو مشجٍ يثير العطف ما يأتي:

« لا أعير اهتماماً بأي شيء في الدنيا ما دمت ستستمر في الحفاظ على عواطفك السابقة نفسها نحوي، الشيء الذي أبهجك الإعلان عنه في رسالتك المؤرخة في الثامن من حزيران عام (١٨١٠م)، إنني، في الوقت الذي يمكنني فيه ضمان تقديرك وودك لي، أجد أن المصير وما فيه من قوة قاهرة لا يمكنه دفعي إلى الحزن والشقاء، وذلك لانني

سوف أحتفظ على الدوام بأعلى درجات العواطف مودة واخلاصاً.»

وعلى أية حال، فقد بلغت الأمور الآن نقطة الانفجار، وتدخلت حكومة البنغال فاتخذت قرارها بخصوص هذه القضية، كما وضعت وزارة المالية يدها على مجريات تلك المسألة فحسمت الأمر المثير للجدل. ففي أيلول يجيب السير جيمز صهره ريج - موضحاً:

«لا يسعني التأخر في تقديم التهاني لك على ما أبدته حكومة البنغال من إنصاف لصالحك. آمل أنك، قبل هذا التاريخ، تعرف قرارها الذي يمنحك مبلغ ألفي ربية راتباً، وألفين وثلاثمائة ربية للنفقات، وأوجبت دفع المتأخرات البالغة سبعين ألف ربية إلى وكلائك.»

ومع ذلك، فهو يسدي له نصيحة صغيرة بقوله:

«أدعو الله أنك سوف تقصر إنفاقك الفعلي في حدود ألفين وثلاثمائة ربية المسموح لك بها. وإذا كان يمكن ان تكون لتجربتي وعواطفي وتوسلاتي وصلواتي أي تأثير بهذا الصدد، بكلمة أخرى، أعني التعقل والاحتراز في كل شيء، فإن ذلك سيكون أحد أعظم ما أحظى به من سلوان. إن ودي نحوك ود أبوي، وسيكون الأمر غير جدير بهذه الكلمة إذا لم أسدِ لك بعض النصائح والتحذيرات الأبوية أحياناً. كن على ثقة أن ليس ثمة أي شخص في العالم يشعر بما أشعر به من متعة حميمة عالية في كل ما تحققه من سعادة وخير.»

الفصل السادس

بعثة إلى أطلال بابل عام (١٨١١م)

في شهر كانون الأول فكر ريج ملياً فنفذ رغبة طال أمدها في القيام برحلة استقصاء قصيرة لكل ما يتعلق بخرائب بابل. كانت خطة تلهف إلى تحقيقها منذ زمن بعيد، والموقع كان معروفاً على الدوام. وعلى الرغم من ان المدينة العظيمة لم تعد الآن أكثر من تلال رملية، فقد زارها عدد كبير من المؤرخين منذ أيام عهدها الزاهر العظيم، من بينهم كان هيرودتس وزينفون والجغرافي الإغريقي سترابو، فقد وصفوا بدقة كبيرة قصورها الرئيسة ومعابدها وشوارعها وأسوارها وجنائنها المعلقة.

كان كلوديوس ريج، والحق يقال، أحد الرواد الأوائل لعدد كبير من علماء الآثار الذين اكتشفوا الشيء الكثير في بلاد ما بين النهرين خلال المائة سنة الأخيرة، وذلك لأن معرفته بتاريخ آثار العصور القديمة كانت عميقة. لقد قرأ كثيراً مما كتبه المؤرخون الإغريق والرومان والعرب والفرس والعبرانيون، فضلاً عما كتبه الجغرافيون، فأمكنه تطبيق معارفه لإعادة بناء المواقع القديمة.

زار بابل كل من بيترو دي لافاله في القرن السابع عشر ونيبور وبوشامب في القرن الثامن عشر، غير أن أوصافهم كانت تنقصها الدقة. لم تكن فكرة ريج منصّبة على مشاهدة الخرائب وحسب، بل مسحها ورسم الخرائط التوضيحية للمدينة وتثبيت كل ما دوّنه

الكتّاب الإغريق والرومانيون وإقامة الدليل عليها.

وفي صباح يوم رائق من أوائل شهر كانون الأول عام (١٨١١م)، نشهد موكباً زاهياً من الفرسان والعربات ينطلق من مدينة بغداد. كانت العصبة تتألف من سيدتين- ماري ريج في التخت روان (المحفة)، وكيتي ماكنتوش على ظهر جوادها، ولكن بمرافقة محفة احتياطية أخرى في حالة تعرضها إلى الارهاق من طول المسافة. أما الرجال فهم كل من المقيم، ريج، والدكتور هاينه والسيدين-بيلي ولوكيت. وكان الحرس يتألف من جنود سلاح الفرسان مع بندقية ميدان خفيفة، بالإضافة إلى ضابط سباهي واحد واثني عشر جندياً سباهياً (جنوداً هنوداً) ونحو سبعين بغلاً محملة باللوازم الضرورية والمتاع. وثمة مهماندر واحد (أمين إمدادات وتموين) كان الباشا قد أرسله لمرافقتهم، ورجل من عرب الجربة بمثابة دليل بهم، فاكمل هذان الرجلان عدد أفراد تلك المجموعة.

هذا، وقد غادر الجميع المخيم في كرارة في الساعة الثامنة والنصف فوصلوا إلى خان زاد على طريق بغداد-الحلة.

وبهذا الصدد يكتب ريج:

«وهذه الخانات ذات بناء مربع الشكل يحتوي على كوىً غير نافذة في جميع جوانبه لتسهيل حاجات المسافرين، كما توجد في كل خان غرفة أو غرفتان قرب البوابة. وفي وسط الفناء توجد وطيدة مرتفعة ينام عليها المسافرون صيفاً، وفي أفضل الخانات هناك سلسلة من

الإسطبلات حول ساحة الخان الرباعية. وفي أعلى البوابة توجد غرفة مفتوحة، كما توجد على الدوام قرية صغيرة، تترامى بالقرب من كل خان، بيوتها طينية.»

استغرقت رحلتهم، التي امتدت خمسين ميلاً في صحراء قاحلة، يومين كاملين، تلك الرحلة التي وصفتها كيتي ماكنتوش بأنها «رحلة مملة»، غير أنها كانت بعين ريج الفاحصة رحلة مفعمة بالمتعة والإثارة، لأنهم اجتازوا كثيراً من القنوات الجافة، وتلالاً اصطناعية كثيرة فحص بعضها وعين اتجاهاتها. وقريباً من الحلة، التي هي أقرب المدن إلى خرائب بابل، استقبلهم وفد أرسله حاكم المدينة، الذي أرسل كذلك فرقته الموسيقية لتسير أمامهم وسط الحشود الكبيرة التي جاءت لمشاهدة وصولهم. والحقيقة، هي لابد أنهم بدوا موكباً رائعاً في أعين السكان عند سيرهم نحو البيت الذي خصصه لهم باشا بغداد.

أمضوا عشرة أيام في مدينة الحلة، انهمك ريج وثلاثة إنكليز آخرون خلالها في زيارة التلال وإجراء القياسات اللازمة عليها، واستخلاص المعلومات التي يمكن الحصول عليها من الأهالي المجاورين. والجنود كذلك كانوا مصدر فائدة كبيرة من جهتهم، فقد استطاعوا، ليس الحد من التطفل الشديد الذي أظهره الفضوليون نحوهم وحسب، بل الانهماك في عمليات المسح كذلك. وثمة انكليزي واحد على وجه التخصيص يذكره ريج بالاسم – مور– كان خبيراً إلى حد ما في أجهزة الرصد وتسوية الأراضي مع فهم عميق بالقياسات المتسلسلة

وأشرطة التسجيل.

نشر التقرير الخاص برحلة ريج إلى بابل لاول مرة في مجلة فصلية تصدر في فيينا بعنوان «مناجم الشرق» ثم أعيد نشره عام (١٨١٢م) في كتاب يضم بين دفتيه الصور التي التقطها بنفسه. والطبعة الأخيرة كانت قد أعدتها ماري ريج عام (١٨٣٨م) حيث يعرض فيها التقرير الكامل.

إن مؤرخي آثار العصور القديمة، الذين كان هيرودتس أحدهم، يؤكدون جميعاً أن بابل كانت مدينة مترامية الأطراف، إذ يبلغ محيط جميع أسوارها (٦٩ ميلاً)، وهو محيط يبدو كبيراً للغاية!، ويبلغ ارتفاع تلك الاسوار (٣٥٠ قدماً) من الأصل، على الرغم من أنها هدمت فيما بعد لتصل إلى (٧٥ قدماً) بأمر من داريوس[1]، وكانت تبلغ (٨٧ قدماً) سمكاً. كانت مبنية بالآجر المفخور ومغطاة بالقار، الذي لا تزال توجد منه كميات كبيرة في الصحراء المحيطة بالمدينة. وصفت المدينة، على وفق تخطيطها، بأنها شُيِّدت إلى حد بعيد بالطريقة نفسها التي خُططت بها المدن الأمريكية الحديثة مثلاً، فهي ذات شوارع عريضة تقاطعها شوارع أخرى في زوايا قائمة، وفي كثير من نقاط التقاطع يمكن مشاهدة الساحات الواسعة والحدائق العامة. وفي أغلب الروايات والأوصاف المختلفة، يتباين الحديث عن عدد القصور فيها، إذ يذكر في أكثرها، على أية حال، أن عددها اثنان -

(١) هو دارا الاول - ملك فارسي حكم من (٥٢١-٤٨٥ ق.م)

القصر القديم والقصر الجديد- الأول في الجانب الشرقي من النهر والآخر في الجانب الغربي منه.

وهناك جسر عظيم كان يربط بينهما، فضلاً عن وجود نفق يمتد تحت نهر الفرات. ويُفترض أن معبد بيلوس الشهير كان قائماً بالقرب من القصر القديم، في حين كانت الجنائن المعلقة، التي اكتسبت نفس الشهرة، أو أرصفة الشارع التي صُفت عليها المصاطب، وقد خططت لتصبح مراتع للمرح والمتع الحسية، ويمكن مشاهدتها كلها إلى جانب القصر الجديد.

لقد وصف معبد بيلوس بأنه بناء مربع الشكل يحتوي على برج في داخله، وأقيمت فوقه ثمانية أبراج أخرى يتضاءل حجمها تدريجياً، ويشكل أعلى واحد منها المعبد نفسه الذي تضم حجرته الداخلية منضدة ذهبية، ولكن لا وجود للتماثيل هناك. وخارج البرج وضمن حدوده ثمة مذابح ذهبية خصصت للقرابين. ولدرء خطر فيضان نهر الفرات من إغراق المدينة، نظراً لان الماء في الصيف كان يرتفع ارتفاعاً كبيراً بسبب ذوبان الثلوج المنحدرة من جبال أرمينيا وكردستان، فقد شُقت قناتان على مسافة بعيدة من بابل لنقل الماء إلى نهر دجلة حيث تربو تلك المسافة على خمسين ميلاً. وهناك بحيرة واسعة تبلغ مساحتها قرابة أربعين ميلاً مربعاً وعمقها خمسة وثلاثين قدماً، حُفرت لتحويل الماء بوساطة سدود تتحكم به ولتكوين خزان مائي يستفاد منه في أيام الصيهود، بالإضافة إلى تزويد السكان بالماء وزراعة المناطق

الريفية المحيطة التي وُصفت بأنها شديدة الخصوبة من خلال ما يُرى فيها من أعناب وفاكهة أخرى فضلاً عن القمح. وقصة وليمة بيل شاصر وإطاحة داريوس (دارا) بعرشه معروفة لدرجة يُصبح من غير الضروري سردها هنا، وبعد ذلك بسنة أو سنتين احتل كورش الفارسي بابل بجيوشه حوالي (٥٣٩ق.م) . ثم مرت عشرون سنة تقريباً، حاصر بعدها داريوس هستاسبيس المدينة واستولى عليها ودك جزءاً من أسوارها، ثم دمر معبد بيلوس ونقل الابواب النحاسية لتلك المدينة. والمحتلان الأخيران ذبحا عدداً كبيراً من السكان[١] وعندما غزا الإسكندر مدينة بابل حوالي (٣٢٥ق.م)، كانت تحدوه رغبة في ترميم ما دمرته الحرب، خاصة القصور الرئيسة والمعابد، كان معبد بيلوس، على أية حال، كدساً كبيراً من النفايات لدرجة بات أمر إصلاحه وترميمه مهمة عسيرة. وبعد وفاة الاسكندر هجر السكان مدينة بابل، وحينما كتب سترابو – المؤرخ والجغرافي الروماني المعروف– مدوناته في عهد

---

(١) وبهذا الصدد لابد من ايضاح بعض الأمور، إذ أعتقد أن قصة هذه الوليمة وظهور الكتابة على الجدار، وإن ذُكرت في بعض الكتب، غير دقيقة وذلك لأنها تستند إلى أخبار عبرية أسطورية لتشويه حياة ملوك بابل بعد السبي الأول في (٥٩٧ق.م) والثاني في (٥٨٦ق.م). وللعلم إن بيل شاصر ليس آخر ملك بابلي، بل هو ابن نبونائيد – آخر ملك بابلي– الذي كان قد غاب عن بابل فسقطت المدينة بيد قائده الخائن كوبارو بعد اتفاقه مع كورش.

وهناك أمور أخرى ساعدت على سقوط المدينة منها: غياب نبونائيد عن بابل وبقاؤه في تيماء مدة طويلة، بالإضافة إلى خيانة كوبارو –قائد منطقة كوثا قرب المسيب– للملكة نبونائيد. يضاف إلى ذلك الغضب الذي استبد بكهنة مردوخ في بابل لغياب نبونائيد عن الاحتفال الكبير عام (٥٣٩ق.م).

تيبريوس، الإمبراطور الروماني (٤٢ق.م – ٣٧م)، بدا أن المدينة كانت قد هُجرت تماماً.

إن ما حدث لا يشكل إلا صورة عامة، ولكنها صورة غير وافية عن أبعاد تلك الأطلال الفخمة، فضلاً عن تاريخها، وهي صورة تكفي، مع ذلك، لإعانة الإنسان على أخذ فكرة بسيطة عما كان يعتمل في ذهن ريج من افكار وصعوبات خفية. لقد عفا الزمن وعتمة الحدثين على أصول المدينة، وجُدل تاريخها المبكر بأساطير كثيرة عن الأبطال وأنصاف الآلهة التي لا ضرورة لإعادة سردها في هذا المجال.

والخريطة، التي وُضعت خلال المسح الخاص الذي أجراه ريج، قد تضمنها الكتاب، وسوف تصبح أيسر في إعطاء فكرة عما حاول القيام به عند تدقيق النظر فيها. ومدينة الحلة التي استقروا فيها كانت على مسافة ميلين تقريباً من التلال الأثرية التي تقع أقصى جنوب المدينة القديمة وخارجها. وفي كل يوم كانت هذه المدينة تشهد قيام كلوديوس ورفاقه باكتشاف هذا الجزء أو ذاك.

أما حاكم مدينة الحلة فقد كان على أهبة الاستعداد لتقديم العون إلى البعثة، على الرغم من انه ربما كان يجهل الهدف الحقيقي الذي يرمي إليه المقيم. ومع ذلك، فقد كانت معرفته المحلية مجدية، وكذلك كانت مساعدته في تزويد الرجال بالمعدات الخاصة بإجراء التنقيب وإرشادهم إلى المواقع المختلفة المثيرة للاهتمام. لم يشأ ريج السير على الاقدام، ولذا تنقل على صهوة جواده، وإن كان التنقل بتلك الطريقة

رديئاً في بعض الأحيان، لأن التلال غالباً ما تكون هشة التربة تغوص فيها الخيول حتى ركبها تقريباً، وسطحها مغطى بقطع صغيرة من نترات الصوديوم وشظايا الأواني الفخارية وقطع الآجر. وبالإضافة إلى ذلك الشيء، فقد أضعف هطول المطر الذي تواصل على مدى قرون طويلة الأخاديد العميقة، فضلاً عن وجود حفر واسعة تمت بأيدي سكان المناطق المجاورة بحثاً عن الآجر لاستخدامه في البناء.

ولابد الآن، وقبل كل شيء، من تقديم فكرة عامة عن تلك الخرائب. فبعد تعيين بعض الرجال لقياس ضفاف نهر الفرات، انتقل ريج مع رفيقين آخرين على ظهور خيولهم مخترقين قرية جمجمة، وتقدموا بمحاذاة التلين (F, C) المثبتين على الخارطة. وفي أثناء مقابلتهم، لهذه المنطقة، بعض العرب الذين أرسلوا من بغداد لإعادة بناء حصون مدينة الحلة، أرشد أولئك العرب ريج إلى أحد أكبر التلال الذي يدعى القصر (أ) شمال شجرة قديمة مازالت اغصانها القوية مثقلة بالاوراق حتى الآن، يصفها كلوديوس بأنها شجرة صفصاف، وقد أخبروه بأنها كانت هناك منذ أزمنة سحيقة، وكذلك شوهدت أشجار على الجانب الآخر من النهر.

كان القصر أثراً مميزاً، نظيفاً في أكثر اقسامه تماماً، كأنه قد بُني تواً، وهو مربع الشكل تطابق تماماً مع نقاط البوصلة الأربعة. وبما أن داخله قد امتلأ بالأزبال والنفايات الكثيرة، فقد بدا أن أجزاء السور غير القائمة قد عُرضت إلى الهدم بفعل هزة أرضية. وبدا آجر هذا البناء

أكثر بياضاً من أي آجر آخر استخدم في أي مكان، وخالياً من أية نقوش أو كتابات عليه. لقد شُيّدت سطوحه الصلبة بالآجر الذي رصف إلى بعضه بوساطة بلاط من كلس جيري وصلصال وليس القار، الذي إذا اشتدت صلابته أصبح عرضة للتكسر بسرعة، حيث لا يمسك بالآجر جيداً إلا عند نقاط التقاطع الأصلية.

وساد اعتقاد عند السكان المحليين أن هذا التل تحف به المخاطر عند حلول الظلام، لأنه قيل أن كثيراً من الأرواح الشريرة كانت تأوي إليه.

شرع ريَج يرسم مخططاً لهذا القصر، كما فعل الشيء نفسه للمجيليبة التي يُفترض أنها موقع برج معبد بيلوس، الذي كان بناءً عظيماً انتصب متفرداً على مسافة ميل تقريباً شمال الخرائب.

وهذا هو المكان الذي زاره في اليوم التالي وتحرى ما في داخله والجأ ما يدعوه الأهالي – السرداب. ومور الذي كان جندياً في وحدة الفرسان، هو الذي كان يحمل المشعل، فاكتشفا غرفة يكفي ارتفاعها لوقوف إنسان بحرية، وقد رصفت جدرانها بالآجر وكسيت بالقار. كان هذا الصرح الذي أصابه الخراب يواجه كذلك الجهات الأربع الأصلية كالقصر، فواجهته الغربية في أفضل حالاتها، مع سور في الأعلى، وإن كان متداعياً ومفتتاً. شيدت هذه البناية بالآجر غير المفخور مع طبقة من القصب بين كل صف منه. وفي أحد الكهوف الكثيرة أو الأخاديد الغائرة على التل اكتشفا ما تصوروا أنه عرين لأحد الأسود، فقد تحققا من ذلك نتيجة للرائحة المنبعثة من المكان الذي

احتوى على قطع عظام بيض لمختلف الحيوانات. سادت القسم الأعلى لهذا الأثر الواسع فوضى تتمثل بوجود التلال المتناثرة وكميات الركام التي غطي سطحها بقطع الآجر المتشظي والفخار والزجاج والأصداف. وفي هذا المكان سمع كلوديوس لأول مرة الحكاية الشرقية عن الساتير (آله الغابات)، فقد ذكر أحد موظفي الحكومة أن وُجِد في الصحراء حيوان يشبه الإنسان من الرأس حتى الخصر، ولكن بفخذي وساقي خروف أو ماعزة، وقال إن العرب كانوا يصطادونه بوساطة الكلاب فيأكلون القسم الاسفل منه فقط!

وأخيراً، هل سنذكر النبوءة التي قالها أشعيا؟:

«سوف يقيم البوم هناك، ويرقص الساتير فيها.»

تبرز على خارطة المسح التلال العالية فقط، ومع ذلك، فإن التلال الأصغر يمكن مشاهدتها في كل مكان، وهي ربما كانت في الأصل بيوتاً خاصة أو حوانيت. ولابد من الإشارة إلى ان القنوات كانت تتسلل في كل اتجاه، واحدى تلك القنوات الواسعة التي شاهدوها كانت تمتد بين القصر والمجيليبة. وفي هذا الموقع انهمك العمال في الحفر لاستخراج الآجر لترميم البيوت المحلية وجدرانها.

اكتشف ريج أن جميع ذلك الآجر كان مفخوراً مع بعض الكتابات على سطحه، كذلك لاحظ مؤكداً أن وجه الآجرة ذا النقوش كان نحو

(١) وعلى افتراض ان مثل هذه النبوءة موجودة، فان الساتير هو روح خرافي يعيش في الغابات حزء منه بشري والآخر حيواني (من الماعز)، وهو ليس ضبعاً كما يشير إلى ذلك بعض الباحثين.

الأسفل، في القار، وإن لم يلتصق ذلك القار بالآجرة عند ازالتها. لقد اخبره العرب أن الكلس قد نثر فوق القار لمنعه من الالتصاق، ومع ذلك، فإن ما حيّره كثيراً هو العلة في وجوب إخفاء الجزء المنقوش.

وفي أحد الايام، حينما كان ريج منشغلاً في استكشاف ما تضمه المجيليبة، وجد ما يشبه الحاجز يمتد على طول الجزء الأكبر من السطح العلوي، واكتشف على الجهة الشمالية عوارض من جذوع النخيل التي أخذ منها بعض العينات. وعلى هذا الجانب كان ارتفاع السطح (١٣٢ قدماً) من مستوى السهل المنبسط، أما في الجوانب الأخرى، فهو أعلى من ذلك، وبعد تجهيز بعض العمال العرب بالمعاول ومثاقب الحفر في السرداب وما يجاوره، ابتهج كثيراً عندما عثر العمال خلال الحفر على هيكل عظمي مستقر في تابوت. كانت العظام سليمة بشكل يثير الدهشة، وكذلك أظهروا له طيراً نحاسياً أجوف، بدا أنه كان مثبتاً على التابوت بمثابة حلية. وحينما ذهب في اليوم التالي للاطلاع على جلية الامر والنزول في الممر الذي فتح، بعد أن حملت له المشاعل لإنارة الطريق، شاهد، في أثناء رفع القطع الواحدة بعد الاخرى لذلك التابوت والعظام، أن الجمجمة غير موجودة ولم يكن ثمة هيكل عظمي كامل، وإن اكتشفت على مسافة من ذلك التابوت عظام طفل صغير. لقد أخبروه باكتشاف جثة، بالقرب من هذا المكان، موضوعة في تابوت من خشب التوت وعليها ملابس كاملة. البدله قصيرة ضيقة وفي القدمين جزمة سوداء طويلة! ومع ذلك، فقد تفتت

الهيكل كله حينما عُرض للهواء، وبعد عدة استفسارات، اتضح أن الجزمة كانت ضمن القار الذي دفن فيه الجسد فالتصق بالساقين كأنه جزمة!

وكان لابد من مشاهدة تل آخر ضمن منطقة الخرائب يدعى تل عمران (ب). أقيم على هذا التل جامع ذو فناء واسع، شيد على ضريح عمران بن علي الذي توقره الشيعة كثيراً. يفترض أن عمران هذا قد استشهد في معركة بالقرب من هذا المكان، فدفن الجسد في مشكاة وغطي بصندوق خشبي لا يرى منه إلا جزء يسير. وعلى هذا، فقد اعتاد كثير من الناس المجيء هنا للزيارة وطرح التماسهم لهذا الولي، وربط قطع الخيوط على شباك الضريح. وهم، حينما تستجاب دعواتهم، كانوا يأتون لرفع الخيوط وجلب القرابين الصغيرة للسادن.

هذا ومضت المجموعة صباح يوم آخر في التنقل على صهوات خيولهم على البساتين والقرى الواقعة في الجبهة الأخرى من النهر، ولكن لم تكتشف أية أطلال أخرى هناك، غير أنهم، عند المجيء إلى مسجد آخر، أعني به «مسجد الشمس»، الذي يقع في البساتين القَريبة من الحلة، برز أمامهم ضريح النبي يشوع! وبدلاً من وجود منارة، كانت هناك مسلة على شكل مخروط مجوف زخرف من الخارج ليبدو كأنه ثمرة الأناناس . شكل غريب يثير الفضول، وإن كان يشبه صرحاً قريباً من بغداد أقيم على ضريح زمرد خاتون، زوجة

(١) المقصود: القباب المخروطية في أواخر القرن العباسي.

الخليفة المستضيء بأمر الله – والدة الخليفة، الناصر لدين الله العباسي.

وفي صباح أحد الأيام زار ريج أحد الأشخاص، صراف باشي (مصرفي حكومي)، وأخبره أن اليهود يعدّون أن سجن نبوخذنصر هو بريس نمرود (معبد بيلوس)، الذي يقع على مسافة ستة أميال تقريباً عن تلك الخرائب، وعلى هذا، ففي (١٩ كانون الاول)، وهو اليوم الذي سبق عودتهم إلى بغداد، قاموا برحلة قصيرة لمشاهدة هذا التل الشهير الذي يقع جنوب غرب الخرائب. اصطحبوا معهم حراساً لأن المناطق الريفية لا توفر ما يكفي من الأمن للمجموعة الصغيرة. كان الحرس يتكون من جنود الهوزار والسباهي ومدفع سريع، فضلاً عن حوالي ستين خيالاً أرسلهم الحاكم لهذا الغرض، ومن النادر أن يكون مثل هذا الحرس الكبير ضرورياً، لكن الأوامر الصادرة من باشا بغداد لحماية المقيم كانت مشددة، ولذا أصر على اتخاذ جميع التدابير الوقائية الضرورية. وعند اقترابهم من برس، شاهدوا تلاً مرتفعاً بحجم القصر تقريباً. وفي أعلاه كان مزاران يستقبلان الكعبة بالذات، خصصا لعبادة المسلمين، إذ يؤكد الأهالي أن النبي إبراهيم قد رمي قي تلك البقعة شخصياً، وسط النار بأمر من نمرود. وعلى وفق القصة التي يرويها المسلمون، فإن إبراهيم، الذي يدعونه خليل الله (الصديق الأثير لله تعالى)، حاول أن يهدي نمرود وحاشيته ويرشدهم إلى وحدانية الله الخالق، ولذا رمي في نار متأججة خرج منها سالماً.

وبما أنه لم يكن ثمة متسع من الوقت، فقد شرع السيد لوكيت

والانكليــز الآخــرون باجــراء المسح، في حين كــان ريج منهــمكاً بتخطيطاته. فهو يصف برس بأنه تل مستطيل واسع جداً، يرتفع في الركن الشمالي منه سور من الآجر يرقى إلى (٣٧ قدماً) ويمتد إلى (٢٨ قدماً) عرضاً، ويبلغ ارتفاع التل بأكمله، من السهل إلى اعلى السور (٢٣٥ قدماً)، وكان محيطه في القاعدة (٧٦٢ ياردة)، أو ما يقارب نصف الميل طولاً. ومن أعلاه يستطيع المرء رؤية مشهد أخاذ، غير أن مسالك ارتفاعه وعرة لا تخلو من المجازفة، وذلك لان، التل قد غطي بكتل كبيرة من البناء المشيد بالآجر، التي انهارت بشكل أخرق على سطحه، بدت لعين المشاهد أنها كانت نتيجة لتأثيرات نار شديدة. راودت ذهن ريج فكرة أنه لولا المسافة الممتدة من الخرائب الفعلية، وكونها من الجهة الشرقية من النهر وليست الغربية منه، لكان يمكن تشخيص ذلك الركام على أنه معبد بيلوس، لكن ذلك بدا غير صحيح من الناحية الجغرافية.

وفي اليوم التالي، العشرين من كانون الأول، غادروا مدينة الحلة على ظهور جيادهم خلال الخرائب والتلال، في طريق العودة إلى بغداد. ولدى مرورهم بالقصر ثانية، شاهد بعض رجاله منهمكين في رفع الأنقاض عما سموه بـ«الوثن». ولخيبة أمل ريج الكبيرة، اكتشف، بدلاً من تمثال بشري ، أسداً من الصوان (الغرانيت) بلونه الرمادي وملمسه الخشن وأبعاده الاستثنائية، حيث شكل فمه حفرة تكفي لوضع قبضة الإنسان فيها. كان الأسد مضطجعاً على قاعدة تقع شرق

القصر وقد غطي كله بالنفايات تقريباً.

رأى السيد لوكيت، الذي تجول في بلاد فارس كثيراً، ما يشبه هذا في شابور، وإن لم يوازه حجماً، وعلى هذا ، فقد فكر ريج أن هذا لا بد ان يكون «الوثن» الذي ذكره بوشامب والذي سبق أن زار الخرائب قبل اثنتين وعشرين سنة.

كانت الأطلال والتلال والمنخفضات المترامية إلى أميال داخل الصحراء تقع كلها حول مدينة الحلة وبابل، ولم يذكر ريج إلا القليل منها. عرف بعضها في الاغلب من الإشاعات التي يتناقلها الناس، لأنه لم يعد لديه ما يتسع من الوقت للتحري عنها شخصياً. أما اللقى التي عاد بها ريج فلم تكن كثيرة، لكنها تثير الاهتمام، في إطار حقيقة إنها قد شكلت النواة لمجموعة آثار العصور القديمة - البابلية والآشورية - قي المتحف البريطاني.

الفصل السابع

العودة إلى بغداد (١٨١٢م)

لدى وصولهم إلى بغداد، وجدوا رسالة من السير جيمز، يبدي فيها موافقته على زواج ابنته -كيتي- من السير وليام. لا ريب في أن ذلك كان طريقة رائعة لتسوية امر زواج ابنته الصغرى، لأنه كان على وشك الرحيل إلى إنكلترا. وعلى أية حال، فإن مبعوثاً رسمياً يدعى السير كانغ، الذي كان في طريقه إلى بلاد فارس، هو الذي صحب السير وليام متلطفاً في سفينته ليبدآ رحلتهما معاً إلى بغداد. وصلا إلى المدينة بعد عودة عائلة ريج من بابل مباشرة، فتم زواج كيتي من السير وليام في أوائل شهر كانون الثاني عام (١٨١٢م).

وبعد مكوث العروسين أسبوعين في بغداد، شرعت عائلتنا ريج والسير وليام بالسفر إلى البصرة في يخت المقيمة، وفي شباط واصل وليام وزوجته رحلتهما إلى بومبي. كيتي، ياللفتاة المسكينة، كانت في السادسة عشرة من عمرها تماماً، ولم يكن زواجها سعيداً. كم يشعر المرء بالسعادة وهو يفكر في الشهور البهيجة القليلة التي أمضتها مع عائلة ريج، ومع ذلك، فقد كتب على كيتي الا ترى كلوديوس العزيز على قلبها ثانيةً قط.

وحينما عادت عائلة ريج إلى بغداد، استقرت مرة أخرى لتمارس عملها الروتيني المعتاد، غير أن صحة كلوديوس كانت أبعد ما تكون عن

الاستقرار. فخلال فصل الصيف الحار من عام (١٨١٢م)، تواصلت معاناة الحمى وآلام الرأس المبرَّحة، فهو، بدلاً من التأقلم مع فصل كل صيف، تردت صحته كثيراً. أصبح فاتر الهمة وفقد التركيز كثيراً على أي موضوع من الموضوعات. لقد حاول تدوين مذكراته الخاصة برحلته إلى اطلال بابل، لكنه وجد ذلك الأمر مرهقاً للغاية. وهكذا، بدا أن قراءة الروايات المختلفة كانت تسليته الوحيدة، في وقت أصبحت فيه ماري شديدة القلق على حالته الصحية، وعن هذا الأمر تقول:

يصعب عليك التعرف عليه، فقد أصبح وجهه غاية في النحافة وفقد لونه المشرق بصورة كاملة».

والحقيقة، هي أن الأيام الحارة، بوجهها النحاسي القاسي، ولياليها الساخنة التي تندر أن تسجل أقل من مائة درجة فهرنهايت، قد أنهكت جسده. كما أن الحياة في بغداد لم تتمخض عن أية تسريات لراحة باله، عدا تكرار المكائد المألوفة التي تحفل بها المدينة. وفي إحدى المنازعات، كان كلوديوس سبباً لإنقاذ حياة أحد أولاد الباشا الراحل، فقد كان هذا الشاب موضع حب الناس، لكن سلوكه كان منفلتاً فأثار الفوضى في كل مكان حلَّ فيه. وعلى هذا، فقد حاول الكهية (رئيس الوزراء) سجنه، لكنه هرب ملتجئاً إلى ريج طلباً للحماية، فأصر الأخير بحكمة منه وبعد المفاوضات التي أجراها مع الباشا، أخذ الشاب إلى قصر الباشا حيث اذعن لمطاليب ذلك الباشا الذي أصدر له عفواً عاماً. أما أُم الشاب، وخلافاً لكل قواعد التشريعات، فقد جاءت شخصياً لتقديم

الشكر للمقيم، نظراً لعدم وجود شخص آخر غير ريج في بغداد يتمتع بما يكفي من السلطة لإظهار شجاعته لفعل ذلك، أو يمكنه تحقيق مثل ذلك العفو، وبعد حسم ذلك الأمر ودياً وسلمياً ترسخت سلطة ريج أكثر فأكثر.

وخلال عام (١٨١٢م)، أُثير اهتمام عائلة ريج، أو ربما اهتزت تلك العائلة ومجتمع تلك الأيام نتيجة للبيانات والروايات التي تناقلها الناس عن رحلة الليدي هيستر في ربوع سوريا. كانت تلك المرأة المرموقة في نحو السادسة والأربعين من عمرها، وترتدي في العادة ملابس المماليك وتعتمر عمةً من الشال الأخضر أهداها لها باشا مصر، وقدَّم لها في الوقت نفسه مملوكين فرنسيين! سافرت المرأة مع حاشية كبيرة من أشخاص يتسمون بتهذيب كبير، كان من بين آخرين منهم شخص يدعى «السيد نورث» المرحوم، حاكم سيلان. وكان السيد بروس سكرتيراً لها، وهو ابن مصرفي بعمل في بومبي، فضلاً عن مستشارها الطبي وعدة أصدقاء آخرين. أمضت سحابة ذلك الصيف قي جبل لبنان حيث استقرت هناك فيما بعد، وكذلك زارت خلال هذه السنة مدن القدس ودمشق وتدمر وحلب.

كان السفر إلى سوريا موضة رائجة إلى حد كبير في تلك الأيام التي أوقفت حروب نابليون بونابرت قارة أوربا وبلاطاتها الرائعة زيارة أكثر شباب الطبقة الراقية إليها، اولئك الشباب الذين التزموا بقواعد السلوك السائدة حينذاك، والذين كانت الرحلات المهيبة بالنسبة إليهم جزءاً من

ثقافتهم العامة. ولهذا ازداد شغفهم واستحسانهم بأوربا الشرقية وما تركته من آثار كانت مثار إعجابهم الشديد بالعصور الإغريقية القديمة بالشرق الأدنى ودول الجوار.

ومن هذا المنطلق فإن بعض الأسماء أمثال كيرزون وكنغليك وبايرون كان يمكن أن تتكرر في ذاكرة الإنسان. وعلى الرغم من أن ريج وهيستر لم يقدَّر لهما لقاء أحدهما الآخر قط، إلا أن المراسلات بينهما تواصلت كثيراً.

وربما يصبح من غير الضروري التنويه بأن المماحكات التي حدثت بسبب الشؤون المالية المعلقة بين بغداد وبومبي لم تتوقف، إذ تواصلت الرسائل الطويلة حدَّ السأم بينهما على الرغم من الحسم الظاهري لتلك الأمور. والبنود المثيرة للسخط، التي سبق أن أدخلت في حسابات المخططات الإضافية، كالصرف على ملابس الجنود السباهيين وترميم الممتلكات المنزلية، كان مقرراً لها أن تسجل على حساب راتب ريج الخاص، مما أضاف الشيء الكثير على ما كان يعانيه المقيم من قلق وكآبه. وحتى بعد انقضاء فصل الصيف الحار والتغيير الذي حدث في كرارة خلال الخريف، فإنَّ صحته الجسدية وحالته النفسية لم تتحسنا إلا قليلاً. بدا كأنه لم يشأ أن تتقدم صحته، فقد كان في الحقيقة يشعر بأنه مريض جداً، ومن جهتها أصبحت ماري في أشد حالات القلق والاضطراب، فهي تقول: «لقد تغير كثيراً لدرجة تجعلك تتعاطف مع ما يعانيه من ملنخوليا وسوداوية».

وفي شهر كانون الأول، وطلباً للتغيير، قاما برحلة قصيرة إلى المدائن (طيسفون) وسلوقية[1]، فقد بدت بغداد وضواحيها بغيضة على نفسيهما، بالإضافة إلى غياب المجتمع الإنكليزي - عدا مسافر يأتي عرضاً. ولم يمر كل هذا دون تأثيره وعليه، فالرحلة أسفل النهر قد أتاحت لهما أفكاراً ومناقشات جديدة. وريج، المولع دوماً بالتاريخ القديم، وجد متعة في اكتشاف أطلال المدينتين المذكورتين، في حين استمتع هاين، وهو الصياد الحاذق، بعدة أيام من تلك الرياضة الرائعة. أما ماري، فقد تغلبت على مخاوفها من ركوب الخيل فأصبحت فارسة لا يشق لها غبار، وراقها كثيراً ركوب الخيل في الصحراء بصحبة رجلين من الحاشية. امتطت صهوة جواد أختها كيتي، التي اضطرت إلى تركه وراءها، فشعرت الآن بالحرية على ذلك السرج. اهتم ريج كثيراً بآثار المدائن الضخمة الآسرة، فهو عند فحص القوس (الطاق) الذي كان أهم معلم شهير فيها، شاهد دعامة خشبية أفقية تحت أحجار العقد الذي يركز عليه الصرح، وفي وسط تلك الدعامة رأى حلقة حديدية كبيرة. ولدى زيارته للمكان في رحلة لاحقة، اكتشف أن الحلقة قد رفعت من موضعها. أخبروه أن السكان العرب قد خلعوا تلك الحلقة عندما أرسلوا رجلاً يحمل سلة تحتوي على بعض العدد، وكان ذلك العامل قد

(١) مدينة قديمة أسسها سلوقس الأول - أحد قادة الإسكندر الأول - لتكون عاصمة لإمبراطوريته على نهر دجلة. استمرت مركزاً تجارياً حتى العهد الروماني، ولكنها دمرت عام (١٦٤م) ليقضى عليها وبالتالي للقضاء على الحضارة الإغريقية في بابل.

سحب بوساطة حبال معلقة فوق القوس، فاكتشفوا لفرحتهم الغامرة أن تلك الحلقة كانت من الذهب!

أجرى ريج القياسات اللازمة زاعماً أن ارتفاع القوس يبلغ (١٠١ قدماً) عن مستوى الأرض، وأن طول البهو يبلغ (١٥٣ قدماً)، ولا تزال الروافد الخشبية شاخصة للعيان في الواجهة ويذكر ريج أن السقف مخرم بأنابيب خزفية، وأن الجزء الأسفل من البناء كان أكثر تفسخاً وتلاشياً من جزئه الأعلى. وكذلك تمت زيارة سلوقية الواقعة على الجهة المقابلة من نهر دجلة هي الأخرى، ولكن ثمة القليل الجدير بالمشاهدة عبر التلال والأطلال.

لقد أثبتت الرحلة نجاعتها على صحة كلوديوس، غير أن العائلة قررت أن الصيف التالي لا بد أن يقضى في مناخ أكثر برودة فيما إذا كان الابتعاد عن بغداد أمراً ممكناً، إلى الشمال مثلاً، نحو جبال كردستان حيث يمكنهم هنا قضاء فترات الصيف في طقس معتدل. لكن ثمة صراعات قبلية وخلافات متواصلة مع باشوية بغداد لدرجة لا يمكن أن يكون ذلك اقتراحاً يتحقق فيه الأمان الكامل، حتى بالنسبة للمقيم نفسه لتمضية شهور قليلة في تلك الربوع. أما ماري فقد عقدت العزم على وجوب الابتعاد إلى أي مكان، إذ تقول:

«إنني على قناعة أكثر من أي وقت مضى بقضاء الصيف القادم في مناخ معتدل، لأن بنية ريج قد عرضت إلى هزة عنيفة. فقد انهارت حالته الذهنية تماماً، وعلى نحو أعزوه جزئياً إلى حياة العزلة التي

يعيشها، والتي لها صلة بالمناخ. فحينما كان وليام هنا، كنت على يقين ان كلوديوس كان أكثر الاثنين صخباً وخلاعة، ولم نستطع كبح جماحه إلا بصعوبة، لكن الحال تبدل الآن، فهو يجلس مستغرقاً في قراءة كتاب عسكري تافه من الصباح حتى الليل».

وفي أشهر الشتاء، شعر كلوديوس بتحسن ملحوظ فحاول ان يهتم اهتماماً عاماً بمجريات الأمور حوله. وهاهو يورد نادرة أو نادرتين عما يدور من لغط بهيج إلى والد زوجته، وإن لم يستطع انجاز أي عمل جدي حقيقي. وهنا اذكر نموذجين من كتاباته في رسالة إلى السير جيمز:

«لعلك لن تطلع على وجود مؤسسة كتلك التي تدعى «المكتبة الجوالة» التي تعير الكتب للمطالعة الخارجية في بغداد! في الحقيقة هناك عدة مكتبات من هذا النوع، تجهز الناس بالكتب والقصص وكتب التاريخ المسلية... الخ مقابل بارات[1] قليلة أسبوعياً. فأماسي الشتاء الطويلة تعد مواسم للقراءة، إذ يلتقي عدة أشخاص فيدفعون معاً نصيبهم من النقود لاستعارة الكتب التي يتلوها عالياً أحد هؤلاء على مسامع الآخرين لإدخال البهجة في نفوسهم. وفي ليالي شهر رمضان والعيدين خاصة هناك قراءات في كل بيت من بيوت الوجهاء.

وثمة مؤسسة أخرى في بغداد، كنت قد اكتشفتها مصادفة، ليست اقل سخرية من الأولى لما فيها من غرابة. فقد كان للسيد هاين سائس خيل، جاءت زوجة الأخير إلى فناء المقيمة الخارجي حيث ضربت زوجها

(١) البارة وحدة نقدية تركية (جزء من اربعة آلاف جزء من الليرة).

ضرباً مبرحاً بالصوت وخربشت وجهه ونكثت لحيته المشذبة! ولما سألت عن هوية المرأة، أجابوني أنها ابنة (ملك الشحاذين!) وبعد مزيد من الاستفسار، اكتشفت أن وزيراً معروفاً جداً في عهد سليمان ـ سلف المرحوم علي باشا، عَيَّن أحد الشحاذين لتكون له اليد الطولى على شؤون جميع متسولي بغداد. كان الشحاذون جميعاً مذعنين له ومنقادين لأوامره، وكان يعدُّ مسؤولاً عن سوء تصرف جميع أعضاء تلك الجمعية. وحينما تؤخذ أعداد الشحاذين الغفيرة هنا بنظر الاعتبار، فإن مثل هذه المؤسسة، مهما بدت غريبة الأطوار للنظرة الاولى، لن تبدو دون فائدة! ».

مضت شهور الشتاء دونما إثارة كبيرة. ثم تواصلت الرسائل المتسمة بكامل التذمر وصور الاعتساف من بومبي،فضلاً عن مظاهر السخط التي سادت الأوساط الداخلية بصورة مستمرة في باشوية بغداد، وهي مظاهر تتابعت بنسق ممل رتيب. ولكن في شهر آذار عام (١٨١٣م)، غمرت المقيمة فرحة طاغية نتيجة للأخبار التي تواردت عن الاخفاق الذي أصاب نابليون بونابرت في موسكو وعن انسحابه من روسيا، تلك الأخبار التي اوحت بالاشارة الأولى لإخفاقه في مسلسل انتصاراته المختلفة. لقد استقبلت الأنباء الصادرة من دوائر الاستخبارات بفرح غامر، ففكرة أن نابليون أمكنه أن يتحمل وطأة الاندحار خففت من عبء الخوف الذي ارهق قلوب الناس خلال حملاته الظافرة. ان انهيار التأثير الفرنسي في تركيا سوف يرجح كفة إنكلترا هناك، غير أن ريج كان

مريضاً لدرجة لا يمكنه التمادي في الشعور بذلك الابتهاج طويلاً .

ومع ذلك، فقد أنعشته شهور الشتاء الباردة وجعلته قادراً على إشغال ذهنه بكتابة بعض المقالات وإرسالها إلى مجلة «كنوز الشرق» وهي مجلة نمساوية فصلية تغلب عليها ترجمة القصص التركية. وكذلك كان منهمكاً في القراءة، فقد تسلم شحنة كبيرة من الكتب، حوالي ثلاثمائة مجلد - من باريس، وهي كتب ذات صلة بتاريخ الشرق والرحلات وكتب النحو. كان، من بين كتب أخرى، كتاب «دي ساسي» الموسوم (حروف فوق نقوش شارة الشرف) وسعره أربعة فرنكات، وكتاب دولسون (لوحة الشرق التاريخية)، وهو جزءان بسعر عشرة فرنكات، لكن تلك الكتب، حتى في أسعارها المتدنية هذه، لابد أن تكون مجلداتها الثلاثمائة قد كلفت مبلغاً كبيراً من المال.

وحلَّ الطقس الحار ثانية، ففي أحد أيام شهر مارس، انتاب ريج صداع شديد فعرِّض بالتالي إلى مرض شديد ورقد يلهث عدة ساعات. وإزاء هذه النوبات المرضية، كان السيد هاين عاجزاً، فلاشيء ضمن معارفه الطبية كان ذا فائدة لتهدئة الغثيان والألم اللذين تواصلا كثيراً. وريج، الذي ترنح من الألم المبرح، وانقبضت أطرافه وصرت اسنانه، أخذ جسده يرتجف بارداً على الرغم من انه كان يتصبب عرقاً كالثلج. وعلى وفق المعايير الطبية الحديثة السائدة الآن، فان تلك الحالة تشير إلى انها الملاريا.

وخلال هذه الشهور توالت الرسائل من بومبي لتصبح أكثر تعسفاً

وبذاءة، وعلى هذا، فقد خشي الجميع من وصول سعاة البريد، لأنهم كثيراً ما أثاروا أعراض المرض الشديد على ريج، فيقعده ذلك يوماً أو يومين.

لم يلح في الأفق إطراء وشيك على ما يقوم به ريج، على الرغم من أنه أصبح الآن أكثر الأشخاص موضعاً للتقدير والثقة في مجتمع بغداد، التي كانت التسهيلات التجارية للبريطانيين فيها على الدوام، يمكن ان تمنح له فيما إذا أرادها لنفسه.

وفي شهر تموز أضفي على المقيم – ريج – أعظم شرف من لدن الباشا، إذ انعم عليه، بمناسبة تثبيته في باشويته ووصول شارة الشرف المتمثلة بثلاث طوغات[1]، بتقليد ريج سيفاً رائعاً بالإضافة إلى إهدائه حصاناً يعلو ظهره سرج ذو غطاء مزركش، ومعطفاً من فراء السمور موشىً بنسيج من الذهب. ومنح السيف يعني شرفاً لا يسبغ على أي شخص غير أولئك الذين يتمتعون بمنزلة رفيعة، كما لم ينعم به على أي أوربي آخر غير ريج.

لم أحاول تعقب المكائد المختلفة والحروب التي حدثت في الباشوية. ويكفي القول أن هذا الباشا، الذي حضر ريج تواً الاحتفال بتعيينه، هو سعيد باشا، الشاب الذي أنقذ حياته. أما عبد الله، باشا بغداد سابقاً، فقد قتل غدراً حينما كان سجيناً لدى شيخ المنتفك في شهر كانون

---

(١) الطوغة: شارة شرف تمنح للمتميزين من رجال الحكم، وهي تتكون من بسكول من شعر ذيل الحصان.

الثاني الماضي.

وقبل موت عبد الله باشا، استطاع ريج الحصول على امتيازين منه- أولهما يتعلق بعدم استيراد المواطنين الهنود بوصفهم عبيداً، ذكوراً كانوا أو إناثاً، لأسواق تركيا، وثانيهما، الامتناع عن حماية الهاربين من السفن البريطانية، وكلا الأمرين يعني إجراءً مهماً. وبعد عودة السير ماكنتوش إلى إنكلترا التمس منه ريج أن يتحدث نيابة عنه إلى مدراء الشركة، لإظهار قليل من اللين والشعور الودي نحوه. وكان لهذا، على ما يظهر، بعض التأثير، إذ أصبحت الرسائل خلال شهر آب ذات نبرة أكثر تهذيباً. وبالفعل، فقد كانت إحداها طويلة تطري سلوكه الوظيفي.

قدَّم ريج طلباً لمنحه إجازة بسبب سوء حالته الصحية فمنح ثلاثة أشهر، غير أن هذه الإجازة مددت نظراً لصعوبة منحه الوقت الكافي للخروج من باشوية بغداد والرجوع إليها. وعلى هذا، لم يكن ترتيب الأمور بصورة نهائية حتى فصل الخريف، ولم تتم الإجراءات حتى تشرين الأول من عام (١٨١٣م) حين غادرت العائلة مدينة بغداد، تاركة السيد هاين ليقوم بمهام الوكالة في أثناء ذلك الغياب.

الفصل الثامن
الرحلة من بغداد إلى القسطنطينية (١٨١٣م)

غادرت عائلة ريج مدينة بغداد بعربة ذات أربع عجلات بصحبة السيد هاين، الذي رافقهم خلال المرحلة الأولى من السفر فقط. لقد تابعت العائلة تشكيل فريق الرحلة، الذي تألف من تتري واحد، وهو رجل خبرة موثوق به يدعى توما جان، سبق أن مارس الطب في القسطنطينية، فضلاً عن مساعد له. وكذلك تضم المجموعة أحد الخدم ومدير خدم القصر (قهرماناً)، الذي يدعى بيترو، وطباخاً شرقياً مدججاً بالسلاح حتى أنفه، في حين كان كل من الرقيب العسكري والبيطري من فرقة الفرسان يحمل بندقية قصيرة ومسدسين وسيفاً، وهي الأسلحة نفسها التي كان ريج يتقلدها. هذا، وكان الرقيب يقوم بمهمة الخادم الشخصي لسيده ريج، إذ يعنى بملابسه ويساعده على ارتدائها.

أما السيدة ماري ريج، وسعياً لإتاحة أكبر راحة وأمان لها، فقد ارتدت ملابس تتري شاب. ومن وصفها الخاص لنفسها يظهر أنها لا بد كانت تبدو في غاية الغرابة. ارتدت فوق قميصها التركي صدرة طويلة من الساتان المخطط باللونين، الأحمر والأصفر، مزررة حتى أسفل القسم الأمامي. وفوق ذلك ارتدت ما يشبه العباءة، أطول من الصدرة، ذات أردان فضفاضة، مزررة من الرسغ حتى منتصف الذراع، ويمكن لهذه

العباءة أن تلف وتشد عند الرقبة دون ياقة. رداء فضفاض محكم الشد في الوسط بوساطة منديل. وعلى طرفيها السفلي سروال قصير تحتاني ارتدت فوقه سروالاً من قماش أزرق غامق. السروال واسع جداً، وجميع الملابس العليا مثنية إلى الداخل، ثم إن السروال ذلك مربوط حول الخصر بخيط، يضيق جداً عند الكاحلين. وارتدت، بمثابة معطف، نوعاً من معطف نسوي مزركش بالفراء، أحمر اللون واسع، شدَّ حوله شال واسع بصورة محكمة. انتعلت جزمة حمراء واسعة، وعلى رأسها اعتمرت قبعة من القماش الأبيض على شكل بطيخة مقلمة بخيوط من الذهب، وحول تلك العمة اعتادت أن تلف شالاً مغربياً أصفر يكفي، هو الآخر، لتشكيل عمة، وإن ذلك الشال يلتف حول رقبتها حماية لها من البرد والحر.

وبعد المرحلة الأولى من السفر، أعيدت العربة إلى بغداد، فامتطى الجميع اثني عشر جواداً من جياد البريد. أما المتاع الذي يتألف من أدوات المطبخ، فقد أشغل ظهور أربعة منها، لأن التجارب علمت ريج خطل فوائد المتاع الفائض عن الحاجة، ولذا كان لا بد من الاستغناء عن الكماليات.

ومع ذلك، فقد اعتاد ريج على الدوام حمل عدَّة الرسم ومواد التخطيطات التي يمارسها، فضلاً عن مقياس الحرارة والساعة والمنظار وآلة تصوير تحمل في الجيب لقياس ارتفاع الأجرام السماوية. ونظراً لانعدام الخرائط التي ترشدهم، عدا بيانات قليلة لا يعتمد عليها كثيراً، فقد كان

الطريق الذي سلكوه معروفاً للسعادة (مرافقي السياح) التترين. هذا، وقد احتفظ ريج لنفسه ببيانات دقيقة عن كل ما يخص اتجاهه خلال الرحلة في يومياتة الخاصة.

كان عدد الفرق وافراً، وبدرجة كافية من القوة، ودون حرس. أضف إلى أن ريج قد زوَّد بفرامين ورسائل توصية لتدبير حرس لحمايتهم أو أية إجرءات وقائية للحفاظ على حياتهم، واستقبالهم بمراسيم رسمية من لدن الحكام شخصياً.

وبعد مغادرة بغداد في الخامس عشر من تشرين الأول، وصلوا إلى « دلليّ عباس » مساءً، متأخرين بعض الشيء بسبب تعرض عربتهم إلى حادثة بسيطة. وفي الساعة التاسعة صباح اليوم التالي ركب الجميع لاستئناف الرحلة، مودعين السير هانز الذي كان في طريقهِ إلى بغداد. ترامى طريقهم فوق سلاسل الجبال والتلال الصخرية وخلال مجاري الأنهار الجافة، تلك السلاسل التي سبق أن كانت امتداد لسلسة جبال حمرين، والأخيرة هي المجاري التي تستنزف مياه الجبال المحيطة. أرض موحشة ليس فيها من الأمان ما يكفي لمسافر بمفرده، لأن الجبال قد ابتليت بقطاع الطرق واللصوص، الذين لا يرعون، على أية حال، من مهاجمة قافلة حتى من ثمانية اشخاص. وهكذا، اجتازت القافلة مدن كفري وطوزخورماتو وداقوق، متوقفة كل ليلة في أحد الخانات أو في ضيافة أية شخصية بارزة. والجدير بالذكر أن داقوق شهرت بكونها

مدينة تضم ضريح الحسين بن الإمام علي[1]، ولذا فهي موضع توقير المسلمين.

وفي يومياته يكتب ريج:

«لا يزال الجدال محتدماً فيما إذا كان لهذا المكان شرف احتواء رأس الحسين، في حين أن هناك بناية مشابهة في نصيبين تحتفظ بجسده، أو العكس بالعكس، ومع ذلك، فهو مكان عظيم يؤمه جمع كبير من الزائرين. وفيما مضى تدلت من القبة حلقة من الحديد علقت بوساطة سلسلة، شيء ما يشبه ذلك العمل البارع الذي مارسته البلاد قديماً للكتاب المقدس والمفتاح. فقد اعتادوا التفكير في رغبة من الرغبات، ومن ثم يضعون السلسلة في وضع من الحركة مقررة سلفاً، فإذا عادت الحلقة المتحركة إلى سبابتهم التي يجعلونها ثابتة ساكنة، فإن أمنيتهم سوف تتحقق. لكن المرحوم سليمان – باشا بغداد– وضع حداً لهذه الممارسة وذلك بإنزال السلاسل التي قال عنها بأنها ستصلح لبغاله![2]

تناوبت المسافة التي استغرقتها رحلة كل يوم ما بين (٢٥–٤٥) ميلاً، غير ان هذا كان مجرد أرقام تقريبية، على أساس أن المراحل كانت تحسب بالوقت، ثلاثة أميال وجزء إضافي من الميل في كل ساعة.

وفي اليوم التالي شوهد المسافرون في كركوك، وهي مدينة كبيرة

---

(١) ليس هذا صحيحاً لأن قبر الإمام الحسين في كربلاء. لعل هذا القبر لولي يدعى علي زين العابدين، وهو غير الإمام زين العابدين المدفون بالمدينة المنورة.

(٢) تصرف غريب حقاً.

قليلاً من مدن الباشوية. كان ريج في وضع صحي سيئ جعله يرغب في إلغاء جميع المراسيم التي ستقام له، وإن لم يستطع تفادي بعض الاعتراف الرسمي بمركزه الوظيفي. ففي صباح اليوم الثاني، عند مغادرته، قابله جانيساري آغا مع حرس يتسم بأكثر المظاهر غرابة، فالحرس كان يتألف من اثني عشر رجلاً مسلحين بالبنادق أو الغدارات، يمتطون البغال أو الحمير، وخمسة فرسان من الجيش العثماني على ظهور البغال، كما هي الحال بالنسبة للسابقين وبشكل واضح، مسلحين بالرماح والسيوف. ولعل الفائدة الرئيسة لمثل هذا الحرس البائس هو أن يشيع أمر انتمائهم إلى الحكومة، «ولابد أن يكونوا بؤساء حقاً أولئك اللصوص الذين يخيفهم أمثال هؤلاء الصعاليك.» وهذه العبارة الصغيرة جزء مما يكتبه ريج في يومياته.

وعلى مسافة قليلة من مدينة كركوك، اتجهوا لفحص سهل دائري صغير محاط بالجبال يشبه فوهة بركان، ولونه أبيض بفعل الكبريت، ويحتوي على كثير من الصدوع الصغيرة التي ينبعث منها اللهب، بعد المطر خاصة. جاء ذكر هذا الموضع منذ عصور قديمة، وأفضى بالجغرافيين إلى أن يطابقوا كلمة كركوك مع «كوركورا أوديمتريوس». وعلى بعد مئات قليلة من الياردات، كانت هناك حفر النفط، حيث يكتب ريج عنها قائلاً:

« حيث يبدو العمال هناك كأنهم أرواح شيطانية، ولجعل التشابه أقوى، فقد أضرم بعضهم النار في إحدى تلك الحفر، التي تأججت

يصحبها دخان أسود من زفت دبق فبدت كأنها نسخة مصغرة لبركان ثائر. »

توقفوا لقضاء الليل في التون كوبري بعد اجتيازهم نهر الزاب الصغير. وفي صباح اليوم التالي أحاطهم ثانية خمسة عشر فارساً بقيادة الضابط أو محافظ المدينة شخصياً، نظراً إلى خطورة الطريق. وانتهى بهم المطاف عصر ذلك اليوم إلى مدينة أربيل، التي ارتبط اسمها بالمعركة التي نشبت بين الإسكندر ودارا والتي تحقق فيها النصر للأول عام (٣٣١ ق.م). وهنا تعذر عليهم التمادي في التستر على اسمائهم المستعارة، فقد قابلهم الحاج قاسم بك –حاكم المدينة – الذي كان، هو الآخر، أحد كبار أصحاب الاراضي في تلك المنطقة. سار الحاكم ترافقه فرقة موسيقية عسكرية ورقباء عسكريون – يضربون نقاراتهم ويحيطون بالقافلة لحراستها حتى القلعة التي أقام فيها الحاكم شخصياً. وبعد تناول العشاء، ذهب ريج إلى ديوان الحاكم للتدخين معه للمجاملة، من ناحية، ولتلقي المعلومات عن طبيعة المكان من ناحية أخرى.

وصباح اليوم التالي، السبت، الثالث والعشرين من تشرين الأول، استأذنوا مضيفهم الكريم لمواصلة الرحلة. وهكذا، ركبوا مبكرين، فوجدوا حراساً خارج المدينة يمتطون صهوات خيولهم الكردية بشكل لائق. وفي اثناء مغادرتهم، ضايقتهم جموع من الفتيان الراقصين الذين صاحبهم عازفو القيثارات ذات الأوتار الثلاثة، مع الرق. جاء هؤلاء الموسيقيون، بصورة رئيسة، من قرية قريبة من التون كوبري، وهم

يكسبون رزقهم بوساطة تدريب هؤلاء الصبية على القيام بالعزف وأداء الرقص، ويتجولون في جميع الأرجاء كالغجر.

وفي منتصف النهار بلغوا قرية كلك على الزاب الأعلى، الذي كان في ذلك الفصل من السنة في أدنى مستوياته، ومع ذلك، فقد كان عرضه ما يزال قرابة الستين أو السبعين ياردة.

أخذت عائلة ريج قسطاً من الراحة في الظل وتناولت طعام الغداء، في حين امتطى أولئك الصبية ظهور الخيل لاجتياز النهر، وحمل المتاع على الكلك، الذي كان يتكون من جذوع الخشب (القوغ) الموضوعة على قِرَب منفوخة. كان ماء الزاب بارداً صافياً، والتيار رقيقاً.

وبعد الاستراحة وتناول وجبات الطعام الخفيفة وتناول المرطبات، نقلت تلك المجموعة على ظهر أحد تلك الاكلاك للجهة الاخرى من الزاب وامتطت خيولها لاستئناف السفر. لقد أخبروهم أن المنطقة محفوفة بالمخاطر وذلك لوجود عصابات السلب في المناطق المجاورة، وعلى هذا، فقد اصطحبهم آغا قرية كلك، وهو يزيدي مع عشرين خيالاً.

كانت المنطقة محروثة وقد تعهد الناس رعاية النباتات فيها جيداً، حيث أقامت في تلك القرى فئات من المسيحيين النسطوريين والسريان، أو من اليزيديين ذوي النحلة الغريبة. وبعد خوض نهر الخازر، وصلوا مساءً إلى قرية قراقوش، التي قيل إن فيها خمسمائة بيت للمسيحيين السريان وسبع كنائس! وكونها قرية مسيحية مفعمة بالأرواح، فقد نال اليزيديون فائدة كاملة منها.

وعلى الرغم من الإقامة في بيت رئيس القرية، فقد كان ريج يتذمر من وجود النفايات المفرطة التي، كما يقول عنها، تميز، لسوء الحظ، بيوت المسيحيين عن بيوت المسلمين .

كانت اللغة السريانية هي السائدة عند أولئك الناس، وقد سمعها ريج منطوقة أمامه لأول مرة وان كان باستطاعته قراءتها وكتابتها . وفي تدوين يومياته ليوم الأحد - الرابع والعشرين من تشرين الأول، يبدأ قائلاً :

«الحرارة والدخان والقذارة والنفاية جعلت مأوانا في الليلة الماضية مكاناً لا يطاق، وبخاصة بعد مشاهدة إحدى العقارب تسعى على فراشنا . ولذا فقد سعدت قلبياً حينما أزفت ساعة الرحيل وهو ما نفذناه فعلاً عند الساعة الثامنة صباحاً، في وقت كان فيه اليزيديون مازالوا قائمين على خدمتنا، فهم على الرغم من احتفالهم الخمري الصاخب ليلة أمس، لم يكونوا ثملين تماماً، وإن بدوا في نشوة غامرة!»

كانت المرحلة الثانية من السفر قصيرة، إذ وجدوا أنفسهم، عند الظهيرة، يعبرون الجسر الخشبي في طريقهم لدخول مدينة الموصل . ثم اجتازوا التلال التي هي كل ما بقي من نينوى، وتحت هضبة النبي يونس، التي يفترض أنها تضم مرقده . وعلى الرغم من اتخاذ ريج جميع الاحتياطات اللازمة لدخول مدينة الموصل دون أن يلفت إليه الأنظار، فقد استقبله في الطرف الآخر من الجسر ضابط ذو رتبة عالية، في حين

---

(١) هنا تظهر ميول المؤلف الطائفية المتطرفة، لأن النفايات لا علاقة لها بطائفة دون أخرى. (المترجم)

قاد شخص آخر مهرة الباشا بسرجها المزخرف وقدمها للمقيم لامتطائها، مع اعتذارات الباشا شخصياً لعدم تمكنه تنظيم احتفال عام لدخول المدينة، وذلك لأن خبر وصول ريج قد بلغه في اللحظة الاخيرة فقط. هذا، وقد أحاط بهم الحرس حتى وصولهم إلى الدير الكاثوليكي، كما ازدحمت حولهم الحشود التي تعذر إبعادها عن طريقهم.

وعند العصر، قام ريج بزيارة رسمية للباشا رداً على ما استقبله به من مجاملة ولطف كبيرين، واحياءً لذكرى صداقته السابقة، وعلى هذا، فقد اتفق على الساعة المحددة لأداء صلاة العصر. وبعد الصلاة التي أداها الباشا، أحيط ريج ببعض رجال حاشية الباشا، وبالتتري توما جان، ومضيفه ـ الاب الدومنيكاني ـ بالإضافة إلى وجود جنديين من الهوزار. وعند بلوغهم قصر الباشا، تلك البناية البائسة، توجه إلى قاعة الاستقبالات الرسمية مباشرة حيث استقبله الجميع وقوفاً.

شعر ريج بانجذاب نحو الباشا الشاب، الذي وصفه بالشاب الوسيم المتميز بالكرامة وبالبساطة في حديثه. دخّنا معاً غليونين وتحدثا بالتركية، فوعده الباشا بتقديم عونه لنقل عائلته بأمان حتى ماردين. ثم أنهى الشربت وماء الورد وعبق البخور ذلك الاستقبال، وبعد القيام بزيارة رسمية أخرى للكهية[1] (معاون الباشا)، عاد ريج إلى الدير.

يشير ريج إلى أن مدينة الموصل في حالة دمار كبير، فالأسواق قذرة والشوارع ضيقة مليئة بالنفايات. وبعد مضي يومين في المدينة لإتاحة

(١) وهي أيضاً الكوخة عند الكرد أو رئيس العشيرة أو شيخ القرية.

الفرصة أمام الباشا لإجراء الترتيبات اللازمة لرحلة العائلة عبر الصحراء المحفوفة بمخاطر الغزاة والسراق، انهمك ريج خلال هذا الوقت في كتابة الرسائل وتنظيم شؤونه واستئناف حديثه مع مضيفه الدومنيكاني. أمّده الأخير بكثير من المعلومات المتعلقة بالمسيحيين في الموصل الذين كانوا من الكلدانيين واليعاقبة أو الكاثوليك. وفيما بعد ترأس الاثنان القداسات بالتناوب في الكنائس التي أثارت كثيراً من الشجار لأمور تافهة، فقد كان لابد للأتراك أن يتدخلوا مما كلف الطرفين الشيء الكثير. وثمة كنيسة صغيرة للإرسالية اللاتينية، حيث ترأس القداس فيها مضيفهم، ذلك الرجل الطيب القادم من مدينة نابولي. فهذا الاب، لكي ينال عطف الحكومة وحمايتها، مارس كذلك الطب لعلاج الناس. وهو، بعد أن سُرَّ بمستمعه الذي أثار إعجابه، أخبره بزياراته إلى أقصى مناطق كردستان وجبال سنجار، حيث يقدس اليزيديون فيها مكاناً خاصاً. كان يدعوهم «المانويين»[1]، وقال إنهم يمارسون شعائرهم الدينية بعيداً عن أي كهنة أو معابد، غير أنهم يمجدون الشمس ويوقرونها ويمارسون شكلاً من أشكال التعميد، ويكنون للشيطان احتراماً فائقاً. استمتع ريج بذلك الحديث إلى أبعد الحدود، لأنه لم يكن مطلعاً، حتى ذلك الوقت، إلا على النزر اليسير فيما يتعلق بتلك الطائفة الغريبة على الجميع، حتى على المستوى المحلي. وبعد أن أقاموا في الموصل ثلاثة أيام، غادروها مصحوبين بحرسٍ خاص.

---

(١) ماني (٢١٦م-٢٧٣م) هو مؤسس الديانة المانوية في بلاد فارس. حاول التقريب بين الزرادشتية والمسيحية. وفي عام (٢٧٣م) شنق مانو في عهد بهرام الأول، وسلم إلى المجوس.

وحينما توقفوا لقضاء ليلة في إحدى القرى الصغيرة، وصلوا في اليوم التالي إلى قرية « وان » . وفي صباح اليوم الثاني اندفعوا يخوضون نهر دجلة تحت حراسة مجموعة من حملة البنادق . كان الإجتياز عسيراً والقاع صخرياً زلقاً والتيار جارفاً لدرجة جعل الخيول تترنح، لان تلك الخيول إذا تزحلقت، كان سيصبح أمر استعادة توازنها متعذراً . ولدهشة ريج اجتازت ماري ذلك النهر دون أن يساورها خوف، وإن كان الماء يعلو فوق ركبتيها أحياناً .

وحينما بلغوا ضفة النهر المقابلة، اتجهوا نحو مضارب قبيلة طي العربية التي كانت قريبة من تل اصطناعي مرتفع يدعى اسكي موصل . وفي هذا المكان استقبلتهم ثلة اخرى من الحرس بقيادة أخي زعيم القبيلة – الأمير محمد– تتألف من عدد كبير من عرب طي وزبيد، فشكل هؤلاء، مع الحاشية الخاصة من الموصل، قافلة منيعة . والطائيون الذين يشكلون قبيلة عربية شهيرة في الجزيرة العربية، استقروا منذ أمدٍ بعيد في هذه المناطق، غير أنهم فقدوا كثيراً من المظاهر الخارجية الخاصة بملابسهم، إذ اعتمروا العمائم ذات القلانس الحمر الطويلة المدلاة أسفل ظهورهم، والمعاطف أو الستر الطويلة المصنوعة من جلود الأغنام، وأغلبهم حليق اللحى مع إطلاق الشوارب .

وها هم الآن يجوسون صحراء قبيلة شمر الرهيبة الجانب، وفي بداية الأمر شاهدوا هنا وهناك قرية صغيرة، بيد أنهم حينما تقحموا في

---

(١) وهو تل أثري يعرف في العصر العباسي باسم (بلد)، جزء من مدينةٍ قلعتها فوق التل.

مسيرتهم، أصبح كل شيء أمامهم قفراً، والخضرة الوحيدة كانت حشائش وأشواكاً ذاوية كثيرة. وتراءت لهم في اليسار واليمين تلال زرق على مديات بعيدة، وتغير الطريق بين رمال وحصى، في حين مروا، بين آونة وأخرى، بعظام بعض الجمال والحمير التي تُرِكَتْ، على ما يبدو، لتلفظ أنفاسها الأخيرة لعدم قدرتها على مواصلة السير مع قوافلها، تلك العظام التي التقطتها النسور، ومن ثمَّ قصرت ألوانها بفعل حرارة الشمس اللاذعة.

وعند الغسق ترجلوا لقضاء نصف ساعة يتناولون فيها شيئاً من الطعام والشراب، ومن هناك شقوا طريقهم، وليس في نيتهم التوقف حتى يقطعوا الصحراء التي تتراءى أمامهم مسافة ثمانين ميلاً. ارتفع القمر في كبد السماء فاستغلوا ضوءه الفضي عدة ساعات. وحدث مرة أن ظهرت أمامهم زمرة من اليزيديين على ظهور خيولهم، غير أنها طوردت على الفور فتوارت عن الأنظار. ليس فيما حدث رأفة قط، فالعرب إذا أدركوا أولئك اليزيديين، كان من المحتمل ان يؤتى برؤوسهم لتكون بمثابة تذكار للمقيم ريج! وعلى أية حال، فقد كان في منأى عن ذلك المنظر الذي تعافه النفس.

وقرابة الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، بدا على ماري، التي تحملت أعباء الرحلة بشكل رائع، نصب شديد. وعلى هذا، فقد توقف الركب المؤلف من مائة شخص في أقل تقدير. وعند ذاك وضع التتري على الأرض سجادة وهيأ للسيدة ماري ملاذاً مريحاً من اللباد

وأوراق العشب. وبعد ساعتين استعادت نشاطها فركبوا ثانية وواصلوا السير حتى الظهيرة. بدت الصحراء أكثر تحجراً ووحشة وأصبحت الحرارة مفرطة مرهقة، وعند منتصف النهار زاروا أحد مضارب قبيلة طي فقدمت لعائلة ريج خيمة خاصة، وهم، على الرغم من التماسهم لقضاء الليلة هناك، فقد فكروا أن من الحكمة مواصلة السفر.

وبعد أن اجتازوا مخاطر الصحراء الرئيسة، صرفوا حرسهم المسلح بالبنادق وكذلك العرب الآخرين مع تقديم هدايا نقدية مناسبة لهم مقترنة بكثير من آيات الشكر والعرفان بالجميل. ثم شكلوا حرساً صغيراً من مضيفيهم وواصلوا الرحلة حتى نصيبين التي بلغوها في الساعة العاشرة ليلاً، بعد مسيرة مائة ميل واستراحة دامت خمس ساعات فقط. ومدينة نصيبين، التي سبق أن كانت مزدهرة، لم تعد حينذاك غير قرية بائسة. وبالرغم من شعور المسافرين بالتعب إلى حد ما، بعد رحلتهم المضنية السابقة التي استغرقت أربعاً وعشرين ساعة، فقد استأنفوا سفرهم في الساعة الثامنة والنصف صباح اليوم التالي، فبلغوا مدينة ماردين في الساعة السابعة مساءً! بدت قلعتها، التي توجت إحدى هضاب تلك المناطق الجبلية وأحاطتها الأشجار والبساتين، كأنها جنة حقيقية بعد صحارى بغداد وسهولها. ترجلوا متخذين من بيت رئيس أساقفة الأرمن الكاثوليك مأوىً لهم. وقد طفح وجه المونسيير جيو شينو تاسباس، الذي ضيَّفهم، سروراً لرؤيتهم وذلك لمعرفته السابقة بالمقيم ريج. كان روحاً طافحة بالبشر ومحبوباً لدرجة كبيرة مع إصرار على إقامة

ريج عنده بضعة أيام أخرى، وهو شيء أثبت جدواه، لأن كلوديوس قد عُرّض لنوبة حادة جداً مما كان يشكو منه من مرضه القديم. ولاشك في أن هذه النوبة قد ألمت به بسبب متاعب الرحلة والحرارة الشديدة.

وماري، يا للزوجة المسكينة، اعتراها رعب قاس، لأن زوجها البعيد عن الإسعافات الطبية قد رقد فاقد الوعي تقريباً نتيجة للحمى ونوبات الصداع العنيفة، وأطبقت يداه وتصبب عرق بارد من وجهه. وبعد يوم أو يومين استعاد صحته فتمكن من الحركة والتنقل. لقد أنعشه هواء الجو النقي في منطقة ماردين، فضلاً عن الإقامة في بيت مريح. وهم، وإن مكثوا في المكان أسبوعاً كاملاً، لم يشعر كلوديوس أن بامكانه إنجاز الشيء الكثير، فكل ما قام به، على سبيل التمرين، جولات قصيرة للنزهة داخل المدينة وحواليها، وبكثير من الاحاديث الممتعة مع الموسنيور، وقيام الحاكم بزيارة أو زيارتين رسميتين له. لقد أمضى وقتاً سعيداً حقاً.

كانت يومياته مليئة بالحقائق والبيانات المختلفة، مقترنة بإطراء عاطفي للمنظر الجميل الذي خططه، فهو يقول:

«منذ ان غادرت بغداد، أو في الحقيقة خلال مدة إقامتي الكاملة فيها، لم أجد منظراً واحداً جذبني، ولو قليلاً، لاستخدام قلمي، بيد أنني الآن أستخدمه أكثر فأكثر.. إذ لديَّ منظر في ضوء القمر، رسمته من مكان مرتفع يطل على سهل منبسط واسع يتيه مداه في غلالة من ضباب شفيف مهيب معطاء، نوع من حزن وسكون مستغرقين في تأمل

حالم، مثلما يحدث في محيط هادئ أو بحيرة ساكنة.»

وفي يوم السبت، الثامن من تشرين الثاني، استأنفوا رحلتهم مع حرس هيأه لهم حاكم ماردين، لأن المناطق الجبلية كانت تعج بغارات المهاجمين، والطريق غير آمن. هذا، وقد حدث أن سلكوا طريقاً أكثر التفافاً باتجاه ديار بكر بسبب هؤلاء اللصوص، يرافقهم في رحلتهم تلك رئيس الأساقفة الذي كان يرغب في زيارة بعض أتباعه مستغلاً وجود قافلة ريج المتجهة إلى هناك. كان المونسيير رجلاً محبوباً إلى حد كبير في أسقفيته، ومما يبعث على السرور حقاً مشاهدته بين ظهراني جاليته في «تل أرمن» حيث احتشد أعضاء الكنيسة وسط أعلى مظاهر الود البنيوي. تجمع حوله الرجال والنساء والأطفال، وكان لديه ما يقوله للجميع. وهو، وإن كان يتصرف معهم بطريقة غير رسمية أو احتفالية، فقد تولوه بأرفع ما لديهم من تبجيل واحترام، ولكن، لسوء الحظ، فقد أصيب ريج بنوبة حمى أخرى اضطرتهم إلى البقاء ليلاً. ومع ذلك، ففي صباح اليوم التالي، حينما شعر ريج بتحسن في صحته، غادروا القرية بكثير من فروض الشكر وكلمات الوداع الرقيقة إلى مضيفهم السابق.

انطلقت قافلتهم خلال سهل كان فيما مضى خصباً فأصبح فيما بعد قاحلاً غير مثمر، تعلوه الأحجار المفتتة التي جعلت المنطقة تبدو وكأنها بحر من الحبر الأسود. وعند بلوغهم ديراك، لم يكن مأواهم غير كوخ بائس مظلم، في حين ترك الخدم والمتاع على شرفته في الخارج. وهنا تجمع الأهالي للتحديق في وجوههم – الفرنجة والتتريين على حد سواء–

لأن منظرهم غير مألوف، كما أن هذا الطريق لم يكن الطريق الرئيس إلى ديار بكر. ثم ان سكان ديراك، الذين كانوا كرداً من قطاع الطرق [1]، لم يضايقوهم على أية حال. ومع ذلك، فقد ابتهجت الجماعة كثيراً لنزوحهم عن المكان مبكرين صباحاً، سالكين طريقاً يتخلل الجبال التي اكتست بغابات من أشجار البلوط الصغيرة الزاهية بألوانها الخريفية الجميلة. وتم لهم الحصول على حرس إضافي، عشرين فارساً من ديراك تحت إمرة زعيم منهم. بدوا متوحشين بشعورهم الطويلة، ويحمل كل منهم بندقية مدلاة على ظهره وخرطوشاً احتفظ فيه بذخيرته الحربية في علب خشبية صغيرة منفصلة الواحدة منها عن الاخرى، وكذلك حملوا نوعاً من الجراب ضمن مؤونتهم اليومية، وتسلقوا سفح الجبل بخفة ورشاقة، فقطعوا مرحلة الأربعين ميلاً بيسر وسهولة.

امتد الطريق في جزء منه خلال شعاب ضيقة، وفي جزء آخر فوق مرتفعات صخرية شديدة الانحدار. وخلال هذا الارتحال في الأعالي ساور ماري رعب شديد، فهي، في إحدى رسائلها تصف هذه الرحلة بقولها: «بعد حلول الظلام اجتزنا أكثر الأودية خطراً وذلك بسبب وجود السراق وما لازمنا من رعب على ظهور الخيل، وبسبب انحدار الجبل العمودي تقريباً أضف إلى أن الطريق أو الإفريز الذي اضطررنا إلى اجتيازة كان قد تشظى إلى قطع متناثرة، وكان هذا الوادي، في اماكن أخرى، مغطى

(١) لا يعني هذا ان جميع الكرد كانوا قطاع طرق، لأن قطاع الطرق موجودون في كل انحاء العالم، ومن مختلف الاجناس.

بكتل صغيرة من الصخور السود. وفي احدى المناطق تعين علينا أن ندور حول منحدر صخري شاهق تعلق فوق واد ضيق شديد الانحدار، ضاق ليبلغ قدماً أو قدمين عرضاً. كانت حافة الوادي مهدمة مفتتة، ولكن أغلب أفراد الحرس، بضمنهم كلوديوس، قد اجتازوا المكان، غير أنني كنت وجلة شعرت بالعجز في محاولة ذلك. كان كلوديوس غاية في رباطة الجأش وقال إنني لا بدَّ أن أتحلى بالشجاعة وإلا سوف اضطر إلى التخلف عن الركب. تركت هذه الكلمات تأثيراً كبيراً في نفسي، ولذا سمحت لحصاني بشق طريقهِ، فتسلقت بجهد بالغ حول الجرف المنحدر العالي لأجد كلوديوس ينتظر متلهفاً على ما يجب عَمَلُهُ في هذه الحال. بدا شاحباً فاعتراني الخجل نتيجة لوجود طفلة صغيرة بائسة معنا، خادمة وقعت في الاسر مؤخراً، في السادسة من عمرها.

كانت الصغيرة على ظهر الجواد تتشبث برسنه وتتسلق الجبل مذللةً كل الصعوبات دون تذمر وبلا مساعدة من أحد. اعتصر قلبي ألماً لمنظرها، ولكنها بدت سعيدةً لحسن الحظ وغير مبالية، فقد كانت تضحك وتتحدث وتقود حصانها بروح عالية.»

وبعد قضاء ليلة مزعجة أخرى في إحدى القرى الصغيرة، انطلقوا خلال مدينة ديار بكر صباح اليوم التالي عبر طريق مرتفع يقوم مقام سدة ترابية لنهر دجلة، ومن هناك دخلوا الأبواب الكبيرة السود في اسوار المدينة. وبما أن ريج، الذي آثر التكتم متحاشياً، كعادتة، الدخول علناً بصفتة الرسمية، لم يعلن مسبقاً عن وصوله وما كان يرمي إليه من غاية، فقد

اتجهت القافلة إلى دار المونسينيور أوغسطينو هندي، بطريرك الكلدان والقاصد الرسولي للبابا في روما.

الفصل التاسع

الرحلة من بغداد إلى القسطنطينية (١٨١٣م) (تابع)

كان المونسيير رجلاً رائعاً للغاية، وقد سبق له ان التقى ريج، وكذلك كان صديقاً وزميل دراسة فيما مضى لأسقف ماردين خفيف الظل، غير أن ثلاثين سنة من إهانات وتحديات الحكومة التركية قد حطمت روحه، وأكثر من ذلك، فقد طعن في السن قبل اوانه وأصبح حزيناً.

وحاكم ديار بكر كان باشا من الدرجة الأولى، رجلاً ذا شخصية متوحشة وقاسية، فرض الضرائب الباهظة ليدفع رواتب الجيش حفاظاً على باشويته التي امتلأت بالغزاة، وتنظيم شؤونها، ولهذا، فقد وقع عبء تلك الضرائب على المسيحيين البؤساء، إذ انتزعت منهم الأموال بكل الوسائل القاسية الممكنة. وحتى المونسيير نفسه، على الرغم من تزويده بالفرامين والاجراءات الوقائية من حرس وما شابه، لم يستطع التنقل على حصانه داخل المدينة لأنه ربما كان سيعرّض إلى إهانة أي مسلم والايعاز له بالترجل، وهو، إذا رفض إطاعة الأمر، فإن غرامة باهظة كانت ستفرض عليه أمام المحاكم لخرقه قانون «المؤمنين الحقيقيين» كان ذلك هو الظلم الذي ساد المدينة.

أمضت عائلة ريج أسبوعاً كاملاً وسط مظاهر السعادة الغامرة التي أظهرها البطريرك. كان في شبابه قد درس الموسيقا في روما، وكثيرة هي المحادثات التي جرت بينه وبين ريج في هذا الموضوع. وفي يوم الأحد دعا

العائلة لحضور القداس في كنيسة الكلدان، وهو احتفال بأحد القديسين، وكان دخول ريج مثار اهتمام كبير، فهو يقول:

« وضع لنا كرسيان بالقرب من المذبح العالي حيث اقام المونسيير اوغسطينو شخصياً ذلك القداس البابوي مرتدياً التاج والملابس الكهنوتية الخاصة. وبما أن هذه الأبرشية كاثوليكية، فقد اختلفت المراسيم قليلاً عما عليه الحال في شعائر الكنيسة اللاتينية، ما عدا اللغة التي كانت كلدانية، فقد قرأ أحد القسس أحد الأناجيل الأربعة من (العهد الجديد) باللغة التركية، وقام بعد ذلك المونسيير بإلقاء موعظة دينية باللغة التركية (العبارات الكنسية كانت باللغة الأرمنية)، إذ كان النص: «بيتي سوف يدعى بيت الصلاة لله، ومع ذلك فقد احلته إلى وكر للصوص»، ثم قرأ جزءاً من يوحنا الأول باللغة التركية، ورغب في إقامة الصلاة وترديد الدعوات لأشخاص آخرين مختلفين – المحسنين منهم أو كبار السن العاجزين أو من كانوا على أهبة السفر... الخ، وبهذا انتهى القداس. كانت الترتيلة شرقية، من ذلك النوع غير السائغ الذي يفتقر إلى الانسجام، وصاحبت ناقوس القداس والتمجيدة الخ ضربات جرس بعصا صغيرة الصنج. تشكل كل ذلك على نحو رديء من نحاس اعتيادي، فقد كانت إحدى كفتي الصنج واسعة لدرجة غير معقولة في حين كانت الأخرى صغيرة فأعطتنا صوتاً يدفع للنعاس. وثمة أسطوانات فضية واسعة معلقة حول المكان فيها أجراس صغيرة، مرفوعة على قضبان، تهتز ذهاباً وإياباً. لقد صاغت كل هذه الآلات

الهمجية تلك الأوركسترا الكلدانية وزعق خلالها الكهنة مجهدين حناجرهم لدرجة لا تطاق.

أشرت إلى أن سلوك الشرقيين في الكنيسة يشكل تناقضاً بارزاً مع سلوكهم العام الذي يتميز بالوقار والهدوء والنظام. فهم، خلال القداس، يبدون قلقين، كثيري الصخب وغير منتبهين على عكس ما يحدث عند الأوربيين».

قابل ريج شخصاً آخر من أصدقائه القدماء هو الخواجه غر يغور، تاجر النحاس الذي يعد رجلاً ذا مكانة وقدم في عمليات سبك النحاس الكبيرة في ديار بكر، وجد معدن النحاس في مناجم أرغانا التي تقع على مسافة أربعين ميلاً إلى الشمال، وفي كثير من مناقشاته عرض على كلوديوس معلومات كثيرة عن ذلك الموضوع.

وفي السابع عشر من تشرين الثاني استأذنوا المونسيير أوغسطينو الذي تأثر كثيراً لفراقهم، ورجا كلوديوس أن يقدم طلباً إلى الحكومة العثمانية لصالح المسيحيين التعساء إزاء الابتزازات التي لا يخولها القانون في « إحدى أكثر المدن وحشية لإقليم همجي ». وعلى أية حال، فقد وعد ريج ان الطلب لابد أن يبلغ غايته، ولو أنه، لأسباب سياسية، لن يمكنه تقديم الطلب شخصياً.

غادروا ديار بكر بحرس واهن جداً حتى وصولهم إلى أرغانا حيث تقع مناجم النحاس. كان ريج أبعد ما يكون عن أي مظهر صحي، فقد شكا من ألم ممض في جنبه وتعين عليه قطع جزء من الطريق سيراً

على الأقدام، لأن ذلك الطريق كان شديد الانحدار ومهدداً بالصدوع الكثيرة في الأسفل، مما يسبب له دواراً في حالة امتطائه للحصان، فضلاً عن أن المناخ كان ينذر بالشيء الكثير، هو الآخر. وفي ليلة وصولهم هبت عاصفة هوجاء، لكن العائلة بقيت آمنة، وسط إجراءات وقائية حذرة في معادن ارغانا، يومين إلى أن توقف تدفق المطر الغزير. هاهم الآن في منطقة جبلية، يترامى أمامهم طريق رديء، وعلى هذا، فقد أزجى ريج وقته في طرح الأسئلة عن ذلك الطريق بالإضافة إلى استفساراته عن طبيعة الأعمال الجارية في مناجم النحاس، وبهذا، كان وصفه للمشهد يرقى إلى وصف الشاعر بايرون لأي مشهد رآه، فهو يقول:

« كان الظلام مبعث تهديد لطبقات الغيوم المعلقة فوق الجبال المجاورة، حيث لا أثر للنجوم في أي مكان، وحيث العتمة تضاء بنيران سبائك النحاس فقط، تلك النيران التي جاست حجب الظلام لتصل إلى بعض الأماكن هنا وهناك. وفي أماكن أخرى وسمت بوهن حدود آكام جُفاء المعدن المصهور بلهب شاحب بغيض يميل إلى الخضرة، ولا يتطلب الأمر من أي إنسان ذلك الخيال الشديد لكي يتصور نفسه على فوهة بركان ثائر تحيط به عصبة العماليق الأسطورية، فضلاً عن أنَّ تلك الأصوات المهيبة السامية لا تفتقد ما يمكن أن يدعى زئير السيل الجارف وهفيف العاصفة العميق الذي يدور بين الجبال وهسيس النيران والانفجارات الصادرة عن المناجم، التي تقطع مجموعها حبل الصمت

الوقور بين حين وآخر! ».

وشهد يوم الأحد ارتحالهم على الطريق مرة أخرى. وكلوديوس، بحثاً عمن يساعده لاجتياز أكثر ذلك الطريق انحداراً، استخدم إغريقيين كانا عائدين إلى طرابزون[1] سيراً على الأقدام. وبعد عدة ساعات من الصعود والهبوط على الممرات الزلقة باستمرار على ظهور خيولهم، اجتازوا بحيرة غولاشيك غولد التي تشكل رقعة مائية واسعة، وكذلك اجتازوا ممرات لم تشكل سلسلة شبيهة بالممرات المنحدرة الاولى، فوصلوا منهوكي القوى، وبخاصة ريج الذي قطع مسافة بغيضة إلى نفسه، إلى قرية مسيحية قذرة في سهل مربوط، في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم. وسافروا في اليوم التالي على جيادهم يشقون طريقهم عبر السهل الجميل الذي تعهده أهله بالرعاية الفائقة متحاشين خربوط نفسها، وألقوا عصا الترحال في قرية خان كيوز الصغيرة.

ونتيجة التمرد الذي أعلنه الكرد ضد باشا المعادن، تعذر الحصول على خيول البريد دون رخصة سابقة. وعلى هذا، فقد اضطر ريج إلى إيفاد التتري –توما جان– للحصول على الإذن بذلك، في وقت تعين عليهم فيه البقاء طوال اليوم في ذلك المكان البائس القذر. ولم يزل ريج يشكو من المرض الذي ألمَّ به، ويتذمر من حشود البراغيث التي يقول عنها: « وبسببها حلَّ بنا العذاب ليلاً ونهاراً، لأنها تمنع منا فرص

(١) ميناء بحري يقع شمال تركيا، على البحر الأسود.

الراحة ولو للحظة واحدة!».

هذا، ولم يتحسن الموقف بظهور جنود دللي باشا (آمر جنود الخيالة)، إذ أثار ظهورهم الفزع في طبقات الفلاحين المسحوقين، لأنهم، كما عرف عنهم، جنود ضمن الجيش التركي وبأنهم سراق للقرى النائية مع قدرة على الإفلات من العقوبة شأنهم شأن غيرهم.

وجاء أحد جنود الباشا في تلك الليلة بمذكرة تتضمن عبارات مهذبة تسمح بانطلاق الخيول، فغادروا في اليوم التالي بفيض من الراحة تلك القرية التي ابتليت بالبراغيث. أفضى بهم الطريق إلى وديان واسعة وأخرى صغيرة شديدة الانحدار، الأولى تعهدتها يد الرعاية فامتلأت بالقرى التي أقامت في كثير منها طائفة دعاها الأتراك «القزلباش»[1] أو «مطفئي الأضواء» نسبة إلى عيد لهم غير محتشم يقام عندهم بين حين وآخر.

وكان المدخل إلى مدينة المعادن يتم خلال واد ضيق شديد الانحدار يجري نهر في قاعه ويحاذيه ممر مرتفع يبلغ سبعة أميال طولاً، يؤدي إلى المدينة. مكثوا في بيت رئيس الصرافين – مدير البنك الحكومي – وهو رجل أرمني. وشعر ريج حينذاك بهجوم المرض الشديد عليه مرة أخرى، فقد زادت من عذابه آلام الصداع الممضة، ولكنه، مع ذلك،

(١) أتباع حيدر بن جنيد الصفوي. يطلق عليهم حمر الرؤوس، وهم من اصول تركية، يعتمرون القلانس الحمر. من كتبهم «المواهب السنية في المناقب الصفوية»، ويوصفون بانهم من الغلاة.

استطاع زيارة الباشا، الذي أرسل اليه متلطفاً جواداً أوربيا يبلغ ارتفاعه خمس عشرة قبضة (ستين بوصة)، وأهدى له ريج مقابل ذلك منظاراً جميلاً مرصعاً بالذهب. وعلى الرغم من مرضه، فقد قرر ريج، بعد ليلتين من الراحة، مواصلة رحلته. شرع في اليوم السادس والعشرين من تشرين الثاني عبور نهر الفرات، الذي تقع مدينة المعادن على كلتا ضفتيه، في زوارق ذات قيعان مسطحة بصحبة جندي من الفيلق المدعو « فيلق الذئاب » يعتمر قلنسوة ويحمل كيساً أو حقيبة من نسيج صوفي رقيق أبيض مزين بلون أحمر من طرفه مشذب بجلد الذئب، ومن هنا جاء ذكر الذئاب. كان على هذا الرجل أن يقوم بدور المرشد وأمين الإمدادات والتموين، نظراً إلى ان المنطقة كانت قفراً وغير آمنة.

أمضوا تلك الليلة في قرية بائسة مليئة بالجنود، وسكانها من القزلباش الذين مرَّ ذكرهم. وبعد ان استقروا في أحد الأكواخ، شعروا بسعادة غامرة لمغادرة تلك القرية مبكرين، وفي طريقهم إلى ملاطيا[1] التي تبعد عنها بثلاثة أميال فعلية، اجتازوا صخرة كبيرة استقرت على الطريق حيث كان ذلك معلماً يشير إلى نصف الطريق بين بغداد والقسطنطينية. وحينما تفحص ريج تلك الصخرة وجد أنها عمود حجري يحمل نقشاً تذكارياً أو نصباً لأحد القبور، والكتابة عليه

(١) مدينة تقع في شرق تركيا.

يونانيـة لا تكـاد تقـرأ. لـم يشـعـر ريج بما يـكـفي من الصـحـة للتـوقف ومحاولة فك مغالقها، وعلى هذا، واصل رحلته إلى ملاطيا حيث كان في انتظارهم بيت جهزه لهم الباشا. ألتمس ريج أن يعفى من الدخول بصورة رسمية علنية متذرعاً بسوء حالته الصحية. وعندما قابلهم أحد ضباط الباشا، وبعد حراستهم إلى المكان الذي هيئ لهم، أقاموا لهم حفلة عشاء فاخرة مقرونة بتحيات الباشا بالإضافة إلى تقديم دعوة لهم في اليوم التالي.

اقترنت مدينة ملاطيا بسوء سمعة أهلها، وكانت نصف مهدمة. غصت بجنود الباشا، والمنطقة حواليها كانت في حالة فوضى وعدم استقرار. أما الاستقبال الذي قوبل به ريج، بكل تفاصيله الرائعة، فهو كما كتب ريج:

«الأحد، الثامن والعشرون، حددت الساعة التاسعة لمقابلتنا فتوجهت إلى مقر بابا باشا محاطاً برئيس الواردات والخزينة (الدفتر دار) وجنودي والتاتاريين والهوزار. وحينما دخلت قاعة الاستقبال، رأيت رجلاً مهيباً يقف في وسطها. كان هذا هو الباشا الذي انتظرني لمعانقتي، ولكن بسبب خلل جزئي في بصري جزئياً، وجزئياً بسبب ما كنت أتصور أنه لا يمكن لتركي بمثل مقامه أن يستقبلني بهذا الأسلوب الدمث، تجاوزته إلى أن أخبروني بما ارتكبته من خطأ. ثم قعدنا، هو، على وسائد قماش مطرز بالذهب، وأنا، على كرسي قبالته تماماً، وجابت الغلايين على التو. كان غليونه مرصعاً بالماس الرائع.

وبعد عدة نشقات تغيرت الغلايين بطقم جديد لم يكن جميلاً تماماً. ثم قدمت النارجيلات بعد ذلك وشربنا القهوة مرتين والشربت مرة واحدة خلال تلك المحادثات. كان بابا باشا رجلاً قوياً متين البنيان بديناً، يبلغ قرابة الخمسين من عمره، ذا لحية كثة سوداء، وحاجبين معقودين وعينين كليلتين إلى حد ما. بشرته داكنة، لكن مظهره العام يتسم بالرجولة، رجولة جندي فظ، وصوته قوي عميق، وخطابه جدي مؤدب. وعلى الرغم من زهو شهرته ومكانته المرموقة لم يبد عليه ما يدل على الخيلاء والغطرسة، فضلاً عن أنه كان عطوفاً على من حواليه، الذين لا يعاملونه بذلك الخضوع المفرط الذي يقتضيه وجود بعض الأتراك الذين رايتهم هناك. وكذلك كان غير مولع بالمراسيم. ومما يثير الدهشة، على ما هو الحال مع أي تركي آخر، أنه لا يفكر في أن الترجل عن الحصان وحده وارتقاء السلّم والجلوس بدون مساعدة من أحد، هي أمور تحط من مقامه. لم تكن مؤسسته الرسمية متعددة الأقسام ذات بهرجة، إذ كان كل ما يشعر به من سعادة منصبٌ على وجود الجنود بأعداد غفيرة. ومجمل القول، أنه وإن كان تركياً صميماً، فهو نموذج مقبول للباشا العثماني وأحد أبناء الشرق القلائل الذين أراهم فتبعث كياستهم ولطفهم الرضا الكبير في نفسي. استغرق حديثنا معاً نحو ساعتين، وقد عارض باستمرار كل عرض مني بمغادرة المدينة. دار النقاش بصورة رئيسة حول وضع السياسة الأوربية التي أظهر فيها معرفة مذهلة، ثم تحول الحديث إلى حادثة أسره في

روسيا حيث أمضى فيها سنتين ونصفاً، تحدث عالياً عن الطريقة التي عومل فيها في روسيا وعن الخدمات التي قدمها له الإنكليز بعرفان جميل كبير. ولاحظت، بصورة خاصة، أنه عندما كان يتحدث عن الحكومة الإنكليزية، فإنه كان يذكرها بفروض من الاحترام مثلما يفعل بالنسبة إلى حكومته تماماً، وبمجاملة غير مألوفة عند الأتراك. كان أنيقاً في ملبسه، بمعطف طويل وثمين ومقبض سيف مرصع بالماس، ويعتمر قلنسوة بنفسجية اللون لُفَّ حولها شال أخضر فبدا كأنه سيد أو أمير. تسلمت في الليل دعوة منه لقضاء عدة ساعات معاً، وأرسل في الوقت نفسه عرضاً سرياً مؤدباً يرجو فيه من السيدة ريج استقبال أعضاء فرقته الموسيقية في حال ما إذا كانت ترغب في التسري عن نفسها بسماع الموسيقا خلال غيابي.

وحينما ذهبت إلى هناك اتخذت مجلسي على مقعد على الأريكة وقد وضعت على جنبي إحدى وسائده ذات النسيج المصنوع من الذهب. وبعد جلوسي مباشرة قدَّم لي كوب شاي أعقبته الغلايين والنارجيلات. كان الباشا قد غيرَّ بدلته بالكامل، واعتمر قلنسوة جركسية ذات قماش أبيض لُفَّ حولها شال كشميري رائع. تضمنت مفردات تلك الجلسة شيئاً من الموسيقا والرقص وافتتحت بأغنية تشيد بالباشا، وهي في الشرق تعني إطراءً مألوفاً جداً. ثم حضر ثلاثة ضباط ذوي رتب عالية من جيشه، اتخذوا مجلسهم، وبدؤوا يدخنون في مظهر عوملوا فيه بأهمية تليق بمقامهم. وبعد سماع الموسيقا تحول

الحديث إلى الشؤون العسكرية والسياسية والحكومة البريطانية التي أسبغ عليها كثيراً من الإطراء البارع. لقد أمضيت ساعتين ونصفاً مع الباشا».

بقيت العائلة ثلاثة أيام في ملاطيا، ولم يشرعوا في سفرهم إلى القسطنطينية إلا في اليوم الأول من كانون الأول وخلال زيارتهم لمدينة ملاطيا قابل ريج الباشا عدة مناسبات وأثار اهتمام الباشا به إلى درجة كبيرة، إذ أهدى الأخير له حصاناً ومشبكاً لمسدسات البانية مرصعة بالفضة. ومقابل ذلك أهدى له ريج بندقية قصيرة مع أفضل قفاز خاص بالهوزار، وهما هديتان أعجب بهما الباشا كثيراً.

أكملت القافلة مسافة المائة والأربعين ميلاً التالية إلى مدينة سيفاس في خمسة أيام كان برد الشتاء حينذاك معتدلاً. أما مرتفعات الأناضول فهي تعاني من البرد الشديد جداً، وهناك صقيع في الليل ولكن دون تراكم الثلج. ترامى الطريق خلال سهول شاسعة ونجود مرتفعة تعهدت الكثير منها يد الرعاية بالزرع على الرغم من قلة كثافة السكان المحليين هناك، وخلال وديان ضيقة شديدة الانحدار وفوق ممرات كثيرة وان لم يكن أيّ منها ذا ارتفاع شاهق. كانت الجبال مكسوة بالعرعر وأشجار البلوط القصيرة حيث يقطرُ الأهالي من الأول نوعاً من شراب الجن. وعلى امتداد الطريق كثيراً ما نشاهد قبور الرحالة الذين سقطوا ضحايا بأيدي عصابات السلب والنهب، وتشاهد

(١) ميناء في شرق تركيا، يقع في أعالي نهر قيزيل إرماق.

كذلك أعواد للمشانق المنصوبة لتلك العصابات حيث زخرفت قوائمها بجثثهم أحيانا. وفي أحد الأماكن شاهدوا، مع رغبة في تحاشي ذلك، جثة رجل قتله بابا باشا على الخازوق لأنه أطلق النار مصادفة على أحد جنوده التتريين.

وفي مدينة سيفاس كان الأهالي قساة القلوب، كما يقول ريج، ومع ذلك فقد شاهد شيئين أثارا فضوله – أولهما وجود ساعة ضخمة في تلك المدينة لتعيين الوقت على ما يظهر، وثانيهما مشاهدته للحم بقر معروضاً للبيع للمرة الأولى في مدينة تركية. وحينما غادروا في اليوم التالي، واصلوا الرحلة من دون توقف حتى مدينة توكات، فيكونون بذلك قد قطعوا مسافة خمسين أو ستين ميلاً على مرحلتين، الأولى لم تكن ممتعة، إلا أنهم عندما اقتربوا من توكات، بدت المنطقة جميلة. وبعد أن اخترقوا غابة صنوبر واسعة كئيبة، اكتشفوا أنهم يسلكون طرقاً شجيرة رائعة تحاذي مروجاً خضراً تحيط بها الجبال.

ويكتب ريج:

«ليس هناك ما يمكن أن يكون أعظم أو أكثر جمالاً من الاقتراب من توكات، حيث يمتزج الجبل بالوادي، ويشكل التلون الثر المتناغم وكتل الضوء والظلال الواسعة موضوعات مذهلة لمن يكتب عنها. وثمة على الجهة الجنوبية واد طويل تنسلخ منه أرض منبسطة، إذا جاز التعبير، بوساطة صخرة ضخمة تنم عن رومانسية واضحة، تنتصب عليها قلعة توكان. والمدينة نفسها تحتل الأرض المنبسطة وجميع التشكيلات التي

اتسمت بالسمو والجمال اللذين لم أشاهدهما، على ما أعتقد، في أي مكان آخر!».

حلّوا في منزل أحد الأرمن الكاثوليك. وريج، كما نعلم، يكنُّ حباً كبيراً للأرمن ويسميهم الأسخياء المقرّين بالجميل. وكونهم مسيحيين، فقد ضيّفوا العوائل في ذلك المنزل، ووضعوا تحت تصرف المسافرين عدة غرف مريحة. كان البيت مقسماً تقسيماً رائعاً، وإن كان مزخرفاً بشكل ينم على ذوق مقيم على وفق الأسلوب التركي. أمضوا ثلاث ليال هناك وسط مشاعر رقيقة أظهرها سكان المنزل الذين يربو عددهم، كما يكتب ريج، «على (٣٨٦) فرداً، يسكن أغلبهم تحت السقف نفسه!».

وكذلك ابتهج ريج بوسائل الراحة الموجودة في البيت، فضلاً عما شعر به من تقدم كبير في صحته من جهة أخرى. وخلال الفترة التي قضاها في توكات، انتهز الفرصة لإحضار صخرة توضع شاهداً على قبر هنري مارتن، أحد أوائل المبشرين الإنكليز في الأناضول، الذي يتصف بالورع. لم يسبق أن التقاه ريج فعلاً، لكنهما كانا يتبادلان الرسائل حينما أراد مارتن دخول بلاد فارس عبر بغداد. ولما تعذر عليه ذلك، قادته حماسته إلى المناطق النائية من البلاد العربية، ومن هناك إلى الأناضول، وفي عام (١٨١٢م) توفي في مدينة توكات. وريج، الذي كان مؤيداً لحقوق البريطانيين دائماً، فضلاً عن كونه عضواً في جميع المؤسسات المسيحية المنتشرة هناك، شعر أن الواجب يقتضي منه ألا

يهمل قبر هذا الرجل الجريء فيجعله مضيَّعاً عند ذريته أو الأجيال اللاحقة، وعلى ذلك، أصدر أوامره أن ينحت لذلك الرجل شاهد على قبره ذو نقوش لاتينية.

وبعد مغادرة توكات ومضيفيهم الودودين الأسخياء، شقوا طريقهم إلى «ماسيا» التي تبعد نحو ستين ميلاً متوقفين مرة واحدة في توركال. كان المنظر آسراً، وكذلك كان مشهد سلاسل الجبال والهضاب المتعاقبة، قممها المخملية المنخفضة ذات الالوان الخضر المائلة للزرقة، وغابات العرعر والدردار والزعرور التي تتشابك أغصانها وتكافح للتشبث فوق جوانبها الصخرية، في حين التمعت قمم الجبال الشاهقة بسدوف الثلوج الكاسية. وتعرَّج طريق القافلة بمحاذاة وديان داكنة ضيقة ذات انحدارات حادة أو فوق ممرات عالية أحالتها أشجار التنوب إلى عتمة شديدة. افتتن ريج بكل ذلك فتحركت أحاسيسه الفنية الدفينة. وكثيرة هي تلك القصص الرائعة التي سردها على مسامعه توما جان في أثناء الرحلة، حكايا الجن والعفاريت التي استقرت في تلك الجبال، حيث لم يسبق أن مرَّ تتري، وإن كان رابط الجأش، فوق ساس داغ – ذلك الممر الخطر شديد الانحدار– دون أن يصادف بعض تلك المواجهات الخارقة لإحدى تلك المخلوقات الاستثنائية. كان الهبوط من هذا الممر مثار رعب للجميع، إذ يكتب ريج:

«بلغنا موضعاً تلتقي فيه الجبال من بعضها على مسافة أقدام قليلة،

وكل جانب منها يشكل صخرة عارية تنتأ عمودياً لتبلغ ارتفاعاً يتجاوز المائة والخمسين قدماً، وثمة جداول ماء صغيرة يندفع خلالها شقوق تلك الجبال، ويمكن القول أن الممر يدرج على مجموعة متواصلة من الدرجات الحجرية. يدعى هذا الممر ممر «فرهاد القيسي» أو «صخرة فرهاد»، فقد قيل أن هذا الممر افتتحه ذلك البطل الشهير، صاحب القصة الملحمية الرومانسية. ولا أظن أنه قد سبق لي مشاهدة أي ممر آخر بمثل هذه الروعة الفائقة والمهابة الرومانسية، بالإضافة إلى المنظر الأخاذ حواليه. كانت السمات الطبيعية للمنطقة، حتى الآن، رائعة، ومن هذه المنطقة بالذات ابتدأ المشهد الساحر في تمييز الطريق إلى أماسيا».

وانتابت ريج نوبة من الحمى البغيضة مرة أخرى. وبما أن الطقس أصبح قاسياً إلى أبعد الحدود، إذ تواصل سقوط الثلج طوال الليل واليوم الذي تلاه، فقد مكثوا في أماسيا يومين، ناقشوا خلالها قضية مسالك الطرق والطرق البديلة. وإبان ذلك انتشر وباء الطاعون في مناطق الأناضول الغربية، فكان أحد الأمور التي ناقشوها هو السفر

(١) يقول الكرد إن قصة فرهاد وشيرين الرومانسية قصة كردية قديمة تمثل الحب العذري، وتشبه قصة المجنون وليلى في الأدب العربي القديم. وفحوى القصة هو ان أهل شيرين طلبوا من فرهاد أنه إذا أراد الاقتران بالفتاة شيرين، فما عليه إلا أن يحفر نفقاً في أحد الجبال لإدخال الماء منه. وعلى هذا، فقد أمضى فرهاد سنين طويلة في حفر النفق، غير أنه مات في صباح اليوم الذي نجح فيه لإتمام الحفر.

عن هامش بقلم المرحوم سليم طه التكريتي في الجزء الثاني من رحلة بكنغهام.

بإحدى السفن من ميناء شمشون على البحر الأسود، غير أن السفر قد حُظر في هذا الوقت من السنة لأن المناخ كان عاصفاً. وأخيراً، قرروا اتخاذ الطريق الأكثر ميلاً إلى الشمال أو الطريق الأقصر خلال مدينتي أوسمانجيك وبولي.

وبعد مغادرة أماسيا في الرابع عشر من ذلك الشهر وقضاء الليلة التالية في مارس وفان، تغلغلوا في منطقة جبلية ونزلوا لتمضية الليل في أحد بيوت الحرس العسكري، الذي يتخذ مكاناً للسجناء عادة، في ممر در بند الضيق، وفي ما يأتي وصف لهذا المكان:

«وعند الهبوط من السلم ودخول الطابق الأعلى من المبنى، اكتشفنا ألاّ وجود للنزلاء فيه، غير أن الشيء الرئيس الجدير بالاعتبار هو وجود نار تبعث على الراحة. لقد كسيت الجدران بالطين والتبن لمنع نفاذ الهواء البارد خلال الشقوق الموجودة بين ألواح الخشب. وفي أحد الأماكن علق جلد غزال، وعلقت في مكان آخر منه بندقية مع دوارق تحتوي على البارود. وفي مواضع مختلفة أخرى في الغرفة شوهد لجام بغل وغلاية شاي ووعاءان لحفظ الماء وبعض الملاعق الخشبية ومدقة هاون خشبي لعمل القهوة وقدر صغير مع قدحين أو ثلاثة للشرب والطبخ.

كانت خيولنا قد عقلت إلى الأسفل منا تماماً، وفي غضون ذلك الوقت أتيحت لنا فرصة مواتية للمراقبة خلال الفجوات في أرض الغرفة، التي من خلالها شاهدنا البيطار وسراجي الخيول يوقدون ناراً

ويسترخون مع حيواناتهم. وهكذا، فقد تصاعد الدخان كثيفاً ليحيلنا إلى لحم خنزير حي!

كسيت الجبال حولنا بالغابات وغطيت الأرض بالثلوج، ولذا، فإن الأمر لا يتطلب إلا قليلاً من الخيال لتصور أننا نعيش في كوخ سيبيري أو في بيت من الخشب في الغابات الخلفية لأمريكا.»

كان اليوم التالي شديد البرودة والريح مصحوبة بسقوط الثلج تجمد الأطراف، وبهذا الصدد يقول ريج:

«وقبل الشروع بالسفر حصنت معدتي بقدر من حساء الشعير الممزوج بالثوم والبازلاء ولحم التارهانا، ذلك الطعام الشهي الذي شاركتني فيه ماري لأنها، وإن كان بإمكانها التذرع بالصبر والمكوث تحت سقف بيت تركي للحرس، إلاّ أنها لم تستطع تكييف نفسها لتقبل المطبخ التركي!» قطعت المسافة التي تبلغ مائتين وثمانين ميلاً بين أماسيا وبولي بعشرة أيام، فقد وصلت العائلة إلى بولي في ليلة عيد الميلاد بعد أن اخترقوا خلال تلك الرحلة بعض المشاهد الأكثر وحشية وان كانت الأكثر جمالاً، فضلاً عن أن الطقس الرديء، بما فيه من ثلج ومطر متجمد على الأرض، جعل الطرق زلقة محفوفة بالأخطار. كان الناس في هذه المنطقة أميل إلى اللا تحضر والشراسة، ولم يحاول الركب المكوث أكثر من ليلة واحدة في أي من خاناتها أو دور الإقامة فيها. تفشى الطاعون في كثير من القرى، ومدينة جركس التي تبعد مرحلتين قبل بولي قد أخليت من السكان تقريباً. وقبل

بلوغ المدينة التالية شاهدوا أنصاباً تذكارية للموتى جعلت ريج يعتقد ان هذه الأنصاب إغريقية، وعلى مقربة من الأعمدة ترامت صخور طويلة وبعض الصخور المربعة الأصغر التي تشبه المذابح الكنسية، بيد أن ريج لم يكن في وضع صحي يكفي لمواجهة البرد القارس وقضاء بضع ساعات لحل شفرة تلك النقوش.

كانت بولي مدينة واسعة يحكمها باشا بثلاث طوغات (شارة شرق بثلاث بساكيل من شعر ذيل الحصان)، وتحيط بها بساتين وحقول تولتها يد العناية جيداً، إلى جانب كثير من القرى المجاورة المزدهرة كثيراً.

ريج، وإن كان ما يزال يشعر بتردي صحته، اعتقد أن من الأفضل له غذ السير. وفي اليوم التالي اخترقوا الغابة الواسعة التي امتدت في رقعة أرض وعرة إلى نحو سبعين ميلاً نحو إسميد.

شق الغابة ممر مهشم في اكثر أجزائه وملأه الغرين والوحل فأصبح سلوكه صعباً يتعذر معه الاهتداء إلى الطريق الصحيح. والتوقف التالي كان في قرية خانديك السيئة الصيت جداً. ففيما مضى، قام أحد الباشوات بمهاجمة هذه المنطقة على حين غرة وشنق بضع مئات من سكانها أو قتلهم بالخوازيق، ويقول ريج: »ومع ذلك، فقد ظل الأهالي على ما هم عليه كالسابق!«

وعند مغادرة هذه القرية حدث للمقيم ما أثار غثيانه، ففي أثناء اجتياز مستنقع يبلغ طوله اكثر من ميلين على ممر خشبي كانت بعض

ألواحه منخورة وسيئة الربط، فضلاً عن كونها زلقة نتيجة الوحل والثلج، فقد زلق الحصان على أحد اكثر الأجزاء صعوبة، فوق منطقة ذات ماء عميق وسحقت ساقاه الأماميتان خلال تلك الألواح التي غاص فيها حتى الكتف. لم ينتج عن ذلك أذىً يذكر غير رجة عنيفة أصيب بها الحصان وفارسه، ومع ذلك، فقد قطعت بقية الطريق إلى أن اتصل الطريق الخشبي بالأرض الأصلية.

ظهرت الغابة أمامهم بخمائلها النامية حينما اجتازوا نهر سخاريا واستمروا حتى منتصف الطريق إلى إسميد، حيث أصبح الجزء الأخير من الطريق سهلاً سبخاً.

فكر ريج في السفر من إسميد إلى القسطنطينية بإحدى السفن، لكن الثلج بدأ يتساقط وازداد عنف المطر الذي لم يلبث أن تجمد وهبت ريح هوجاء عاتية، ولذا أرجؤوا رحيلهم مضطرين إلى اتخاذ ملجأ لهم في إسميد وقضاء ليلتين فيها. وهنا التقوا السيد كالافرو، الترجمان الرابع في السفارة البريطانية، بصحبة اثنين من الإنكشارية، حاملاً الدعوة لعائلة ريج من السفير ليستن.

وفي صباح اليوم الواحد والثلاثين، الساعة الخامسة منه، انطلقوا غير هيابين في سفينتهم، غير أن أمد التجربة لم يستمر طويلاً، فقد هبت الريح عاتية وعرِّضوا لبرد شديد يثير الشفقة عليهم، أضف إلى أن المسكينة - ماري- قد ساءت صحتها إلى حد بعيد! وعند ذاك فكر ريج أن من الحكمة العودة إلى اليابسة وإكمال الرحلة على ظهور

الجياد. وهكذا، بعد سنةٍ من النوم وتناول الإفطار، شرعوا بالسفر ثانية. امتد الطريق بمحاذاة ساحل البحر، لكن العاصفة اشتدت أكثر فأكثر، وعلى الرغم من ذلك كله شعر ريج براحة نفسية لأنهم لم يواصلوا الإبحار. وبعد أن أمضوا ليلة في قرية جبيزة ارتحلوا، بيد ان عاصفة هوجاء هبت ليلاً فتساقط الثلج في إثرها بسرعة، وسمعوا دوي إعصار مصحوب بمطر ورعد وبرق. وفوق ذلك، تفشى الطاعون في تلك القرية ذات الأحياء القذرة، فشعروا بعد بعض التفكير أن من الحكمة مواصلة السفر.

وبعد انطلاقهم العنيف بين أسنان العاصفة ولطم الريح العاوية على وجوههم بتلك الضراوة التي تجمد الأطراف، تقدم ريج بصحبة التتري لقيادة القافلة في محاولة منهما حماية ماري، ولو قليلاً، لأن هبوب العاصفة الثلجية كان مباشراً في وجوههم. ثم أن الترجمان والجنديين الانكشاريين المعنيين بتأمين مؤخرة القافلة بدت عليهم التعاسة التامة في وقت ترك فيه المتاع لاثنين من الهوزار لجلبه بأفضل طريقة ممكنة.

وحتى في هذا المأزق المثير للأعصاب، استطاع كلوديوس أن يلاحظ الجانب الطريف في الموقف، إذ يقول: «كان رأس التتري قد غطي تماماً بنثار الثلج الذي تجمد فبدا مضحكاً لدرجة وجدت ما يغريني بالضحك، لو لم يكن حاجباي الآن قد غطيا، هما الآخران، بالثلج بصورة مماثلة!»

لقد تصلب الثلج على ملابسهم، وفي عدة مرات اضطروا إلى

التـخلص من ذلك الثلج الذي بات عـمـيـقـاً ينذر بالخطر، وذلك لأن سقـوطه قد تواصل طوال اليوم. بلغوا سكوتاري منهوكي القوى تماماً، وقد رفضت ماري في بداية الأمر التوجه إلى السفارة بالحالة التي كانت عليـهـا. وعلى أية حـال، فـقـد أقنع أحـد الإنكشـاريين، الذي أمكنه التـحـدث بقليل من اللغة الإنكليـزية، السيـد ريج بأن بإمكانه إدخـال القـافلة سراً بواسطة مـدخل خلفي. وهكذا، فـهم عند عـبـور البـسفـور والنزول على رصيف مرفأ توفانا، اتجهوا راكبين نحو السفارة، وبعد أن وضـعوا في شقق مريحة، أمكنهم تبديل ملابسهم والاستمتاع بقليل من الراحة قبل تقديم أنفسهم إلى مضيفهم ومضيفتهم.

الفصل العاشر

القسطنطينية والرحلة إلى فيينا (١٨١٤م)

كانت عائلة ريج موضع ترحيب كبير لدى السفير لوبرت ليستن (الذي أصبح فيما بعد السير روبرت ليستن) وزوجته-السيدة ليستن. لقد راق لعائلة ريج مضيفاها إلى أبعد الحدود، فالسيد ليستن وزوجته في متوسط العمر، يتسمان بالود، فضلاً عن كرم ضيافتهما. كان السفير حاد الذكاء، واسع الاطلاع، سبق له الارتحال كثيراً، وكان حديثه طلياً وأخلاقه دمثة، سرعان ما استولى على قلب ماري تماماً، في حين كانت زوجته امرأة رقيقة مع حس بالدعابة الحادة وميل إلى التسرية والاستمتاع بحياة المجتمع.

في اليوم الثامن عشر من كانون الثاني أقيمت حفلة رقص كبرى احتفاءً بولادة الملكة شار لوت، فكان مقدَّراً لها أن تكون حدثاً كبيراً، جعل ماري تنهمك بتهيئة بدلة خاصة بالمناسبة، كما ينبغي لأي فرد الظهور به في مثل هذا الاحتفال المميز حيث يحمل كل واحد من أولئك السادة سيفاً وحقيبة صغيرة. ومع ذلك، فقد أعفيت السيدات من إرتداء التنورات ذات الأطواق الموسّعة. تلك كانت التعليمات الرسمية، وهذه هي حفلة الرقص الأولى التي حضرها ريج وزوجته منذ زواجهما، فقد مضى، في الحقيقة، أكثر من ست سنوات على الرقص معاً في واحدة من تلك الحفلات. وعلى هذا، فقد كان من الطبيعي أن

يثير ذلك الحدث استمتاع ماري كثيراً، لأنها في الرابعة والعشرين من عمرها، أما كلوديوس فقد كان، في وضع صحي سيئ جداً، وأعصابه منهارة، وغالباً ما يراوده شعور بالمرض الشديد، فقد سبب له الألم في جنبه قلقاً متزايداً. ولابد من الإشارة إلى أنه اشمأزّ من القسطنطينية، فكتب يقول:

«إنني أتفق مع شاتوبريان[1] في المتعة القليلة التي يتم الحصول عليها في المدن البيزنطية القديمة في جميع العصور التاريخية، فالمناطق الريفية حوالينا (ما عدا الشواطئ التي تقع على البسفور مباشرة) منبسطة لا تسر الناظرين، والمدينة مقيتة، والمجتمع وضيع جدير بالازدراء! وثمة ما يصعق الإنسان في هواء هذا المكان، فأنا لم أستطع قول أي شيء يحتمل أو كتابته منذ وصولي.»

من الواضح أنه كان يعاني من الضيق والكآبة حينما كتب تلك الملاحظات إلى أرسكن، ولعل ذلك أيضاً كان يعزى إلى انعدام الهواء النقي والقيام بالتمارين المناسبة، لأنهم ظلوا قابعين داخل البيت شهراً كاملاً بسبب الطاعون الذي استشرى في المدينة. طلب ريج تمديداً للإجازة التي يتمتع بها، لأنه كان يشعر بتعذر مواجهة طقس حار آخر في بغداد. أما ماري، فهي، على نقيض ذلك، كانت في وضع صحي رائع، فقد استعادت نشاطها تماماً من الآثار المرهقة رحلة الألف وخمسمائة ميل التي قطعتها على ظهور الخيل.

(١) كاتب وزعيم سياسي فرنسي (١٧٦٨-١٨٤٨م)، اتسم أدبه بالطابع الرومانتيكي.

وعائلة ريج، وإن راق لها البقاء مع عائلة ليستن، لم تستمتع كثيراً بالمباهج التي يرتبط بها شعور المرء مع السفارات الأخرى. والوصف الذي تورده ماري لإحدى «حفلات المساء العامة» التي أقامتها السيدة ليستن، إنما هو مجرد بهجة مفعمة بالحياة لتزجية الوقت وإزالة الملل. ولا يخفى أن المجموعة التي كانت تحضر تلك الحفلات كانت تتكون، تقريباً وعلى الدوام، من الأشخاص أنفسهم وهم: السيد ليستن وزوجته، وماري وزوجها، والسيدان هاملتن وفرير – سكرتيرا السفارة – والسيد اليوت – ابن السيد ليستن بالمعمودية– والسيد بروس، الذي كان رفيق سفر الليدي هيستر ستانهوب، واسيد موريير – القنصل البريطاني– والسفير الأسباني وزوجته، والقائم بالأعمال السويدي وزوجته – السيدة الفاتنة، ابنة الرحالة الشهير والكاتب دولسن– مع بعض التجار العاديين، وامرأة إنكليزية طيبة المعشر، وشخصين آخرين من العامة الذين يمكنك لقاؤهم كذلك. والحضور الآخرون كانوا سيدات يونانيات ومترجمين يشكلون شريحة من مجتمع بيرا[1]، والمناقشات تواصلت باللغات الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والأسبانية واليونانية.

بدأ الإعداد لطعام العشاء دائماً في الساعة الرابعة من تلك الأماسي بدلاً من الساعة الخامسة المألوفة، وتوافدُ الضيوف كان في الساعة السادسة. وعلى أية حال، نادراً ما كانوا يغادرون قبل الساعة العاشرة

(١) قطاع من مدينة استنبول.

ليلاً، وهي فترة يتخللها، بصورة رئيسة، حديث عن تفشي الطاعون والنيران التي تشب في المدينة خلال الأسبوع، وعن أثمان قطع الأثاث النادرة المختلفة التي تضمها الصالونات! والحقيقة، هي أنها كانت هناك ثلاث حفلات راقصة، ولكن المرء لا يمكنه أن يخمن، من خلال وصف الأشخاص الذين يحضرونها، أنها حفلات راقية.

وعند حلول فصل الربيع، الذي أصبح بإمكانهم الخروج فيه من البيت، قاموا بجولات مختلفة إلى الأماكن الجميلة حول مدينة القسطنطينية. استمتعت ماري كثيراً بتلك النزهات التي كتبت عنها إلى أختها بنشوة غامرة. كانت إحدى الرحلات التي تصفها هي حينما صعدت عائلة ليستن وشخص آخر يدعى «السيد فين» إلى سطح المركب الخاص بالسفارة، فمخر بهم عباب البسفور الرائع، حيث ظهرت في خلفية، ذلك العباب الجوامع والمنائر والقباب الذهبية وأجمات السرو الكثيفة. استهدفت الجولة مشاهدة الأبراج السبعة وأسوار القسطنطينية، التي ازدرتها ماري إلى حد ما، إذ أشارت إلى أن الأبراج بسطوحها المخروطية بدت، كما تعتقد، كأنها طواحين هواء مخربة، وإن راق لها أكثر أقسامها تميزاً، أعني الباب الذهبي وقوس النصر الذي شيده ثيودوسيوس الأول الكبير[1]، الذي كانت آثاره ذات زخارف رفيعة. وبعد رؤية جميع المشاهد الرئيسة، انتقلوا لمشاهدة أسوار المدينة التي تمتد مسافة أربعة أميال مع ما تحتويه من حصون

(١) إمبراطور روماني (٣٤٧-٣٩٥م)، قسَّم الإمبراطورية الى جزأين شرقي وغربي.

مضاعفة وأبراج شاهقة استحال كثير منها إلى خرائب تغطيها نباتات اللبلاب. لاشك في أنها مواقع رائعة تثير في الذهن صوراً ساحرة، إلا أنها ليست ذات تأثير من وجهة النظر العسكرية. أما أكثر بوابات المدينة إثارة فهي البوابة التي كانت تدعوها توب كابيسي، القديس رومانوس، عند جيبون، التي شق الأتراك طريقهم خلالها لدخول القسطنطينية حيث قتل باليولوغ دفاعاً عن المدينة.

بدا أن تلك الجولة كانت شاقة إلى حد ما، إذ أرهقت كلاً من السيدة ليستن وكلوديوس، عدا ماري والسفير، لأن السيدة ليستن شاهدت، في أثناء نزولها لتناول العشاء، زوجها يرقص مبتهجاً حول الغرفة وملوحاً بورقة في يده. وبعد فترة قصيرة أعلن عن حضور السفير الأسباني، وعندها راح السفير، بعد اندفاعه داخل الغرفة، يرمي بذراعيه معانقاً السيد ليستن. شخصت ماري ببصرها مذهولةً، لكن هذا العرض المثير للضحك قليلاً كان بسبب الخبر الذي أعلن فيه عن هزيمة نابليون، في اليوم الأول من شباط، على يد الحلفاء، قريباً من كوميونة شالون على نهر مارن في فرنسا. بدأ نجم نابليون بالأفول، وهو أمر يصعب تصديقه. لم يؤخذ تصور هزيمة نابليون مأخذ الجد، فقد بدا وجيوشه أنهم لا يقهرون. وهكذا، فقد جرَّعت أهوال الحرب قارة أوربا السم، ولأمد طويل، لدرجة أن الجيل الأصغر في خلالها لم يكن يعرف أي شيء آخر غيرها. ولعل المرء يمكن أن يفكر أن قفزات الانتشاء التي قام بها رجل كهل غريبة الأطوار جداً، ولكن يمكنه

كذلك أن يستحسن إلى حد بعيد ذلك الانفعال الشديد الذي بدا على السفير نتيجة للخبر.

بدأ الطاعون في شهر نيسان، بدلاً من تناقصه وهموده. بدأ يظهر ثانية، وأخذ ينتشر داخل الأقاليم التركية الغربية، فضلاً عن القسطنطينية وبلاد الأناضول. ومن جهة أخرى، فقد تحسنت حال كلوديوس وإن لم يستطع استعادة كامل قواه الصحية، كما شعرت عائلة ريج أن من الصعب البقاء إلى ما لا نهاية مع عائلة ليستن، أضف إلى أن استئجار بيت مؤثث في مدينة القسطنطينية كان عبئاً يكلفهما الكثير. أما العودة إلى بغداد فكانت أمراً مستحيلاً، لأن ذلك لا يعني شيئاً غير العودة في أشهر الصيف الحارة، وهو الشيء الوحيد الذي يطغى على كل الاعتبارات الأخرى التي يودون تحاشيها. ثم إن الرحلة وإلى أي إقليم من الأقاليم التركية، التي يتفشى فيها الطاعون، لا تعني شيئاً غير الانتحار. تناهى إلى سمعها أن فيينا معتدلة المناخ في ذلك الوقت، وهكذا، فبعد تفكير وإمعان نظر طويلين، غادروا متوجهين إلى تلك البلاد، أما قضية الإجازة، فقد كتب ريج إلى أرسكن يرجوه أن يسعى للحصول على تمديد لها بدافع المرض، وإن كان من المشكوك فيه ما إذا كان سيتسنى له الوقت الكافي لتسلم الرد. ولا ريب في أن ذلك كان سيحظى بموافقة السير ليستن، الذي سوف يؤيده في طلبه. أعني ضرورة غيابه عن مركزه الوظيفي. كانت الفكرة هي العودة إلى مدينة القسطنطينية في شهر أيلول، وإلى

بغداد قبل حلول عيد الميلاد.

وخلال إقامة عائلة ريج في تركيا، تبادلت ماري الرسائل مع الليدي هيستر ستانهوب، التي أهدت لها ماري عباءة جميلة، وبعد سنة تسلمت من تلك السيدة رسالة شكر رقيقة تدعو فيها عائلة ريج برجاء حار لزيارتها في بيتها في جبل لبنان عند عودتها من الرحلة. ولكن لم يكن، لسوء الحظ، متسع من الوقت للزوجين لتلبية هذه الدعوة، فالسيدتان، إن تواصلت الرسائل بينهما، لم يلتقيا قط.

ودع ريج وزوجته مضيفهما يوم الأربعاء (١٣ نيسان ١٨١٤م) بصحبة السير موريِر -القنصل البريطاني- الذي قدم رسمياً لمساعدتهما على اجتياز أبواب المدينة حيث يقتضي الأمر أداء بعض الإجراءات الرسمية المملة فيها. وبعد أن ركب معهم وقطع أميالاً قليلة في الريف، ودعهم، فواصلت العائلة رحلتها حيث قطعت مرحلة قصيرة في يومها الأول. كانت وسيلة السفر عربة تركية بدت كأنها عربة نقل الموتى! ليس فيها مقاعد للجلوس، ولكن عند وضع الفرش والوسائد على أرضيتها، أصبح بالإمكان الجلوس أو الاستلقاء فيها. وهذه المركبة، بالإضافة إلى عربة نقل الأمتعة، كانت من اكثر العربات تداعياً وترنحاً، فقد تأرجحت على أطواق جلدية كثيرة الاهتزاز. خُصصت أربعة خيول لسحب كل من المركبة وعربة نقل الأمتعة، في حين رافقهما على ظهور خيول البريد خادماهما، بيتر، الأمين المخلص، والآخر خادم جديد، فضلاً عن جنديين إنكشاريين. أخذ ريج معه

كتاباً في النحو الهنغاري وآخر في الطب البيطري، في حين كان في مكتبة ماري المتنقلة عدة كتب فرنسية وقصص جديدة دارجة بقلم الآنسة ايجورث.

امتد الطريق في الخمسين ميلاً الأولى بمحاذاة الشواطئ الشمالية لبحر مرمرة، وبعد مرورهم بقرية سيلفري، اتجه الطريق شمالاً. المنطقة جبلية والسهول واسعة اعتني بقسم منها زراعياً وبقي الجزء الآخر مجرد مراع، وقد أمكن اجتيازها خلال ممر حجري طويل حتى كيرك كيلسي، على مسافة ثمانين ميلاً من سيلفري تقريباً، التي بلغوها يوم الأحد التالي. كانت القرى قذرة هجرها أهلها بسبب الطاعون، والسكن، كما يتبادر إلى الذهن، حتى في الخانات، حقير ومؤذ، وفي صباح اليوم التالي، ارتحلوا مبكرين فاكتشفوا أن الطريق كان رديئاً والسفر فيه أردأ منه إلى حد بعيد. ومع ذلك، فإن ما أثار دهشتهم هو أن تلك العربة المتداعية لم تعرض إلى أي حادثة تذكر.

توقفوا في تلك الأمسية في أول قرية مسيحية شاهدوها منذ مغادرة القسطنطينية، وقد أخبروا عن مشاهدتهم قطيعاً من حيوانات دعاها ريج الخنازير البرية الأليفة التي تختلف عن خنازير إنكلترا. كانت القرية، بصورة رئيسة، ذات أكواخ شُيدت من أغصان الأشجار وسُقفت بالقصب المغطى بالطين. لقد أعيد بناء القرية تواً بعد أن خربها اللصوص عدة مرات، أو بوساطة ما كان يعتمل في قلوب الحكام الأتراك من جشع وقسوة، أولئك الحكام الذين كانوا أسوأ من

اللصوص أنفسهم. بيوت القرية من الداخل نظيفة ومرتبة، وساكنوها أناس مهذبون. وهكذا، فقد استمتعت عائلة ريج براحة ليلية رخية للمرة الأولى بعد ستة أيام مضنية. وأهالي القرية بلغاريون يصفهم كلوديوس بأنهم:

« أصحاء الأبدان، ذوو ملامح قاسية تتسم بالجرأة والصلابة مع كثير من السيماء التترية التي تتمثل بالشجاعة والإخلاص الكاملين فيما يقومون به من عناية بالزراعة وتربية الماشية. كان عدد تجار القرية قليلاً، وليس فيهم طبقة عليا مميزة. يعتمر الرجال فيها قبعات من جلد الغنم ويرتدون صدرات بنية غامقة وسترات صنعت من وشائح زرق وسراويل من نفس اللون والنسيج، تلتصق بالسيقان بقوة، من الركبة حتى الكاحل.

وحينما تسوء الأحوال الجوية تضاف إلى تلك الملابس معاطف رجالية من اللباد الأبيض، وتلف السيقان باللباد المثبت بالقنب، وأحذيتهم محكمة الربط، وقماش الكتان الذي يتسربل به الرجال والنساء غاية في النظافة على الدوام. وإذا كنا عادلين في الحكم عليهم، لابد أن نقول أنهم، على ما يظهر، عاكفون على النظافة مظهراً ومسكناً.

أما النساء فيعتمرن الطرابيش، حيث يغطي كل طربوش منديل أبيض يستخدمنه برقعاً، ورؤوسهن ورقابهن مزينة بقطع نقود معدنية، ولقمصانهن التحتانية أردان واسعة، وتلك القمصان مزينة، هي

الأخرى، بالألوان المختلفة التي تظهر على الأردان والقسم الأسفل، إذ يظهر ذلك تحت الجلباب عادة. وهذا الجلباب المفتوح عند الصدر مصنوع من الصوف المرقش الألوان، وقد جرت العادة أن ترتدي المرأة مئزراً صوفياً، ثم إن معطف اللباد الذي ترتديه مزين بالمخرمات. كذلك ترتدي النساء الأكسية الحمر والأحذية النصفية الخاصة بالسيقان، وشعورهن مضفورة على شكل جديلة واحدة على الظهر تتدلى منها وشيعة بقطع معدنية تصل إلى نهاية الجلباب تقريباً، كما يستخدمن الدمالج الفضية التي لا تغلق، حيث تلتصق بالمعاصم كما هي.»

وبعد مغادرة كيرك كيرسي في الثامن عشر امضوا عشرة أيام في قطع مسافة المائتي ميل التي امتدت حتى بوخارست. لقد أشاعت المنطقة البهجة في قلب كلوديوس، بخاصة عندما شاهد مرة أخرى الأشجار والزهور التي ألفها في شرخ شبابه، وكذلك استمتع برؤية ألوان البنفسج، الصفر والأرجوانية، وزهور الربيع التي زوقت صفوف الوشائع والضفاف، فملأت الجو بأريجها العبق. وسمع ثانية نداء طائر الوقواق وشدو طيور الغرب، بعد انعدام رؤية أي شيء منها خلال سنوات كثيرة، عدا صرامة منظر النخيل الرتيب وسماع أصوات طيور الصحراء التي تنقصها الرخامة. لقد شاهد، هنا وهناك، مظاهر جمة أثارت اهتمامه، مثل تلك العادة التي يمارس فيها الناس نثر الشعير على العربة التي تدخل أو تغادر أية قرية بلغارية، أو مشاهدة النساء في إسكي استنبول، اللواتي يوقدن الشموع ليلاً على قبور معارفهم الذين

قضى عليهم الطاعون، حيث يذهبن هناك للنوح عليهم.

والحقيقة، هي أن الطاعون قد دمر البلاد حيث استحالت اغلب المدن الصغيرة والقرى إلى مشاهد لا يرى فيها الإنسان غير العزلة والفقر المدقع. وبين كيرك كيليسي ومدينة راسغراد مروا خلال دول بلقانية، والأراضي التي اجتازوها لم تكن جبلية كما هي الحال في بلاد الأناضول، وإن كانت بمثل روعتها، إذ كانت الوديان خضراً بحقول قمحها الفتية، في حين كانت النجود مغطاة بالعشب والأحراج. لقد تأخر فصل الربيع، فلم تورق الأشجار مما قلل، إلى حد ما، سحر المنظر وبهجته. ولا يهمهم كثيراً أنهم كانوا في أوربا، فكل يوم شهد أنهم كانوا أقرب فأقرب إلى حضارة الغرب، وهي حقيقة أبهجت قلب كلوديوس إلى درجة كبيرة.

وبعد مغادرة راسغراد، قابلوا باشا تلك المدينة، الذي كان على أهبة السفر مع حريمه، وهنا يورد إحدى حكاياته القصيرة بخصوص ذلك الموكب، وهي حكاية جديرة بالاقتباس، إذ يقول:

«قابلنا الباشا، الذي أحيط بجنود من الخيالة والبحرية، وجنود آخرين من بورنيو، بصحبة آمريهم، وهم يشكلون بمجموعهم عناصر همجية متنافرة تثير الضحك، لا تصلح إلا أن تكون قوة مسلحة مع جنود خبثاء معربدين. ظهر موكب حريم الباشا أولاً بمرافقة مجموعة من الفرسان على ظهور خيولهم. كانوا يتحركون بلا مبالاة حول العربات التي ضمت النساء في داخلها. كان عدد العربات ثلاثاً ـ الأولى تركية، نافذتها

مفتوحة تضم امرأة كهله بدينة، والثانية مركبة روسية ذات عجلات أربع من عربات البريد، تسحبها ستة خيول، تضم سيدتين والنوافذ مفتوحة بشكل مماثل. (ترتدي السيدتان بدلتين مما تلبسهم السيدات في الشوارع)، والأخيرة مركبة تركية مألوفة عليها ستارة، خمنت أنها الخادمات أو وصائف الحريم.

تلا ذلك المشهد موكب الباشا مباشرة، الذي افتتحه جنوده التتريون، يحملون علماً أبيض كبيراً، وتتعقبهم نقاريات صغيرة ومجموعة من الفرسان، ثم طليعة الخيول التي يضم بعضها خيولاً رائعة ذات سروج باذخة الزخرفة. وبعد ذلك، جاء من يحمل راية بيضاء ملفوفة، خاصة بالبحرية، وآخر يحمل راية خضراء منشورة. ثم ظهرت طوغتان (تعنيان أنه باشا من الدرجة الثانية)، مع علم ملفوف. تقدم كل ذلك مباشرة أمام الباشا، الذي كان في مركبة أوربية بأربع عجلات تسحبها ست أفراس جرذية اللون، متماثلة تماماً وبنسق جيد. انحنى الباشا نحوي عندما مررت به ودعا احد جنودي الإنكشاريين مستفسراً عما أكون وعن أخبار القسطنطينية. وبعد عربته تحركت عربتان فارغتان يسحب كل واحدة منها أربعة خيول.

توقف عزف فرقته الموسيقية المشاركة في الاحتفال، فأوقفت فجأة مؤخرة الجيش وسط حشد بائس من جنود سادهم الاضطراب، واختلطوا بعدد من عربات الأمتعة والخيول العرجاء. . . .الخ. »

في ساعات العصر الأولى وقعت أنظارهم على نهر الدانوب، الذي ترك

في نفس كلوديوس فيضاً من السعادة والإثارة. وعند اختراقهم مدينة روستجول على ضفة النهر الجنوبية، اجتازوا ذلك النهر فنزلوا في حصن جورجيو، ولم يبد أمامهم شيء غير أكوام النفايات والخرائب وازدحام الأكواخ الحقيرة. وفي عصر اليوم التالي وصلوا إلى بوخارست بعد ارتحال مرهق في عربة بريد محلية ذات أربع عجلات. ووصف هذه الرحلة طريف جدير بالتدوين:

«إن عربات البريد في هذه البلاد وإن لم يرتفع مستواها أعلى من مستوى عجلة اليد، وحوالي نفس حجمها وشكلها، كانت مجرد عربات بأربعة دواليب صغيرة ليس فيها قطعة حديد ولو صغيرة، وليس فيها مسمار في أي جزء من هيكلها. إن بإمكان شخص واحد، وبكل جهد، أن يحشر نفسه في واحد منها، ومع ذلك، فإن تلك العربات تسحب بأربعة خيول مجهزة بالأرسان والعدد اللازمة لها، ويمتطي الحوذي أقرب تلك الخيول إلى مؤخرتها.

احتللنا، مع متاعنا، ست عربات وانطلقنا بسرعة لا تصدق. وعبثاً هتفنا وتعالى صراخنا مستغيثين للحفاظ على سلامة عظامنا، فلسنا سعاة بريد أو أدلاء للسياح، غير أن حوذية ولاخيا لم يفهموا شيئاً غير العدو السريع. ومع ذلك، فقد تعطفوا علينا بجعل الخيول تجري خبباً في بعض الطرق المؤدية، ولكن سرعان ما استأنفوا سرعتهم المفضلة.

مظهر هؤلاء الحوذية غريب، فبعضهم يعتمرون قبعات من جلد الغنم ويرتدون الستر، في حين يرتدي الآخرون منهم معاطف اللباد الطويلة،

ويضيف قليل منهم إليها قبعة رعاة مع تاج صغير مضحك وحافة لا حد لها ترضي قناعات الفرد الصيني أكثر من غيره من الناس.

لقد أزعجني كثيراً اهتزازات العربة السريعة، فضلاً عن آثار الضجيج والحرارة والغبار التي قاسينا منها في تلك العربات التي خلت من النوابض، لدرجة أنني، حينما بلغنا بوخارست، كدت أجن مما أصابني من دوار.

الفصل الحادي عشر

الرحلة من القسطنطينية إلى فيينا-تابع-١٨١٤

كانت بوخارست في ذلك الوقت تعج بمختلف القوميات فعَرضَت بذلك مشهداً مسلياً، وإن لم يخل ذلك المشهد من الصخب، فجميع دول أوربا الشرقية وآسيا الغربية قدَّر أن يُرى أغلبها، وعلى نحو أكثر من إثارة الخيال، من خلال ما يرتديه الناس هناك من الملابس المزركشة التي قضت بها تقاليد البلاد، ومن خلال اللغط الصادر عن اختلاط الألسن الذي لا يمكن أن يوازيه شيء الا اختلاط الألسن السائد في برج بابل. يضاف إلى ذلك أن المدينة بأكملها رصفت بالخشب الذي جعلها في ضجيج متواصل، فضلاً عما فيها من جلبة واضطراب.

وبوخارست، المدينة الأوربية الكبيرة الأولى التي زارها ريج منذ تسع سنوات، جعلته يشاهد فوراً ما طرأ عليها من اختلافات تتمثل بلوحات الإعلانات التي تدلت خارج أبواب المخازن والحانات التي لا حصر لها، وبالكنائس الكثيرة ذات القباب المغشاة بمختلف المعادن. كذلك رأى المركبات الغربية، إذ كان لكل فرد من سكان بخارست عربة خاصة، حتى وإن كان فقير الحال أو مثيراً للسخرية لغرابته، وبصحبته حوذي وخدم يرتدون أي نوع من الملابس الرثة. حلّت عائلة ريج، لدى وصولها إلى المدينة، في فندق صغير قابلت فيه السيد بروس، الذي سبق أن تعرف عليه في القسطنطينية، والذي أخبرهم عن استسلام مدينة باريس

وخلع نابليون عن الحكم. لقد أثارهم سماع هذه الانباء إثارة كبيرة، وها هي ماري تكتب عن ذلك قائلة:

«لقد حدث مثل هذا التتابع السريع للأحداث خلال هذه الشهور القليلة التي بات متعذراً على الخيال تعقبه!»

زار ريج كلاً من القنصلين-النمساوي والروسي- اللذين كانا يقيمان في دارين رائعتين، رافقه الأول في دعوة رسمية إلى الأمير يونيك كيوراجيا. وقد اقتضت قواعد التشريفات الرسمية منها الذهاب بكامل قيافتيهما الرسميتين ومخاطبته بكلمة «أمير». وفيما يأتي نقرأ ما دونه ريج في يومياته:

«اخترقنا غرفة الانتظار التي غصت بمواطنين يرتدون الملابس على وفق الطراز التركي، فبدلاتهم مختلفة، ولكن تغلب عليها قبعات الفرو والبدلات الحمر الروسية. أعلن عن حضورنا رئيس التشريفات فاستقبلنا الأمير واقفاً، رافعاً قبعته، ثم قدمني السيد «فلايشهاكل» حينما كنت أسلمه رسالتي. وقُدمت لنا القهوة والغلايين. كان الأمير يرتدي معطفاً أسود من فرو السمور مع قبعة من نفس الفرو، التي يعتمرها المترجمون عادةً، ويضع سكيناً مرصعة بالماس في حزامه. كهل ذو لحية رهيبة وعينين سوداوين معبرتين. تحدثنا باللغتين - الفرنسية والتركية- فكشف عن معرفة واسعة في شؤون كل من أوربا وتركيا. كان جمَّ الأدب، ودياً وجليلاً، عرض عليَّ كل مساعدة ممكنة لتسهيل رحلتي.»

ويواصل ريج أكثر فيقول:

«إن أصحاب الأملاك الرومانيين هم وريثو النبالة في مولدافيا وولاخيا، وهم، على ما يقال، جهلاء مستبدون كثيرو التباهي بثرائهم مع مافيهم من فسق وخلاعة، كما لم يسبق لهم أن كانوا على ود مع التجار أو الاختلاط بهم. حكم أمراؤهم منطقة ولاخيا قبل أن يستنبط الأتراك فكرة تعيين الترجمان الإغريقي في دوائر الحكومة، علماً بأن أي تعيين في الوقت الحاضر يتم بدفع رشاوٍ كبيرة، الأمر الذي يصيب المقاطعة بضرر كبير. وحينما أراد الباب العالي التخلص من أفراد عائلة «برانكوفان» المتسلطة – أمراء مقاطعة والاخيا – تظاهر بأنه كان يرغب رغبة أكيدة في مقابلة ومكافأة عائلة حكمت بلادها على ذلك النحو الرائع فترة طويلة من الزمن. وعلى هذا، فقد أُسبغت الامتيازات والألقاب الرفيعة المغرية على كبير تلك العائلة، الذي قبل، لسوء حظه، السفر إلى القسطنطينية مع أولاده الأربعة. كان قد عومل وأثني عليه بطريقة لا نظير لها بالنسبة إلى شخص مسيحي، غير أنه عند وصوله إلى العاصمة، أدخل قاعة أمر فيها الركوع، وبعد ان شاهد قطع رؤوس أولاده، عانى، هو الآخر، من المصير نفسه، حدث هذا عام (١٧١٤م). وعلى أية حال، فقد كان هناك طفل رضيع لأحد الأولاد الأربعة، الذي حينما سمعت الأم بمصير أبيه، حملته ولاذت بالفرار إلى ترانسيلفانيا، ومن هذا الطفل، بعد أن كبر، انحدر ثانية أفراد عائلة برانكوفان الموجودون حالياً!»

وبعد مضي ثلاثة أسابيع من إقامتهم في بوخارست، انطلقوا في اليوم الثالث من شهر مايس في عربتهم المغطاة، أو «البوتكا» كما تسمى محلياً، التي تسحبها ثمانية خيول مع حوذيين اثنين. أما عربة الأمتعة فتسحبها ستة خيول – الأربعة الأولى جنباً إلى جنب مع حوذي واحد. أعدّ الأمير نفسه مثل هؤلاء الحوذية دون أية نفقة عدا هبة مقدارها عشرون بارة تعطى لكل واحد منهم في كل مرحلة من مراحل السفر.

ثمة اثنتا عشرة مرحلة من بوخارست والمكان الآخر الذي سيتوقفون فيه–مدينة كرايوفا مثلاً– التي تبعد نحو مائة وأربعين ميلاً. وعموماً، كانت البيوت المخصصة للبريد غير مزودة بالطعام أو وسائل الراحة الضرورية، لأنها مجرد اسطبلات. ويضاف إلى ذلك أن قرى منطقة والاخيا قذرة بائسة، واكثر أكواخها تحت مستوى الأرض، وهي من الداخل أبعد ما تكون عن النظافة. ثم إن الحوذية أثاروا كثيراً من الجلبة، لأنهم كسالى، ثرثارون ومعربدون، ونظراً إلى ان الخيول في كل مرحلة من مراحل السفر كانت تنتقل لقضم الأعشاب مما يستدعي الامساك بها، فقد أثار ذلك مجادلات لا نهاية لها بينهم وهدراً كبيراً في الوقت.

مرت الليالي قلقة داخل العربة والطرق كانت رديئة. واجتياز كثير من الأنهار كان على جسور خشبية سيئة التركيب بصورة عامة، وذلك لأنها دون حواجز وأخشابها رخوة سائبة تئن مترنحة تحت وطأة العربة الثقيلة.

وفي اليوم التالي اجتازوا مشهداً آسراً حيث اتسعت فيه الوديان، وتسامقت الجبال ذات الأحراج الساحرة التي اقترنت بسقسقة الطيور ونداء الوقواق وشدو العنادل. وفي غضون ذلك طرأت بعض الأحداث المؤسفة التي اضطرتهم للتأخير بعض الوقت، وبخاصة حينما انغرزت عربتهم مع عربة الأمتعة في إحدى حفر الطريق الغائرة التي ملئت بالوحل والماء لدرجة غطست فيها العربة حتى محاورها ونزّت الرطوبة داخلها. الخيول مرهقة، وعدتها البائسة جداً تتفكك وتتناثر باستمرار، ولكن بعد كثير من المناورات، استطاع المسافرون تجاوز تلك المحنة والوصول إلى كرايوفا في ساعة متأخرة من الليل، بعد رحلة متواصلة استغرقت أربعين ساعة ابتداءً من بوخارست.

زارهم قائمقام كرايوفا صباح اليوم التالي زيارة رسمية في عربة ذات جياد أربعة يقودها غجري يرتدي سترة قرمزية مطرزة بالذهب ويعتمر قبعة هنغارية عالية. سار أمام الموكب موظفان يمتطيان جواديهما، في حين قام على خدمته رجال ألبانيون وضباط شرطة، يحمل أحدهم سكيناً خاصة بتنفيذ حكم الإعدام، ذات غمد أحمر!

حضر القائمقام، وهو في الخمسين من عمره تقريباً وببدلة تركية رائعة، بصحبة طبيبه الجراح الإيطالي. وبعد محادثة قصيرة قبيل مغادرته، دعا عائلة ريج، لتناول الغداء معاً في ذلك اليوم، واضعاً تحت تصرفها عربة رسمية خاصة. ولدى وصول العائلة إلى هناك، وجدت أن المائدة قد أعدّت في الساعة الواحدة على عجل. كان عليها خليط

عجيب من صحون أوربية وتركية مع سكاكين وشوكات وأوانٍ وكراسٍ، عادية كلها وغير مستساغة.

يفيض وجها القائمقام وزوجته بالبشاشة والبهجة، وبناته هادئات يتسمن بالسلوك الحسن، ولكنهن لسن جميلات، فضلاً عن أن أحد أصهاره وشخصاً إيطالياً آخر قد أكملا عقد المضيفين. وبعد تناول الغداء، وتقديم القهوة والغلايين في بهو الاستقبال، غادر مضيفهم البهو لأن أمراً خاصاً كان قد استدعى حضوره. وعصر ذلك اليوم بادرت عائلة ريج باصطحاب مضيفتهم في مركبة بأربع عجلات ومقعدين متقابلين تسحبها أربعة خيول ويتقدمها خمسة فرسان إلى إحدى البساتين حيث أمضوا ساعة في جوسق (كشك) ينم عن بهرجة سقيمة. التقوا هناك بعض سيدات الملاّك الرومانيين والسادة الآخرين، اللواتي أشار ريج إليهن قائلاً: «إنهن بشعات حقاً.»

ولدى عودتهم، دخل ريج والقائمقام في حديث طويل ممتع عن الشؤون التركية وتاريخ إجراء كثير من المفاوضات السرية. وبعد تناول العشاء الذي أعدّ في الساعة التاسعة ليلاً، غادروا مسامريهم الذين ودعوهم بكل ودٍ وحنان، وبكثير من العرفان بالجميل لما أظهروه لهم من حسن الضيافة. وبانقضاء سبع سنين على ذلك اللقاء سمع ريج بأسىً حقيقي كيف أن ذلك الرجل سيئ الحظ قد اغتيل في القسطنطينية خلال العصيان المسلح الذي قام به الإغريق.

أصبحت كرايوفا إبان ذلك الوقت في حالة خراب تام، فهي تقع في

منخفض غائر تنعدم فيه الصحة تقريباً، وعلى هذا، فقد سرَّ العائلة كثيراً لمغادرتها المدينة صباح اليوم التالي بمصاحبة حرس من ثلاثة ألبانيين استأجرهم القائمقام خصيصاً لذلك الغرض، وذلك لأن الطرق كانت عرضة لغارات العصابات المزعجة. اتجه المسافرون نحو جير نوفتز على نهر الدانوب، بيد أن الطرق كانت سيئة والخيول الجديدة غير متاحة، وأن مسافة الخمسين ميلاً كان لابد من قطعها على مرحلتين مما اضطرهم إلى قضاء ليلة واحدة في كوخ مأمور البريد، وإن كان مكاناً قذراً.

ومع ذلك، فقد سحرهم الاقتراب من جير نوفتز، حيث لاح لهم منظر الجبال وأجمات الأحراج وأوراق شجر البلوط، بالإضافة إلى الأزهار البيض والوردية لشجيرات الزعرور المزهرة المختلفة التي تلوِّن المنطقة بخضرة شاحبة وبأزهار قرنفلية اللون وأخرى بيض، في حين تراءت لهم خلف ذلك المشهد الجميل جبال صربيا الزرق التي شحبت مرتفعاتها المكتظة في خط ترامى في أعالي الافق البعيد أما في واجهة المنظر، فقد تعرَّج نهر الدانوب المهيب شاقاً طريقه عبر الوديان والمراعي الخضر.

كانت المدينة، كما هي حال بقية المدن الأخرى في هذه الأقطار، في وضع مزرٍ حيث تحولت أجزاء كثيرة منها إلى انقاض، لأنها كانت عرضة للنهب والتخريب بواسطة زعماء العصابات واللصوص باستمرار، وبواسطة السلطات التركية والصربيين على حد سواء. ثم كون هذه المدينة مدينةً حدودية، جعلها عرضة لغزو هذه الجهة أو تلك. ومع ذلك، فقد كان لموقعها أثر في ازدهار تجارتها وكثرة فاكهتها وكراهية

أهلها للهجرة منها. حلت عائلة ريج ضيفة عند أحد المواطنين، الذي كان وجيهاً، مرحاً كثير الكلام، يتحدث عنه كلوديوس بهذا الوصف المشرق الآتي قائلاً:

«بدا مضيفنا لأول مرة، في الساعة الثالثة عصراً، وهو يعتمر قلنسوة نوم ويطلق لحية تركها أسبوعين دون حلاقة، كأنه، على أية حال، قد استولى على نفوسنا وأحسن استغلال فرصة التعارف علينا. وعلى هذا، فقد دعوناه لتناول الشاي معنا، فانطلق يتحدث دون تحفظ.

وخلال دقائق قليلة راح يسرد على مسامعنا تاريخ حياته كلها. فهو أحد مواطني القسطنطينية، ينحدر من عائلة معروفة، وكان كثير الارتحال في أوربا وآسيا. وأخيراً رأى أن من الضروري أن يستقر، ولذا جاء إلى والاخيا حيث عقد العزم على العيش فيها. رأى أن أول ما ينبغي عمله هو القيام بما يرضي نفسه، وذلك باختيار شريك حياة مناسب له، غير أن إيجاد مثل هذا الشريك ليس سهلاً في والاخيا. وبعد البحث والتقصي عبثاً في أجزاء مختلفة من المقاطعة، وإعطائنا البيانات الخاصة بعد أهلية السيدات فيها، عرض علينا حكاية طريفة تتمثل في أن هذا الإغريقي.. كويلبس.. غمره سرور طاغ حينما حقق هدفه المنشود في جيرنوفتز، وذلك بالتقاء ابنة حاكم سابق، ومهما اقتضى مثل هذا الزواج من المستلزمات المتعلقة بالمسائل الأخلاقية والصفات المميزة، فنحن لا يمكننا التعاطف مع ذوقه، لأن السيدة كانت بشعة إلى درجة مروعة!

لقد استقر في هذا المكان منذ ذلك الوقت، ويمتلك الآن الشيء الكثير. قدَّم إلى الروس كثيراً من الخدمات فنال من الامبراطور، مقابل ذلك، ميدالية ذهبية أظهرها لنا بكل فخر واعتزاز. وإلى جانب سيرته الخاصة، فهو يتمتع بذكاء رائع في كثير من النواحي الأخرى.»

وريج، الذي تلهف على معرفة كل شيء، اكتسب الشيء الكثير من مضيفه. فمدينة والاخيا، التي هي الآن جزء من رومانيا، كانت في تلك الأيام تحت السيطرة التركية، وأن تلك المقاطعة البائسة جداً قد شهدت كثيراً من إراقة الدماء في الخمسين سنة التي سبقت رحلة ريج، حيث نشبت حربان ضروسان بين روسيا وتركيا. اندلعت الحرب الاخيرة بينهما عام (١٨٠٦م)، وبعد ست سنوات من السلب والنهب والدمار انتهت بمعاهدة «سلام بوخارست» عام (١٨١٢م) التي لا تكاد أن تكون سنتين قبل رحلة ريج. كانت النتيجة واضحة خلال مشهد القرى التعيسة والطرق الفظيعة ومظهر الفقر العام. والناس الوحيدون الذين مازالوا يحتفظون بجزء معين من الثراء، وإن كانوا، على ما هو جلي، قوماً تنقصهم دماثة الأخلاق والرقة، هم أصحاب الأملاك الرومانيون أو طبقة النبلاء الذين امتلكوا الغجر والفلاحين–الغجر عبيداً لهم ومنهم كان الجنود وخدم البيوت. وهؤلاء الغجر، وإن سمح لهم أحيانا بترك الخدمة في بيوت أسيادهم ليصبحوا سماكرة أو عمالاً متجولين أو مرشدي سفر للأرستقراطيين أو صقّارين، فهم ليسوا أحراراً بالمرة. أما الفلاحون، من ناحية أخرى، فهم لم يمارسوا إلا أعمالاً عبودية غير انتمائهم إلى الأرض

وحدها، حيث يطلب منهم ممارسة عمل يغطي عدداً معيناً من الأيام كل سنة، وليس بإمكانهم ترك الخدمة عند أسيادهم.

وفي يوم الأحد، الثامن من شهر مايس، أكملت عائلة ريج المرحلة الأخيرة من رحلتها على الحدود التركية، وانحدرت إلى ضفة نهر الدانوب حيث امتد الطريق بموازاته. وعلى بعد ميل من جيرنوفتز، مروا بالأثر الرائع المعروف بـ« تيرنوسيفرين» أو برج سيفروس–الموقع الذي يفترض أنه جسر تراجان الشهير. استمتع ريج كثيراً بتلك المنطقة وبتأثيرات منظرها الساحر، واشتاق إلى رسم المشهد، لكن ضيق الوقت لم يسمح له بذلك. وها هو يدون مشاهداته قائلاً:

« ينساب نهر الدانوب المهيب ، المندفع بقوة تياره، بين جبال تكسوها غابات تلامس حافات الماء، مع ما يحدث أحياناً من وجود قنّة جبل صخرية جريئة تندفع لتستقر في عمق المجرى، كما لو أنها شاءت أن تسدّ أو تعترض المزيد من اندفاعه العنيف. وكل ما هناك من التشكيلات اللونية التي تستطيع يد الربيع الصناع تكوينها تمتزج فيما بينها بأكثر الأساليب تناغماً وانسجاماً، مع خلفية ترق لتشكل لوحة ضبابية ضاربة إلى اللون الأرجواني! »

كان الطريق رديئاً اضطرنا في بعض المناطق على قطع المسافة سيراً على الاقدام، وأجبروا مرة أو مرتين إلى الاندفاع حول جرف صخري شاهق، حيث تخطى النهر منتهكاً حرمات الممر بزورق لأحد صيادي الأسماك.

وفي الساعة الواحدة بلغوا الحدود التي يفصل فيها مجرى نهر صغير الأراضي بين تركيا والنمسا. وعلى الرغم من السعادة التي غمرتهم نتيجة لتفكيرهم في مغادرة الأراضي التركية، لم يكن استقبالهم للأراضي النمساوية بشير خير. فخلال غياب آمر الوحدة العسكرية، جاءت معدّية ثقيلة مرهقة لنقلهم. أمضت تلك المعدّية وقتاً طويلاً رواحاً ومجيئاً عدة مرات لنقل العائلة وتجهيزاتها إلى الشاطئ النمساوي بعد انتظار استغرق أربع ساعات. وعلى هذا، لم يتح للعائلة الاستقرار على الضفة الأخرى من النهر إلا في الساعة التاسعة ليلاً.

أما ريج، فهو يقارن بكل مرارة، بين كرم الشرق والأخلاق الأوربية! فقد وصف الإجراءات النمساوية وملابس الأفراد هناك بأنها بغيضة، وكيف أن كل فرد منهم بدا ثملاً، ينغرز في فمه غليون أسود قذر.

كان الجندي، الذي رافقهم إلى المحجر الصحي، مخموراً لدرجة تعذر عليه الوقوف، وكذلك كان المسؤول عن المحجر الذي استقبلهم، ولم يظهر، مع ذلك، أي ضابط أمامهم. وهكذا، فقد وجدوا أنفسهم محتجزين دون أن تتاح لهم فرصة حتى لنقل أمتعتهم أو فرشهم من عربة النقل. أحاط بذلك الشخص المسؤول عن المحجر الصحي بضعة أشخاص متوحشي الملامح في أسوأ ما تكون عليه حال من يعاقر الخمرة. حدقوا في وجوه المسافرين ونفثوا الدخان عليها، وراحوا يبصقون في كل اتجاه.

اشمأز ريج إلى حد الغثيان، لأنه لم يعتد رؤية مثل هذا النوع من

العجرفة. وعلى أية حال، فلا فائدة من اثارة الضجيج، أضف إلى أن اللغة الألمانية هي إحدى اللغات القليلة التي لم يتحدث بها، ولذا تعذر عليه التعبير عن آرائه التي كان يمكن أن تكون مؤثرة.

لا يعدو المحجر الصحي أن يكون مجرد سجن في حقيقة أمره، تحول إلى «كرنتينا». فهم، بعد اجتياز عدة بوابات اقتيدوا إلى غرفة واسعة رطبة ومعتمة، لطخت جدرانها بالأوساخ وغطيت أرضها بالوحل.

وليس ثمة نار للتدفئة على الرغم من برودة الماء، ولا وجود للأثاث عدا منضدة خشبية طويلة ومسطبة. النتانة فظيعة، ومع ذلك، ففي هذا المكان كان لابد أن تقضي عائلة ريج ليلتها. ومن خلال إلفات نظر المرافقين إلى انهم كانوا بحاجة إلى الطعام، فقد جلبت لهم من حانة المحجر وجبة مقززة مليئة بالشحم والدهن. وبما أن الجوع قد عضهم بقوة، فقد ازدردوا جزءاً من ذلك الطعام.

وكلوديوس، الذي لم تغب عنه روح الدعابة طويلاً، حاول التسرية عن ماري، التي تدنت معنوياتها إلى حد ذرف الدموع، بسخريته اللاذعة من المغامرة كلها وذلك بتخطيط صور كاريكاتورية لـ« سجانيهم ».

زارهم صباح اليوم التالي الطبيب، الذي كان، لحسن الحظ، يتحدث اللغة الإيطالية. ثم أعلن بعد فترة قصيرة عن حضور آمر الموقع العسكري، الذي كان ظهوره مثيراً للسخرية لدرجة كان كلوديوس على وشك الجنون.

فهو رجل ضخم يبلغ طوله أكثر من ستة أقدام، بطين يرتدي سترة ضيقة جداً بلون الصدأ وبصف واحد من الأزرار، في آخر مرحلة من مراحل الاستهلاك. لم يحمل سيفاً، ولكنه تمنطق بحزام جلدي أسود قديم، لا يشك في أنه كان يقصد به أن يكون للسيف، في حين انه الآن لمجرد اسناد كتلة لحمه المترهل التي برزت فوقه! كان لون وجهه أسخم شبيهاً بلون جلد مدبوغ، وشعره الناعم الاسود كثيفاً في اعلى رأسه، ومن هناك شكل خيطاً تدلى فوق جبهته فأدخله خلف أذنه. مسك في احدى يديه قبعة واسعة مردودة الحافة إلى الأعلى في موضعين أو ثلاثة، محاطة بالجلد، وهز باليد الاخرى عصا. رافقه أربعة أو خمسة سفاحين كريهي المنظر، آخرهم دربّه السجان لحمل حزمة كبيرة من المفاتيح، وكان يبصق في كل الاتجاهات، كما فعلت بقية الزمرة.

وبعد إخراج رسالة التوصية التي جاء بها ريج من جيبه الواسع، مسكها الآمر أمام الضوء وراح يقرؤها بجهد واضح. ومع ذلك، فقد حاول إظهار بعض الادب، فأعلن أنه يمنح عائلة ريج مأوى لراحتها. وهذا ما تم فعلاً، لكن تنظيف المكان استغرق يوماً كاملاً من جهد ناء به الخدم وحدهم!

وبعد أن علم كلوديوس وماري أنهما سوف يقيمان في هذا المستقر ثلاثة أسابيع، وهي المدة التي تقتضيها التعليمات، نظما أيامهما كما يأتي:

«نستيقظ في الساعة الثامنة صباحاً، وفي أثناء إعداد الإفطار نستمتع

بتدخين غليوني لدى الباب. ثم نقوم بممارسة بعض التمارين الرياضية والتجوال في الهواء الطلق حتى الظهر، وبعد ذلك نكتب ونطالع حتى الساعة الثانية عصراً. وابتداءً من ذلك لوقت حتى موعد تناول العشاء، الذي يحين في الساعة الخامسة، تقرأ لي ماري شيئاً من (مدام دي موتفيل وسنت سيمون أو مذكرات ريتز)، في أثناء انشغالي بالرسم. وبين السابعة والثامنة نتناول الشاي ثم نأوي إلى النوم في الساعة العاشرة، أما الوقت الذي يتوسط هذه الممارسات فيقضى بالحديث والقراءة.

ربما أن القراءة المفرطة ترهق أحياناً، لذا عملت بسكين القلم التي احتفظت بها في جيبي طاقماً من بيادق الشطرنج، كما حددت أبعاد رقعة الشطرنج بالحبر على منضدة من خشب الصنوبر.»

كان التمرين في الهواء الطلق، على ما هو واضح، يتم في أفنية المحجر الصحي، ولما دنت نهاية مكوثهم هناك، سمح لهم بالتجوال خارج أسوار المحجر بصحبة ضابط مسؤول عن الصحة.

يدعى هذا المكان «شوبانيك»، على مسافة نصف ميل عن أورسوفا وضفة الدانوب، ويضم المحجر الصحي صفين من المستودعات وساحة رباعية الشكل تحيط بها شقق ضباط المحجر، وبعض الفضاءات المفتوحة ذات الأرصفة لعرض بالات القطن، الذي بدا أنه التجارة الرئيسة بين والاخيا والنمسا، وهناك مزيد من أفضل المساكن التي خصصت لذوي الرتب العليا من ضباط المحجر النمساويين بصفة رئيسة.

في ذلك الموقع أقام حرس من المليشيا، كما كانت ثمة قرية كبيرة إلى حد ما تجهز أفراد هذه العصبة المرعبة بالمتطلبات الضرورية، فضلاً عن وجود كنيسة كاثوليكية.

وفي السابع والعشرين من شهر مايس، قبيل نهاية الأسابيع الثلاثة الموحشة تماماً، تلقت العائلة أنباءً سارة تفيد أنه سوف يُسْمَح لها بالمغادرة. بدايةً، زارهم الطبيب، ثم أعقبه السجان الذي جاء بوعاء يحتوي على فحم، حيث ألقى في ذلك الوعاء بعض الذرور لتعطيرهم، وبعد أن عفَّر كل جزء من أجسامهم تقريباً بدخان ذلك الذرور، أعلن عن سلامتهم من اعراض الطاعون.

استغرق ذلك اليوم كله باتخاذ الإجراءات اللازمة، التي لم تنته دون عراقيل كثيرة. فالمقيم، ريج، كان متلهفاً جداً على السفر إلى بلغراد، غير أن آمر الموقع، لأسباب شخصية، رفض الفكرة كما رفض منح الموافقة الضرورية في جواز السفر.

ومع ذلك، وعلى الرغم من جميع مظاهر القلق والإزعاج، فقد شهد صباح يوم الثامن والعشرين رحيلهم المبكر بالعربة. كانت المرحلة قصيرة، لأن ريج كان مدفوعاً بشوق كبير لزيارة حمامات مهاديا الشهيرة. وبملازمتهم للطريق الممتد بمحاذاة ضفاف نهر «سيرنا»، شقت عربتهم طريقها خلال مشهد ساحر لأحراج جبلية ونهر رائع إلى أن بلغوا هدفهم بعد الظهر مباشرة. أمكنهم الحصول على نزل نظيف جداً، لكن الطعام الألماني الدسم الكثير لم يلائم أذواقهم. على أية حال، هذا أمر لا

محيص منه. ثم إنهم، بعد الإذعان لكل ما يقضي به السفر، انطلقوا يتفحصون المكان بكل ما فيه من عجائب تثير الفضول.

استقطبت الحمامات الكبريتية الساخنة كثيراً من اهتمام الناس عبر العصور، فاستخدمت من لون الأتراك والنمساويين بدرجة توازي استخدام الرومانيين لها أيام احتلالهم للمنطقة. شوهدت على جدران الحمام الكبير مذابح نذور كثيرة، وبدا أن هرقل قد عُدَّ أكثر آلهة المكان قدسية، كما أمكن مشاهدة تمثال نصفي غير صقيل لأحد الآلهة في كهف قريب. والناس من كلا الجنسين، في أثناء مرور عائلة ريج، كانوا يستحمون في الهواء الطلق، عراة على ما يظهر، تراود أذهانهم فكرة ان الشفاء ربما كان سيصبح أكثر تأثيراً فيما إذا فعلوا ذلك! وبعض المرضى والجنود الجرحى كانوا يفدون إلى المكان في أثناء مغادرة العائلة صباح اليوم التالي، مترنحين متذمرين في عرباتهم التي تسحبها الثيران في طريقهم إلى الحمامات للعلاج. لقد بدا أولئك الناقهون التعساء، الذين سبق لهم أن خدموا في صفوف الحلفاء خلال الحملة الأخيرة في فرنسا، في حالة مزرية ورعاية سيئة.

كانت مرحلة السفر في ذلك اليوم طويلة، فلم يصلوا إلا في الساعة الحادية عشرة ليلاً، بعد تعرضهم إلى عاصفة عاتية في المناطق الجبلية. وعزاؤهم الوحيد هو أنهم عند بلوغهم قرية تيريغوفا، وجدوا نزلاً أنيقاً يديره شخص تيرولي[1] في غاية التحضر. هيأ لهم الرجل في تلك الساعة

(١) نسبة الى تيرول التي هي جزء من جبال الألب في القسم النمساوي.

من الليل وجبة طعام جيدة من لحم الضأن المحمر والسَلَطة، وبعد أخذ قسط من الراحة ليلاً، كانت وقفتهم الثانية في لوغوس، التي شنفت أسماعهم فيها، عند وصولهم، أنغام الاوركسترا الرائعة. فلقاء مبلغ زهيد عزفت لهم الفرقة، خلال تناول العشاء، ألحاناً عامة وأخرى لرقصة الفالس، بالإضافة إلى المارشات. ابتهج ريج بذلك الجو كثيراً، لأن سماع مثل هذه الموسيقا الممتعة كان حقاً إشارة تدل على الحضارة الأوربية.

والرحلة في اليوم التالي جرت على سهل منبسط سبخ كان الطريق فيه محاذياً لشجرة صفصاف مقطوعة الرأس أضفى عليها القطع تأثيراً كئيباً لا حدَّ له. وسعدوا كذلك بوصولهم إلى تيميسفار، ذلك الموقع العسكري الكبير الحصين، فالمدينة ذات شوارع عريضة ونباتات زاهية، وإن وجدوا النزل قذراً يتعذر النوم على أسرته.

مكثوا في هذه المدينة يومين، وبعد زيارة القائد العام للجيش – البارون هيغر– قدمت لهم، في اليوم الثاني، دعوة لتناول الغداء معه بحضور زوجته في الساعة الواحدة، ثم قامت العائلة بزيارة السيدة الإنكليزية، أرملة أحد الضباط في الخدمة النمساوية.

تيميسفار مدينة رائعة تعهدتها يد العناية جيداً، وكل ما فيها منظم على خلاف ما هو سائد في المدن التركية المحصنة. هذا، وقد عرض على ريج مشاهدة برج قديم في الحصن، دخل من خلاله الأمير يوجين.. أحد أبطالها العسكريين المفضلين–تلك المدينة حينما انتزعه من أيدي الأتراك. زخر المكان بذكريات تاريخية كثيرة، فقد شيد جون هونيادي

تلك القلعة في القرن الخامس عشر الميلادي، واستولى عليها الأتراك في القرن الذي تلاه لتخرج أخيراً من مجمل الممتلكات بواسطة معاهدة السلم التي أبرمت عام (١٧١٠م).

لا تزال إحدى العادات الغريبة التي شاهدها ريج فأذهلته إلى حد ما، جديرة بالتنويه، فهناك كثير من الناس الذين يمكن مشاهدتهم يتجولون في الشوارع بأصفادهم، ويعاملون بلا اهتمام لحالهم تماماً.

كانوا من المجرمين، وبعضهم مذنب بجرائم خطيرة والحكم عليهم بتلك القيود هو العقاب الرئيس، لأن الحكم بالإعدام نادراً ما كان ينفذ، وكثيراً ما اتخذهم الناس خدماً لهم لأن أجوزهم معتدلة.

ونقلت قصة عن سيدة هنغارية من طبقة متميزة كانت لها وصيفة من بين هؤلاء السجناء، أخفت أصفادها تحت تنورتها الداخلية!

شهدت الساعة الثامنة صباح اليوم الثالث من شهر حزيران عربة سفرهم مرة أخرى. ولسوء الحظ، فقد أخطأ الحوذي الطريق الذي كان عليهم سلوكه، فبدلاً من اتخاذ الطريق المؤدي إلى «سيجيدين» وجدوا أنفسهم مسافرين جنوباً ليصلوا عصراً إلى مدينة بيودرا الصغيرة التي يمتلكها نبيل هنغاري يدعى بتلر. تزامن ذلك الاسم تزامناً غريباً بالنسبة إلى ريج، الذي ترعرع خلال طفولته في كلكيني، فعرف الاسم جيداً، أضف إلى أن تلك المنطقة كانت موطناً لكثير من فروع عائلة بتلر. وأخيراً، تحقق لهم الطريق الصحيح الآن فواصلوا رحلتهم نائمين في عربتهم. لقد أعاد هذا الجزء من الطريق إلى ذهن ريج ذكريات سهول ما

بين النهرين، ذلك الامتداد الواسع الذي ينبسط حتى الأفق. وعلى الرغم من أن تلك المنطقة قد اخضرت بفعل الاستزراع، زراعة الشعير بصفة خاصة، فقد امتدت أميال طويلة من مراع يرعى فيها حشد من الخيول. كانت المنطقة بحوزة عدد من ملاكي الأراضي الذين عاشوا، مع ذلك، حياة بسيطة تشبه تلك الحياة البسيطة التي يعيشها النبلاء الإنكليز في الريف. وكذلك امتدت يد الرعاية الجيدة إلى تلك القرى، فبدت ساحرة نظيفة، فضلاً عن بيوتها المشيدة على أفضل ما يكون عليه التشييد.

في اليوم التالي وصلوا إلى مدينة سيجيدين على الضفة الغربية لنهر ثايس، فيكونون بذلك قد دخلوا هنغاريا فعلاً. وأصبح ممكناً رؤية التغيير الحاصل في «يانات»[1] من خلال الدمار الفظيع الذي حلَّ بتلك المدينة والقرى المجاورة لها في أثناء تقدمهم، إذ كان فيها نفس ما كان في منطقة والاخيا من زرائب وأكواخ مسقفة بالقش.

وبعد تغيير الخيول في كل مرحلة من مراحل الطريق، بلغوا مدينة فيليغاسة مساء اليوم التالي، فابتهجوا كثيراً بمشاهدة بعض الراقصين الهنغاريين الذين صاحبتهم فرقة رائعة تعزف ألحانهم الوطنية. والناس وإن كانوا يأسرون الألباب بأدبهم الجم، فقد بدوا قذرين، يدهن الرجال منهم شعورهم بدهن شحم الخنازير الذي كانت رائحته تزكم الأنوف. وبمزيد من اللهفة على الوصول إلى بيست. واصلوا سراهم ليلاً ليبلغوها

(١) منطقة في جنوب شرق أوربا في حوض نهر الدانوب. كانت في الأساس ضمن هنغاريا، لكنها قسمت عام (١٩١٩م) بين يوغوسلافيا ورومانيا.

عصر اليوم التالي، وضمنوا مأوى لهم في «فندق الأمراء السبعة» .

ازدحمت مدينة بيست بالناس لأن معرضاً فصلياً كان في أوج نشاطه، بيد أن أشد ما أزعج عائلة ريج كان الطريقة التي أحاطتها بها الحشود والاسلوب الذي حدقها بها الناس فضلاً عن التعليقات الساخرة الكثيرة، وإن لم يبد منظرها غريباً، فقد تابعها رجال ونساء في كامل أناقتهم حتى داخل الفندق، ولم تتخلص منهم إلا بعد إغلاق أبواب الغرف.

أمضوا في المكان يومين، يتجولون في أغلب ذلك الوقت لمشاهدة معالم المدينة. وكذلك زاروا المعرض، الذي كان بالنسبة إلى كلوديوس معرضاً حسن الإدارة ودون اضطراب أو صخب كما يحدث في أي معرض إنكليزي عادةً. استحوذت شوارع المدينة وحوانيتها على إعجابهم، وقد جلب انتباههم وجود الكتب وباعتها، حيث زينت أغلب تلك الكتب بصور قادة الحلفاء وملوكهم، منها صور الدوق ولنغتون، الذي هزم نابليون في معركة واترلو عام (١٨١٥م). وبعد اجتياز نهر الدانوب، زاروا مدينة بودا لتي اثارت دهشتهم بقصورها الفاتنة وصالات عرض الصور ومصانع الأسلحة...الخ. أمضوا الليلتين التاليتين في مشاهدة العروض المسرحية التي خيبت ظنهم، فقد لاحظ ريج أن سلوك الحضور كان منافياً لكل ما يرغب فيه المتفرج، أضف إلى ذلك أن المسرحية كانت كئيبة والموسيقا بائسة!

وفي اليوم التاسع، بعد مغادرة بيست مبكرين، وصلوا إلى فيينا في

(١) نسبة إلى الأمراء الجرمانيين الذين ينتخبون رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

صباح اليوم الحادي عشر، دون توقف في أي خان على الطريق، عدا وقفات تقتضيها الضرورة لتناول الطعام أو تبديل الخيول، ولاسيما أنهم قضوا لياليهم نائمين في عرباتهم. كان هذا، جزئياً، على وفق رغبتهم في انهاء رحلتهم بأسرع ما يمكن، وجزئياً بسبب ما جوبهوا به من فظاظة كبيرة وإهانة في محطات البريد، فضلاً عما رافق ذلك من نفقات وضرائب باهظة أفضت بالمقيم إلى شعور بمعاناة تفوق الاحتمال.

وعلى هذا، فإن البلاد، وإن بدت رائعة بجمال مرتفعاتها التي كسيت بالخمائل وبناياتها المميزة بالقصور البارونية ومنظر الدانوب الذي شاهدوه ثانيةً حينما اخترقوا مدينة بريسبرغ، فقد سروا أكثر بوصولهم إلى فيينا، حيث توجهوا مباشرةً إلى شققهم المريحة في «هوهه ماركت.»

وضع تحت تصرفهم جناح رائع يحتوي على خمس غرف في الطابق الثاني، مع ثلاث غرف إضافية خصصت لخدمهم. وزيادة عن الاشخاص الذين صحبوهم، استخدموا خادماً خاصاً يعنى بملابسهم ويساعدهم على ارتدائها، فضلاً عن خادمتين أخريين. وهكذا استقروا ليستمتعوا بكل وسائل الراحة والتسلية في رحلتهم الأولى إلى عاصمة أوربية.

الفصل الثاني عشر

فيينا وباريس (١٨١٤ - ١٨١٥ م)

مضى شهران ممتعان في فيينا، وجدت عائلة ريج خلالهما، وعلى الفور، أنها كانت وسط دوامة من مقابلات كثيرة من السيد ليستن وأخرى من السيد جيمز ماكنتوش ومدام دي ستايل[١]، التي كانت صديقة حميمة للأخير، كان شهرا عام (١٨١٤ م) فاتحة عهد جديد، فقد إجتمع كونغرس فيينا قبل رحيل العائلة إليها ودعا الوفود من جميع أنحاء أوربا لحضور اجتماعاته. مَثَّل إنكلترا كل من كاسيلري -وزير خارجيتها- وأبردين، في حين جاء تاليران ممثلاً لفرنسا.

بدأ الكونغرس اجتماعاته الطويلة الساخنة حسم قضية رسم حدود الدول الأوربية بعد الإطاحة بالامبراطور نابليون، وكان الموضوع مثار إهتمام الإنكليز بصفة خاصة، لأنه وضع الأسس الصلبة لإمبراطوريتنا ومنحنا مستعمرات مثل سيلان والكاب ومالطا.

كانت عودة إمبراطور النمسا من باريس إيذاناً بإقامة المهرجانات وحفلات الرقص والمقابلات الرسمية، وعلى هذا، فقد اشتد الزحام في فيينا، وسرَّ كلوديوس بصخب تلك المدينة ومرحها. وفي حفلة غداء كبرى أقامها الكونت شتاكلبرغ - المبعوث الروسي - كانا بصحبة نفر مميز من المدعوين، حيث كان من بين الضيوف الكبار عصر ذلك اليوم، الذي جرت العادة فيه أن يتناولوا طعام الغداء بين الثانية عصراً، أمير وأميرة

---

(١) مدام آن لوي جيرمن (١٧٦١ - ١٨١٧ م) - كاتبة فرنسية معروفة.

(شفارتسلبيرغ) - ذاك الأمير المقاتل الشهير الذي حارب إلى جانب نابليون وضده، ثم قاد الجيوش المتحالفة في الحملة الأخيرة. أما الأميرة فهي امرأة بسيطة، دمثة الأخلاق، أثار فستانها في حفلة الغداء إهتمام ماري بموضة الأزياء الحديثة التي سادت في فيينا. اعتمرت تلك الأميرة البوك بونيه - القبعة النسائية ذات الحاشية الناتئة في مقدمتها - المصنوعة من الحرير الأزرق الباهت مع تاج مرتفع يثير الضحك، وجلست إلى طاولة بقفازين أبيضين طويلين لم تكلف نفسها حتى من سحبهما لكي تتناول الطعام! كان زي تلك السنة يقضي أن تكون فساتين النساء متورة الصدر (مستديرة)، منزاحة عن الأكتاف (عارية الأكتاف)، ومقطوعة بما يساوي ذلك من جهة الظهر. وبالنسبة إلى المعايير التي وضعها ريج لنفسه، فان معظم النساء كن قبيحات، والاستثناء الوحيد هو سيدة إنكليزية - السيدة كادوغان - زوجة ربان في الأسطول البحري. بالأحرى، وجدا حفلات الغداء هذه مضجرة، وذلك لأن الأتيكيت الخاص بمقتضيات تلك اللقاءات كان صارماً، غير أن سعادتهما كانت لا حدود لها خلال الولائم الرسمية التي دعيا إليها، من قبيل الولائم التي أقامها أمير «دي لينيه »، الذي أصبح رئيساً للوزراء لاحقاً وانتهاءً بالأحزاب ذات النزعة الاجتماعية الأكثر التي تضم الشباب في الدوائر النمساوية الأرستقراطية. وبعد تحرر العالم وتمتعه بالشهور القليلة التي أعقبت ذعر الحرب وويلاتها، خرج ذلك العالم ليستغل أكثر ما هنالك من حرية.

وأمير «دي لينيه» الذي كان مسناً في ذلك الوقت، كا
متميزة في الأوساط العسكرية والأدبية بالإضافة إلى الأوساط
وكلمته الشهيرة عن كونغرس فيينا لابد أنها سوف تذكر :
«الكونغرس يرقص ولكنه لا يتحرك ولا خطوة واحدة
شروعهم بالتحرك إلى «شونبرون» – البلاط الإمبراطوري
العائلة وصول الإمبراطور الذي عاد من باريس لتوه.
الإمبراطور بحب شعبي كبير، فازدحمت الشوارع بحشود ا
جاؤوا كلهم لتحية أب لهم، ولا غرو، إنَّ فرانسيس الأول كان
لشعبه. وبعد دخول الإمبراطور للبلاط، ظهر على الشرفة
سارت العائلة داخل الحديقة لمشاهدته عن كثب، لحت ا
تقف إلى جانبه – امرأة رهيفة رقيقة، استقبلها الجمهور ب
التهليل والبهجة. والجدير بالإشارة هو أن أحد أفراد العائلة الإ
غير المحبوب لدى الجميع، هي الإمبراطورة «ماري لوي»، الت
تعلقها السافر بالإمبراطور بونابرت امراً طبيعياً. ومع ذلك، فا
الواضحة في البلاط وازدراءها ببلادها، جعلا منها امرأة بغيظ
بعيد. كان معظم أفراد بلاطها من الفرنسيين، ولم يزل جم
يرتدون البزات النابليونية، فضلاً عن شعار النسر الفرنسي الإ
على عربتها،الذي بقي حتى قبل شهور قليلة من انتصار ا
نابليون.

في اليوم السادس عشر من تموز دخل الإمبراطور مدينة في

رسمياً مكللاً بالغار فكان مشهداً رائعاً للغاية. جرى الاحتفال كله على ظهور الخيل، فلم يسمح باستخدام العربات، هذا، وقد اصطف الجنود المشاة على جوانب الشوارع التي اخترقها المستعرضون.

بدأ تجمع الحشود في الساعة الخامسة صباحاً، وإن لم يتوقع ظهور الإمبراطور إلا في الساعة العاشرة، ولعل الوصف الآتي لهذا الاحتفال لا يخلو من متعة:

«تقدمت أولاً فرقة من المتطوعين المحليين الذين يرتدون بزات رسمية ذات لونين، أزرق غامق وذهبي، ويعتمرون الخوذ النمساوية. ثم استعرض بعدها فوج من فرسان الهوهنزلرن الذين يرتدون الدروع والبزات البيض ذوات الحواشي الصفر، أو الدروع السود الصقيلة والخوذ ثالثاً، تقدم أربعة فرسان مهذبين يرتدون بزات كاملة خاصة بالبلاط. ثم جاء بعدهم أربعة نافخين للأبواق من البلاط بملابس جذابة.

وتقدم بعدهم الخدم العاملون بأسطبلات البلاط أو سائقو العربات مشياً على الأقدام ببدلات احتفالية فخمة.

ثم جاء غلمان الفرسان في البلاط ببدلات مطرزة رائعة.

وتبعهم نحاتو التروس وصانعوها بكامل قيافاتهم، مشياً على الاقدام.

وتقدم الوصيف المسؤول عن حجرة نوم الإمبراطور مستعرضاً على صهوة جواده مع مرافقيه الذين يرتدون بزات الصيادين، مشياً على الأقدام.

ثم ظهر ألبرت – أرشيدوق ساكسه نيشن – (عم الإمبراطور) ببزته الرسمية، يتبعه الأرشيدوقات – أخوة الإمبراطور.

وكذلك جميع السادة في البلاد ببدلاتهم الفاتنة، الهنغارية بصورة خاصة، على ظهور جيادهم وإلى جانب كل منهم سار غلمانه.

ثم ظهر الإمبراطور نفسه على صهوة جواده، مرتدياً بزة فيلد مارشال، يصحبه قائد الحرس الإمبراطوري، وعلى جانبيه أبناؤه على صهوات جيادهم، مع الأرشيدوقات، يحيط بهم الحرس الإمبراطوري ببزاتهم الحمر الكاملة المطرزة بالذهب على نحو باذخ، وحواشيها الزرق، ويعتمرون الخوذ الخاصة ويحملون الرماح والفؤوس.

وجاء بعده القادة العسكريون البارزون ومساعدوهم من الضباط الكبار، وجميعهم على ظهور خيولهم، ثم الحرس الالماني الرفيع بكامل قيافاتهم الرسمية ذوات الألوان، الحمر والفضية، المثناة بالمخمل الأسود، المغشاة بالذهب، وهذا الفيلق كله من الضباط.

ثم استعرض الحرس الهنغاري النبيل ببزاتهم الرسمية ذوات اللونين، الأحمر والفضي، وقبعاتهم العالية من الفراء وحقائبهم الخضر، وريش التزيين المثبت بحلية خاصة. البدلة تتألف من معطف طويل مزركش الأطراف بالفراء مع جلد نمر مطروح على كتف كل واحد منهم. كانت جميع بدلاتهم تقريباً مغطاة بالفضة، وقليل منها مزيناً بالجواهر، فضلاً عما كانوا يضعون من أغصان ماسية في قبعاتهم، وعما يضعه الآخرون من أوسمة عسكرية ذات أحجار كريمة، فالأمير إيستر هازي – قائد

الحرس، كان متوهجاً من كثرة الماس.

انتهى الموكب بمفرزة من الفرسان المتطوعين، وكانت فرقة الموسيقيين والمنشدين تشكل عرضاً مثيراً أثار اهتمامنا وأمتعنا بعد مرور تلك المجاميع المستعرضة.

وهكذا، فقد تلألأت مدينة فيينا بالأنوار في تلك الليلة، وتوهج أغلب بيوتها الواسعة وقصورها بالأضواء المختلفة، ولم يعد بالإمكان مشاهدة العربات فيها حتى بعد منتصف الليل، وذلك لأن الإمبراطور والإمبراطورة، في الساعة الثانية عشرة بالضبط، في عربتها الخاصة التي تبعها جميع أفراد الحاشية والمستشارين، انطلقا في موكب مهيب وسط آلاف الناس، حيث توقفت العربات أحياناً بسبب إحاطة الناس بها على مختلف هوياتهم وطبقاتهم، ومع ذلك، فقد كانت تلك الحشود في أعلى درجات الضبط والنظام.

وفي اليوم التالي عقد اجتماع اقتصر على الشخصيات البارزة فقط، ومن بينها ريج الذي قدّمه للحاضرين السيد لامب - الوزير البريطاني. وتذكر ماري أنه كان يرتدي بدلة مما يرتديها الهوزار - أفراد الوحدات العسكرية الأوربية على وفق طريقة سلاح الفرسان الهنغاري - وتلك البدلة ذات مسحة فرنسية باللونين، الرمادي والفضي، ولعلها هي البدلة اللائقة في هذه المناسبة التي تبشر بالخير. وإذا كان الأمر كذلك فلابد أنه كان رائعاً على نحو استثنائي. تقدمت صحة ريج باطراد نحو الافضل، وذلك لأن اختلاف المناظر والمناخ والمجتمعات أثبت نجاعته إلى حد

بعيد، وإن كان احياناً يعاني من الكآبة ويخشى من العودة إلى بغداد وما يتطلبه وجوده هناك من الانغمار في إشكالات العلاقات الاجتماعية. ففي مدينة فيينا ثمة كثير من الناس الذين تثير مقابلتهم اهتمام المرء، فضلاً عما هنالك من الأمور التي تثير رؤيتها فيضاً من السعادة، بالإضافة إلى جولات التنزه القصيرة والمواقع الجديرة بالمشاهدة وإقامة الحفلات، وهي أشياء يمر الوقت من خلالها بسرعة فائقة. ومن بين النبلاء المرموقين الذين قدّم ريج وزوجته لهم، كانت ملكة نابولي – صديقة الليدي هاملتن – حيث وجدت في فيينا ملجأً لها بعد اضطرارها لمغادرة نابولي وصقليا. حضرا إحدى حفلات تلك الملكة يرتديان كامل ملابسهما، كلوديوس ببزته الرسمية، وماري بالبدلة الخاصة باجتماعات البلاط الرسمية التي تتميز بذيل طويل وحواش. قدّم ريج الماركيز دي سنت كلير، القهرمان الكبير للقصر، وقدمت ماري الماركيزة دي لاماك، القهرمانة الكبيرة لذلك القصر، فاستقبلتهما الملكة بدماثة خلق عالية، فأجلست ماري على أريكة إلى جانبها وتحدثت معها ببهجة غامرة نصف ساعة.

وفي مظهر آخر من مظاهر التسرية والسعادة قدِّر أن يشاهد زُهاء خمسة وعشرين ألف متفرج في أقل تقدير منظراً رائعاً يتمثل بالألعاب النارية، وقد دعي ريج وزوجته إلى البهو الواسع الذي أعد لعالم الطبقات العليا حيث تلتقي فيه كل شرائح المجتمع المتميزة، فسرا كثيراً بلقاء المشاهير على اختلاف طبقاتهم. ومن بين آخرين كانت

دوقة ساغان المعروفة حتى في أوساط لندن، لأن شهرتها حينذاك قد طبقت الآفاق في الخارج باعتبار أنها سبق أن كانت زوجة لثلاثة رجال وخليلة لعدة رجال. وعلى الرغم من أن جون بول قد صعق قليلاً بسبب تهوراتها الجريئة، فقد دافع عنها حاكم ملبورن وزوجته اللذان حصلا لها على إذن بولوج أي مكان شاءت في لندن.

اقترب موعد عودة الزوجين إلى بغداد، وكانت التقارير إلى تركيا من سير الطاعون مرعبة. وعلى هذا، فقد بدا أن من السخف التصرف بطريقة تفضي إلى ترديهما في الهاوية أو ربما الموت إن هما فكرا في العودة إلى هناك. وقدَّم ريج مزيداً من الطلبات لمنحه إجازة مرضية، وبعد أن تناهى إلى سمعهما ان السير جيمز ماكنتوش كان سيصل إلى بازل في نهاية شهر أيلول، قررا إرجاء عودتهما شهراً أو بعض شهر، ثم غادرا فيينا في الرابع عشر من أيلول، مسافرين ليلاً ونهاراً. وبعد وصولهما إلى ميونيخ التي أمضيا فيها ليلة واحدة، واصلا الرحلة عبر مدينتي أوغسبرغ وأولم إلى بازل. كان وصفهما للبلدان والمدن والناس مثيراً للشجن، فالبلدان مهملة والمدن تبدو شبه مهجورة، تملؤها النفايات، والناس مشتتون في كل مكان، فجنوب ألمانيا كان إحدى المناطق الرئيسة للقتال في أوربا عبر العصور. وخلال القرنين الماضيين شهدت تلك المنطقة كثيراً من صور المجاعة والنهب والدمار وقاست من حملات مارلبورو «حرب الثلاثين سنة»، التي اجتاحها بعد ذلك فردريك الكبير في «حرب السنوات السبع»، وتبعه أخيراً

نابليون بجيوشه الضخمة. ومما يثير الدهشة قليلاً أن الفقر يتضح فيها على نطاق واسع.

وأحد المعالم الذي رآه ريج وزوجته وأبهجهما كثيراً منظر شلالات نهر الراين في شاف هاوزن. لقد خلب ارتفاع الشلال وكمية الماء التي قذفها بعنف فوق الصخور والرذاذ الذي تكاثف ليصبح سحباً من بخار يشبه الدخان، لبَّ ريج وحواسه الفنية التي كثيراً ما كانت مهيأة لإظهار نشوته بكل شيء جميل. ومع ذلك، لم تشوه بشاعة الإعلانات المختلفة والملصقات الأخرى عام (١٨١٤ م) شيئاً من صور أوربا الطبيعية الحالية.

ولدى وصولهما إلى بازل رحب بهما السير جيمز ماكنتوش كثيراً، وذلك لأن اللقاء كانَ بعد غياب استغرق ست سنوات. وبعد مضي أسبوعين هناك قامت ماري بصحبة أبيها برحلة قصيرة إلى سويسرا، زارا فيها مدينة لوتسيرن ثم عادا من طريق جنيف، في حين سافر ريج إلى باريس مباشرة لتأمين الحصول على سكن مريح فيها. وكان أول نزل علمتُ به هو فندق كوكليير في الشارع المسمى باسمه، ولكن يبدو أن ذلك المكان لم يناسبه، إذ استقر بقية وقته في فندق بوربون، شارع دي لابيكس، حيث لحقت به ماري وأبوها عند وصولهما في منتصف تشرين الأول.

ازدحمت باريس بحشود البريطانيين شتاء ذلك العام، فكانت اللغة الانكليزية تسمع في الشوارع والمسارح بقدر سماع اللغة الفرنسية

تقريباً. وكانت النسوة، بصفة خاصة، يميزن بسهولة، أولاً، من خلال مظهرهن الذي اتسم بالملابس التي تفتقر إلى الأناقة، وثانياً، من خلال ملامحهن ذات الجمال المفرط، وبهذا الصدد تذكر ماري بعض الحسناوات المعروفات في باريس - مثل الليدي شاريلون، بوجهها السامر ذي السيماء الإغريقية، والليدي بونسونبي وابنة الليدي جيرسي، والسيدة ليتلتن والليدي بيرغيرش - ابنتي أخت الدوق ولينغتن -، والليدي كودور، التي وإن لم تعد شابة، فهي لا تزال فاتنة جداً.

قابل ريج وزوجته كلاً من دوق ودوقة ولينغتن - كان الأول وسيماً إلى حد ما ولكنه فظ الأخلاق، في حين كانت الثانية، على ما يخيل للمرء، حانية غير متكلفة وتتسم بالود، امرأة بسيطة غير معقدة. كانت مدلهة وشديدة الإعجاب بزوجها، الذي لم يبادلها، مع ذلك، تلك العاطفة. اتضح هذا كثيراً في حفلة حضرها كلوديوس وزوجته، تلك الحفلة الصغيرة الخاصة التي توحي بالألفة والدفء إلى حد ما، لأن الحضور الآخرين كانوا من أفراد عائلة وليسلي والليدي نورا بنتنك. ومع ذلك، فقد كان الضيف الرئيس فيها غراسيني، الذي صار الرجل المفضل فيما بعد، إذ غنى طوال الأمسية تقريباً إلى الدوق. وبينما أصغى الحاضرون إلى المغني الكبير بسعادة غامرة، فإن شعوراً غير مريح ران على الجميع لأن الدوقة ربما لم تكن قد استمتعت بغنائه كثيراً.

تغيرت باريس فيما بعد نتيجة لما أصدره نابليون من أوامر، فجعلت الشوارع العريضة والطرق الشجيرة الرائعة والمخازن والبيوت البديعة. ريج يعلن أنها مدينة تخص الطبقة الراقية فقط. فمن باريير دي نوي، التي شيدت على شكل معابد كلاسيكية صغيرة تنتصب على أرض مرتفعة، يمكن مشاهدة منظر المدينة الآسر، بشارعه العريض الشجير الذي يفضي إلى ميدان لويس السادس عشر - الساحة الواسعة التي هي الآن ساحة الكونكورد - التي يقع في طرف منها الشانزليزيه وفي الطرف المقابل يقع القصر القرميدي الفخم بحدائقه المترامية وتماثيله الرائعة، كما أن المخازن، هي الأخرى، انتشرت بذوق رفيع وعرضت فيها مختلف البضائع. أما البيوت فهي جميلة واسعة شيدت بالحجر، وهي، وإن كانت الشوارع الممتدة حواليها قذرة في أغلبها، فإن أفنيتها التي انتصبت في الأبواب بشكل لافت للنظر، كانت واسعة وجميلة ومنيعة.

عند وصولهما إلى باريس، صعق ريج كثيراً لوجود رسائل قاسية واضحة، صادرة عن مجلس مدراء الشركة العامين. يفترض أن هذه الرسائل أرسلت بسبب غيابه دون التمتع بإجازة رسمية، على وفق ما كان يخمن بأنَّه الإعتذار بالمرض سيكفي للحصول على الإجازة بصورة باتّةٍ، في حين بدا له أن ذلك العذر مرفوض. وكذلك أخبروه أن راتبه ومخصصاته الوظيفية سوف تخفَّض إلى الثلث أو حتى أقل من ذلك مما كان يحصل عليه، أي تخفيضه إلى تسعمائة باوند سنوياً بدلاً مما

كان يزيد على أربعة آلاف باوند. كان هذا ضربة قاصمة دفعت ريج إلى ذروة الكآبة. تشاور في الأمر مع السيد ليستن والسير جيمز ماكنتوش فيما يمكن أن يقدما له من نصح بخصوص إجازته. وريج، على الرغم من شفائه من الحمى وآلام الرأس غير الطبيعية، فهو لم يزل عاجزاً عن ممارسة عمل ضاغط كثير. فالكتابة أرهقت ذهنه ولم يشعر قط أن بإمكانه التغلب على كثرة المكائد العسيرة المضنية التي تحاك في بغداد وبومبي ضده - ثم أن العيش على المبلغ المختزل يكاد يكون مستحيلاً بعد الحياة التي اعتادها، فضلاً عن أن هذا الامر سوف يجعله سخرية للناس، لاسيما أنه قام برحلة طويلة إلى حيث يمكنه الحصول على امتيازات جديدة لصالح إنكلترا في بلاد ما بين النهرين. ان ذريعة المدراء العامين كانت تقضي بأن مقيمية بغداد لم تعد تتمتع بنفس أهميتها السابقة وذلك بسبب معاهد السلام المبرمة بين إنكلترا وفرنسا.

وبعد كثير من المشاورات مع السير جيمز ماكنتوش وماري، اقترحت الأخيرة أن تسافر إلى إنكلترا حسب الخطة التي استحسنها أبوها كثيراً، وذلك لرؤية ما يمكن القيام به من مقابلات شخصية مع المدراء العامين الذين كان بعضهم أصدقاء للسير جيمز، وكذلك مقابلة واحد أو اثنين من أعضاء مجلس الوزراء، اللذين يمكن أن يرميا بثقليهما على مجالس شركة الهند الشرقية لصالح ريج ! وعلى هذا، فقد سافرت ماري إلى إنكلترا في منتصف شهر كانون الأول برفقة أحد

الاصدقاء – ابن المرحوم ويجوود – صاحب المصانع الكبيرة في الصين. وبعد اجتياز صعب للبحر، ارتحلت إلى لندن، إلى (١٥ شارع جورج الكبير) – بيت عائلة ماكنتوش حيث استقبلتها السيدة ماكنتوش بحفاوة كبيرة، واستقبلت هي، أخوتها وأخواتها من أبيها الذين كبروا الآن لدرجة يصعب تمييزهم بعد السنوات السبع التي تخللت فترة الفراق.

استقر السير جيمز لسبب خاص في باريس ثلاثة أسابيع أخرى. ولعل مرد ذلك هو أن مغريات مدام ستايل، والسعادة التي أضفتها عليه العاصمة، بما فيها من تسرية ومتع اجتماعية كانت بلاشك أكبر ما يمكن أن يضفيه عليه شتاء لندن الموحش الكئيب. وليكن ذلك، على ما يبدو، حقيقة، إلا أن ريج شعر بالوحدة خلال الشهور الأولى من عام (١٨١٥ م)، لأن ماري لم تعد من رحلتها إلى إنكلترا حتى بداية شهر مايس. لقد حاولت زوجته برسائلها اليومية إدخال السرور إلى نفسيته الكئيبة، وإن لم تعد آمالها متفائلة. وخلال إقامته وحيداً في باريس، استمتع ريج مبتهجاً بمتابعة المقابلات المختلفة التي أداها لكثير من المؤلفين العلماء والرحالة والمستشرقين الذين أقاموا هناك فيما بعد. فهو يذكر مقابلته للرحالة الشهير همبولت وسلفستر دي ساسي وكفيير من بين أشخاص آخرين. ومن المعلوم أنه سبق أن قابل مدام دي ستايل التي قال عنها في رسالة إلى أرسكين:

« لا ريب في أنها إمرأة استثنائية متسلطة جداً عندما تناقش أيَّ

قضية مطروحة، وإن كانت مولعة بالحديث بأسلوب خطابي تنقصه الحجة. سلوكها فظ أخرق وكذلك كان مظهرها، غير أنها سليمة الطوية مع إعجاب شديد بالتمييز الطبقي والثراء، فضلاً عن تحررها الفظيع أخلاقياً – التزاماً وممارسة في أقل تقدير. وفي الوقت الحاضر تخطط للقيام بجولة في ربوع اليونان، وتسألني بالحاح عن أساليب الحياة في الشرق! وهمبولت من أكثر الناس الذين قابلتهم تواضعاً، وإلى جانب تواضعه الجم، فهو يشيع السعادة في النفس، فضلاً عن اطلاعه الواسع، إنني أتطلع إلى لقائه في بغداد برضى نفسي كبير».

ومع ذلك، لأن الرغبة في ذلك اللقاء لم تتم، لأن همبولت لم يسافر إلى البلاد العربية أو بلاد ما بين النهرين إلا بعد سنين من وفاة ريج. كان رحالة شهيراً، ألمانياً على ما يوحي به اسمه، وقد اكتشف الكثير في كل من المكسيك وجنوب أمريكا قبل لقاء ريج في باريس. أما سلفستر دي ساسي – الرجل المتواضع الوقور الخجول وعضو البرلمان الفرنسي، الذي كان، على أية حال، يتعاطف مع الحزب الأكليركي المؤيد للنظام الملكي، جعل زملاؤه يعتبرونه رجلاً مريباً إلى حد ما. والبارون كفيير، وإن لم يكن في ذلك الوقت قد ارتقى إلى طبقة النبلاء، إلا أنه كان عالماً شهيراً بالتاريخ الطبيعي ورجل علم متميزاً. هؤلاء وغيرهم شكلوا مجتمعاً بهيجاً بالنسبة إلى ريج، فبدا كأنه قد درس بعمق كبير كلاً من العلماء، الشرقيين والغربيين، بالإضافة إلى التاريخ والأدب والموضوعات العلمية، التي لم تسنح له الفرصة فيما

سبق لمناقشة مشاكلها التي يجد نفسه الآن قادراً على مناقشتها، أو الإصغاء إلى الأحاديث الخاصة بمختلف موضوعاتها المعرفية. استعاد ريج عافيته باطراد، وكان الجهاز العصبي سيصبح طبيعياً تماماً لو لم ترهق المشاكل المتواصلة، فيما يتعلق بشركة الهند الشرقية والجدل المستمر بخصوص راتبه والمخصصات الأخرى، ذهنه كثيراً، وبمعزل عن جو العلماء والمثقفين المعاصرين له، فقد ألف ريج ما كان يدور في المجتمع لأن أخلاقه الآسرة ومظهره الوسيم قد جعلته موضع ترحيب كبير في صالونات باريس وإنكلترا الفخمة. إنَّ ميوله كاثوليكية، كما رأينا، وكانت تَحْدُوهُ رغبة في التعرف على أحوال كل شريحة من شرائح المجتمع، ولذا فقد عقد، على سبيل المثال، صداقة متينة مع الممثل تالما بالإضافة إلى صداقته مع بعض ضباط الجيش الإنكليزي الذين كانوا مقيمين في باريس خلال وجود ولينغتن فيها. ويذكر، من بين آخرين، الكولونيل فريمانتل – معاون الدوق. وفي التاسع من شباط حضر كلوديوس استعراضاً عسكرياً يصفه في رسالة منه إلى ماري قائلاً:

«كان الاستعراض صباح هذا اليوم رائعاً، ويقول الناس إنه لم يكن في أي استعراض من استعراضات نابليون الكبيرة في القصر القرميدي ما يشبه هذا الحشد الكبير من عربات الناس والنبلاء المميزين. كان الملك في الشرفة، فهتف الحاضرون بأعلى ما يكون عليه الجذل والانشراح ولوحوا له بآلاف القبعات والسيوف والعصي والمناديل، في

حين تواصلت هتافات «يحيا الملك، يحيا آل بوربون، يحيا الأمراء»، التي أطلقها الحرس الوطني والجنود النظاميون والمشاهدون، تلك الهتافات التي لا يمكن مقارنتها بشيء غير قصف الرعد أو هدير البحر الهائج عند هبوب عاصفة عاتية. استغرقت المارشات العسكرية زهاء ساعتين ونصف، وهو مشهد ما كان عليَّ أن أتجاهله حتى وإن كلفني الشيء الكثير».

والأخبار المثيرة فيما يتعلق بالخدع التي توصل بها نابليون لهروبه من جزيرة ألبا، جعلت ماري عصبية المزاج، أضف إلى أن لندن مليئة بالإشاعات، هي الأخرى، جعلت ماري تخشى أشد الخشية على سلامة زوجها. أما ريج نفسه، فقد كان، على أية حال، يكتب باطمئنان مردداً على مسامعها أنه سوف يكون في أعلى درجات التبصر في عواقب الأمور، وأن الأمان سوف يتحقق له تماماً في باريس في اثناء وجود السفير هناك.

لقد جذبت الموسيقا اهتمام ريج على الدوام، وحضر كثيراً من الحفلات الموسيقية والأوبرات. وفي إحدى رسائله يكتب إلى ماري وصفاً مسهباً مع كثير من النقد التقني لأوبرا «أرمايد» التي لم يحفل بها، فهو يقول:

«إن ما كان يهدف إليه غلوك الكبير يبدو ظاهراً بسعيه في تحقيق تعبير مفصل يعطي أكثر المميزات غرابة إلى موسيقاه التي لا تسر السامعين!».

وفي أمسية أخرى دعي إلى حفلة موسيقية كبرى اقامتها مدام دي ستايل، غنت فيها مغنية السوبرانو الشهيرة »كاتالانيا« وحضرتها الطبقة الأرستقراطية التي ضمت أشخاصاً عُدّوا ضيوفاً مميزين عند هذه السيدة المعروفة، من أجل سماع هذه المغنية المشهورة. ولابد من الإشارة إلى أن من بين معارف ريج كان هناك عدة لاجئين بولونيين. وفي بيت مدام جوبلونسكا قابل الجنرال كوشيوسكو – الوطني البولوني الذي نفي خارج بلاده – كان هذا الجنرال قد قابل السير جيمس ماكنتوش الذي أثار اهتمامه كثيراً وعند ذاك قدم له ريج ليتعرف عليه بكونه زوجاً لأبنته! وسر ريج بهذا اللقاء العابر قائلاً:

«لم أستطع رفع عيني عن هذا الجنرال المسن الذي بدا مطابقاً لكل ما اتصف به من حماسة على الرغم من تواضعه الجم وبساطته وعدم ادعائه، رجل مسن قليلاً، مغضن الوجه، فيه ذبول مثل فولتير، بعينين رماديتين نشيطتي الحركة وابتسامة ودود وشعر رمادي يتدلى حول رأسه كما يتدلى نبات البردي حول رأس إله نهري، فسرني كثيراً أن أصطحبه إلى بيتي بعربتي».

(وعلى الرغم من وصف ريج للجنرال كوشيوسكو بأنه رجلٌ مسن، فهو في هذا الوقت لم يكن يتجاوز الستين من عمره).

وهكذا، فقد استمتع كلوديوس ببقائه في باريس إلى حد بعيد. اعتاد قيادة عربته الخاصة ذات الحصانين يومياً في (غابة بولونيا) أو

يتجول بها في أرجاء المتنزه البهيج بصحبة أصدقائه. ثم هناك حفلات الرقص والاستقبالات والمآدب وحفلات الأماسي التي ذكرناها، بغض النظر عما يدور في مآدب الفطور من المناقشات الأدبية والفلسفية، التي كانت سائدة في تلك الأيام.

اعتاد ريج أن يرسل إلى ماري وصفاً مسلياً لكل واحدة من تلك الحفلات التي يحضرها ولم يضايقه ولو قليلاً إن هي عرفت الحقيقة نظراً إلى أنهم كانوا يوجهون اليه الاسئلة ليشرح ويناقش تقاليد الشرق وفلسفته مع رجالٍ ونساء يفترض فيهم العلم والمعرفة في هذه الموضوعات، غير أنهم لم يسافروا خارج حدود الدول الأوربية. لقد قاوم رغبة شيطانية لاختراع وسرد الحكايات المدهشة التي يتناقلها الرحالة الأجانب عادة.[1]

انتشرت في بداية شهر آذار إشاعات لها صلة بمكائد الحزب النابليوني وأحابيله. فحينما نزل بونابرت قريباً من فريجوس قادماً من جزيرة ألبا في التاسع عشر من نفس الشهر ودخل باريس في الأسبوع التالي، اشتد هياج الناس واضطرابهم. وثمة قصة تتداولها العائلة مفادها أن ريج قدمت له الدعوة بمشاهدة دخول القوات الظافرة من قصر الملكة هورتينز – ابنة زوجة نابليون وزوجة الملك جيروم، ملك

---

(١) لاشك في أن كثيراً من المبالغات – الجغرافية منها والتاريخية والحالة الاجتماعية وغيرها – يطلقها عدد كبير من الرحالة الأجانب جزافاً، ومن ثم تصدر الأحكام أحادية الجانب عليها فتكون الحقيقة وحدها هي الضحية.

هولندا – وأنه كان يقف في الشرفة عندما راح المعجبون ينثرون زهور البنفسج على الفاتح العظيم الذي ركب مزهواً وسط زعيق الحشد المذبذب وتهاليله، ذلك الحشد الذي كان قبل سنة يهتف لعودة عائلة بوربون. ولست أملك وسيلة لتوكيد ما إذا كانت هذه القصة دقيقة، لكن المؤكد هو أن كلوديوس أمكنه مشاهدة الإمبراطور، وذلك لأنه كتب أن فرصاً متكررة أتيحت له لرؤية ذلك الرجل الاستثنائي خلال ستة الأسابيع التي بقي فيها بعد دخول نابليون مدينة باريس.

التحقت به ماري فوراً فيما بعد، حاملةً معها وعوداً من إنكلترا بمساعدته وإعادته إلى مركزه السابق، ومن ثم سافرا إلى بغداد عبر أراضي كل من سويسرا وإيطاليا. فقد استطاعت ماري مقابلة مختلف الناس من ذوي التأثير، ومن بين آخرين منهم كان السيد غرانت – المدير المعروف لشركة الهند الشرقية، الذي حازت احكامه وذكاؤه تقديراً عالياً –، فهو رجل مستقيم عادل اكتسبت نصيحته ومشورته في مختلف الأوساط ثقلاً كبيراً. سعى هذا الرجل إلى وضع فقرة تدخل ضمن أوامر الدولة إلى بومباي تؤيد بقاء ريج في أوربا، وهكذا، فإنه على الرغم مما ظهر من أن السير ايفان نيبيل حاكم بومبي، كان يرغب في حرمان ريج من امتيازه الوظيفي أو ايقافه مؤقتاً، فإن ذلك الحاكم نفسه سوف يضطر إلى إعادة ريج إلى مركزه السابق، نعم، لقد تقرر خفض راتبه ومخصصاته الوظيفية، ولكن ليس بالشكل التعسفي الذي كان مقترحاً.

وبقلب كسير غادر ريج وزوجته مدينة باريس عائدين إلى الصحارى وإلى مرارة بغداد وعزلتها. هكذا قضت الأقدار ولا مرد لقضائها.

الفصل الثالث عشر

من باريس إلى القسطنطينية عام (١٨١٥ م)

شهد اليوم العاشر من شهر مايس عام (١٨١٥ م) مغادرة الزوجين المغامرين لمدينة باريس ومباهجها الكثيرة في طريقهما إلى جنيف التي وصلا إليها بعد خمسة أيام. أمضيا في المدينة أسبوعين، وفي بداية حزيران شقا طريقهما بمحاذاة شواطئ البحيرة الجنوبية. لقد أثر جمال ذلك المنظر في ذهن كلوديوس الشاعري الخيالي بقدر ما أثر فيه صوت أجراس الكنيسة النائية الذي يدعو إلى صلاة التبشير[1] في السكون الذي ران على المكان. وفي سنت موريس التي توقفا فيها لقضاء تلك الليلة، ضاق الوادي ليصبح مجرد ممر ضيق، وقد أغلق المدخل بأبواب حديد قوية. وفي اليوم التالي اندفعا خلال وادي نهر الرون الرائع، الذي تشبثت قراه الغريبة بقمم الجبال الشاهقة، وقامت على حراسة تلك القرى سلسلتان قويتان من جبال تكسوها الثلوج. وبعد توقف في بريغ، اجتاز الركب ممر سميلون، على طول الطريق الذي أُنجزت الأعمال الهندسية فيه مؤخراً بأمر من نابليون. وفي ما يتعلق بالمقيم، كلوديوس، الذي قادته رحلاته في المناطق الجبلية إلى سلوك مجرد ممرات ضيقة وليس طرقاً عريضة معبدة، فقد بدا مشهد هذا الإنجاز الهندسي الفذ مثيراً لاهتمامه. وحينما دخلا إيطاليا شقا طريقهما

---

(١) صلاة تؤدى إحياءً لذكرى تجسيد السيد المسيح (ع).

عبر « دومودوسولا وأرونا » بمحاذاة بحيرة ماجيور، لكن دون توقف. لم يتح لهما الجو الضبابي الماطر غير نظرة عابرة على هذا المسطح المائي الرائع، وإن كانا قد ألقيا لمحة فاحصة على التمثال الضخم للقديس شارلس بوروميو، الذي انتصب غير بعيد عن الطريق، حارساً، إذا جاز التعبير، طرف البحيرة الجنوبي. وقربَ منتصف الليل وجدا مستقراً لهما في »الأبيو ديلا سيتا« في ميلان، فندق قال عنه كلوديوس إنه مقبول إلى حد ما، مقارنةً بما في إيطاليا من فقر ظاهر.

أمضيا في ميلان أسبوعين بهيجين للغاية، وبعد تقديمهما إلى كثير من الناس حينذاك، عقدا أواصر صداقات مع بعض الشخصيات المثيرة للاهتمام، من وجهة نظر ريج في الأقل. كان أكثرهم تقريباً من الموسيقيين أو ممن لهم علاقة بعالم الموسيقا، من بينهم المخرج وأستاذ قسم الغناء في الكونسرفاتوار، مينوجا، وفريد ريسي – الأستاذ الثاني – اللذان أصبحا صديقيه الحميمين، وقد رافقاه كثيراً للاستماع إلى طلابهما وإطلاعه على أساليب تعليمهم.

وهنا، كما هي الحال بخصوص بعض هواياته الأخرى، يكتشف المرء أن هناك كلوديوس جديداً، رجلاً يعرف بوضوح ماهية الفن معرفة جيدة، علمياً ونظرياً. ويومياته توضح بالتفصيل أحاديثه التقنية الطويلة في ما يتعلق بالموسيقا، الصوتية منها والوترية، مع هؤلاء الرجال المتميزين في فنهم، كونهم مؤلفين من طراز رفيع في تلك المدينة البارعة في النقد الموسيقي – ميلان. ازدحم برنامج تلك الأيام

بالجولات لمشاهدة معالم المدينة السياحية، فقضيا صباحات كثيرة فضلاً عن قضاء عصر يوم عرضي في الكونسرفاتوار، وما يتبقى من يوم إضافي كان يقضى في الأرتاريو، الذي عُدَّ فيما بعد أحد أوائل مؤسسات باعة الصحف والمجلات وناشري الدراسات الموسيقية في العالم، مع المخازن الأخرى في مانهايم وفيينا. وفي كل أمسية تقريباً كانا يستمتعان بحضور الأوبرا أو الحفلات الموسيقية. ومثل هذا النشاط المحموم، في الواقع، كان يصعب على ماري التكيف معه، وعلى هذا، فقط اضطر كلوديوس إلى الذهاب بمفرده، وربما كانت الجولات في المدينة قد أسعدتها أكثر من أي شيء آخر، فهما، حينما زارا كاتدرائية ديومو، التي أعجبا بها إعجاباً كبيراً، اتجها لمشاهدة نصب القديس بارتولوميو الذي يقف بجلد مسلوخ ظاهر في يده جعل ريج يعلن:

«رائع تشريحياً، لكن وجود كتاب في يده الأخرى غير مناسب قليلاً!»

وتمت زيارة بعض الكنائس ومشاهدة دير غرازي حيث كان يفترض رؤية اللوحة الجصية الجدارية الشهيرة لـ «سيناكولو» التي أنجزها ليوناردو دافنشي، فقد موهت هذه الجدارية بماء الكلس منذ قرن بوساطة القسس ليضعوا حداً لإزعاج الغرباء لهم من خلال رغبتهم الملحة في مشاهدة هذه التحفة الفنية الرائعة، وعلى هذا، فقد خرقت، في الواقع، باب في الجدار خلال تلك اللوحة الجدارية. وعلى

ما يظهر، فقد عثر رجل إنكليزي ثانية على هذه اللوحة الجصية، وفيما استولى نابليون على قلعة ميلان، تدفق الماء من أحد الخنادق المائية داخل الدير فأوشك على إتلاف هذه اللوحة البديعة. ذهبت العائلة بعد ذلك لمشاهدة نسخة طبق الأصل عملت لها من الفسيفساء لحساب الحكومة الفرنسية في ورشة رافائيلي كانت قيد الإعداد منذ ست سنوات ونصف ولما تنجز بعد، وقدِّر أنها ستكلف نحو ستة آلاف باوند.

وخلال الساعات الطويلة التي أمضاها كلوديوس في الكونسرفاتوار، عُرِض أمامه كل شيء، ابتداءً من الشروع بالبناء وانتهاءً بالتعليم. كان ثمة، على ما يبدو، أربعة وعشرون طالباً فقط، منهم ست شابات، وكان لكل آلة موسيقية قسمها الخاص من البناية. وحينما كانا يتنقلان من قسم لآخر، برئاسة مينوجا أو فريدريسي، وأحياناً أستاذ آخر يدعى أورلاندي، الذي يكنُّ له ريج حباً كبيراً، فإن الاستاذ كان يدعو أحد الطلاب لإظهار مهاراته أمام ريج. وهناك بعض القطع الموسيقية المثيرة بالإضافة إلى الأحاديث الطويلة عن كثير من المغنين المعروفين في تلك الأيام. كان مينوجا يدرّس كاتالاني – مغني السوبرانو الشهير – الذي كان أثيراً جداً في إنكلترا، وأسماء أخرى ذكرت مثل روبيليني ومارشيزي وبانتي. وكذلك سمعا المغني كافاليري دانيي الذي غنى في أوبرا المؤلف غلوك المسماة «أورفيا» عام (١٧٥٥ م).

ارتبط جميع هؤلاء المغنين في ذهن ريج بحكايات وقصص نجاحاتهم واخفاقاتهم. كان فريدريسي يعرف بيرني، وقد تحدث بإكبار عن كتابه «تأريخ الموسيقا». وقبل مغادرة الزوجين أمر الطلاب أن يؤدوا بعض الترانيم القدسية من تأليف مارسيللو، فتأثر كلوديوس بعذوبتها ورقتها مع أنها كانت ترانيم كنسية إلى حد بعيد. وللتسرية عنهما مساءً، كان ثمة عدد منوع من الأماكن التي يعتقدان أنها جديرة بالمشاهدة، أولاهما في الأهمية كانت سكالا – دار الأوبرا الشهيرة الكبرى – ذات الأوركسترا الكبيرة التي تضم سبعة وستين عازفاً. شاهدا الأوبرا الهزلية بالإضافة إلى عرضين للباليه، غير أن تلك العروض لم تثر اهتمام كلوديوس كثيراً. ومع ذلك، فقد استمتع في إحدى الأماسي هناك بالاستماع إلى باغانيني في حفلة موسيقية أقامها له شخصياً. لقد انبهر ريج بذلك، وكلماته الآتية بهذا الصدد جديرة بالاقتباس:

«كان أداء باغانيني يوجز قليلاً معنى المعجزة، فأسلوبه غاية في الأصالة، مشرق ومتحرر من القيود الشكلية ولكن بكثير من الثقة. أسلوب مميز وكامل يثير الإعجاب على الدوام ويترك السامع مخدراً من الدهشة. كان أداؤه الغنائي في أعلى درجات الكمال ونبرة صوته واضحة، مشرقة وقوية. إنه ولا ريب أفضل عازف كما سمعته، وحتى تمّ لي سماع ذلك لم أستطع تكوين فكرة عن قدرات أولى هذه الآلات الموسيقية. إن عزف باغانيني، بكل تنوعه ورقته، يثير الذهول،

ويكشف في الوقت نفسه عن معرفة كاملة بالانتقالات النغمية. كان تتابع مقاطع لحنه الموسيقي غير متوقع، فبعض الأحيان يدهشك بانتقالات مفاجئة وبطغيان طبقة الصوت، ثم يسمعك مقطعاً لحنياً بنغمات واطئة تملأ جو القاعة إلى منتهاها فتبدو الموسيقا كأنها نفذت بوساطة آلة الفيولونسيل أكثر منها بآلة الكمان. وينتقل فجأة إلى أنغام عالية جداً، صادقة وبطريقة خارقة، لجينية الرنين ممتلئة تذكر المرء بغناء العندليب الشجي. وبهذا يبدو كأن أحداً لا يدانيه، فضلاً عن أن تعاقب مس الأوتار في جميع أجزاء السلم الموسيقي جعل من العسير تصور أن ليس هناك آلتان موسيقيتان تعزفان.

سمعته يؤدي مقطوعات موسيقية سريعة للغاية استطاع خلالها العزف بالتعاقب بكل أنواع الأسلوب صعوداً ونزولاً في السلم الموسيقي بطريقة تذهل الإنسان تماماً وتثير دهشته وبهجته».

ودار الأوبرا الثانية كانت «التيترو ريْه» حيث قدِّم فيها مزيد من العروض: كانت الأختان مومبيلي أثيرتين عند أهالي ميلان في ذلك الوقت، وقد غنتا مرات ومرات. صوتاهما فتيان لكنهما يخضلان رقةً وعذوبة، وقد دربهما أبوهما الذي أسهم كثيراً في ذلك النشاط. لقد صاغ تلك الأوبرات مؤلفون موسيقيون مشهورون في تلك الأيام، غير أن تأثيرها لم يدم طويلاً خلال اطراد الوقت السريع، وهذا ما جعل الأوصاف التي أوردها كلوديوس لتلك الأقسام من الأوبرات موضع اضطراب للإنسان إلى حد ما، لأنه يتعذر عليه متابعة آراء كلوديوس

النقدية المعقدة. وكذلك قُدِّم كلوديوس للتعرف على تريمازيني وتوثيق عرى الصداقة معه. وتريمازيني هذا كان مغنياً مفضلاً عند الناس حينذاك، وهو الذي أحضر بطاقتي دخول المسرح الفيلودراماتيك واصطحب الزوجين ضيفين لسماع أوبرا أخرجها حديثاً شاب يدعى باسيني. كوَّن كلوديوس فكرة مفادها أن مسرحية «زفاف سيلفي» عادية نوعاً ما، غير أنه استمتع كثيراً بالأمسية التي قضياها مع صديقه الموهوب للغاية. ويوم الأحد، الحادي عشر من حزيران، كان يوم الاحتفال بظهور العذراء في كارافاجيو، حيث أقيم قداس خاص في كنيسة الأحزان يقوم به طلاب الكونسرفاتوار، جزء منه كان وترياً والآخر صوتياً. كانت العائلة قد أُرسِلتْ لها دعوة خاصة لحضور هذه الشعائر، لكن كلوديوس علق على هذا الاحتفال بكلمات قاسية إلى حد ما. أما الموسيقا التي صاغ ألحانها أحد أساتذة المدرسة، فقد عَدَّها ريح رديئة وتافهة لدرجة ينقصها الاحتشام. تصرَّم الأسبوعان البهيجان فدنت ساعة الرحيل. وهكذا، وبفيض من الأسى والحزن ودَّع ريج أصدقاءه، وغادرا ميلان في الواحد والعشرين من حزيران في طريقهما إلى بادوا. ارتحلا عبر مدن بريشيا وفيرونا وفيسنزا، مروراً بأقصى جنوب بحيرة غاردا حيث تلهفا على التوقف هناك. وفي جميع المدن الثلاث المذكورة توقفا، إما لقضاء الليل أو لتناول الطعام، وقد تيسر لهما تفحص الأماكن التي يرتادها السياح عادة. فمدينة بادوا، على أية حال، كانت هدفهم حيث وصلا إليها بعد ليلتين من

مغادرة ميلان، تبدو المدينة في تلك الفترة مكاناً معزولاً موحشاً.
وعند حلولهما في نزل ستيلا دورو، وجدا أن غرفهما تشرف على ميدان أو ساحة نصف معبدة ذات أحجار شوهاء كبيرة، وفي وسطها قناة صغيرة مليئة بالماء الراكد الآسن، الكريه الرائحة جداً. شوارعها ضيقة لا تخلو من بعض إجراءات الصيانة، ولا يمكن مشاهدة غير أناس قليلين في أي جزء منها، وغير شحاذين يظهرون من زواياها يئنون طلباً للإحسان. لم تشكل معالم بادوا السياحية أي عزاء كبير للمقيم، كلوديوس، ولعل ذلك يعزى إلى توعك صحته، فقد كان وصفه لساحة التماثيل يبدو مضحكاً، يثير السخرية، حيث اتخذ مركزها شكل دائرة بوساطة خندق لتصريف الماء، وقد أحيط بصفين من التماثيل التي يجلل رؤوسها شعر مستعار وتعتمر قبعات مردودة الحواف وتنتعل جزماً عسكرية ثقيلة.

وفي كنيسة سانتا غيستينا أعجب ريج بنقش خلف المذبح وفوقه من عمل بول فيرونيز، ولكنه يشير إلى أن سماء المنظر تتحول إلى خضرة كاملة. وقد أكد لهما المرشد أن اثني عشر قديساً دفنوا في تلك الكنيسة، من بينهم كان القديسان، لوقا ومتى، المبشران المعروفان، وهنا شعر ريج أنه قد استوعب ما يكفي! وعلى أية حال، كانت ثمة متعة خفية كبيرة تمثلت في تقديمه، بوساطة أصدقائه في ميلان، إلى باشيوروتي ـــ المغني الشهير في أيامه، الذي هو الآن أستاذ معروف كما كان معروفاً بغنائه سابقاً. وقد قيل إن من العسير

الاستمتاع بغناء آخر بعد سماع باشيوروتي مرة واحدة. استقبلهما هذا المغني البارز بفرحة غامرة، إذ كان مولعاً بحب الإنكليز وله ذكريات جميلة كثيرة حينما غنى في بلادهم التي شهدت نجاحاته الكبيرة. تحدث معهما بعاطفة صادقة عن أصدقائه هناك - الدكتور بيرني ومدام داربليه والليدي ماري وانكان واللورد ماونت ايجكومب، وأخبرهما أنه أمضى مع عائلة بيرني كثيراً من الأماسي السعيدة، وكونه أجنبياً لا يتحدث الإنكليزية الا قليلاً، فقد مال إلى العزلة كثيراً، وقال إنه تعرف على غاريك، الذي أشار إلى أنه رجل عطوف علمه الكثير، لأن التمثيل في أيامه الأولى في إيطاليا كان ذا شأن قليل مقارنة بالغناء في الأوبرا. وكتب عنه كلوديوس قائلاً:

«كان مبدعاً لأسلوب خاص سوف يموت بموته. تمثيله رائع مع امتلاكه ناصية التعبير في الغناء، خاصة في الأدوار العاطفية الرقيقة فضلاً عن كثير من الذوق والشفافية».

كان باشيوروتي على معرفة بكثير من المغنين المعاصرين، وعلى ذلك فقد أخبر كلوديوس بالشيء الكثير الذي يتعلق بأسلوبهم وطاقاتهم. تحدث بسعادة غامرة عن السيدة شريدان، وقال إنه كان يشعر برهبة كبيرة لدى ظهوره أمام المشاهدين الإنكليز الذين كما قال عنهم «إنهم أكثر انتباهاً في المسرح منا في الكنيسة!»

وبعد مغادرة بادوا، استقلا سفينة عبر قناة برينتا، مواصلين رحلتهما إلى فيوسينا حيث ركبا الجندول إلى البندقية التي تبعد نحو خمسة

أميال من هناك . كان السفر بالجندول تغييراً مسلياً، فقد شاهدا على طول القناة سلسلة من القرى والفلل، كما شوهد المزارعون في شروعهم لممارسة أعمالهم اليومية – مناظر أدخلت السرور على قلب كلوديوس وأثارت اهتمامه . لقد سحره أول شيء شاهده من مدينة البندقية فأعلن قائلاً :

« لا يمكن أن يكون هناك ما هو أجمل من البندقية، مدينة القنوات التي لا منافس لها . فالقصور شيدت بطريقة استثنائية، بمزيج من الفن الغوطي والإيطالي، أكثر منها بطريقة فينيسية . »

النزل الذي أقاما فيها كان «لاغران بريتان»، ثم حلا في أفضل فندق سبق أن كان قصراً . يقع الفندق على ضفة القناة الكبرى قريباً من الريالتو . أمضيا ثلاثة أسابيع رائعة في هذه المدينة الساحرة، وكثيراً ما انقضت الأيام، كما كان الحال في ميلان، في جولات سياحية لمشاهدة معالم تلك المدينة ولسماع الموسيقا . إن معالم البندقية معروفة لدينا لدرجة لانجد ضرورة في اصطحاب العائلة إلى الكنائس الكثيرة والقصور وصالات الفنون التي تزخر بها المدينة، ولكن رومانسية ملكة الأدرياتيك والتاريخ الفذ لتجارها المغامرين والحشود المرحة التي تشاهد كل ليلة نابضة بالحياة وهي تملأ جنبات ساحة سان ماركو أو تتجول في الحدائق العامة لتشاهد عروض الدمى المتحركة أو تصغي إلى موسيقا الشوارع، هي التي سحرت كل ما كان شاعرياً ورومانسياً في نفس كلوديوس.

وفي أحد الأيام قاما بالتجديف إلى جزيرة سان لازارو لزيارة مؤسسة أرمنية أسعده الحديث فيها ثانية مع صديق قديم ومقابلة عدة أشخاص جدد. المكان مؤسسة اجتماعية رهبانية، بدأ العمل فيها بهدف إقامة مؤسسة طباعية ودار نشر أرمنية. أصدر العاملون فيها جريدة صغيرة، وكانوا تواقين جداً إلى سبل تحسين لغتهم وطبع الكتب المؤلفة والمترجمات لتنوير أذهان إخوانهم وتثقيفهم في بلاد الأناضول. وقبل ذلك التوجه كانت الآثار الوحيدة التي طبعت في القسطنطينية أعمالاً مخصصة للخدمات الكنسية كالأناجيل وكتب الطقوس الدينية ... الخ، لقد كان مكاناً ممتعاً جديراً بالزيارة حقاً. وفي المساء وجدت ماري نفسها بصحبة زوجها جالسين في أحد الجنادل المتجهة إلى الليدو – ثم لا شيء غير شاطئ رملي تتناثر عليه بعض اكواخ صيادي الأسماك. استخدما ثلاثة نوتية، كان أحدهم يجذف في حين أخذ الاثنان يصدحان بغناء أهل تاسو على التناوب. كانا ينشدان نوعاً من الترنيم الهادئ الحزين الموغل في شرقيته، ويشبهان إلى حد ما بعض المغنين الأتراك. كانت هذه الأماسي، بالنسبة إلى كلوديوس، بعض أكثر الأماسي بهجة في حياته، فجمال المنظر مع التعاقب المدهش لألوان غروب الشمس الإيطالي الذي يتلاشى قبل تدرج الظلام عند الغسق، وأخيراً، الليل في حدة يقظته وهو يجلب ضوء القمر المضيء متزامناً مع أغاني النوتيين، كانت كلها مشاهد لم ينسها قط.

كانت في البندقية حينذاك دوقة ديفونشير فتعرّف عليها. وفي

التاسع والعشرين من حزيران زفت إليهما الأخبار الرائعة المتعلقة بانتصار معركة واترلو. والمرء يمكنه أن يخمن مدى الإثارة الذي تركه النبأ على كل واحد منهما، لأن ذلك، في حقيقة الأمر، كان سيجلب السلام إلى أوربا في آخر المطاف. وبعد أسبوع توجها لسماع تسبيحة الشكر التي رتلت احتفاءً بهذا الانتصار، وعن هذا كتب ريج:

« أسعدتني موسيقا القداس أكثر من أية موسيقا سبق أن سمعتها منذ وصولي إلى إيطاليا، إنها موسيقا رائعة تتصف بالجدية والتألق. »

وفي الليل أضيئت الساحة بالأنوار احتفاءً بهذا الحدث العظيم، وإن افتقرت إلى إيقاد الشموع. ومشهد آخر، وإن كان من نوع آخر، تمثل بعشية عيد المخلِّص. بدايةً، كان مناسبة دينية، ثم أصبح مناسبة دنيوية أكثر منه أي شيء آخر. فقرب منتصف الليل أصبح ذلك الوقت هو الأكثر مرحاً، حتى وإن كان المرح متواصلاً إلى الفجر. وعلى القناة الكبرى والغيوديكا أقيمت جسور القوارب بهذه المناسبة، فبدت المدينة كأنها مشكال[1] من الألوان الطيفية، وتحركت جموع الناس بملابسهم الزاهية جيئة وذهاباً، يتوقفون مثرثرين عند الأكشاك التي عرضت فيها لعب الأطفال والفطائر والمثلجات، وكذلك أضيئت جميع الحدائق والشوارع وصدحت موسيقا آلات الكمان والقيثارات من جميع المساكن.

---

(١) جهاز يحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملوّن، التي تعكس عند تحريكها مجموعة من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان.

استقر الأرستقراطيون الفينيسيون في كازينوات أو غرف الطوابق الأولى من البيوت المطلة على ساحة دي سان ماركو، التي سبق أن احتفظوا بها بوساطة اكتتابات خاصة، واستقبلوا فيها أصدقاءهم وسط مظاهر البهجة حتى ساعات الصباح الأولى.

وفي بعض الأماسي قصدت عائلة ريج دار الأوبرا، التي أضحت مكاناً مناسباً لها، واعتادت، كذلك، الذهاب إلى الكونسرفاتوار، حيث تعرَّف فيها ريج، كما في ميلان، على مدير المعهد، فورلانيتو. وريج خلال إقامته في إيطاليا، وفي البندقية بصورة رئيسية، استطاع الحصول على كثير من المؤلفات الموسيقية القديمة النادرة التي عَدَّها ثمينة، كالتآليف الموسيقية التي ابتدعها المؤلفون الموسيقيون المشهورون في القرون الأولى، وإن لم تعد تساير روح العصر. لكن هذه المؤلفات، على أية حال، قد اختفت على نحو يثير الأسى.

حان الآن وداع أجمل المدن، وانقضت الليلة الأخيرة من تلك المدة بركوب أحد الجنادل، أو التنزه في الحدائق. وبعد العودة إلى ميدان دي سان ماركو، بقيا حتى ساعة متأخرة من اللَيل، يطيلان الجلوس حتى الساعة الأخيرة التي لا يمكن تجاوزها.

وفي صباح اليوم التالي، انطلقا بحال يثير الشجن في زورق عليه أربعة بحارة شاقين طريقهم إلى تريستا. وعندما بلغوا البحر المفتوح، اضطرب الموج فساءت حال ماري لدرجة كان لابد من إقناع البحارة للعودة إلى الشاطئ، إذ لاحت نذر عاصفة هوجاء هبت في أثناء

الليل. راحت الأمواج العاتية تهددهم فاضطروا للعودة إلى أعالي النهر بزورقهم، ومن اليابسة انطلق الزوجان بإحدى عربات البريد، وهي رحلة مزعجة لأن عربات البريد دون نوابض، بصحبة تشكيلة أخرى من مسافرين سريعي الاهتياج والنرفزة.

وأخيراً، وصلوا إلى مدينة تريستا، الصاخبة الحارة، التي تتميز بعدد كبير من مخازن بيع المشروبات الكحولية. أمضيا فيها ستة أيام، وكان أول ما فعلوه فيها هو البحث عن وسيلة للإبحار إلى القسطنطينية. وهما، عندما وجدا مركباً شراعياً يحمل العلم الإنكليزي، وأن الربان كان من أهالي كورفو، تواصلت استعداداتهما للشروع بالرحلة. كانت تريستا حينذاك تحت حكم النمسا، وتكثر فيها مختلف اللغات، ويتألف سكانها من الدلماسيين والكرواتيين والسلافيين والإغريق ومن الإيطاليين الذين كانوا قليلين على ما يبدو. المدينة قذرة وشوارعها رديئة التعبيد، ولكنها، مع ذلك، ميناء يعج بالحركة. وفي هذه المدينة التحق بهما السيد بيلينو، ذلك الشاب الألماني الذي التقاه كلوديوس في فيينا وعرض عليه وظيفة سكرتير خاص. وبما أن هذا الشاب كان يهدف إلى السفر إلى الشرق ودراسة اللغة العربية بصفة خاصة، فقد طغى عليه سرور كبير وتقبل العرض بحماسة ظاهرة.

أبحروا جميعاً في اليوم الثامن والعشرين من تموز، مساء ذلك اليوم تحديداً. كانوا لأسبوع بأكمله يمخرون البحر أسفل الأدرياتيك، ثم

توقفوا نهاية ذلك الأسبوع في كورفو. مرَّ بهم يوم أو يومان عاصفان، ولكن لم يكن ثمة ما يستحق التدوين في هذه الرحلة، عدا ما لاح لهم بين حين وآخر من منظر لإحدى الجزر الكثيرة التي تطوق ساحل دالماشيا. وحينما اضطرب البحر ثانية، استلقى كلوديوس في سريره الخفيف وراح يقرأ بسعادة غامرة روايات بقلم شاتوبريان التي اكتسب فيما بعد شهرة عريضة. أما المشكلة الوحيدة فهي أنه قرأها كلها بسرعة، فلم يتبق له شيء بعدها لتزجية الوقت. كان الصيد في البحر وسيلة يعود إليها المسافرون بين وقت وآخر، وبعد صيد أحد الدلافين، الذي التهموه وإن كان مشبعاً بالزيت، أعلن كلوديوس قائلاً:

«إن كل ما يكسر رتابة الأكل في السفر بحراً مقبول، فالتذبذب الأبدي الحاصل بين تناول الدجاجة المسلوقة إلى الدجاجة المحمرة، ومن المحمرة إلى المسلوقة أمر لا يحتمل.»

تناهى إلى سمع ريج، خارج نافذة حجرته الخاصة، شدو بحارة إحدى سفن البندقية، وهم يرددون لحنا للموسيقي الشهير موزارت »لاسي داريم لامانو«. لقد ترك ذلك في نفسه حنيناً مؤلماً إلى معبوده – إيطاليا – وها هو يكتب:

«لا يمكن تصور مثل هذه الموسيقا في البحر في مثل هذه الليلة. بدا كأن أرواحاً حميمة تبرز من الأغوار الساكنة لتعيد لي ذكريات إيطاليا الحبيبة إلى نفسي – أرض الشعر والتناغم. ترى، متى سأراك ثانية ؟ وأية رحلات بحرية يدخرها لي المستقبل قبل أن تتاح لي تحية شواطئك

المقدسة مرة أخرى ؟»

وبما أن السفينة قدِّر لها أن تبقى أسبوعاً هنا، فقد هبطت العائلة إلى الشاطئ بحثاً عن مستقر لها، بعد مراجعة دوائر الصحة والشرطة أولاً. هيأ لهم الربان سكناً في بيته هناك، لكنهم كانوا في وضع مزر، يملأ ملابسهم القمل والبعوض - وبهذا الصدد كتب كلوديوس في يومياته:

«أستطيع الآن إدراك النقد الذي أعلن عنه أحد أصدقائي من الأتراك المسنين للملابس الأوربية فهو يقول لمن يرتديها، بدلتك ملائمة جداً ولكن لا يمكنني تصور كيف يتسنى لك هرش جسدك واصطياد البراغيث».

كانت كورفو في ذلك الوقت تحت الحكم الإنكليزي، ولذا امتلأت شوارعها بالجنود والبحارة البريطانيين. لقد مرَّ على كلوديوس وقت طويل منذ أن رأى تلك الطبقة من الإنكليز الذين استمتع بمشاهدتهم كثيراً. راودت ذهنه فكرة أن بدلاتهم كريهة، وإن كانوا يتسمون بالنظافة والمظهر الوسيم. ولدى زيارته للحاكم الإنكليزي - الفريق كامبل - دهش كثيراً وهو يفاجأ بمقابلة السيد رينو، الذي كان مديراً للخزينة في تلك الجزيرة، والذي سبق أن التقاه في بغداد قبل ثلاث سنوات، أصر الأخير عليهما أن يغادرا سكنهما والانتقال إلى بيته مع زوجته. وهكذا، أصبح مقامهما مبعث رضى من خلال الدعوات التي قدِّمت لهما.

وبعد تناول العشاء مع الحاكم في إحدى الليالي، اتجهوا جميعاً لقضاء الأمسية في دار الأوبرا، التي أدت فيها فرقة من نابولي دورها أداءً رائعاً. وفي ليلة أخرى تناول ريج عشاءه على مائدة مشتركة خاصة بالفوج الخامس والسبعين، بوصفه ضيفاً للكولونيل ماكلاشلان، وبعد العشاء استمتع بسماع عزف على ثمانية نايات في ألحان أسكتلندية. ومع ذلك، ففي ليلة أخرى ذهب الزوجان إلى حفلة راقصة في دار الحكومة، وبين الرقصات عزفت فرقة الجنود الكورسيكيين عدة ألحان من بين أفضلها كان لحن «ماغنام امسترداما» الذي يبدو أنه كان شائعاً جداً في ذلك الوقت.

وشهد اليوم الرابع عشر من آب، ومرة أخرى، استعداداتهم للرحيل بعد توديع رينو والكولونيل ماكلاشلان، اللّذين جاءا لتوديعهم. ساعدتهم رياح قوية أسفل الأدرياتيك، وبعد اجتياز جزر سيفالونيا وزانته، استداروا حول رأس ماتابان ملازمين جنوب سريغو، وهنا أمكنهم مشاهدة جبال كانديا جنوباً. وقريباً من ميلوس هبت الرياح العاتية القادمة من وراء الألب، الرياح شمالية غربية، وضربت البحر بعنف فاصطرت السفينة للعودة إلى ميناء تلك الجزيرة، الذي كان واسعاً وموفور الحماية. ثم تحول الطقس ليصبح أكثر إثارةً وتعكيراً للمزاج، وتواصلت الرياح المقبلة من الألب بذلك العنف والتواصل الطويل لدرجة لم يتحرك فيها الربان نحو البحر، فحجز الزوجان قرابة أسبوعين في تلك البقعة البائسة. وحينما غادر كلوديوس تلك

السفينة، ذعر بمظهر المكان المهجور الذي سعفته الشمس، إذ لم تغادر الميناء زوارق لاستقبالهم، وبدا من الصعب رؤية أحد في الجزيرة. وعند تسلق مابدا بقايا طبقة متخلفة من سيل جارف، شاهدوا هنا وهناك بعض أشجار الدفلى والآس تكافح من أجل البقاء، مع بقاع صغيرة من الصعتر والقصعين البريين. والقرية التي بلغوها كانت تعيسة إلى حد بعيد، محاطة بمحصولات ضئيلة من القطن وبعض الأعناب. أما رؤية الخرائب فهي تفوق رؤية المساكن القائمة، فضلاً عن أن سوء حالة الفلاحين الصحية يشير إلى أن الجميع توفوا إما بسبب الملاريا أو فساد الهواء. وفي قرية كاسترو، التي احتلت صخرة عالية تمتد إلى أميال قليلة، بدا الهواء أفضل والناس في وضع صحي أحسن قليلاً. أصبح الميناء مزدحماً بالسفن التي التجأت إليه بسبب تلك الريح المرعبة، مع ما أثاره البحارة النازلون إلى الشاطئ من لغط واضطراب نتيجة لمناقشاتهم الحادة مع سكان الجزيرة.

وفي بداية شهر أيلول أبحروا ثانية مجتازين بعض الجزر الخلابة في بحر إيجة، وقد سبق أن سلك ريج هذا الطريق في زيارته الأولى لمدينة القسطنطينية، حينما كان يافعاً عام (١٨٠٤ م)، وعلى هذا، راح يسرد على مسامع زوجته، صديقته الحميمة الوحيدة، أشياء عن الأماكن الكثيرة والمغامرات التي قام بها في ذلك الوقت، وبالتالي كل ما يتعلق بالحياة التي دفعت به إلى المغامرة في الشرق. وعلى حين غرة هبت العاصفة مرة أخرى، فكان لزاماً عليهم اللجوء إلى ميناء نوسا في جزيرة

باروس. كان ريج هناك قبل عشر سنوات، وحينما أدرك أن الريح لم تهدأ بأية حال من الأحوال، فكر في النزول لمعاينة المنطقة ثانية. بدا المكان أكثر خراباً وتداعياً مما كان عليه سابقاً، والمزارع الذي سكن في بيته قد مات. ومع ذلك، فقد استطاع إعداد بعض البغال مع مرشد كان من أكثر الناس غرابة، ومختلفاً عن أي إغريقي رآه، فهو قصير مفتول العضلات ذو بشرة داكنة مغطاة بالهُلْب، يلقي شعره الأسود الشبيه بالصوف بظلاله على سيماه العابسة، مع نشاط لا يعرف الملل وضجيج لا يصدر إلا عن إنسان متوحش. «وحشينا»، كان اللقب الذي أطلقه عليه ريج. قادهم إلى مقلع المرمر الذي زحف داخله كل من كلوديوس وبيلينو و«الوحش». والحقيقة، هي أن المنفذ كان في بعض الأماكن ضيقاً لدرجة اضطروا فيها إلى التلوي داخله والزحف على بطونهم.

كان بعض المرمر رائعاً، وفي أجزاء أخرى من المقلع غصت الدهاليز بأكوام النفايات، وقد أمكنهم مشاهدة المنحوتات والنقوش الإغريقية، لكن أحداً لا يعرف كم مضى من الوقت على هذه اللقى.

ولما عاد ريج والتقى زوجته، التي لم تظهر اهتماماً بالزحف داخل المقلع، عقدا عزمهما على التفرغ ليلاً لزيارة الدير، لأنهما كانا يأملان في السفر في اليوم التالي إلى مدينة باروس، وهذا يشكلاأكثر من منتصف الطريق. في هذه الجزيرة كثير من السمات الغريبة التي تثير الفضول، وليس ثمة شيء اكثر غرابة من هذا الدير، الذي يضم قساً وابن أخيه البالغ ثمانية عشر عاماً، وزوجة تبلغ قرابة عمره نفسه، ورجلين أو

ثلاثة رجال آخرين وبعض الخادمات!

والدير الذي شيد على حافة جبل أجرد، معرَّض إلى أجواء الصيف الحارة كتعرضه تماماً إلى عواصف الشتاء البارد المثلج. وإنَّ ما يثير الدهشة حقاً هو، كيف يستطيع هؤلاء البقاء على قيد الحياة في مثل هذه البقعة المعزولة المجدبة؟ وعندما سأل ريج ذلك القس المسن عن سر الاحتفاظ بالدفء شتاءً، أجابه قائلاً: «بوساطة تناول المشروبات والعمل الشاق». ثم تقدم القس ليبين لضيفيه المنذهلين كيفية ممارسة العمل الأول، إذ تناول الشراب فانتشى وعربد وتقدم يرقص ليريهم قدرته على التحمل.

وبعد أن تغيرت الريح ليلاً، لم يتموا بقية الرحلة براً، وعلى هذا، عادوا إلى سفينتهم بسرعة. ثم لاحت بوادر عاصفة عاتية، اضطرتهم إلى اجتياز الأرخبيل في ثلاثة أيام. ولكن المسافرين، قريباً من جزيرة تينيدوس، كان لابد من لجوئهم ثانية إلى الميناء طلباً للنجاة، فقد بدأت العاصفة من جديد فعلاً، وبما أن تواصل تلك العاصفة كان محتملاً بضعة أيام، فقد انتهزت العائلة تلك الفرصة لتكرار النزول إلى اليابسة وزيارة أطلال مدينة طروادة، بعد تقديم طلب للسماح لهم بالنزول من القنصل الإنكليزي -السيد تاراغونا- الذي أرسل لهما حصانين ومرشداً للطريق.

كانت وجهتهما الأولى إسكندرية تروس [1]، مع كثير من الخرائب المتناثرة حولها، وأرشدوهما إلى ما اعتبره كلوديوس حماماً إغريقياً عاماً، في حين دعاه المرشد مسرحاً، وأروهما، كذلك، قناةً وأبراجاً بالإضافة إلى أسوار المدينة.

ولدى مغادرة المكان شقت المجموعة طريقها خلال ممرات ضيقة في الغابة إلى بونارباشي التي أمضى الزوجان ليلتهما هناك. وفي اليوم التالي شهد المكان ارتقاءهما المرتفعات التي تشرف على القرية، وعند الوقوف على ركام ترابي، عَدَّ كلوديوس أن ما رآه كان إحدى أكثر البقاع إثارة للاهتمام في العالم، وبهذا الصدد يقول:

«إنَّ من الصعب التعبير عن الأحاسيس التي أشعر بها في أثناء وقوفي هنالك وإلقاء نظرة عامة على المنطقة بأكملها التي أحالها هوميروس [2] إلى لوحة مزوقة شهيرة. ترامى إلى أسفل منا سهل طروادة الذي شكلته سلسلتا جبال تنفتح على كلا الجانبين، إحداهما تكوّن قمة الجبل السيجية والأخرى قمة الجبل الراشينية [3]. اكتشفنا قريباً من الأولى ضريح

---

(١) إحدى المدن القديمة التي بناها انتيغونوس – احد قادة الإسكندر الكبير – شمال غرب الاناضول.

(٢) شاعر يوناني عظيم (القرن التاسع او الثامن قبل الميلاد)، صاحب ملحمتي «الإلياذة» و«الاوديسة».

(٣) تقع المناطق الجبلية هذه في مقاطعة رومانية قديمة في جبال الألب.

أخيل وباتروكلوس ، ومن الثانية ضريح أجاكس

ونحو بحر إيجه ينغلق المشهد بوساطة إمبروز وأراضي ساموثراس المرتفعة، في حين يشكل جبل آثوس المقدس، بعيداً إلى اليسار، رأسه الضخم. إنني لا أعارض الرجل الذي – وهو يحمل الإلياذة بيده – أمكنه من هذا الارتفاع أن يظل مع ذلك ميالاً إلى الشك، فإن جمال هذا المنظر المفرط وذكريات العصور الخوالي والانجاز البارع في الحروب والشعر الرائع المنتخب بعناية، التي دونت به تلك الأعمال، يسهم كله لجعل هذه البقعة من أكثر بقاع العالم إثارة للدهشة والانبهار. يبدو أن الأعراف التي سادت القرون الماضية تطبع هذا المكان بواقعية كأية واقعية يمكن أن تطبع بها أي مكان آخر، وإذا لم تكن هذه طروادة، فما هي اذن؟

إنها في منطق كل هذه الأحداث حدود مدينة طروادة ومدينة ميشيا القديمة جنوب طروادة، وهذا يكفيني، وإن كنت مؤمناً بالحرب الطروادية. ولعل أمير الشعراء–هوميروس، من هذا الارتفاع، كان قد أعدَّ قصيدته الخالدة، ومن يدري؟ فربما كنا واقفين على البقعة نفسها التي

---

(١) أخيل: هو ابن بيليوس من زوجته تيثس، وكان أشجع الأبطال في الحرب الطروادية.

باتروكلوس: أحد أبطال الإغريق في حرب طروادة، وصديق أخيل الحميم. وبعد ابتعاد أخيل عن الحرب، أعار سلاحه إلى صديقه، باتروكلوس، الذي قتله هيكتور فيما بعد. لكن أخيل قتل هيكتور، الذي كان متبجحاً بلباس الحرب الذي انتزعه من باتروكلوس.

(٢) ابن تيلامون – ملك سلاميس – على وفق ما جاء في الإلياذة.

لفتت فيها هيلين[1] نظر برايام[2] إلى الأقوام المختلفة وربابنة الاسطول الإغريقي، أو البقعة التي أغمي فيها على ندروماك[3] وهي تشاهد ما آل إليه مصير زوجها-هيكتور[4]. إن الأقسام المتشظية للبنيات ربما كانت تعود إلى قلعة برايام، وإن كومة الأحجار ربما كانت تغطي رفات أفضل زعيم طروادي، ومن المكان الذي لا يزال يدعى فريج هيكتور، وقفت بإجلال لروح بطلي المفضل على وفق التقليد المعروف في بلادي، «ويدي الصبيانية تطرح الحجر لترفع عالياً الركام الذي يصل على شهرته» وتبعني كل من ماري وبيلينو.

وبعد تجوال حول المكان ومعاينة هذه الخرائب أو تلك، عادوا إلى القرية سيراً على ضفاف نهر سكاماندر الرائعة. وعند الظهيرة، بعد توديع طروادة، تقدموا نحو كيب سيجيوم البحري، ولم تنقض إلا ساعات قليلة حتى وصلوا إلى ضريح أخيل وباتروكلوس الذي استقر بين الكروم. وحينما أعدّ لهم زورق لاستئناف رحلتهم البحرية إلى الدردنيل، لا بد من الإشارة إلى ان تأرجح الوقت أنزلهم من ذروة الحدث

---

(١) هيلين: في الأسطورة اليونانية هي أجمل نساء عصرها، وهي ابنة زيوس من زوجته-ليدا. ملك إسبارطة زوجاً لها. أغواها باريس، بن برايام (آخر ملوك طروادة). ولإعادتها، جمع مينيلوس أمراء اليونان، الذين اعلنوا الحرب على طروادة. وبعد سقوط طروادة عادت إلى مينيلوس وعاشت معه في إسبارطة.

(٢) برايام: آخر ملوك طروادة، قتل، عند سقوطها، بأيدي اليونانين.

(٣) في الميثولوجيا اليونانية، هي زوجة هيكتور الوفية.

(٤) هيكتور: ابن برايام، وهو أشجع أبطال طروادة في الميثلوجيا اليونانية.

ليضعهم في موقف سخيف، وذلك لأن أحد الأتراك، مدير الكمارك شخصياً، دعاهم لتناول الطعام والشراب في بستانه: «فهذا التركي نموذج نادر في شخصيته وسلوكه، لأنه من الناحية الشخصية يعد وسطاً بين شخصيتي فولستاف[1] وسانشو[2]، ويزداد بروزاً بما يرتديه من بدلة مميزة–سترة قصيرة وسروال قرمزي فضفاض. قدمً لي زجاجة من شراب الروم، وحينما رفضت ذلك عن عمد وضعها على فمه وارتشف منها جرعة نابعة من القلب، بدت لا تأثير لها فيه أكثر من تأثيرها في الزجاجة التي احتوتها. صوته صوت دب غاضب. خاطبني ثم استدار فعنَّف خدمه وعدَّ نقوده واستعجل إحضار حصانه الذي كان يدير الدولاب المائي، بنفس واحد، وأخذ بين حين وآخر قليلاً من السعوط من علبة تبغ يابانية احتفظ بها في كيس صغير! وحتى أنه لم يدعنا ندخل زورقنا بطريقتنا الخاصة. ولكنه. مع كل ذلك، كان عطوفاً علينا، فقد أصر على السير معنا تهادياً حتى حافة الماء، وهو عمل لا يخلو من بعض الجهود، إذا حكمنا على ذلك من خلال الحسرة العميقة التي كان يطلقها في كل خطوة يخطوها!»

وحينما استداروا حول كيب سيجيوم تلألأ القمر في كبد السماء

(١) فولستاف: فارس مرح في مسرحية شكسبير–هنري الرابع–.

(٢) سانشو: رفيق دون كيخوته، الذي يمتلئ حديثة بالدعابة وضرب الأمثال. اصبح حاكماً بضعة أيام في باناتاريا.

بكل جلاء على مياه مضيق هيليونت الهادئة. وبعد تجديف استغرق خمس ساعات، تغيرت رتابة حركتهم نتيجة للأغاني التي صدح بها بحارة آخرون، وإن لم تكن لتلك الأغاني العاطفة أو الشاعرية التي يتمتع بها البحارة الفينيسيون، وبلغوا في مضيق الدردنيل[2] «جاناك قلعة» في الثانية صباحاً، فوضع الزورق مرساه عند مقهى لم تزل مفتوحة. ويورد كلوديوس في ما ياتي وصفاً ممتعاً لإحدى هذه المقاهي، وهو وصف جدير بالتدوين:

«تفي مثل هذه المقاهي بما ترمي إليه محلات الصيرفة أو الفنادق الصغيرة من أهداف. فأغلب الأتراك يقضون في تلك المقاهي جلّ حياتهم تقريباً، فالتركي، حينما يدخل إحداها، يتجه إلى مكان جلوسه ببطء ووقار، ثم يخرج كيس التبغ الصغير الذي يحمله دوماً ويملأ غليونه. وفي نفس الوقت يجلب له النادل كوباً من القهوة تقدَّم طازجة لكل قادم إلى المكان، مع قبس من نار، يمر كل هذا دون أن تنبس ولو بكلمة واحدة. والنادل يعرف ما هو المطلوب منه بكل دقة، وأنَّ إشارة بالذقن تكفي، في الأغلب، لتبليغ أية توجيهات مطلوبة، كما هي الحال عند طلب كوب قهوة إلى أحد المعارف، وهو أمر شائع ضمن

(١) ذلك الجزء من البحر حيث شعرت «هيله» بصراع عند مطاردة زوجة ابيها لها ولأخيها «فريكوس». كانا، على وفق ما جاء في الأسطورة، على ظهر خروف ذي صوف ذهبي، هاربين من طيبة. نجا فريكوس فضحى بالخروف إلى زيوس وخصص الصوف للأغراض المقدسة، غير ان ابتيس قتله في آخر المطاف.

(٢) يربط مضيق الدردنيل بحر مرمرة ببحر إيجه.

متطلبات التهذيب التركي.

وعندما يشعل التركي غليونه ويرتشف قهوته، التي تغلي ساخنة، بجرعات طويلة، يصبح أكثر استعداداً للحديث ويلتفت حواليه لرؤية من يعرفه. ثم يتواصل في الحديث مستنداً في ذلك إلى أقوال مأثورة معدَّة وأمثال قديمة معروفة، كما هي العادة في ترديدها في نفس المناسبة بكل دقة.

وإذا كان عليه أن يأوي إلى النوم في ذلك المقهى، فما عليه إلا أن ينزع سلاحه ويحمل حزامه ويسحب الدثار السميك فوق جسده، وبعد آخر غليون يستسلم للنوم متحدياً بذلك كل ما يثار حوله من ضجيج. في فجر اليوم التالي يتجه نحو باب المقهى، يتوضأ، ثم يعود لإقامة صلاة الفجر، وبعدها يخرج لشراء الفطور الذي يتكون عموماً من قليل من الجبن المالح وعنقود من العنب، ويعود لتناوله في المقهى خلال الرتابة اليومية.»

كان موعد العودة إلى بيت القنصل مبكراً جداً لذا فقد انتظروا في المقهى بروائحها الكريهة حتى الثامنة، ومن هناك ذهبوا إلى الأخوين تاراغونا–أحد الأخوين كان القنصل البريطاني، والآخر كان القنصل الروسي. مرَّ عليهم يومان في هذا المكان انتظاراً لوصول السفينة. والجدير بالإشارة هو أن القلاع في منطقة الدردنيل كانت محكمة التحصين، ولذا لم يشاهدوا الكثير منها عدا الأسوار الخارجية. وفي صباح يوم الرحيل، في أثناء تناول الفطور، قُدِّم إليهم القنصل البريطاني في

يافا–السنيور هانا داميانا، إذ يبدو ان خدماتنا القنصلية في ذلك الوقت كانت تضم خليطاً من قوميات مختلفة وشخصيات غريبة، فقد كان هذا الرجل مثار سخرية أو شك كلوديوس فيها على الانفجار ضاحكاً لمنظره، فهو يكتب:

«رجل بدين، كثير الشحم، وله شارب رمادي ولحية شائكة تشبه ظهر القنفذ، ويرتدي بدلة تركية، وصدرته قذرة لدرجة يصعب على المرء معرفة تصميمها الحقيقي، أما سترته المرقشة الواسعة فقد كانت من الصوف القرنفلي اللون، ربط شعره إلى الخلف بشريط يلتصق برأسه، لكنه تساقط كذيول الفئران، كانت تلك «الذيول» تتدلى كالأسلاك إلى منتصف ظهره، وفوق ذلك كله اعتمر قبعة واسعة مردودة الحافة شبيهة بتلك القبعات الشائعة في عصر لويس الرابع عشر. لونها بني كلون الصدأ، ومزينة بشريط ذهبي زلق عرضه أربع بوصات، فضلاً عن شريط جلدي أسود كبير. ومن وقت لآخر كان يلمس هذه القبعة بيده دون أن ترفع عن رأسه.

وفي محاولة لإضفاء الأبهة الدبلوماسية على شخصه، استخدم عصا بطول قامته، ذات مقبض فضي تشبه عصا الشماس، وبعد كل عبارة ينطقها اعتاد رفع رأسه إلى الامام بِمَحْلَقَةٍ من عينيه ودفع فكه إلى الأسفل وإظهار أسنانه كالأبله. حقاً، كان يتعذر على أي إنسان ان يتمالك نفسه من الضحك عالياً.»

وبعد الظهور على ظهر السفينة ثانية، استغرقت الرحلة ثلاثة أيام

للوصول إلى القسطنطينية، وذلك لأن الرياح كانت غير مواتية. وعلى أية حال، فقد وصلوا بسلام في العشرين من أيلول، بعد أربعة شهور من مغادرة باريس.

الفصل الرابع عشر

من القسطنطينية إلى بغداد (١٨١٥-١٨١٦)

في أثناء وجود عائلة ريج في القسطنطينية، أمضى الزوجان جلّ وقتهما مع السير فرير - المستشار الأول في السفارة البريطانية - الذي سبق أن عقدا صداقة متينة معه في زيارتهما الأولى، وقد أسعده كثيراً الترحيب بعودتهما ثانية. تغير المناخ مبكراً فتساقطت الثلوج، وبعد بضعة أسابيع من الانتظار لحلول الأيام الرائقة، واصلت العائلة استعداداتها اللازمة للرحيل. وكما نعلم، فإن ريج لم يزل يعيش جواً من الحرمان، والموافقات النهائية من حكومة بومبي لم تصل إليه حتى الآن. والحقيقة، هي أنه قدِّر عليه ألا يعلم شيئاً عن حسم قضيته لأربعة شهور تالية. وريج، الذي شعر بالأسى والقلق والترقب الشديد بخصوص مستقبله، فضلاً عن معاودة نوبات الحمى القديمة إليه، أصبح فاتر الهمة وغير آبه بما يحيط به. لقد دونت ضده الاتهامات التي كانت، بالنسبة إليه، خطيرة جداً، تلك الاتهامات المتعلقة باستحواذه على أموال حكومية لاستخداماته الخاصة. وربما مرَّ في ذهنه شيء من سلوك أبيه المخزي، وكيف كانت المشكلة في تلك الفضيحة تتمثل بالمبالغ الضخمة التي تورط فيها بصدد تلك القضية. ولا يعني هذا أن ريج كان يعتقد ان العقيد كوكبرن كان مذنباً، لأنه اعتقد أن المجلس العسكري في حينه كان مؤسسة لإجهاض العدالة.

ومع هذا، فقد كان ذلك انذاراً تحذيرياً له. ثم إن رسائله التوضيحية إلى الحكومة في إنكلترا وفي بومبي كانت كلها أسباباً تعليلية لغيابه الطويل وسوء حالته الصحية. وعلى أية حال، كان الشتاء على الأبواب، والشتاء في بلاد الأناضول شديد البرودة، وليس من الحكمة إرجاء الرحلة مدة أطول، وعليه، فقد حدد اليوم الرابع والعشرون من تشرين الثاني يوماً للشروع بالسفر.

طغى على كلوديوس شعور بالكآبة يثير الشفقة، كما يحدث دائماً عند توديع اصدقائه. وهكذا، فقد رافق عائلة ريج كل من فرير وموريز ولندسي حتى رصيف مرفأ توفانا حيث انطلقوا من هناك إلى سفينة صغيرة لعبور البسفور.

شرعت المجموعة بهذه الرحلة الطويلة الشاقة، والمسافرون فيها كل من ريج وزوجته ماري، التي تنكرت، مرة أخرى، بلباس فتى تتري، والسيد بيلينو ورئيس الخدم المخلص، بيترو، وشارلز الذي يوازيه إخلاصاً، وان كان خادماً هنغارياً ذا بلاهة مفرطة، وسائس الخيل الأرمني وساعيين تتريين وخادم العائلة الخاص. عصبة من تسعة أشخاص أقوياء بما يكفي لصد أي هجوم يقوم به أفراد عصابات السلب والنهب، الذين لا يحتمل قيامهم بأي تحرش أو مضايقة ضد من يفوقهم عدداً، على أية حال، ثمة عنصر جديد ذو شأن خطير، هو ليون، الكلب الإيطالي الضخم من كلاب الحراسة الذي تعلق به ريج كثيراً.

سلكوا، على امتداد خليج إسميد حتى سابانجا، الطريق نفسه الذي

سلكوه في رحلتهم السابقة. وستة أسابيع في طقس رائع متوقع في هذا الموسم الخريفي وبمتعة تتخطى متعة رحلتهم السابقة، تابعوا طريقهم على طول شاطئ الخليج قريباً من جزر الأمير التي ترصّع بحر مرمرة، وهضاب بروسا النائية التي تطوق المشهد. كانت مدينة إسميد، التي توقفوا فيها، نشيطة الحركة تزدحم بأناس متعددي الألوان والأعراق، ثم إنَّ المدينة هذه هي إحدى محطات القوافل القريبة من القسطنطينية. كان الخان الواسع فيها مرتعاً لهرج وصخب دائمين، بالإضافة إلى ما فيه من قيل وقال ومشاهدات. امتلأت اسواقها بالبضائع التي تكفي لسد احتياجات المسافرين، وبناءً على ما كانت تشعر به ماري من توعك في صحتها، فقد أمضيا ليلتين في تلك المدينة. ثم ارتحلوا فوصلوا إلى سابانجا بعد اجتياز سهل سيخ خلال ممر حجري وعر متفرع، محاذين بحيرة غول داغ الواسعة بعض الشيء. في هذه المرحلة اختار ريج الطريق الذي أفضى إلى أنغورا، على مسافة مائة وستين ميلاً تقريباً، ذلك الطريق المؤاتي الذي استغرق اكماله ثمانين يوماً. قضيت الأيام الخمسة أو الستة الاولى منه داخل احراج وغابات ساحرة، والمنطقة، وإن كانت جبلية، لكنها وافرة الاخشاب، ذات جداول يسمع خريرها على امتداد الوديان. لقد تحولت الأشجار من خضرتها الصيفية إلى ظلال خريفية جميلة، بألوان خمرية وذهبية كلون النحاس، لكن الممرات اكتست في كل يوم ببساط من أوراق البرتقال، نظراً إلى تسارع حلول الشتاء الذي تميل فيه درجة الحرارة ليلاً إلى حد الانجماد. أما أشجار التنوب

والصنوبر، فقد بقيت داكنة مظلمة تحرس الطريق كالخفراء، وغالباً ما يقوم بيت للحراسة إلى جوار مجموعة من هذه الأكمات، حيث ينزل فيه المسافرون لاحتساء كوب طافح بالقهوة الساخنة وسط مظاهر العرفان بالجميل. كانت تلك البيوت تحت سيطرة رجال الشرطة لحماية القوافل المرهقة، وبمثابة دور استراحة للمسافرين، فضلاً عن كونها دوائر للكمارك والمكوس.

وبعد اجتياز ناليخان، استحال المشهد إلى أرض معزولة قاسية، ولم يكن ممكناً رؤية أراض مزروعة أو بساتين مثمرة، بل جبال جرداء ذات ألوان مشوشة وطبقات أراض تتباين ألوانها، من حمر وبيض وصفر وسود، وتخلو من أعشاب المراعي. وهذه الأراضي تبدو ماحلة لا يلتمس المرء فيها عيشاً أو مأوى. أعادت هذه الجبال، التي تبرز ألوانها من بعيد، إلى ذهن ريج ذكرى الروابي الرملية الموحشة في الصحراء السورية. ولم يتحسن وضع المنطقة على طول الطريق حتى أنغورا، على الرغم من ان بعض أراضي الوديان المنبسطة كان مزروعاً!، وفي كل مكان بدا كأن الأرض قد غسلت بمحلول داكن كئيب، وهو شيء جعل المشهد غير مثير، تعوزه الألوان المحددة.

ولتزجية الوقت بساعاته المضجرة المملة طوال الطريق الرتيب، تحدث كلوديوس مع التترين اللذين كان كل منهما على قدر من الموقع المميز، فقد كان أحدهما في خدمة الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) والآخر في خدمة باشا بغداد. فرض هذان الساعيان، المكلفان بالسهر على راحة

المسافرين، احترامهما على متطلبات الطريق، وكان الطعام يقدَّم لهما قبل أي شخص آخر. كلامهما بمثابة القانون، وحتى أن أعلى الناس منزلة في تلك المنطقة لا يمكنه السفر دون مرافقة أحدهما. وإلى جانب ذلك، كانا مشددين في قضايا الأتكيت، إذ إن أيَّ ساعٍ تتري لا يمكنه العدو بفرسه متجاوزاً شخصاً آخر كان يعمل في خدمة سيد ذي مقام رفيع.

لقد أبهجت الحكايات الطريفة ريج كثيراً، لاسيما حينما اندفع علي أغا يسرد ذكرياته عن حياته المبكرة فيورد قصة عن نفسه قائلاً إنه في شبابه كان قد خدع في زواجه، وأنه بدد جميع ميراثه القليل، فضلاً عن بيع حصانه لتحقيق متطلبات الزواج من ضيافة وحفلات، لأنهم أكدوا له أن الزوجة تشبه الخوخ رقةً وجمالاً وأسعده أكثر ما كانت ستجلبه معها من جهاز كبير يتطلبه الزواج. غير أن نظرته الأولى لزوجته بعد مراسيم الزواج أذهلته، إذ بدت تضلع على قدم واحدة، وعوراء وسوداء كقعاع الجحيم. وعند ذلك صرخ التتري، «من أنت؟» فأجابته، «أنا زوجتك.»

كان ذلك يعني الشيء الكثير بالنسبة إلى الشاب الذي قفز خارج النافذة، ثم عاد حزيناً ليخبر قائد الفيلق الذي كان مجنداً فيه حينذاك بحكايته. وبعد أن انفجر القائد ضاحكاً، طلب منه، مع ذلك، أن يمارس عمله كجندي مشاة حتى يستطيع تخصيص حصان له، وهو درس لا يمكن أن ينسى أبداً. وفي أنغورا قابلوا القنصل الإنكليزي، رجلاً يدعى الدكتور سبين دي لاسكاري، الذي حدث أن كان خارج المدينة، بيد انه

وضع بيته تحت تصرفهم. شيد تلك الفيلاّ أساساً أحد التجار الإنكليز، واحتفظ بكثير من وسائل الراحة التي أظهرها للتقليل من وقع المنفى الذي وجد نفسه فيه. لقد كسا جدران بضع غرف منها بالورق، وجهزت غرفة النوم المخصصة لعائلة ريج بالجرس!

وإبان إقامة عائلة ريج في مدينة أنغورا، كانت اهمية هذه المدينة قد تضاءلت إلى حد كبير مقارنه بعهدها الزاهر السابق. كانت، في الحقيقة، تحت سلطة باشا يحمل طوغتين، لكن تجارتها تناقصت، إذ كان العمل الرئيس فيها هو الغزل والصباغة وتصدير الصوف الأنغوري الذي يمكن الحصول عليه من شعر الماعز. وهذا الصوف بخيطه الطويل الذي يشبه الحرير يعد ذا قيمة ويحقق سعراً عالياً، غير أن الوباء قضى على قطعان كثيرة من الماشية فتضاءل عددها بطبيعة الحال. ليس في المدينة تاجر أوربي، حيث مارس التجارة فيها وكلاء يعملون لحساب رؤسائهم المقيمين في القسطنطينية وأزمير، وإن كانت فيها سابقاً معامل فرنسية وهولندية وإنكليزية. وحوالي أنغورا وفي سهولها المترامية كانت مطاردة الأرانب بكلاب الصيد السلوقية تشكل رياضة مفضلة، ولهذا الغرض ربيت كلاب رائعة، أجودها كانت كلاباً سوداً ذات سيقان وأنوف سمر ضاربة إلى الصفرة، تمَّ تصدير بضعة كلاب منها إلى انكلترا فتأقلمت حال وصولها. وفوق ذلك، كانت المدينة مهملة وحالها مزرية. ويمكن مشاهدة خرائب الأيام الخوالي على شكل بنايات متشظية وأعمدة محطمة ومداخل أبواب متداعية وأكوام من الآجر والنفايات. والمسافرون

الذين سبقوا ريج في رحلتهم الحالية، عاينوا المكان وكتبوا عن ذلك الموضوع، وعلى هذا، وبعون من كتاب تورنيفورت المتاح في المكتبات، أمكنه زيارة ما كان يظن أنه معبد أوغسطوس.

(أول اباطرة الرومان، ٦٣ ق.م – ١٤ ق.م) وزيارة القلعة–ذلك الصرح التركي الأحدث من نوعه، وتلك البنايات سريعة البلى إلى حد ما، بالإضافة إلى العمود الذي يدعى »مئذنة ملكة سبأ«، وهو عمود متفرد معزول، ذو لون رمادي قائم على بعض درجات حجر سماقي متداع، والعمود شديد الميلان لدرجة تهدد بسقوط سريع. ثم إن تاج ذلك ذلك العمود فن عماري غريب، غير أن أحد اللقالق أضاف شيئاً غريباً على ذلك الصرح الغريب وذلك ببناء عش في أعلاه. شوارع المدينة رديئة وقذرة، وسكانها خليط يغلب عليه الأتراك، وفيه أرمن وإغريق ويهود. كانت صحة ريج سيئة، ولذا تواصل بقاؤه خمسة أيام، لكنه، مع ذلك، وجد بعض المتعة في ذلك المكان، وأسعده أن يواصل سفره ثانية. ولكن نظراً إلى سوء حالته الصحية رأى أن من الحكمة سلوك طريق البريد الرئيس إلى توكات دون انحراف في خط الرحلة وذلك بحثاً عن مكتشفات جديدة في الممرات الجبلية المهملة.

تقع مدينة توكات على مسافة مائتي ميل إلى الشمال الشرقي، وفي منتصف ذلك الطريق تقع مدينة يوزغاد، التي بلغوها بعد نحو خمسة أيام من مغادرة أنغورا. فضلوا سلوك هذا الطريق بسبب أن الفرص المتاحة فيه للحصول على الخيول أفضل من سلوك أي طريق آخر.

ومن الممكن إضافة شيء آخر بهذا الصدد هذا، وهو أنه يحدث أن يطلب عابر سبيل الالتحاق بركب القافلة طلباً للأمان، إذ إن الرحلة التي يقوم بها مسافر بمفرده تنطوي على مغامرة غير مضمونه، فقد حدث أن طلب منهم أحد التجار الأرمن في إسميد، في طريقه إلى بغداد، مرافقتهم، فسافر حتى الموصل.

لم تزل المنطقة موحشة، تخلو من الاثارة، وان شوهد مزيد من النباتات وأمكن الحصول على حطب لإيقاد النار، لأن الروث الجاف كان الوقود الوحيد المتاح قريباً من أنغورا.

كان عليهم عند وصولهم إلى نهر قزيل إرماق، الذي يتصف ببعض الأهمية، الخوض فيه في ذلك الفصل من السنة، وهو أمر لا أهمية له لأن عمقه لم يتعدَّ القدمين والنصف وعرضه ليس أكثر من مائة ياردة، وإن اصبح في الربيع نهراً ذا أبعاد جديرة بالاعتبار.

كان الكلأ بائساً والقطعان عجفاء، معوقة النمو، ومع ذلك، فقد ظهرت البساتين والكروم للعيان عند الاقتراب من يوزغاد، التي اكتشفوا أنها بدت حديثة ومنظمة، إذ بني فيها كثير من البيوت مؤخراً. ولكن، لسوء الحظ، حدث تأخير في تأمين مأوى لهم، مما اضطر القافلة إلى التحرك نصف دورة حول المدينة، تتعقب حركة تتري استبد به الغضب وكثرت إشاراته في أثناء حديثه، إلى أن أمكنهم الحصول في آخر المطاف على بيت غير مأهول وضع تحت تصرفهم. أصبح الطقس بارداً للغاية، وتحولت الريح في تلك الليلة إلى عاصفة عاتية، ومع ذلك، فقد

كان البيت مريحاً، وإن كان بناء المداخن رديئاً لدرجة ان النار حينما كانت توقد في كل مرة، كانت تقذف كتلاً من الدخان إلى حد اختناق المسافرين المرهقين الذين قاسوا الكثير من شدة البرد.

تواصلت العاصفة في اليوم التالي فتعذر عليهم الشروع بالرحيل. وفي ذلك اليوم زار القنصل الإنكليزي في أنغورا - الدكتور لاسكاري - الذي كان يعالج بعض المرضى ويوليهم عنايته الخاصة، كلوديوس. كان القنصل صريحاً جداً، فقد تحدث دون تحفظ مورداً معلومات كثيرة خاصة بالمنطقة. ومن الواضح أن هناك عائلة من الأمراء معروفة كان على رأسها سابون آغلون الذي امتلك باشوية أنغورا وسيطر على حكمها، وقد حظيت تلك العائلة بحب متزايد من الناس الذين كانوا على استعداد لخدمتها بكل طاقاتهم. لكن حدث ان قتل آخر أولئك المتميزين من تلك العائلة خلال عملية غدر نفذها الباب العالي، إذ أوجس السلطان خيفة من مثل هذه العائلة في المقاطعات الخاضعة لحكمه. وبعد مقتل كبير تلك العائلة، طبق نظام حكم مختلف لتلك المقاطعة كانت الوزارة العثمانية فيه هي التي تنتخب الباشوات. وعلى هذا، فقد بددت السلطة العثمانية شمل تلك العائلة بحذر وعناية وسلمت أملاكها للسلطان.

أما آخر تلك العائلة فقد كان حاكماً حصيفاً تشهد مدينة يوزغاد على مآثر من حكمه يمكن مشاهدتها في البيوت الصخرية الحديثة وأسوار المدينة المتينة. وفي مدينة مثل أنغورا، التي يحكمها الآن أحد

الباشوات، والتي بدأت علامات الترف تظهر فيه فعلاً، انتشر الفساد ووجدت الضرائب طريقها لملء جيوب موظفي الباشوية وليس للأهداف التي دفعت من أجلها.

وبرغم البرد والمطر، شرعت القافلة تسافر صباح اليوم التالي مبكرةً نحو مدينة توكات. لم تزل المنطقة كئيبة جرداء تنقصها الجاذبية، وإن أمكن رؤية العناية المبذولة لرعاية الأرض ووجود المراعي فيها، فقد بقيت المنطقة، مع ذلك، مشهداً لأرض موحشة. وعلى مسافة ستين ميلاً من الطريق الذي سلكوه – حيث كانوا متجهين إلى شمال شرق المنطقة– ظهرت أمامهم الجبال المكسوة بأشجار العرعر وأشجار البلوط القزمية، وتسامقت أشجار الصفصاف التي امتدت على الجداول كالأهداب، فكان منظر القرى مشرق الابتسامة تحف به البساتين وحقول الكروم.

وفي احدى القرى التي التجؤوا إليها لقضاء الليل شاهدوا حفل زواج تعزف فيه موسيقا السوينغ فكان الضجيج لا يطاق مع قرع الطبول المتواصل وأصوات المزامير المدوية. والبيت، كذلك، كان هو الآخر، بائساً بكل وضوح، ليس لأنهم اعتادوا الإقامة في بيوت مترفة، ولكن في هذا البيت كانت زريبة البقر وغرفة الجلوس واحدة، سواءً بسواء، ولذا، لم تكن الروائح طيبة، ومما جعل الأمور أسوأ هو وجود بعض الإشكالات المتعلقة بالبغال التي تحمل الامتعة، وعلى هذا، لم يعد بإمكانهم تناول العشاء عند وصولهم. ولكن بمساعدة أحد مُضيِّفيهم، الذي أبدى استعداداً لتقديم العون لهم، حاول كلوديوس، كأنه مدير حملة عجوز،

الحصول على شيء متاح. ولحسن حظهم، استطاع مضيفهم عمل القهوة وإحضار دجاجة مطبوخة، عسيرة المضغ، وطعاماً من أرز ولحم وتوابل،ومقداراً من اليقطين المخلل.

أما زوجة ريج، المسكينة ماري، فهي لم تستمتع بنكهة هذا الطعام اللذيذ، لكنهم وبسعادة قلبية غامرة استقبلوا مرحبين متاعهم في منتصف الليل، ثم هيئت لهم أسرَّة النوم وسط تهليل صاحب الدار الذي هتف: »فكروا فقط فيما يحتويه العالم من مباهج لا أعرف عنه شيئاً!«

وبعد مغادرة الرجل المضياف وبيته اللا مضياف، ارتحلوا عبر مدينة زيلة التي تتمتع ببعض الأهمية وبكونها أكبر من مدينة يوزغاد، تحيط بها البساتين الواسعة والأشجار المثمرة. وعند اجتياز سهل كاز أوفا، شهدوا كثيراً من مخيمات الكرد الذين جاؤوا لقضاء موسم الشتاء في هذه المنطقة، حيث كان المناخ بالقرب من توكات اكثر اعتدالاً مما عليه الحال في الجبال الشرقية. وقريباً من قرية بازار الصغيرة، وقبل بلوغ مدينة توكات نفسها اجتازوا رابيتين، إحداهما أصغر من الأخرى. وحكاية هاتين الرابيتين هي كالآتي:

عندما سار السلطان مراد لاخضاع مدينة بغداد، أمر جنوده أن يحثو كل واحد منهم حفنة من التراب في مكان معين حين مرورهم. وتكرر هذا في طريق عودتهم إلى الوطن، فكونوا بذلك رابية ثانية، وبهذه الطريقة أمكنه التحقق من عدد الجنود الذين فقدهم خلال حملته!

وتوكات، التي أقاموا فيها خلال رحلتهم السابقة إلى القسطنطينية، مدينة ذات مناظر خلابة تقع على سفح جبل، وشوارعها شديدة الانحدار. وجدوا لهم مأوى مريحاً في بيت أحد التجار الأرمن الذي حملوا إليه رسائل تعريف بهم. وريج، بعد أن تناهى إلى سمعه وجود بعض الأطلال في المنطقة المجاورة، قرر تمديد مدة بقائهم ليلة أخرى في هذا السكن المريح. وفي صباح اليوم التالي ارتقى، هو وبيلينو ومضيفهم، ضفاف نهر توكات. وبعد امتطاء الخيول والتحرك مسافة ستة أو ثمانية أميال، بلغوا ما كانوا يهدفون إليه من بحث. كان عبر النهر جسر مهدم من مرمر أبيض رديء، وقريباً من المكان شاهدوا بقايا مسجد غير بالغ القِدم، كما رأوا أنقاض مساكن منتشرة هنا وهناك، وفي أثناء التحري وجد بيلينو صخرة ذات نقوش بالإضافة إلى مذبح كنسي أعانهم على تمييز ذلك المكان بكونه مدينة «كومانا» المعروفة في العصور الرومانية. لقد أكد المسيحيون ان المنطقة كانت منفى القديس «كريسوستوم» الذي دفن في مقبرة أرمنية قريبة، ومن هناك نقل ليدفن ثانية في كنيسة تبعد حوالي أربعة أميال. سرَّ الرجلان كثيراً بذلك الاكتشاف، غير أن خيبة الأمل الوحيدة التي شعر بها كلوديوس في توكات هي أنه، على وفق الأحوال الجوية، لم تتح له الفرصة لممارسة هوايته لرسم المكان الذي يقول عنه أنه أزهى منظر شاهده في جميع المدن التي مرَّ بها. وكذلك توجه ريج ليرى ما إذا أقاموا شاهداً للقبر، يسير إلى ذلك المبشر – هنري مارتن– فوجده قد نقش بأفضل مما كان

يتوقع. ويذكر كلوديوس أنه، خلال تعلم اللغة اللاتينية الفصحى، كان قد أخطأ في اسم توكات، لأنه دعاها «بيريري» بدلاً من اسمها القديم «كومانا».

شعر ريج، وإن كان اليوم هو يوم عيد الميلاد المجيد، أنهم لا بد أن يواصلوا الرحلة على الرغم من مقامهم المريح جداً مع صديقهم الأرمني،وذلك لأن بوادر الشتاء القارس قد لاحت وعليهم أن يقطعوا طريقاً وعراً قبل أن يتركوا وراءهم جواً بارداً عاصفاً. وخلال ارتقائهم اعالي الجبال الممتدة جنوباً، أدركوا أن طريقهم كان الطريق نفسه الذي سلكوه في الرحلة السابقة. كان نثار الثلج يسّاقط على قمم الجبال، ومن بين جميع الجبال الأخرى برزت قمة يلديز داغ كخفير يقظ، ولكنه محمل بالثلج. لقد حلَّ الشتاء فعلاً.

وعلى هذه المرتفعات الموحشة في بلاد الأناضول كانت جميع القرى الصغيرة البائسة تقع تحت مستوى الأرض، حيث لم ترتفع سطوحها أحياناً أكثر من قدمين أو ثلاثة فوق الطريق لكي تصمد امام البرودة التي تبلغ درجة الانجماد. هذا، وقد حجب الرؤية عليهم ضباب كثيف شبيه بخيوط الدخان يتحرك دائرياً ثم يتبدد فيكشف عن جبل معتم تكسوه أشجار التنوب أو العرعر، أو يغلق وادياً شديد الانحدار بدت أغواره كأنها تغطس تحت طيلسان مخملي أزرق، داكن جداً.

وحينما اقتربوا من سيفاس، اختفت الغابات، واجتازوا النجد المرتفع الذي ترامت المدينة تحت سطحه. ساد المنطقة برد شديد ورياح مثلجة،

وعزَّ فيها الملجأ حتى من الأشجار – منطقة معزولة في الشتاء تماماً – موحشة وكئيبة. نعم، اقتربوا من سيفاس بروح لا إشراق فيها، ولم يشعر بالراحة لدى سماعهم أن الطاعون أخذ يتفشى بحدة هناك، وان كان يتناقص تدريجياً في أماكن أخرى. وعلى هذا، فقد فكروا أن من الحكمة البقاء خارج دائرة الخطر، حيث اتجهوا نحو الدير الأرمني الذي يبعد ميلاً عن بوابات المدينة. والدير الذي كرِّس للعذراء ماري، بناية ذات مظهر عادي جداً، يسودها الظلام في الداخل، قذرة، تنبعث منها روائح كريهة. في الدير ثمانية قسس، بضمنهم القس المشرف. وهذا المشرف، بعد حديث كلوديوس، أخبره أنه قد أُنعم عليه بلقب أسقف في إخميادزين، ولكنه كان مقيماً في سيفاس طوال حياته، كواحد من مواطنيها، وقال له إن ثمة ديرين آخرين تحت إشرافه في المنطقة المجاورة، غير أن هذا الدير بناه القديس تاديوس – أحد الحواريين– ويحتوي على قطعة من الصليب اعطاها قسطنطين إلى القديس الإشراقي– غريغوريومس. بدا الأسقف أكثر ثقافة ومعرفة من كثير من القسس الأرمن، وعلم منه أن قيصر إنكلترا، اللقب الذي أطلقه على جورج الثالث، لم يكن كاثوليكي المذهب من أتباع البابا، وحتى أنه سمع أيضاً بكل من «لوثر[١] وكالفن[٢]».

(١) لوثر: هو مارتن لوثر (١٤٨٣–١٥٤٦)، راهب الماني تزعمً حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا.

(٢) كالفن: هو جون كالفن (١٥٠٩–١٥٦٤)، لاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفني، نشر راية الإصلاح البروتستانتي في فرنسا ثم في سويسرا.

لم تكن صحة ماري حسنة، ولذا أمضوا يوماً إضافياً في سيفاس. وريج، في محاولة للاستمتاع، طلب إحضار مجموعة من الخيول لفحصها، فقد استبد به الشوق لاقتناء أحدها، لاسيما أن ذلك الجزء من العالم كان مشهوراً بتربيتها والاهتمام بمتابعة نسلها. ومع ذلك، فلم يرقَ أي من تلك الخيول إلى متطلباته تماماً، فضلاً عن ارتفاع أسعارها.

وبعد تماثل ماري إلى الشفاء، ابتدؤوا الرحلة، منهين اليومين التاليين في إنجاز مراحل سفر رخية. وحينما غادروا سيفاس والسهل الذي ترامت فيه، شرعوا في الصعود مجتازين نهر قزيل إرماق مرة أخرى، هذه المرة عبر جسر حجري مقوس، ثم تابعوا طريقهم المتعرج في قلب الجبال، حيث أصبح سطح الطريق زلقاً بفعل البَرَد الذي لم يذب في الظل والثلج نصف الذائب في الأماكن الأكثر تعرضاً للبرد والمطر. استقر الثلج على القمم التي علت على ماسواها، فسحق الأشجار في الأعالي. وغالباً ما تنحسر الهضاب تاركة الأشجار في عزلة على نجد تذروه الرياح وتغطيه الثلوج، وينغلق كالصندوق، مطوقاً بجبال بيض قاسية. تزايد الطريق انحداراً إلى جوار دليكلوتاش، وكثيراً ما كان الثلج يغور إلى عمق قدم واحد، لكنه صلب تحت أقدام السائرين عليه، ومع ذلك، فهو لم يكن موطئ قدم سهلاً بالنسبة للخيول البائسة التي تنتعل حدوات تركية رديئة. وبدت القرى المغمورة تحت غطاء أبيض كثيف كالقبور، فسطوحها لا ترتفع أكثر من قدمين عن الأرض، ويتعذر وصف غرف هذه البيوت حيث القذارة والنتانة فيها لا تطاقان. ولا يلج غير قليل من الهواء

إلى الجزء الداخلي الذي ضم كل أفراد العائلة وقطيع الماشية في تراص شديد أغلب موسم الشتاء. وعموماً، فإن الهواء والضوء كانا يتغلغلان إلى تلك البيوت عبر ثقب صغير في السقف يقوم مقام المدخنة أيضاً. إن كل بيت منها يعدٌ إسطبلا للأبقار وغرفة لجلوس العائلة مع بسطة من أرض مسيجة مرتفعة تتخذ مكاناً للنوم. وفي البيت، أو بالأحرى، الزريبة، التي اضطر المسافرون إلى النوم فيه، ثمة غرفة داخلية صغيرة اتخذها ريج وزوجته مأوى لهما، وإن شاركتهما فيها ثلاث بقرات، ولكن لفزعهم الكبير وجدوا ثقباً واسعاً في الجدار حدقت من خلاله عيون القرويين بفيض من المتعة لتشاهد ذلك المنظر المسلي الغريب لرجل فرنجي وتابعه التتري. وعلى أية حال، فقد أغلق ذلك الثقب، فهو، وإن كان وسيلة لمرور قليل من الهواء النقي، كان أيضاً منفذاً لدخول رياح باردة تجمد الأطراف.

وبعد مواصلة الصعود والهبوط، بدت لهم المنطقة كلها نجوداً مرتفعة، متصلة فيما بينها بممرات على ارتفاع شاهق. توقف تساقط الثلج، بيد أن السماء ظلت مكفهرة بلون رصاصي مميز، ثم واصلوا المسير، خلال وديان داكنة موحشة كأنها شقت بيد عملاق، أحياناً، وأحياناً على طول طريق حجري زلق إلى جانب صدع يهودي إلى الأسفل بسيل ثلجي يندفع من صخرة إلى أخرى. ومالاطيا، المدينة الثانية في الأهمية، امتدت خلف هذه السلسلة الجبلية، فابتهجوا كثيراً بهبوطهم إلى لمنطقة الأكثر دفئاً. ومع ذلك، فلم تتصف هذه المدينة بذلك السحر

الموجود في مدينة بابا باشا، ولم يعد صديقهم السابق موجوداً هناك. وبما أنهم كانوا متلهفين على الابتعاد إلى خلف جبل الأناضول، فقد أغذوا السير حثيثاً. وبعد اجتياز نهر الفرات، الذي بدا صغيراً في تلك المنطقة، اخترقوا سهل خربوط. وهنا كان عليهم مواجهة أكثر أجزاء رحلتهم صعوبة وخطورة. فعلى مسافة أربعين ميلاً تقريباً فوق طرق وممرات جبلية شاهقة، أصبحت الطرق شديدة الانحدار وزلقة بفعل الثلج، وغالباً ما تشق على جانب منحدر صخري مرتفع يفضي إلى سقوط حاد إلى الأسفل في غور هاوية مظلمة فاغرة الفم. ومع ذلك، كان لابد من مواجهة الأمر، فقد انطلقوا يرتقون الجبال طوال طريق متعرج يلتوي كالأفعى داخل وديان متوارية وخارجها، وعلى ممرات وسفوح جبال شديدة الانحدار، تجمد فيها كل شيء تحت غطاء ثلجي براق. إنه الطريق نفسه الذي سلكوه في رحلتهم السابقة. والآن، وبعد اجتياز بحيرة غولد شيك غول، بدأ الثلج يتساقط فيقرّح وجوههم بعدما ساقته الريح التي رافقتها عواصف تضربهم كالسياط. ازدادت العاصفة عنفاً وشدة، وبدأ عويلها بين الأشجار كأنه عواء ذئاب يدفعها الجوع إلى اقتناص فرائسها، فضلاً عما بعثه البرد من خدر في أطرافهم، وما بعثه من رقائق ثلج متجمد انتشر حتى على شارب كلوديوس.

توقفوا في أحد الخانات الصغيرة، الذي لا يعدو أن يكون كوخاً مزرياً، ومع ذلك، فقد كانوا ممتنين لعثورهم على ملجأ لهم ولخيولهم. أمضوا يومين في هذا التجويف البغيض الذي ينضح بالماء في كل جزء

من سقفه وتوقفت المداخن من أداء عملها، إما لسوء بنائها أو بتأثيرات العاصفة المدوية في الخارج، وكذلك امتلأت الغرف بالدخان اللاذع وروائح الطبخ الدهنية.

تحسن الجو بعد اليوم الثاني فشرعوا يرحلون مبكرين ما أمكنهم ذلك، معقبين الطريق نفسه الذي غشيه الثلج البراق ولم تطأه قدم، خلال واد ضيق شديد الانحدار أرهقه جريان نهر دجلة الذي يقع منبعه في أحد الجبال القريبة. وبعد عبور جسر صغير أقيم عليه، بدؤوا ارتقاء «ميرأب داغ» متسلقين ممراً ضيقاً متعرجاً، يتلوى الصعود في مواجهة فعلية للجبل حتى بلوغهم أعلى ذلك الممر. ثم توقفوا لإلقاء نظرة على ما كان يبدو حافة خليج رهيب مليء بالدوامات والأبخرة ذات اللون الرصاصي، التي بدت كأنها انبثقت من حمم أحد البراكين الثائرة. وفي طيات الضباب المتراكم في الأسفل كاد زئير تدفق مياه دجلة أن يخمد أصواتهم في أثناء التواءاتها الهادرة خلال الصخور، مكونة شلالات صاخبة صغيرة، وهي تشرع مرة أخرى في رحلتها العنيفة نحو صحارى العراق.

وبما أن الهبوط من تلك المرتفعات، وهم يمتطون خيولهم، محفوف بالمخاطر خلال تلك الرحلة، فقد ترجلوا وأخذوا يزحفون على إفريز جبلي لا يتعدى الثماني عشرة بوصة عرضاً مما جعل ريج يشعر بدوار شديد في مثل ذلك الارتفاع الشاهق. وفي خلال ساعة من الجهد المتواصل بلغوا مدينة أرغانا المعادن، التي سبق أن استقروا فيها لمعاينة

مناجم النحاس. أما الآن، فقد توقفوا فيها لاحتساء كوب من القهوة فقط. وصلوا إليها خائري القوى، وإن لم يعد للثلج وجود على أية حال. وفي اليوم التالي استيقظوا مبكرين لكي يصلوا إلى ديار بكر قبل حلول الليل، لأن أبواب تلك المدينة كانت ستوصد بوجه جميع المسافرين حينذاك، ولأن ذئاب البشر - الغزاة - الذين يجوبون الجبال والسهول لن يكونوا مضيافين يرحبون بمقدمنا. كانت السهول، ابتداءً من جبال الأناضول حتى الخليج العربي، ومن سوريا إلى بلاد فارس، شبيهة بمحيط عاصف، فهي، حتى في حالة هدوئها، تواجه مشهداً متواصلاً يعج بالسلب والنهب، فالأكراد واليزيديون وبعض الأعراب جميعاً أخذوا نصيبهم من ذلك العنف. إن أية زمرة من الفرسان الذين يمكن مشاهدتهم على مبعدة من الطريق تدفع المرء للتفكير غريزياً في أنها ربما كانت عصابة من قطاع الطريق، إلى جانب أن من المتعذر رؤية مسافر يسير بمفرده عدا السعاة أو مرشدي السياح التتر، الذين كانوا يتمتعون بحصافة خاصة.

وبعد اجتياز مخيمات بعض الأكراد، استخدم ريج ستة من قطاع الطرق، الذين يوحي منظرهم بشتى الصور، حراساً لقافلته. ولدى وصولهم قبل غروب الشمس إلى ديار بكر، استقبلهم بالقرب من بواباتها صديقهم القديم، موسبيور أوغسطينو، الذي أسعده لقاؤهم ثانية واصطحبهم إلى بيته فوراً.

الفصل الخامس عشر

من القسطنطينية إلى بغداد (١٨١٦م)- تابع

أمضوا أسبوعاً في ضيافة مضيفهم الكريم، وقضوا اليوم الثامن عشر من كانون الثاني-عيد الغطاس والتعميد (الذي شاهدوا فيه أسلوباً قديماً للاحتفال بمناسبته). وحضروا قداساً إرضاءً للموسنيور، الذي طغى عليه سرور بالغ لوجود ريج عنده ضيفاً للمرة الثانية، لدرجة ألحَّ عليهم كثيراً للبقاء عنده مدة أطول قليلاً، لكن الوقت ضايقهم فشعروا بوجوب العودة سريعاً. وعندما غادروا في اليوم العشرين، بكى الموسنيور لدى معانقته كلوديوس متأثراً بفكرة أنهما لن يتقابلا ثانية أبدا.

وعقب يومين من رحيلهم اكتشفوا أنهم قد بلغوا مدينة ماردين بعد أن جاسوا خلال مناطق موحشة ومعزولة إلى حد ما، أُفترض وجود قطاع الطرق العابثين فيها. ولكنهم، لحسن الحظ، لم يعرَّضوا لاي من تلك التحديات، فقد وصلوا سالمين ليمكثوا مع صديق قديم آخر - رئيس الأساقفة الأرمني المرح في ماردين- الموسنيور جيواشينو تاسباس.

كانت ماردين ضمن باشوية بغداد تحديداً، وفي ذلك الوقت ظل ريج ينتظر سماع ما ستقرره حكومة الهند بصدد قضاياه المعلقة. ونحن على علم بانه قد كتب موضحاً مجريات الأمور، ونعلم كذلك

أن ماري، استثمرت لصالح زوجها تعاطف السيد غرانت-احد مدراء الشركة العامّين، ومع ذلك، فهو، لحد الآن، لم يسمع شيئاً عما إذا كان سيعود إلى مركزه السابق، علماً أن الاتصالات لا تزال جارية بين ريج وبومبي. أصبح المناخ بارداً، سادت فيه العواصف وتساقط الثلج عرضاً، وعلى هذا، فقد مكثوا هناك بضعة أسابيع مع صديقهم - الكاهن المرح- الذي سعى بكل طاقته لإدخال السرور على نفوسهم.

مرَّ الأسبوع الأول من إقامتهم في زيارات مجاملات لا نهاية لها قام بها الموظفون المحليون والشخصيات المسيحية المرموقة. جاء حاكم المدينة عدة مرات، ولم تخل تلك الزيارات على الدوام تقريباً من بعض التذمر والشكوى من الجشع الذي اتصفت به حكومة بغداد، التي حصل منها على عمله الوظيفي. لقد نال تواً وظيفته من حكومة بغداد، التي لا يزال حاكمها الأخير مقيماً في قلعتها، حيث رفض التخلي عنها ثم جاء السعاة من بغداد على جناح السرعة بأوامر مفادها أنّ محمد سعيد آغا، الرجل المخلوع، يجب عليه مغادرة ماردين والتوجه إلى العاصمة. وهو، مع ذلك، لم يكن مرتاحاً لهذا الأمر. قرر التوجه لاستخدام نوع من أنواع الكهانة ليرى ما إذا كانت تلك العراقة سوف تنبئة بما يخفيه المستقبل بالضبط أخذ إلية خروف فغرز فيها كلها إبراً صغيرة، وراح يردد رقية خاصة ثم أدارها إلى الجهات الأربع. وحينما انتهى من ذلك سحب الابر، الواحدة بعد الاخرى، فوجد دماً قليلاً غلى إحدى الجهات، مما جعله يعلن أنه لن يستسلم حتى وإن

كان قد رأى الدم والموت.

وثمة حادثة نموذجية أخرى رواها ذلك الحاكم وهي: كان هناك ثلاثة أخوة أودعوا السجن بأمر من الحاكم بسبب ما اقترفوه من إساءة خطيرة. هذا وقد اتفقوا على دفع غرامة بدلاً من ايداعهم السجن بضمانة من أبيهم. وفي أثناء وصول الأب المسن إلى المدينة ومغادرة الأبناء لها مطلقي السراح كتبوا إلى الحاكم: «أبونا رجل مسن لابد انه سيلفظ انفاسة الأخيرة بصورة طبيعية، افعل ما يطيب لك به، أما نحن، فلن ندفع الغرامة.»

وهكذا، فلن ندفع الغرامة.»

وهكذا، فقد شنق الأب!

وزائر آخر مختلف هو بطريرك اليعاقبة الذي كان يقيم على مسافة نحو ثلاثة أميال من ماردين. كان رجلاً دمث الاخلاق، جليل القدر، يهمه كثيراً ان يخبر كلوديوس عن أية شؤون تخص طائفته. انتشرت أعداد كبيرة من رعايا الكنيسة اليعقوبية بين جبال كردستان الجرداء، وإن أحد الأساقفة المدعو «ماتران عبدل» الذي كانت أبرشيته في مقاطعة بيناميل، لا يمكن تمييزه، بأي حال من الأحوال، عن أي سارق كردي. كان رامياً حاذقاً، يحمل على الدوام بندقيته حتى عند إقامته قداساً كنسياً، وقد عرف انه كان يعيق إجراءات المحكمة الكهنوتية ليتخذ موقفاً مؤثراً في شجار يحدث لدى باب الكنيسة. كان بطريرك ماردين رجلاً مثقفاً استبد به سرور طاغ لمقابلة شخص معني مثله

بالمخطوطات القـديمة التي احـتـفظ بهـا شـخـصـيـاً في ديره. وتلك المخطوطات المدونة بأبجـدية سـريانيـة قـديمة ابتـدأت إحـداها من (١٠٤٣م).

امتلأت يوميات ريج خلال الأسابيع الستة التي أمضوها في هذا المكان بمعلومات تتعلق بالتجارة وأصحاب المصانع وبالمحاصيل الزراعية الرئيسة، فضلاً عن تفصيلات تخص الحكومة والمستحقات الضريبية والمليشيا، تلك القوات التي تستدعى عند الطوارئ، وأغلب الأمور التي ربما أثارت اهتمامه في استيعاب ما يتطلبه العمل في مقيميته قي بغداد، وعلاقته بالموسنيورجيواشينو الذي جعله «وكيلاً» في ماردين لصالح بريطانيا. غير أن شيئاً محزناً حدث قبل رحيلهم مباشرة، فقد أطلق كرديان، بدا واضحاً أنهما كانا يحاولان السرقة، وذلك أنهما كانا يكمنان قريباً من دار الأسقف، النار على ليون، الكلب الضخم الذي اعطى دون ريب إنذاراً بوجودهما. هرب اللصان فوراً، لكن إصابة الكلب كانت بليغة. أما ريج، فقد استبد به غضب شديد على هذه الحادثة، وأرسل في التو المعلومات المتعلقة بها إلى الحاكم الذي تعهد بالانتقام منهما.

كانت إحدى القوافل في طريقها إلى بغداد، ونظراً إلى وجود صحراء محفوفة بالخطر الشديد، كان لابد من اجتياز تلك الصحراء التي تفصل بين القافلتين والموصل، وهنا راودت ذهن ريج فكرة هي انه سوف يستغل ذلك الوضع. فهو، بعد أن سمح للقافلة الأخرى

بالتحرك قبله بيومين أو ثلاثة، اقترح اللحاق بها على حافة الصحراء، هو والمجموعة المرافقة له التي زيدت بوجود كل من الموسنيور جيوا شينو وأخيه اللذين كانا في طريقهما إلى بغداد، غادروا ماردين في الحادي عشر من آذار، ناهيك عن الصعوبة التي اقتضاها نقل الكلب ليون في سلة خاصة. أصبح ريج متلهفاً على معاينة اطلال دارا، القرية التي تمتد قليلاً إلى غرب الطريق الرئيس. وهكذا، فقد أمضوا يوماً كاملاً في الاطلاع على أنقاض البنايات المثيرة للاهتمام جداً، تلك البنايات التي أُصلح بعض شأنها، فهي لا تزال تحتفظ بالسقوف والأبواب والجدران العمودية نوعاً ما. وكذلك انتصبت الحصون التي قاومت تطاول الزمن ومرَّ العصور، وأمكن مشاهدة المعاقل والأبراج حول المدينة. استطاع ريج تخمين مزاج بنّائي المدينة الاصليين، وعرف مؤخراً أن الرومان احتلوها وحصنوها باكونها إحدى المدن الحدودية لإمبراطوريتهم الشائعة. دوَّن ريج هذه الملاحظات مسترشداً بآراء عدة مؤلفين، كان جيبون واحداً من بين آخرين منهم. لقد عرف القليل عنها قبل حكم جوستنيان[1]، فتلاشت فحمل ذكرها بعد احتلال الفرس لها بقيادة خسرو عام (٥٤٠م)، وهي الآن منطقة معزولة ذات قرى أربع تلوح في الجوار. وحالما ظهرت القافلة، ظهر على أثرها حشد من الفلاحين لاستقبالهم، يتدافعون بالمناكب ويثرثرون ويسدون

---

(١) هو جوستنيان الاول (٤٨٣-٥٦٥م)، الإمبراطور البيزنطي (من٥٢٧-٥٦٥م). الذي جمع الشرائع الرومانية ودونها.

عليهم منافذ الطريق. ولذا، تعذر عليهم رسم مخطط للمكان أو معاينة الموقع جيداً، أو حتى إلقاء نظرة عامه عليه. لقد ترك ريج وراءه وصفاً مطولاً لتلك الاطلال كما رآها، معقباً الأسوار حتى أسفل النهر الذي اخترق المدينة. ودخل أيضاً مبنى على عمق كبير اسفل مستوى الأرض في الخارج، خمن أنه لا بد أن يكون قبواً لدفن الموتى نتيجة لما اكتشفوه هناك من عظام بشرية. رأى فوق مدخل المبنى هيكلاً ذا جناحين، يهبط لالتقاط شيء بكلتا يديه، وقريباً منهما كومة من جماجم وعظام بشرية، وفوق رأسه طيور تهبط، هي الأخرى. ليس ثمة نقوش يمكن رؤيتها، ويصعب القول ما إذا كان ذلك منظراً رومانياً مقدساً أو قطعة نحت لعصور مسيحية متأخرة جداً. كما لم يكن أحد يعرف محلياً أيَّ شيء عن ذلك المكان، والمباني الباقية لم تستخدم إلا لإيواء الماشية والعناية بها فقط. أما جدران المنازل المنهارة فهي لا تصلح إلا مقالع يمكن الحصول بوساطتها على الأحجار بيسر لتشييد بيوت جديدة. أطلق عليها الأتراك «كارادارا»، لماذا؟ يصعب تخيل ذلك، لأن الوادي بأجمعه كان ذا طبيعة جيرية، فهو أبيض صرفاً، و«كارا» تعني أسود!

بعد معاينة المدينة المهدمة، واصل المسافرون رحلتهم إلى نصيبين التي تقع على مسافة عشرين ميلاً. كانت قرية بائسة قذرة بعد أن كانت مرة مدينة ذات أهمية بارزة، ويمكن مشاهدة بقايا من الجبال الترابية المحيطة بها. لقد أشير إلى أنها كانت مقبرة ضمت رفات

القديس جيمز-قديس مدينة نصيبين، ولكن كل ما بقي من معالم لا يتعدى ضريحه، في حين نقل جميع ما تراكم من تراثه إلى القسطنطينية منذ أمد بعيد.

توقفت العائلة في هذه القرية لقضاء الليل حينما كانت في طريقها إلى أوربا سابقاً، وإن ساعة من الوقت للتوقف هناك كان كل ما سمحوا لانفسهم به الآن، مستأنفين رحلتهم إلى قرية عربية رحب بمقدمهم فيها شيخ تلك القرية شخصياً. وبكرم ضيافة عربية حقيقية وأسلوب عربي فطري يليق بالشيخ، نحر لهم عدداً من أسمن خرافه، ووضع أحد البيوت تحت تصرفهم ثم تركهم لشأنهم تماماً، خوفاً من أن يكون أو يبدو أن يكون متطفلاً أو مصدر إزعاج لهم.

ولدى مغادرتهم تلك القرية، أهدى كلوديوس للشيخ حقيبة تبغ مطرزة أبهجت الرجل كثيراً، فأرسل حرساً خاصاً تحت سيطرة ابنه لإرشادهم إلى القافلة الثانية التي ركنت للاستراحة، والتي قرروا اللحاق بها قبل الانطلاق برحلة المائة ميل عبر الصحراء القاسية. مشهد كان لا بد سيدخل البهجة على نفس كل فنان. كلوديوس، كما يستطيع المرء أن يخمن، قد استمتع به للغاية. فالحشد الكبير لأفراد قبيلة طي الرائعة بدت صعبة المراس، برجالها الذين تهادوا بسيرهم وعليهم العباءات البيض الطويلة، أو اهتموا بشؤون أفراسهم، يضاف إلى ما قام به سائقو البغال الأتراك والحمالون من إطلاق الشتائم أو الثرثرة مع الفلاحين الكرد الذين جاؤوا من القرى المجاورة لبيع ما لديهم

من فواكه ومؤن أخرى مع ترقبهم الدائم للسرقات الكبيرة أو الصغيرة، وإن كانت عيونهم تتطلع بمكر وحذاقة إلى عملهم العادي المشروع.

اعتاد التجار والمسافرون الجلوس بمجموعات صغيرة يدخنون ويتناقشون، وربما يعقدون الصفقات التجارية و يستقون المعلومات عن أية مدينة كانوا مسافرين إليها. كما يتاح للمرء رؤية كل الألون في مثل هذا الخليط من الأعراق، ابتداءً من زرقة الصايات أو العباءات التي ترتديها النساء العربيات مروراً بسلسلة كاملة من ألوان علب الأصباغ المستخدمة في الرسم – الأحمر والأصفر والقرمزي والخمري والأسود – إلى خضرة عمائم الحجاج الذين أدوا مناسك الحج المقدسة في مكة. والعين ليست العضو الوحيد، التي تحسست بادراك هذا الخليط غير المتجانس، فالأذن، هي الأخرى، كادت أن تصاب بالصمم برغاء الجمال الغريب، بالاضافة إلى صهيل الخيل ونهيق الحمير التي لا حصر لها، وبالصراخ والسباب واللعنات والشجار الذي لا ينقطع.

أحضرت الخيام لقافلة ريج، فحققوا بذلك شيئاً من العزلة. ثم إن أفراد قبيلة طي، الذين شكلوا الحرس لهم والحماية لقافلتهم، كانوا الأصدقاء أنفسَهم الذين رعوا شؤونهم في الرحلة السابقة.

وكذلك الباشا، الذي سمع بنبأ وصول قافلة ريج، أرسل أحد الضباط لمرافقتهم حتى وصولهم لعاصمة ولايته. مضت ثلاثة أيام على القافلة، لدرجة أصبحت تلك الأيام مملة إلى حد ما، لان ما أنجز من السفر أقل مما كان متوقعاً من طاقة الخيول، ومع ذلك فقد تحقق الأمان

لهم. بعد اليوم الأول استطاعوا إحضار عدة مئات من الفرسان العرب لتوفير المزيد من الحماية لهم، وكل أولئك الفرسان كان من قبيلة طي العربية.

ولتزجية الوقت في هذه الرحلة الرتيبة اعتاد هؤلاء البدو غريبو الأطوار تسلية حشود الناس بما يقومون به من تحديات ومنازلات ساخرة أمامهم. فهناك العربي، على سبيل المثال، وهو يعدو بفرسه نحو الشخص الذي أراد تحديه، راح يهز رمحه حتى بدا النصل مرتعشاً، ثم مال بحصانه عنه ليجري بسرعة فائقة يتبعه فارس آخر حاول اللحاق به مسدداً نحوه رأس رمحه ، مشهد غريب حقاً، لاسيما حينما يقوم بذلك عدد من الرجال بملابسهم المتطايرة خلفهم على خيول جميلة سريعة. وعلى مسافة تناهز الستين ميلاً عبر الصحراء وصلت القافلة إلى مضارب قبيلة طي حيث جاء الشيخ وأولاده لتجديد ترحيبهم بالرحالة كلوديوس الذي سبق أن قابلوه حينما اجتاز ذلك السهل المجدب. كانوا يشكلون قبيلة جبارة، مزهوين بانحدارهم من حاتم الطائي، الذي يعلنون أنه من سلالة النبي إسماعيل مباشرة، وأنهم قد جاؤوا أصلاً من اليمن قبل مئات السنين. هذا، في الأقل، ما كانوا قد أفصحوا عنه إلى ريج.

وبعد مغادرة القافلة المرافقة لهم ومغادرة قبيلة طي صباح اليوم التالي، تحت رعاية وتوجيه آمر خيالة باشا الموصل، الذي أخذ على عاتقه مع ثلة من حرس الباشا نفسه، مسؤولية الحفاظ على سلامة

قافلتهم في أثناء وجودهم ضمن حدود تلك الباشوية، واصلوا رحلتهم نحو الموصل التي بلغوها في اليوم الثاني. لكن ريج اكتشف أن باشا الموصل لم يقم بمراسيم علنية بمناسبة قدومه، إذ تمت الموافقة على هذا الاجراء على مضض، ثم إنهم أقاموا في مضيفة الدومينكان للغرباء التي كانت مأهولة حينذاك، والتي قام بإصلاحها وتنظيمها أحد ضباط الباشا، وهو مسيحي كلداني يدعى داغدو.

وانتظاراً لسماع الأخبار من بومبي، مكثت العائلة في هذه المدينة قرابة الشهر، يمزقها القلق والترقب، ومع ذلك لم يمكنها حسم الأمور. وفي نهاية آذار وصل السيد هاين بأخبار سارة مفادها أن الأمور في دار المقيم تسير سيراً حسناً، وقد ناقشوا على مدى ساعات طويلة الجوانب المعقدة التي تتعلق بشؤون ريج مع حكومة بومبي.

لم يُذكَر شيء ذو أهمية خاصة في اليوميات. وريج، كما هي العادة، كان نشيطاً في جمع المعلومات والمعطيات التي أمكنه الاطلاع عليها فيما يخص شؤون باشوية الموصل، والتي لابد أنها ستكون ذات فائدة كبيرة له في مركزه الوظيفي، وبدأ يهتم باستقاء وتدوين كل ما له علاقة بالمواقع حول المدينة، فضلاً عن تثبيت خط عرضها الذي كان يفتقر حينذاك إلى الدقة على الخرائط الموجودة التي كانت، هي الأخرى، ناقصة في ذلك الوقت.

وبالطبع فقد توالت زيارات المجاملة التي يقتضيها الوضع، وعلى هذا، مضت ساعات كثيرة في استقبال أو زيارة الشخصيات البارزة،

ابتداءً من الباشا إلى أقل الضباط رتبة. تحدث معه الباشا عن بعض شيوخ سنجار، الذين صادف وجود أربعة منهم في الموصل حينذاك، ارسلهم الباشا لزيارة ريج. كانوا من الطائفة اليزيدية، ونظراً إلى حضور المسلمين فهم لن يتحدثوا عن عقيدتهم .إانهم رجال أشداء، متينو البنيان، يرتدون الملابس الخاصة بالكرد - صدرات بيضاً وعباءات، ويعتمرون الطرابيش الحمر ويكسو أجسادهم الصايات الفضفاضة من نفس اللون، ويمتنعون تماماً عن حلاقة لحاهم أو قص شعورهم، وينم مظهرهم عن وحشية كبيرة. وإن لم يسبق لهم رؤية الباليوز بك (لقب ريج باللغة التركية)، فقد بدا أنهم على اطلاع تام بتحركاته وتحركات أتباعه التتريين، الذين تنقلوا لخدمته من بغداد والقسطنطينية، كما أن لهم عيوناً خاصة في أغلب المناطق المجاروة. أطلقوا على المسيحيين كلمة «الناصريين»، وليس كلمة كفار التي يطلقها عليهم الأتراك. كانوا يسكنون في معاقل جبلية معزولة، ولا يدينون بالولاء إلا لزعمائهم فقط، وسعادتهم كانت في سلب القوافل التي تنقصها الحراسة الجيدة، فضلاً عن المسافرين المتفردين. لقد عقدت في التو معاهدة موثقة بينهم والباشا، واليمين الخاص بعقدها الذي التزموا به تمَّ بطريقة غريبة، فقد غرز في الأرض خنجر رمي فوقه منديل أبيض، وبعد وضع أيديهم اليمنى عليه، أقسموا اليمين للحفاظ على تلك المعاهدة والالتزام ببنودها.

وردت إليهم أخبار مُرضية من بومبي تقضي بعودة ريج إلى بغداد

مقيماً فيها فحُدِّد اليوم الثالث والعشرون من شهر نيسان موعداً لرحيلهم. وفي هذه الرحلة، كما في رحلة لاحقة، يورد ريج تفصيلات كثيرة عن نهر دجلة الذي يجتازونه بالطوف في كل مرة. هذا، وقد استقيت أكثر أجزاء يومياته متعة واثارة للاهتمام لأسردها على شكل قصة نظراً إلى أنّ تكرار التفاصيل الإضافية ستبعث الملل لدى قراءتها ثانية.

وهنا لا بد لي أن أوضح لك طبيعة الطوف أو (الكلك) مباشرة. فهذا الرمث وسيلة نقل نهرية يبلغ طوله ضعفي عرضه، ويتكون من جلود الماعز المنفوخة التي تربط فيما بينها بوساطة القصب. وعبر هذه القرب المنفوخة قطع من الخشب توضع فوقها قطع أخرى لتكوِّن نوعاً من السطح. ان وسائل الربط الوحيدة غصينات الأشجار الفتية والقصب، كما أن تلك القرب يجرى الفحص عليها وتنفخ كل مساء، ويقوم على توجيه الطوف مجذافان طويلان لكل واحد منها جزء مسطح من الخيزران المشقق في نهايته.

يتخذ المسافرون مقاعدهم على أمتعتهم أو صرر بضائعهم، ولكن في حالة ما إذا كان أولئك المسافرون موسرين وينشدون راحة اوفر، فانهم يستحضرون سريراً خشبياً مغطى بظلة من اللباد يوضع في وسط الرمث، وربما استغرقت الرحلة بين ستة أيام إلى عشرة وفقاً لسرعة التيار. لقد هيأ الباشا رمثين لفريق ريج، احدهما بظلّتين وآخر أوسع منه لنقل المعينين والأمتعة الثقيلة. ويشار هنا إلى انه لا بد من إظهار

شيء من المهارة الخاصة التي تتطلبها الحاجة لتسيير دفة هذا الرمث، نظراً إلى وجود منحدرات نهرية ضحلة على مسافة عشرة أميال أسفل مدينة الموصل، وأخرى قرية السلامية على مسافة عشرين ميلاً، في حين يقع أسفل هذه القرية الاخيرة سد «ذكر الوزة»، وهو سد شيد عبر النهر الذي، عند امتلائه، كما هي الحال في فصل الربيع، تشتد دواماته وفورته حيث يسمع الهدير على مسافة ربع ميل تقريباً، مما تضطر فيه الأرماث والحال إلى أن تقاد خلال الممر الخاص القريب من ضفة النهر الشرقية. والتتري الذي أرعبه الصخب، اندفع يضرب النوتية والمعينين كمتنفس عما تجيش به نفسه من فزع، مما اضطر ريج إلى إيقافه عن التمادي في ذلك بالقوة.

وعلى مسافة ميلين أو ثلاثة، تبرز على ضفة النهر الشرقية اطلال مدينة النمرود ، التي كان ريج متلهفاً على معاينتها. وبتوجيه الرمثين حول المنعطف الواسع الذي كوّنه تيار النهر الشديد، رست الأرماث، ودون خيل يمتطونها انطلق المسافرون راجلين.

لقد أكد الأهالي أن هذه هي مدينة نمرود بالذات، وكانوا يدعونها في بعض الاحيان «آشور» التي أخذت المنطقة اسمها منها. بدت الأطلال كأنها إلى حد ما منبسط من الأرض في إحدى نهاياته هرم

(١) قد شيد شلمنصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) عاصمة عسكرية لملكته سماها كالحو (اوكالحو)، وهي كالح المذكورة في التوراة وتعرف بقايا اليوم باسم نمرود على بعد نحو (٢٢ ميلاً) جنوب الموصل. وقد أعاد بناءها ووسعها آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م). «طه باقر المقدمة ص٤٨٨».

يبلغ ارتفاعه مائة واربعين قدماً، لم يكن المنبسط مربع الشكل، بل مستطيلاً، كونه يبلغ الضفتين في الطول تقريباً من الشمال إلى الجنوب. وقد سرَّ كلوديوس في عثوره على بعض الآجر الذي يشبه ما حصل عليه في نينوى، وهو أسمك من الآجر في بابل، مع وجود نقوش مسمارية عليه.

وعلى الرغم من خضوع المنطقة المجاورة إلى عمليات الزرع والرعاية، فإن تلألُؤ آثار محتملة يمكن مشاهدتها في كل مكان، وعلى طول مسطحات نهر دجلة تكثر العيون الكبريتية بوفرة. وثمة على مسافة ثلاثين ميلاً أسفل مدينة الموصل، تقع قرية حمام العليل على ضفة النهر اليمنى حيث أقيمت حمامات الاستشفاء فيها. وهذه الحمامات كثيراً ما يؤمها في فصل الصيف أهالي الموصل لإقامة ما يشبه سوقاً موسمية للمزارعين.

وعلى مدى أبعد نحو الجنوب ثمة أثر يدعى «طوبراق قلعة»، ويسمى أيضاً «مجيليبة»، اجتازه المسافرون، لكن النهر في هذه النقطة امتلأ بالدوامات والتيارات المائية الشديدة لدرجة رفض عندها النوتية الرسو، لأن من المتعذر في هذا المكان من دجلة التحكم بقيادة الأرماث. وبعد إلقاء نظرة على هذا التل بوساطة الناظور، ظهرت لهم سفوحه الشديدة الانحدار وقمته المنبسطة التي ترتفع ثلاثين قدماً تقريباً، وقد امتد ذلك المرتفع بمحاذاة النهر إلى نحو ميلين، وتراءى لهم طريق يخترق الصحراء باتجاه جبال حمرين الغربية، حيث يمكن تمييز

الكهوف القريبة من القمم، التي فكر ريج في انها ربما كانت أماكن لترك الأموات في العراء. وقال السكان المحليون ان الاطلال هناك كانت موجودة قبل العصر الإسلامي، وفي مثل هذه البقعة النائية عن الطريق العام، يكون الزمن وحده كفيلاً بتخريب ما يمكن تخريبه، وإن بدت الأسوار سليمة إلى حد ما. اتسم النهر على بعض مدياته بخطر كبير، حيث اخترق على مسافة ثلاثين ميلاً من هناك جبال حمرين التي انتهى امتدادها على ضفته الغربية، وشق طريقه إلى الجنوب الشرقي من المنطقة فطغت على سطحه الدوامات والمنحدرات المتدفقة السريعة، فضلاً عن أن أجرافه الصخرية الواقعة على ضفته الشرقية ليست آمنة. كما شوهدت على جوانبه مضارب العرب، أو مشاهدة أولئك العرب حتى في النهر أحياناً حيث يجتازونه على قرب منفوخة، النساء والفتيات على حد سواء، دون ملابس، لأن ملابسهم جمعت على شكل صرر حملنها على رؤوسهن. وكثيراً ما يشاهد الرجال يسبحون نحو الرمث طلباً للتبغ الذي اشترى منه ريج كمية لا بأس بها من الموصل، وهو من النوع الحاد الذي يلبي أذواقهم. كان أولئك البدو الرحّل يعبرون الأنهار بهذا الأسلوب إذا كانوا يبحثون من مخيم جديد لهم، فهم، على أية حال، كانوا يعبرون النهر إلى جانب جمالهم المواجهة للتيار، لأن هذه الحيوانات إذا فقدت توازنها واتجهت نحو أجسادهم فإنهم سوف يغرقون لا محالة.

اجتازوا رافدي دجلة – الزاب الأعلى والزاب الأسفل– اللذين

يستغلان كثيراً لنقل البضائع التجارية على الأرماث. وثمة أسفل الزاب الأسفل أكثر المنحدرات المائية رعباً في نهر دجلة، القريبة من قبيلة بني كلاب حيث تحطمت فيها أرماث كثيرة. وعلى امتداد الضفاف، وعلى مد البصر، هناك تلال وما يبدو أنها أطلال وجدت في فترات زمنية مختلفة. ان كل ما كان يحتويه هذا السهل الصحراوي، الذي كان مرةً ارضاً آهلة بالسكان، ليس صعباً تصوره.

أما الآن فإن هذه الآكام من التراب لا يستخدمها العربي إلا ملاذات لحيواناته، أو ملاجئ له خلال فصول معينة من السنة يخصصها لزراعة بعض المحاصيل التي تمس الحاجة اليها.

وفي تكريت، المدينة الوحيدة التي تحظى بأهمية تذكر، والتي تقع في منتصف الطريق بين الموصل وبغداد تقريباً، حطُّوا رحالهم. في هذه المنطقة استطاع ريج الحصول على معلومات تخص مدينة الحضر الاثرية التي كان متلهفاً على مشاهدتها. كانت الحضر أطلالاً صحراوية، أو كما يؤكد الناس مدينة حصينة دمرها الله ومسخ سكانها أحجاراً، وهي على مسيرة يومين في عمق الصحراء من مدينة تكريت، أو أربعة أيام من الموصل. والرجل الذي اخبر كلوديوس بأغلب معلوماته، قال إنه سبق أن كان هناك، ووصفها بأنها قلعة انتصب فيها تمثال الحاكم الذي جلست قبالته فتاة. وفي غرفة أخرى ثمة سبعة تماثيل إضافية، أحدها لرجل يحلب بقرة كان ريج قد قرأ شيئاً عنه في رحلات نيبور، يذكر انه سمع شيئاً عن ذلك الأثر.

وتكريت نفسها ليس فيها الشيء الكثير الذي تمنحه للمشاهد عدا بقايا قلعتها والأطلال القائمة على جرف النهر العالي الذي يشرف على المدينة، وبقايا بضع كنائس. وبما أن سكانها قد تحولوا إلى الإسلام، فقد آلت الكنائس فيها إلى خرائب نخرة. وإلى مسافة نحو خمسة عشر ميلاً أسفل النهر، شاهدوا أطلال قرية «إمام دور»، وهو موضع يؤمه الناس للزيارة، يتميز ببناء ذي برج بقمة مستدقة. وقرب القرية تل قديم كبير[١]، ظن ريج أنه ربما كان المكان الذي أقام فيه نبوخذ نصر التمثال الذهبي في سهل ديورا في إقليم بابل.

وسامراء التي تقع على مسافة عشرين ميلاً من هناك، كانت محطة استراحة أخرى. وبمواصلة الرحلة في ذلك الطريق، اجتازوا أطلال أسكي بغداد التي تمتد على مسافة كبيرة نوعاً ما بمحاذاة النهر. تعود هذه المدينة إلى عصر الخلفاء الأول، وفيها القليل مما يرى، عدا كثير من تلال النفايات التي تميز هذه المنطقة.

كانت سامراء تتمتع ببعض الأهمية، ويكن الفرس احتراماً كثيراً لها، لأنها موضع مرقدين لإمامين لهم - الإمام علي النقي والحسن العسكري، ومقام لمن هو أعظم الجميع-الامام المهدي، سيد العصر، الذي اختفى في هذه المدينة. ولا يزال، كما يفترض، يعيش في بئر وسوف يظهر ثانية في آخر الزمان[٢]. لقد شيد في الآونة الأخيرة صحن

(١) ربما يقصد به تل البنات الذي يشبه تل العليج في سامراء، ويقع شرق الدور.

(٢) يعتقد الشيعة، كما يذكر الحسني في كتابه (العراق قديماً وحديثاً)، هامش ص ١١٠، ان الإمام اختفى في سرداب وسوف يظهر في مكة.

جديد على حساب رجل فارسي، بالإضافه إلى مكان ملحق مخصص للاغتسال فضلاً عن خان لإيواء الزائرين. وحينما كانت المجموعة تتجول حول المكان، تقدم السادن نحوهم ودعاهم لإلقاء نظرة على الصحن والسرداب الذي اختفى فيه الإمام المهدي، أو اغتيل. لم يصر ريج وأعضاء الرحلة المسيحيون على النزول في السرداب، إذ ربما كان ذلك لا يروق للزائرين الفرس، فقد اكتفى بالنظر خلال حاجز مشبك حيث أمكن رؤية أحد الدراويش يتحرك جيئة وذهاباً وهو يردد الدعاء. وهناك، أيضاً، بئر في قعرها، كما قيل، يشاهد بدر موجود على الدوام. وبالطبع، فقد كان ذلك نتيجة لخدعة ضوئية، عمق البئر والفتحة الصغيرة التي يدخل النور من خلالها.

وتشاهد حول مدينة سامراء أطلال وآثار بنايات في جميع الاتجاهات، أكثرها غرابة وإثارة للفضول برج صمم على شكل «نازعة السدادات الفلينية» -بناء حلزوني يقسمه ذلك البرج إلى ست مراحل - قيل إنها منارة (ملوية)، وقيل إنها برج للمراقبة.

قام ريج بمعاينة مزيد من الآثار أسفل حوض النهر، فظن أنها بقايا ما كان موجوداً في القادسية، وذلك من خلال الطراز الساساني للبنايات وآجرها. شهدت هذه المدينة نهاية حقبة الإمبراطورية الفارسية في القرن السابع عندما حدثت هنا معركة ضد العرب، الذين انتصروا فيها على الفرس.

وبعد هذا لم يكن ثمة ما يثير اهتمام المشاهد حتى بلوغهم بغداد،

التي وصلوا اليها عند الغسق، حيث أخذت الشمس تتلاشى بسديم ذهبي يلف حول قباب المدينة ومنائرها، في حين بدأ الغسق في حديقتهم القديمة، التي اقتيدت إليها أرماثهم للرسو، يسّاقط تحت سرادقات من النخيل-دخول جديد إلى حياة قديمة، برغم الأسى الكثير الذي شعروا به على مواطن الجمال التي تركوها خلفهم.

الفصل السادس عشر

العودة إلى بغداد (١٨١٦م)

عاد ريج إلى بغداد بمشاعر، هي مزيج من الخوف والأسى، الخوف من الانتقادات المعادية والانذارات التي تسلمها من الحكومة، والاسى بسبب انتهاء الرحلة وتوديع أوربا عدة مرات في تلك السنة. كان على رأس الإدارة العامة في بومبي السير إيفان نيبين - حاكم بومبي- والسير الفينيستن، الذي تدرج في منصبه مؤخراً، ومستر وردن - سكرتير الحكومة- وكل هؤلاء ينظر إلى ريج بكثير من الكراهية والازدراء، لانهم يظنون، دون ريب، أنه كثير الزهو بنفسه، وأنه ميال إلى وضع الخطط بنفسه دون علمهم، وأن مسألة مخصصاته المالية وشكواه بصددها قد جعل منها قضية تفوق كل اعتبار آخر في اتصالاته. وفي إنكلترا، على أية حال، كان من رأي السيد غرانت، المدير العام ذي النفوذ الكبير، والجنرال مالكولم، أن يعاد ريج إلى وظيفته السابقة، مع اقتراح بتعديلات معينة في راتبه. وقد أقرَّ كلاهما بأنه كان رجلاً جديراً بمنصبه.

كانت إحدى رسائله إلى الحكومة لدى عودته إلى بغداد هي تبرئة ذمته من التورط البغيض في الاستحواذ بالحيلة على مبالغ عامة قبل مغادرته بغداد، لنفقاته الخاصة برحلته إلى أوربا. فقد أعلن أن ريج سحب نقوداً تصل إلى أربعين ألف دولار إسباني (قرش) لنفقاته

الشخصية، اما هو، فقد أنكر هذا الاتهام بشدة مؤكداً أن المبلغ المسحوب كان خمساً وعشرين ألف ربية لتغطية فرق العملة المستبدلة له بالعملة التركية، وأن مبلغ ثلاثة عشر ألف وسبعمائة وثلاث وتسعين ربية كانت مخصصة لنفقاته المنزلية، من رواتب ونفقات جارية لمتطلبات المقيمية، والباقي لراتبه الخاص، وشراء الهدايا المعتادة حينذاك التي لابد من تقديمها إلى الموظفين الأتراك لدى زيارته لهم. لقد أبعدت هذه القضية فرفع بذلك التوبيخ الرسمي الذي انصب على رأس ريج وان كان راتبه قد أوقف ابتداءً من الوقت الذي غادر فيه القسطنطينية حتى عودته إليها، نتيجة لعدم منحه الإجازة التي تخوله السفر إلى باريس. وعلى أية حال، فقد أعيد إلى عمله ثانية بكونه مقيماً في بغداد براتب ومخصصات ترقى إلى ثلاثة آلاف روبية في الشهر، أو ثلاثة آلاف وستمائة باوند كل سنة، إذ تبلغ الربية شلنين في ذلك الوقت. كان ذلك المبلغ سيغطي جميع النفقات عدا نفقات نقل الرسائل التي ترسل دفعة واحدة، وكذلك الطرود الصغيرة. ومع ذلك، فقد تضمن هذا الإجراء رواتب المساعدين والمترجمين والموظفين الآخرين والصرف على ملابس الحرس السباهيين من الهنود، فضلاً عن إجراء ترميم الدار وشراء الهدايا التي تربو عادة على أربعمائة روبية في كل شهر. وهكذا، فالراتب ليس عالياً كما يبدو للوهلة الأولى!

وفي حزيران عام (١٨١٦م) نال ريج لقباً جديداً، وهو وكيل (عين) في بلاد العرب الواقعة تحت الهيمنة التركية، وحصل كذلك

على «وكالة» البصرة لتكون تحت إشرافه مع مساعد له. استقر الآن فبدأ يمارس عمله في حياته متحملاً حرارة الصيف الأولى بوضع صحي أفضل بعد التغيير الذي حصل له في رحلته إلى اوربا، وإن كان ما يزال عرضة، بين حين وآخر، إلى نوبات مما كان يشكو منه قديماً. ومع ذلك، فهو لم يعرَّضْ لها باستمرار أو بعنف شديد.

لم تتطور الشؤون العامة في بغداد إلى ما هو أفضل، فالجو العام ما زال مثقلاً بالمكائد والمؤامرات على اختلاف أنواعها، وبدت له أحدث واحدة منها في حزيران، بعد قرابة شهر من وصوله، فقد هرب شخص معين يدعى ريموند، الذي سبق أن كان رقيباً في فوج المدفعية الخاص بشركة الهند الشرقية، من الخدمة وجاء إلى بغداد حيث حصل فيها على منصب قنصل فرنسي. وبعد خلاف مع رئيس الدير النمساوي، سدد ريموند لكمة إلى أحد الرهبان واعتقله طلباً للفدية. وحينما كان ريج في القسطنطينية تسلَّم من القاصد الرسولي في النمسا فرماناً يدعوه لحماية الأديرة اللاتينية في العراق، وقد سجل ذلك الفرمان، عند عودته، بإشراف كرسي القضاء الخاص بالباشا. وعلى هذا، فقد أسرع ريج يطلب من الباشا عدم التدخل لفرض أية عقوبة على الرهبان النمساويين، وأن الشخص الذي اعتقل يجب أن يعاد فوراً. وريموند، الذي لم يتم التعرف على هويته تماماً، كان أحد الأوغاد الأفاقين المغامرين حول العالم، يجتاز بلاداً إلى أخرى ويعمل لمن يدفع أجراً أعلى.

كانت السلطة الفرنسية في ذلك الوقت متسمة بسلوك ودي منذ اعتقال نابليون، فنصحت بأن أنسب من سيمثل شؤونها العامة سيكون هو الشخص الأنسب لها في بغداد. وعلى هذا، وصل البارون دي فيغورو ليكون قنصلها في بغداد، فارتحل ريموند إلى بلاد فارس، وسمح للرهبان بأن يظلوا آمنين في حياتهم، كما نفترض.

وفي هذه الفترة احتل «الوكلاء الخاصون» الفرنسيون في جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية مناصب أرفع مما احتلها نظراؤهم البريطانيون. ومع ذلك، فقد أصر الباشا على أن ريج، وإن لم يتصف مركزه بالقوة و يعززه وفقاً لذلك، فإن الواجب يقتضي منه (الباشا) أن يحافظ على مركز ريج بوصفه مندوباً سامياً بدرجة وزير، في حين أن الفرنسي مجرد قنصل.

وفي كانون الثاني عام (١٨١٩م) يكتب الباشا الموجود حينذاك ما يأتي:

«لا يمكنني ان اسبغ على ريج احتراماً أكثر مما ينبغي، فأنا أعدّه أحد أفراد عائلتي، ولن أظهر لممثل دبلوماسي مكلف بمهمة خاصة أيَّ اهتمام لم يسبق له أن حظي به.»

وكذلك لم يبد على الشؤون السياسية أي تحسن، فقد كانت، في حقيقة أمرها، محفوفة بالخطر أكثر من السابق، أضف إلى أنه خلال فصلي الصيف والخريف ازدادت وتأثر السخط والكراهية في البلاط، وكانت المكائد وضروب الخيانة على أشدها. فداود أفندي — أخو

زوجة الباشا – الطامح الكبير وعديم الضمير المجرد من المبادئ الخلقية، كان مهيمناً على مجريات الأمور في الباشوية، وكان على رأس السلطة في ذلك الوقت، سعيد باشا، الرجل الهش الذي سبق أن أنقذه ريج عام (١٨١٢م). حظي داود باشا بمساندة عدة زعماء جورجيين أقوياء في بغداد، بالإضافة إلى بعض أصدقائه الموجودين في القسطنطينية، أولئك الزعماء الذين انهمكوا في إثارة المشاكل فيها بين الباب العالي وبغداد. وأخيراً صدرت في تشرين الثاني الأوامر من السلطان بعزل سعيد باشا، مع اقتراحات بانتخاب داود، في حين كان على باشا الموصل أن يلعب دور الوسيط في ذلك الإجراء. وبطبيعة الحال، فقد انقسمت بغداد على الفور إلى زمر ونزاعات حزبية متنافرة، واندلعت الحرب الأهلية. وخلال شهور الشتاء كانت هناك مناوشات وحروب عصابات متواصلة، ما أن يحقق طرف منها انتصاراً متواضعاً حتى يحقق الطرف الآخر انتصاراً مماثلاً.

وفي وسط هذا الاضطراب بقيت المقيمية البريطانية في بغداد محايدة دون انحياز إلى هذه الجهة أو تلك. وفي آذار عام (١٨١٧م)، خلال إحدى الخيانات، قبض على الباشا، ثم سجن وضربت عنقه. دخل داود المدينة منتصراً ونودي به الباشا، وفي غضون هذا الوقت كله، كان الفرس والأتراك منهمكين في حرب متواصلة على امتداد الحدود. إن رؤية الغارات المستمرة ومذابح الأهالي التعساء في مدنهم الصغيرة وقراهم غير المحصنة، كان حدثاً شهرياً إن لم يكن أسبوعياً.

وفي هذه الأثناء نشط كثيراً أمير كرمنشاه، الذي تسيد على رقعة واسعة من البلاد قريبة من الحد الشرقي لمنطقة كردستان، وكان يحصل على السلاح ويعدُّ الضباط الفرنسيين لتدريب المجندين من الفلاحين الجهلاء، مما دفع جميع الأطراف إلى أن يكونوا في منتهى الحذر. وخلال ذلك الوقت كان ثمة كثير من الفرنسيين الذين سبقوا أن كانوا ضباطاً في جيش بونابرت، وكانوا يتضورون من جوع يدفعهم إلى البحث عن أية مغامرة مجزية في أي جزء من العالم. وعلى هذا، قدَّم لهم الفرس ميداناً مناسباً لنشاطاتهم، نظراً إلى بُعد ذلك الميدان بما يكفي عن أوربا او حتى جلب انتباهها إلى ما يجري هناك. وكثيراً ما تندلع النزاعات التافهة التي يثيرها الزعماء على مختلف أهوائهم ثم تخمد، تثار على الدوام كأنها مرجل عصيان هائج، يتسيد فيها أحد الأطراف ثم يتسيدها الطرف الآخر على التناوب، وهكذا، وقد استغل العرب هذه المنازعات استغلالاً كاملاً، لانها أعطت مسوغاً (وإن لم يطلبوا هذا على الدوام) للإغارة على المدن أو سلب القبائل المعادية.

تناقص عدد العاملين في البيت كثيراً لدى عودة ريج إلى بغداد، فقد أصبح راتبه نحو نصف ما كان قد وعد به قبل ثلاث سنوات. ومع ذلك، فقد بات مركزه ثابتاً يفي بمتطلباته الضرورية، وهو الآن شخصية ذات أهمية كبيرة في بغداد حيث تشكل مظاهر سلطته وزخرفها إضافات ضرورية لتلك السلطة، كما لم يفقد شيئاً ذا بال من خلال تقليص بعض الأمور في مؤسسته. فالسيد شارلز بيلينو، الذي

رافقه من القسطنطينية، والذي قابله في فيينا اصلاً، جاء بوصفه سكرتيراً خاصاً ومترجماً ثانياً، براتب اسمي قدره (٧٥ ربية) في كل شهر أي (٨٠ باونداً) كل سنة. كان بيلينو شاباً المانياً فذاً، ومجتهداً في عمله - على الرغم من أنه ينحدر من أرومة إيطالية قديمة، لكنه كان، من ناحية أخرى، معنيّاً بصورة رئيسة بدراسة التراث العربي والشرقي. درس بجد في وقت الفراغ مع رجال الدين الإسلامي والأطباء متعمقاً في الأمور المعقدة التي ينطوي عليها التشريع الإسلامي بالإضافة إلى الآداب والعلوم الأخرى. كان بيلينو مثار إعجاب عائلة ريج، وإن كانت ماري تصفه بأنه رجل متوحش أخرق ومتعسف في آرائه. ومع ذلك. فقد كرس جهوده لخدمة كلوديوس بإخلاص يشبه إخلاص الكلب لصاحبه. ووجد ريج فيه روحاً قرينة بروحه في متابعته لطلب المعرفة بطريقة لا تعرف الكلل، مما دفع ريج بالسعي إلى انتخابه عضواً في جمعية بومبي الأدبية بمساعدة وليام أرسكن، وهو أمر أدخل البهجة على قلب الشاب إلى حد كبير، فساهم بكتابة عدة مقالات خلال السنوات القليلة اللاحقة في مجلة الجمعية الأدبية الفصامية. ولم يزل بيترو، قهرمان القصر، مع عائلة ريج، فقد كان طباخاً يثير الإعجاب وخادماً رائعاً. فهذا الرجل، حينما أخبروه في اسطنبول أنهم لم يعدْ بوسعهم الاحتفاظ بخدماته بسبب ارتفاع راتبه، عرض عليهم فوراً تخفيض راتبه، ولازمهم براتب قدره خمسون ربية في الشهر لكي يمكنه البقاء معهم. ولازمهم كذلك

شارلز المجري، الذي اتصف بغباء شديد، لكنه كان وفياً يسعى جاهداً لإرضاء سيده. وخلال جميع تلك الاضطرابات الداخلية التي عمت بغداد، فكرت الشركة أن من الحكمة زيادة الحرس السباهيين. لقد بقي منهم خمسة وعشرون رجلاً مع ضابط أو ضابط صف هندي، ولكنَّنا لم نسمع المزيد عن ذكر عدد جنود الفرسان الخاصين الذين يحتفظ بهم كلوديوس لنفسه. لعلهم كانوا يشكلون ترفاً ينبغي حلُّه.

وبالطبع، كان ينظر إلى حلول الزوار بكثير من الإثارة والبهجة، وقد مرَّ كثير منهم - كلهم رجال - بمدينة بغداد خلال السنوات الباقية من وجود ريج مقيماً فيها. كانت بغداد تمثل هدفاً بالنسبة إلى الرحالة في تلك الأنحاء. وخلال الأشهر الحارة لعام (١٨١٦م) استقبلت العائلة زائراً واحداً - الرحالة الشهير جيمز بكنغهام، وهو معروف ليس من خلال رحلاته وحسب، بل من خلال دعواه القضائية التي عرضت أمام البرلمان في ما يتعلق بانتقاداته لشركة الهند الشرقية.

كان شخصاً مقبولاً، دقيق الملاحظة، ولو أن أعداءه -وله منهم كثر، أوحوا بأنه رجل كاذب وأن معاملاته، ولاسيما فيما يتعلق بشؤونه المالية، ليست مستقيمة على الدوام، كما كان يمكن أن تكون. وليكن الامر كما هو محتمل، فهو زائر يسر النفس. وفي كتابه الموسوم «رحلات في بلاد ما بين النهرين»، الذي نشر بعد مضيِّ عشر سنوات، يذكر بتفصيل خارق حياته في المقيمية ووصفاً يشبه دليلاً إرشادياً لمدينة بغداد - الأماكن المثيرة للمتعة والاهتمام كالمساجد والسراي

(بلاط الباشا) والأسواق المسقفة والحمامات التي يقارنها سلبياً بحمامات دمشق. والشوارع، على ما كان يشكو، ضيقة غير مرصوفة وأنها أكثر تعقيداً وتعرجاً من شوارع كثيرة من المدن التركية الكبيرة، وأن جوانب الجدران شاحبة اللون ونادراً ما تفتح نوافذ البيوت على الطريق العام. فالبيوت، وهو يراقب دار المقيم بصورة خاصة، تتكون من صفوف من الشقق (الأراسي) تطل على فناء داخلي مربع الشكل، في حين تشغل الغرف تحت سطح الأرض المعروفة بالسراديب خلال النهار كملاذات من شدة الحرارة صيفاً. وتستخدم الشرفات المفتوحة لتناول العشاء والنوم ليلاً. ومن شرفة دار المقيم، التي قسمت إلى عدة شقق لكل واحدة منها ممرها الخاص بالصعود والنزول وتتكون، على ما هي عليه، من غرف كثيرة غير مسقفة، « كان بإمكاننا أن نشرف »، كما يقول، « في بداية انبلاج نور الصباح على منظر عام لمدينة بغداد، يرينا جميع عوائل تلك المدينة في رقع السطوح المكشوفة التي أعدت للنوم وتلك القريبة من محل اقامتنا، في وضع يثير ما يكفي من الاهتمام! »

داهم المرض بكنغهام في بغداد فرعاه مضيفاه رعاية كبيرة، وهاهو يقول:

« لقد أراحني من بشاعة احتجازي إلى حد بعيد ذلك العدد الوافر من الكتب الرائعة التي ضمتها مكتبة السيد ريج الشخصية فضلاً عن تشكيلة ممتازة ثمينة من القطع الأثرية القديمة – بابلية بصورة رئيسة، التي تتكون من أسطوانات وتمائم وأوثان صغيرة، بالإضافة إلى أحجار

واختام منقوشة. صعقت لرؤية أشياء بينها تتمثل ببعض الاسطوانات الصغيرة[1] التي ثقبت لكي تلبس قلائد حول الرقبة، وكذلك الحلي التي كانت تشكل موضوعات مصرية صرفة، إلى جانب الكرة المجنحة وخطوط الماء المتموجة. .الخ. لقد اكتشف ريج ذلك كله في خرائب بابل ونينوى، بالإضافة إلى عدد من قطع النقود المعدنية التي استخرجت من ضفاف دجلة التي يعود بعضها إلى عهد الإسكندر، ناهيك عن المداليات الذهبية والفضية الخاصة بالساسانيين وسابور، مع كثير من الأختام الكوفية والخواتم والطلاسم.»

أقيم في الثاني عشر من شهر آب مهرجان تكريماً لذكرى ولادة الأمير - ولي العهد- غير أن شدة الحرارة حالت دون القيام بذلك الاحتفال على نطاق واسع كما جرت عليه العادة. استعرض حرس ريج الخاص من السباهيين الهنود وقوبلت زيارات الديوان الاعتيادية بكل مظاهر الحفاوة الرسمية، إذ ارتدى الجميع كامل الملابس الرسمية الخاصة بتلك المناسبة. وحضر الاحتفال أوربيان من خارج المقيمية، أحدهما طبيب جراح من دمشق والآخر سكرتير القنصل الفرنسي الجديد، لأن القنصل - السيد فيغور نفسه - كان مريضاً. وحضر كذلك ممثل البابا-القاصد الرسولي لعموم كنيسة بابل. كان هذا الكاهن على رأس الطائفة الكاثوليكية في بغداد، وهو فارسي كبير السن لدرجة أنه كان يتذكر الحصار الذي فرضه نادر شاه على بغداد، ذلك الغازي الفارسي الذي اغتيل حوالي عام

---

(١) لعلها اختام اسطوانية قديمة.

.(١٧١٤)

وهذا القاصد الرسولي الذي ولد في أصفهان عام (١٧٢٠م) ونال تعليمه في روما، عاد إلى بلاد ما بين النهرين ليصبح في آخر المطاف رأس الكنيسة الأرمنية هناك. وإلى جانب هؤلاء كان ثمة مسيحيون ويهود وأتراك وبعض الدراويش الندماء. وبعد أسبوعين من تلك المناسبة ، قام ريج والدكتور هاين بزيارة مجاملة رسمية للباشا بمناسبة عيد الأضحى، أدياها في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم. لقد أعجب بكنغهام بالمقيم ريج وأضمر له احتراماً كبيراً، وتمثل هذا الإعجاب بما كتب عنه قائلاً :

«إنجازاته البعيدة الغور بمختلف صورها، والميزة الرفيعة لكل فضائله وسلوكياته العامة، وحماسته المطردة في اهتماماته العلمية والمعارف العامة، فضلاً عن تهذيبه الرقيق، وأخلاقه الدمثة المتواضعة وسخاؤه اللا محدود، وإظهار تلك الصفات الثابتة البعيدة عن التكلف والادعاء التي لم تخفق في جعله موضع حب الآخرين الذين سرَّهم أن يكونوا أصدقاءً له أو ضيوفاً.»

وفي أيلول غادر بكنغهام مدينة بغداد بعد أن مكث فيها بضعة شهور. وهو، بصحبة بيلينو، ودون شعور بالتعب دائماً، قاما بعدة جولات إلى أطلال بابل أو حولها، وفي تلك الجولات لم يصاحبهما ريج. وكلوديوس، على ما أظهره وصف بكنغهام له، لم يكن متبطلاً، فقد كان في ذروة السعادة عندما كان منهمكاً في عمل أدبي أو إبداعي، وإن

لم يهمل العلوم الرياضية (الرياضيات) بأي شكل من الأشكال.

كتب ريج إلى أرسكن يطلب منه تزويده ببعض معدات المسح والتحري، وطرح عليه أكثر الأسئلة تقنية لوضعها أمام مسّاحي الحكومة لكي تساعده في رسم الخرائط وعمل المسوحات التي تجري في البلاد، ولكي تساعده كذلك في جولاته ورحلاته. وعلى هذا، فقد تزايدت ملاحظاته وتوافرت لديه الترجمات من الجغرافيين والمؤرخين الشرقيين والغربيين على حد سواء، وهي معلومات تمهيدية لما كان ينوي كتابته عن «تاريخ آسيا الغربية»، التي عدَّها هدفه الأخير. وهذه الملاحظات التي كان كثير منها، ولا شك، سيصبح مثار اهتمام واسع، فضلاً عن أنه سوف يصبح مرجعاً مساعداً للباحثين في الوقت الحاضر، يبدو أنها، ويالأسف، قد فقدت!

وكما أعلن رسمياً فقد اغتيل سعيد باشا، سيء الحظ، نتيجة مؤامرة حيكت ضده، وتسلم داود باشا مقاليد السلطة مكانه، فشاع السلام. كان يمكن القول حقاً أن الحرب قد توقفت، وقد أودع السجن اغلب اتباع الباشا المغدور، أو نفوا أو قتلوا. أما أسرة ريج، فقد أمضت الشهور، من كانون الثاني حتى آذار عام (١٨١٧م) في مخيم خاص ليقل احتمال تورطهم مع الأطراف المتصارعة. كان ذلك المخيم، الذي شدد الحراسة عليه السباهيون ورجال الحاشية الكثيرون، بمثابة الأرض الحرام لكل طرف من الأطراف.

وهكذا، فقد أصبح ريج، عند عودته إلى بغداد، حكماً في كل ما

يحدث من منازعات بين الفئات المتنازعة، كما طلب منه إسداء العون في كل حي من أحياء بغداد، وارتمت نسوة كثر تحت أقدامه يطلبن إنقاذ زوج أو ابن أو أخ لهن من موت و من عذاب شديد. لقد عجت المدينة بالخيانة والأكاذيب والقسوة المروعة التي تجاوزت كل ما شاهده ريج خلال مظاهر العصيان المسلح السابقة، ومع ذلك، فقد تنامى امتيازه بوتائر تتناسب وتلك الاضطرابات، وهاهي ماري تكتب مزهوةً بذلك فتقول:

« وبصدد كرامتنا الشخصية أظن أنني يمكنني القول باطمئنان ودون أن أتهم بالغرور هو أن ليس في الشرق كله شخص أوربي آخر يتمتع بميزة أعلى مما يتمتع بها ريج في هذا المكان. فالأطراف كلها، سواء بسواء، تتودد إليه، وهم يرون أن سلطان اسطنبول ليس له سلطة عليه، وأن تغيير الباشا لا يعني فرقاً عنده، كما يقولون لابد أن يكون ذا سلطة أعلى من سلطة الباشا. »

وعلى هذا، فالمرء يشعر أن الإنسان يمكنه بيسر ادراك ما تتمتع به ماري من.زهو بذلك الأمر! ومع ذلك، فقد حدث شيء أقلق ريج كثيراً، كان ذلك هو موت صديق له خنقاً – السيد علي آغا – الذي كان يوماً ما أحد الإنكشارية في جيش باشا سابق، والذي سافر إلى الهند للتقصي عن أمر يعنيه مع كتب تقديم يحملها إلى وليام أرسكن، الذي كان بإمكانه مد يد العون له في بومبي. وفي طريق العودة، قدَّم ذلك السيد مساندته وتأييده إلى داود أفندي، غير أنه بسبب نوع من الغيرة تم إلقاء

القبض عليه خيانة ومن ثم قتله. احتج ريج على ذلك في مسعى لانقاذ حياته ولكن دون جدوى.

لقد أرسل الباشا في طلب ريج، على أية حال، وأشار إلى صبي -ابن الرجل المخنوق قائلاً:

«أقدم لك السيد عبيد هدية. إنَّ صداقتك ضرورية لي، وأنا على علم بأنني يمكنني أن أكسبك إلى جانبي بمثل هذه الالطاف.»

قام ريج وبيلينو، خلال أشهر الربيع الأولى لعام (١٨١٧م)، بجولة أخرى إلى بابل. وكتاب ريج الموسوم «ذكريات عن أطلال بابل» عام (١٨١٥م) دخل الآن مرحلة طبعته الرابعة، وأثار، بالطبع، اهتماماً كبيراً في أوساط لندن. فالميجر رينيل، المرجع المختص بجغرافية الشرق، الذي كان كتاباه: «هيرودوتس» و «آثار بابل» - من بين أفضل الكتب المعروفة عن الموضوع، كتب مقالة ناقش فيها بعض النظريات والحقائق التي عرضها ريج بخصوص المواقع المحتملة في الاطلال القديمة. وقد أعطى هذا مزيداً من الشهرة والتعريف بالمقالة الأصلية. وعلى هذا، فقد عقد ريج عزمه على إجراء تحرٍ آخر ليختبر ما يمكن أن تكون عليه الحالة أو تغيير آرائه. أمعن النظر ودقق ملياً في الموضوع مما جعله في مذكراته الثانية عام (١٨١٨م) يميل إلى الاعتقاد في أن الخرائب القائمة فعلاً كانت البقايا الوحيدة لضواحي بلاط ملوك بابل، وهي بالتالي مجمل المدينة على الإطلاق. كما كان على ثقة أيضاً بان التلال كانت البقايا الفعلية لمدينة بابل القديمة، لأن ظلالاً من الشك حامت حول تلك النظرية. أضف إلى

أن إحدى مناقشاته كانت تدور حول أن جميع الآجر، بنقوشه المميزة برؤوس سهمية، قد وضعت وجوهه نحو الأسفل، وهو، بكل وضوح، يساير الأسلوب المتبع في عمل الآجر حينذاك، في حين لم تُظهر المدن الأكثر حداثة، كالحلة وحتى بغداد، حيث اكتشف نفس الآجر، أيَّ انطباق أو تشابه لهذه القاعدة، مما يبرهن على ان الآجر قد استخدم دون التفكير في الكتابة الموجودة عليه، وهو ما نقب عنه في اقرب مكان من الخرائب.

وفي مذكراته الثانية يميل ريج إلى فكرة أن «برس نمرود»[١] كان برج بيلوس[٢] وقد اقترح رحالة مختلفون هذا الرأي قبله، لكن المسافة من الخرائب الفعلية بدت مضلله. فكر ريج أن مدينة بابل واسعة، بدت فيما بعد كأنها مدينة أسطورية وغير معقولة وفقاً لوجهة النظر التي تزعم ذلك. هذا، ولم يكن لاجدادنا منذ مائة سنة تصور أو إدراك دقيق عن المدن الواسعة حقاً، ولابد انهم كانوا سيذهلون لمشاهدة مثل هذه المدن الموجودة في الوقت الحاضر. لقد استمتع ريج وبيلينو بتلك الجولة، وعادا بمزيد من اللقى الاثرية لتزيين المكتبة بها.

---

(١) هو تسمية محلية لمدينة بورسيبا أو باريسا. تقع خرائبها على مسافة عشرة أميال جنوب الحلة. جدد حمورابي بناءها واشتهرت في عهد نبوخذ نصر الذي بنى زقورتها الشبيهة ببرج بابل.

(٢) هو معبد الإله (بنو) المؤلف من سبع طبقات. وكان يحتفل سنوياً بنقل تمثال (بنو) من بورسيبا بقارب إلى بابل، ثم يوضع فيعربه احتفالية. (مأخوذ من تعليق المرحوم سليم طه التكريتي).

وفي نهاية عام (١٨١٧م)، أصبحت الشؤون العامة بين بلاد فارس وتركيا خطيرة إلى حد ما، وقد تبوأ مزيد من الضباط الفرنسيين مراكز لهم في الجيش الفارسي. ومحمد علي مرزا، أمير كرمنشاه، قريب الشاه، الذي كان يحكم رقعة واسعة من البلاد بين شيراز وتبريز، كان منهمكاً في استعداداته الحربية حينذاك. وكان السبب الذي دفعه لذلك هو أنه تبعاً للحروب المتواصلة القريبة من حدوده، بين الدولتين، أصبح مضطراً إلى أن يكون في وضع دفاعي. وحينما قابل ريج في وقت سابق عرض عليه بعض الاقتراحات، راجياً منه الحصول على عشرة آلاف قطعة سلاح ناري مع ضابط بريطاني لجنوده. كانت تلك مسألة توصف بالكياسة ومراعاة للذوق، ولذا قرر ريج إبلاغ بومبي بفحوى الطلب، مع اقتراح بأنه ربما سيكون من الأفضل الإبقاء على علاقات تفاهم ودية مع الأمير ومنحه هدية صغيرة وإن لم يعن ذلك تلبية الطلب برمته. أما الحكومة التي كانت على الدوام تميل قليلاً إلى نقد التوصيات التي يقترحها ريج، فقد أمرته على نحو قاطع بالامتناع عن أي تدخل نظراً إلى أن كرمنشاه كانت ضمن المقاطعات الفارسية. وعلى هذا، فإن جميع المفاوضات يجب أن تتم مع السيد ويلوكس-الوزير البريطاني في طهران. والشاه، كما أعلن رسمياً، كان عصبي المزاج تجاه الأمير، الذي راودته فكرة أن ذلك الأمير كان يهدف إلى الاستيلاء على العرش، وأن إبداء أية رعاية له أو محاباة نحوه ربما اودتا إلى شرخ في العلاقات مع إنكلترا. وريج، الذي زجر على هذا النحو، لم ينبس ببنت شفة، ولكنه

لم يكن أقل نشاطاً في سماع التقارير من وكلائه السريين. وفي مناسبة سابقة، طلب من الحكومة تقديم مكافأة أو هبة تذكارية للسيد هاين، لأن ما أنجزه خلال فترة بقاء كلوديوس في أوربا بكل نجاح ولباقة لم يكن عملاً يسيراً. ومع أن السيد هاين ربما أساء كثيراً خلال غياب رئيسه – ريج – إلا أنه بقي الشخص الأكثر إخلاصاً له. لقد أرهق ذكر بغداد بال الحكومة البريطانية، ولاسيما في ما يتعلق بشؤونها المالية. والسيد هاين كان مجرد مساعد على الرغم من السنين الطويلة التي اكسبته سمعة طيبة في مركزة الوظيفي، ولذا فان الحكومة غير مستعدة لتقديم الجوائز جراء الخدمة الحسنة التي يظهرها الموظف قبل إحالته على التقاعد. وعلى ما هو معلوم، لم يكن ريج ذلك الموظف الدبلوماسي المرغوب فيه شخصياً لدى أعضاء حكومة بومبي، ولذا، فهو بعد سنة من عودته يكتب بمرارة إلى أرسكن، الذي أصبح الآن موضع ثقته، يخبره بأنه قد تسلم من السير ايفان نيبين رسالة مثقلة بالسباب والاتهام الجائر، وهو ما لم يأبه به كثيراً، غير أن الحاكم أسعده كثيراً استخدام عبارة «يعرف جيداً انه لم يجرؤ طوال حياته على استخدامها في حضوري، وليس ثمة إنسان أكثر استعداداً للصفح عن الإساءة، لكن الإهانة لا يمكن أن أنساها أبداً.»

أخذ مسلسل هذه الأحداث يتفاعل، وريج، الرجل الحساس المعتد بنفسه، شعر بهذه الصدمات بعنف وحده، ولم يجد هناك أحداً تتاح له فرصة التحدث وفتح مكنونات قلبه إليه، ولا ريب في أنه قد ناقش كثيراً من القضايا مع السيد هاين، مع احتمال أن تكون تلك المناقشات

بخصوص المقيمية أو أية مهمات أخرى، غير أن ريج، الذي كان على الدوام رجلاً مندفعاً في قراراته، توخى النصيحة من رجل أكبر منه سناً يتمتع بالحكمة والروية. كان في شرخ الشباب، في الثلاثين من عمره فقط، نهباً لمشاكل صعبة وصحة متردية يكافح تياراتها. وليس هناك من يأتمنه على مشاكله أو التحدث معه عن شؤونه واهتماماته أو طلب معونته في أزماته الصعبة، فهو رجل متفرد منذ صباه، ولكنه طموح، كثير الكفاح دوماً من أجل التعلم والمتابعات الأدبية، كدأبه في مركزة الوظيفي لتبوُّؤ مركز الصدارة في الشؤون العلمية التي نفذها بقدر تعلق الأمر بالمقيمية في بغداد. تواصلت الشؤون السياسية لتصبح السمة الواضحة خلال هذه السنوات، فكان لزاماً على ريج ان يستعد استعداداً قوياً لمواجهة مكائد الاطراف والدول المتنافسة. فروسيا الآن بدأت تستيقظ لتنظر بعين الحسد إلى ما يجري في حدودها الشرقية، وكان هذا بداية ظهورها في القرن التاسع عشر، فضلاً عن هجوم روسيا على الهند متأثرة بعبارات التملق التي أسبغتها لها كل من فارس وأفغانستان. وفي رسالة إلى السير جيمز ماكنتوش عام (١٨١٧م) يكتب ريج:

ثمة عدم اكتراث تام في إنكلترا إزاء الشرق. ثم ان التزام الحكومة، التي تمتلك الهند، يجب أن تدرك أن تلك الطريقة اللاّمبالية أمر يصعب تعليله، وأن عدم اهتمام أحد بتعرضنا للسلب بوساطة القراصنة على الساحل الهندي، وبأن الروس جناة فيما يعملون داخل تركيا وبلاد فارس، أمور توهن مصالحنا وتقوض أسسها.»

وبعد أن يعيد إلى الذاكرة صور الارباك وخلط الأوراق القائمة مع هيئات مالكولم وهارفورد جونز الدبلوماسية، يشير إلى اننا قد هجرنا مسرح الأحداث إلى الروس والفرنسيين، ويواصل قائلاً:

لقد وصلت إلى بلاد فارس تواً بعثة دبلوماسية روسية رفيعة المستوى، قيل ان السفير فيها لم يكن غير حاكم جورجيا العام مع حاشية تبلغ أكثر من مائتي شخص. اما فيما سبق، فقد كان ضابط واحد برتبة أقل من جنرال وأحد السعاة يكفيان دائماً لمتطلبات الروس، بيد أن هدف هذه البعثة بقي سراً دفيناً. فالروس يظهرون كل ما يشير إلى الرغبة في تفجير الصراع مع الباب العالي، وقام الفرس بكل طاقتهم لمساندة الروس من خلال مهاجمتهم للحدود التركية، غير أن الأتراك لم يعلقوا بشيء. أضف إلى أن هناك كثيراً من ضباط بونابرت في مدينة تبريز، سوف نراهم فوراً يتدفقون خلال بلاد فارس إلى أفغانستان ومن هناك إلى الهند. وبعد ذلك سنوف نفيق من سباتنا، ولكن ربما كان ذلك بعد فوات الأوان.»

وطوال عام (١٨١٨م)، تواصلت حرب الحدود بلا انقطاع بين تركيا وفارس، متزامنة مع اضطرابات متأججة في كردستان، ومكائد لم تتوقف في الموصل حيث عزل باشا تلك المدينة ثم أعيد إلى منصبه، ولم يكن السبب واضحاً غير أن داود، باشا بغداد، له ضلع في إثارة تلك الاضطرابات، فهو ماثل على الدوام في المكان الذي تنفذ فيه المؤامرة الخسيسة بصورة خفية. وكذلك تركزت أنظار أمير كرمنشاه على بغداد، محاولاً إكراه الباشا وترهيبه بادئ ذي بدء بتقديم العروض

والاقتراحات والرشاوى ومن ثمَّ خلال التهديدات وإثارة الاضطرابات. والحقيقة هي أن المرء ليأخذه العجب كيف أن ريج حافظ على توزانه العقلي السليم إزاء المنعطفات القاسية للدبلوماسية الخفية. ومن النادر أن يمر عام دون إثارة الشؤون المالية، فقد أجج ذلك الموضوع غضب ريج لدرجة فاقت حدود طاقته. والمرء يستطيع تخيله صاعداً نازلاً، جيئة وذهوباً في مكتبته أو على شرفة بيته يقلب تلك القضايا المالية في ذهنه وكيف يمكنه أن يجعل راتبه في وضع يحقق له جميع مطالبه، فضلاً عن تسديد بعض الدين الباقي على ذمته، في وقت لم يتسلم فيه خلال ثلاث سنوات أية رواتب، فاصبح غارقاً في الدين مع ما لازم ذلك من فوائد مركبة عليه. ولا شك في أن نوعاً من إقامة الاحتفالات ومقتضيات الترف السائدة كان ضرورياً في حياته الرسمية، لانه بطبيعته رجل معروف بالإسراف والسخاء. تصاعد عمله الرسمي بوتائر عالية وتطلب الأمر، تبعاً لذلك، وجود مترجمين اثنين بالإضافة إلى سكرتير فارسي، وتطلب كذلك وجود بيلينو ليسلير مقتضيات المخاطبات والرسائل المتبادلة. هذا، ولم تضعف أهمية بغداد وسلطتها على الرغم من زوال تهديد نابليون، فقد حقق السلام الذي ساد العالم العودة إلى الدفع بالعملة المسكوكة، أو العودة إلى الأفكار المعينة بالتجارة، علماً أن بغداد تقع على الطريق البري إلى الهند عبر الخليج العربي. لقد سمحت حكومة بومبي، لسبب معروف لديها، لمقيمية بغداد وجميع المستخدمين فيها، من كتاب إداريين وجنود سباهيينة الخ، بسحب رواتبهم وتقليل

تحويلها وفقاً لنسبة معينة من التبادل، ولم يكن هذا الإجراء إلزامياً في البصرة أو في أية وكالات معلوماتية أخرى. ثم هاهو ريج يعلن أنه يسحب على حساب الشركة مبلغ (٣٠٠) دولار إسباني إلى (١٠٠) ربية، ولكن يسمح له بتسلم مبلغ مقداره (٢٧٢) فقط، وهو الشيء الذي ناقش الإجراء الخاص به قائلاً بأنه فقد، بسبب ذلك، مبلغ (٣٠٠) باوند كل عام. وكذلك يتذمر من أن الجنود السباهيين قد شكوا بمرارة نتيجة لهذا الإجراء، وهو الأمر الذي يستطيع المرء إدراكه جيداً.

وفي نهاية عام (١٨١٨م) استقرت عائلة ريج في بيت جديد للمقيمية، بيت أفضل يقع على ضفة نهر دجلة ترقى اسسه القديمة، بكل وضوح، إلى عهد الخلفاء العباسيين. يسود الاعتقاد أنه كان قصراً لأحد البرامكة، وإن لم يكن ثمة برهان على ذلك. وعلى أية حال، كان بيتاً واسعاً يفي بالغرض، فهو يطل على النهر وتهويته أفضل وطلاقة هوائه أحسن من البيت السابق.

وفي تشرين الثاني حل في بيتهم ضيف معروف، هو السير روبرت بورتر-الرحالة المشهور الذي عاد تواً من (برسوبوليس)، المدينة القريبة من شيراز في بلاد فارس، حيث خطط هناك صوراً رائعة، تثير دهشة من يراها، للخرائب والمنحوتات، تخطيطات صغيرة ولكنها بالغة الدقة. ثم نشر أخيراً تقريراً مفصلاً عن الموقع وزيّنه بالصور التي رسمها بنفسه. وكلوديوس، كما يمكن أن يتبادر إلى ذهننا، استمتع كثيراً بهذه التخطيطات، لأن أطلال المدن القديمة، بالإضافه إلى علاقتها بالعصور

الماضية، باتت تعني إغراءً كبيراً بالنسبه إليه. لم يكن لديه أدنى شك في قيمة كثير من الحديث الممتع مع رحالة واسع الاطلاع جاب مناطق كثيرة في بلاد فارس والبلاد العربية. ناقشا حل رموز الكتابة المسمارية والمعاني التي ينطوي عليها كثير من المنحوتات البابلية والتشابة الموجود بينها وتلك الموجودة في (برسوبوليس) كما يظهر ذلك على تخطيطات روبرت.

كان ذلك مصدر سعادة كبيرة للمقيم ريج مما أنعش طاقاته الذهنية بفيض من نشاط جديد. وبعد أن ترك وحيداً مرة اخرى، استأنف عمله الخاص بتحرياته التاريخية والطوبوغرافية (السمات السطحية لأي مكان) مع مواصلة سلسلة المراسلات الممتعة مع رسكن في بومبي. هذا، وقد تزايدت طلباته للكتب والآلات التقنية. وعلى ما يبدو، فإن إحدى استراحاته المخصصة للقراءة الخفيفة كانت تقضي قراءة روايات السير ولتر سكوت التي راقت له كثيراً، مع تطلعه بشغف إلى قراءة رواية روب روي التي قرأ في الصحف أنها قد نشرت حديثاً. وكذلك تواصلت مراسلاته تواصلاً حسناً مع السير جيمز ماكنتوش، الذي تطلع إلى تعيين صهره (ريج) في وظيفة جديدة، فقدَّم طلباً لصالحه كي يشغل وظيفة مدير الكمارك في بومبي. وهذا المنصب، على أية حال، ذو صلة بالتاج البريطاني مباشرة، وليس لأي موظف في شركة الهند الشرقية يد في ذلك. حاول السيد جيمز دون تلكؤ، بوساطة تأثيره الخاص في المدراء العامين في شارع ليدنهول، تحقيق ذلك، كما كان

يطمح للحصول في عام (١٨٢١م) على عضوية مجلس المدراء العامين في بومبي لصهره ريج، أو منصب مقيم في مدينة سورات في كجرات، التي أصبحت مقاطعة جديدة ضمن حدود الدولة. فكر في أن هذا المنصب الأخير ربما كان سيلائم ريج بكونه أفضل المناصب نظراً لما يدره من رواتب جيدة لا تُقَاس بما يصرف من مبالغ كبيرة على الصيانة كما هي الحال في بغداد أو بومبي. ومع ذلك، فإن هذه الخطط لم تتبلور، ففي أيلول عام (١٨١٨م) حل محل الدكتور كولكيو هون، الذي قدّمَ طلباً للحصول على إجازة مرضية يقضيها في إنكلترا، الكابتن تيلر من كتيبة المشاة الوطنية الثالثة في بومبي مساعداً للمقيم ريج في البصرة، ولكنه لم يتسلم واجباته الوظيفية حتى بداية عام (١٨١٩م). وفي شهر تموز من سنة (١٨١٩م) كتب ريج إلى الحكومة موضحاً شخصية الباشا الغريبة الأطوار الآتية بالإضافة إلى الوضع العام في البلاد:

«تنحدر الشؤون الحكومية العامة بسرعة إلى حال مربكة، إذ يعزى ذلك، بصفة رئيسة، إلى حماقة الباشا ووزرائه وإلى حاجته إلى الاستقامة. فسعادته يترك أحكامه الخاصة إلى كل من يوفر عليه متاعب التفكير، ويغض النظر عن ابتزازات مماليكه وعنفهم، فيبدو كأن اهتمامه منصب فقط على اكتساب المال بأية وسيلة ممكنة.

والسلطة المحلية للبلاد تتساوى في حالتها المتردية مع سياستها الخارجية، كما أن جميع الأعمال في المدينة معطلة تماماً، والشرطة

فقدت شرعيتها ولا طائل تحتها. ثم إنه لا مثيل في البلاد لما يحدث من ابتزاز وظلم على الفلاحين طوال تاريخ هذه الحكومة الجديرة بالازدراء. وبات من المتعذر اجتياز صحراء ماردين، إلا بجيش كبير، لوجود سكان جبال سنجار، الذين قضوا بالفعل قضاءً تاماً على أكثر من قافلة. ويؤسفني القول أن أحد التتار قد سلبت منه الرسائل الخاصة بالمقيمية المرسلة من «وكيل» الشركة المبجل في اسطنبول. لقد اتخذت الإجراءات الكفيلة باسترداد تلك الأوراق الرسمية ما لم يكن بالطبع قد أتلفها أولئك اللصوص.»

على هذا النحو كانت الشؤون الرسمية الرائعة حقاً تجور في باشوية بغداد حينذاك!

وفي آذار عام (١٨٢٠م) فكر ريج وبيلينو في القيام برحلة عاجلة إلى قلب الصحراء شمال شرق بغداد، ومن هناك نحو قمم الجبال القصية في كردستان، فقد سمعا الكثير عن مدن خربة في تلك الصحراء. وهكذا، فقد انطلقا في جولة تستغرق عشرة أيام مع حرس قليل.

تقدما، بعد اجتياز نهر ديالى، مسافة تربو على أربعين ميلاً على ظهور البغال، ثم جاؤوا فجأة إلى بقايا أطلال مدينة واسعة، سعة مدينة طيسفون (المدائن)، فتبادر إلى ذهن ريج أن أسوارها تشبه أسلوب بنائها وحالتها أسوار المدائن. أطلق سكان المنطقة عليها اسم (أسكي بغداد)، بيد أن ريج وبيلينو خمنا أن تلك الأطلال تعود إلى مدينة دستجرد في زندان، المكان المفضل إلى خسرو برويز–ملك الفرس الذي

قيل إنه يفضلها على عاصمته، طيسفون. وعلى مسافة ثلاثة أميال تقريباً، اجتازا ما كان يدعى محلياً (زندان)، وهو أثر غريب ذو سورين متوازيين، يبتعد الواحد منهما عن الآخر بمسافة (٦٠٠ قدم)، مشيدين بالطابوق المحروق وبطريقة بناء متينة. كان السوران يقطعان على مسلفة كل ستين قدماً بالحصون، وبعد ان أجريا القياسات وتفحصا حاليهما بقدر ما أسعفهما الوقت القصير المتاح لهما، استأنفا رحلتهما.

كان هدفهما مكاناً يعرف بـ«قصر شيرين»، الذي لم يسبق أن حظي بزيارة أوربي له بتاتاً. وحينما شاهد ريج أطلال تلك المدينة أصيب بخيبة أمل كبيرة فهي «مدينة منخفضة إلى حد بعيد، ولا تتمتع بتصميم أو ابعاد فخمة.»

اكتشفنا بناية مربعة الشكل شبيهة بالحصن، ذات مدخل مقوس، وفي كل جدار منها نافذة ضيقة في أعلاه، وعلى الجانب الشرقي هناك خربة تضم ما يشبه شققاً سكنية، وظهرت كذلك منصة كبيرة مسنودة على عقود، بينما يوجد على الجهة الغربية سلم مزدوج يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام. افترض ريج أن يكون ذلك قصراً لملوك الساسانيين خلال نزهاتهم، نظراً إلى خلوِّه من التحصينات الضرورية. وثمة في الحقيقة أسطورة مفادها أن «سيرين» كانت عذراء جميلة أسرها خسرو فبنى لها هذا القصر.

كانت عودتهما إلى بغداد من طريق كفري، وبما أنهما اضطرا للتغلغل خلال منطقة تسيطر عليها القبائل المتمردة التي اتصفت بالشغب إلى

حد ما، فكرا أن من الحكمة استخدام عدد كبير من الحراس، وفي أحد المواقع «حاووك كيرك» شاهدا مزيداً من الأطلال من نفس نوع أطلال قصر شيرين، وان لم يستوقفهما جمالها.

كانت جولة جغرافية قصيرة ممتعة، وزاد من متعتيهما كونهما أول أوربيين يشاهدان ويدونان المعلومات عن تلك الخرائب.

وبعد عودتهما إلى بغداد في الأيام الأولى من شهر نيسان، انهمك ريج في تنظيم شؤونه الوظيفية في وقت كان يتطلع فيه إلى التغيير، ثم أجرى الترتيبات اللازمة لتمضية أشهر الصيف الحارة في طقس أبرد.

الفصل السابع عشر

الرحلة إلى كردستان (١٨٢٠)

كان ريج متلهفاً جداً على التغلغل في أعماق جبال كردستان، ورحلة الأسابيع الثلاثة، التي قام بها تواً إلى الحافات الجنوبية لتلك البلاد البرية، كانت مجرد إثارة الشهية لإنجاز مزيد من السفر.

وفي غضون ذلك أصيب ريج بحمى شديدة مرة أخرى، فعقد على قضاء أشهر الصيف خارج بغداد، في وقت شكل فيه المناخ الأكثر برودة في المرتفعات العالية عزاءً كبيراً له، كان ريج قد عقد صداقات كثيرة مع أفراد الطبقة العليا للكرد الذين زاروا بغداد أو أقاموا فيها. ثم إن كردستان كانت بلاداً مجهولة ولم يتم، في أعين الأوربيين، مسح لأراضيها، وهي أمور أثارت اهتمامه، ترك المقيمية تحت مسؤولية السيد هاني، الذي تقرر أن يغادر بغداد نهائياً أواخر تلك السنة، بعد إقامة امتدت نحو عشرين عاماً.

وعلى وفق هذا، شرع كل من ريج وماري وبيلينو وطبيب يدعى موراندو، بالاضافة إلى سيد آغا -السكرتير الفارسي - نهاية شهر نيسان عام (١٨٢٠م) بصحبة عدد كبير إلى حد ما من الحاشية والخدم، فضلاً عن الحراس السباهيين، الذين استصحبوهم بدلاً من استئجار جنود للحراسة، وبما أن ريج رأى أن من الأفضل السفر بكامل قدرته الوظيفية، فقد لازمه عدد مختلف من ضباط المقيمية، وآغا

ميناس، الذي كان مترجماً أولاً مدة طويلة، رأس أولئك الضباط.

أما ماري فكان عليها أن تسافر بزي سيدة تركية في محفة مغطاة على ظهر أحد البغال، وإن خصص لها حصان تمتطيه عندما تكون خارج حدود المدن، بعيداً عن بيوت الناس. والجدير بالذكر أن أسلوب السفر هذا لم يكن أسلوباً يبعث البهجة في النفس، بيد أن ريج حافظ بدقة على الآداب العامة في البلاد التي عاش فيها. إن تعرض ماري لأنظار الرجال خلال رحلاتهما، قمينة بالحط من كرامتهما كثيراً في أعين الأهالي، وربما أدى ذلك إلى توجيه الإهانات لهما، فالشرقيون منذ مائة سنة خلت، لم يشاهدوا ما آل إليه حال الأوربيين الآن، إذ التزم أولئك الشرقيون بالشكليات الرسمية، وربما فكروا في أن أي شخص يخالف آراهم يعد مبتذلاً وجاهلاً.

جهزهم الباشا بالفرامين والرسائل والأوامر الخاصة بسفرهم داخل الإقليم لسلطته، بالإضافة إلى كتب التوصيات إلى مختلف الموظفين المعنيين. وخلف تفكيره الظاهري، كان الباشا مرتاباً في هذه الرحلة، فهو لم يدر بخلده أن يقوم المرء ابتغاء كسب الصحة أو التسرية في مشاهدة مناطق جديدة. لقد تسارع تفكيره دوماً في ما يمكن أن يكون هنا شيء من خداع أو مكيدة، وإنما بدا في الظاهر دمث الاخلاق كيساً. وخشي أن يكون ريج قد سافر إلى هناك لإثارة الاضطرابات في منطقة كردستان، وأن شعوراً خامره بالريبة في الجميع مع عدم الثقة بأحد.

كان الطريق الذي سلكوه الطريق نفسه الذي سلكوه في رحلتهم السابقة إلى الموصل عام (١٨١٣م)، حتى مدينة طاووق على أقل تقدير، غير أن الإزعاج الوحيد هنا كان المناخ الرديء المصحوب بسيل من المطر على نحو غير مألوف في ذلك الوقت من السنة إلى حد غمر فيه المنطقة إلى مسافة كبيرة.

مكثوا في كفري في بيت أحد وجهاء الأتراك، الذي سبق أن كان من الموسرين، وأنقذه ريج من حكم صادر عليه بالسجن في بغداد، مقنعاً الباشا بالغاء دين كان بذمته، بدا بالنسبة إليه ديناً باهظاً، ولذا فقد سر هذا الرجل لرؤيتهم طبعاً.

توقف ريج على مسافة قريبة من المدينة لمعاينة بعض الخرائب التي أصبحت عارية بفعل الأمطار. لقد كشف الحفر القليل عن غرفة صغيرة ذات جص مزين بأزهار جميلة وزخارف الأرابيسك[1] الرائعة باللونين-الأسود والأحمر. هذا، وقد فحصت التلال حول المنطقة كلها، فأشارت إلى حقيقة أن الموقع ربما كان مدينة يوماً ما. أما بيلينو، الذي لا يعرف الكلل، فقد ذهب لمشاهدة بعض الأضرحة المشيدة بالحجر، لكنها كانت خالية من المنحوتات او النقوش، ترى، صهرها سكان المنطقة، بالإضافة إلى عظام وجرار لحفظ رماد الموتى، بعضها

---

(١) فن التوريق المتشابك الذي يجمع عناصر الزخرفه العربية التي تميز الفن العربي الإسلامي ويستلهم هذا الفن حركة سيقان النبات وأوراقه للتشكل على السطوح المراد زخرفتها.

مزخرف بأشكال مختلفة وإلى جانب ذلك شوهدت رواب اصطناعية في جميع الأرجاء، ربما اختلفت في عصورها لتعود إلى حضارات مختلفة سادت بلاد ما بين النهرين.

تبادر إلى ذهن ريج أن كثيراً من المحطات التي وقف فيها في هذه الروابي أو قريباً منها ربما أشار إلى مواقع المخيمات الدائمة لكبار الغزاة– من كورش حتى نادر شاه. كان حدراً جداً في أخذ الاتجاهات وتدوينها ووضع خريطة لتحرياته الفعلية، التي تشكل واجهة كتابه الموسوم «حكاية دار المقيم في كردستان» المنشور عام (١٨٣٦م). بدا أن أغلب أدوات المسح والتحري لديه كان من تلك الأدوات الصغيرة التي توضع في الجيب عادة، ولذا يظل من المدهش حقاً كيف يمكن أن تكون ملاحظاته وقراءاته دقيقة بذلك الشكل. فالأدوات التي حملها، كما نعلم، كانت آلة السدس الجيبية لقياس الارتفاع، والمحدار لقياس الحدور المغناطيسي والبوصلة والشريط، بالإضافة إلى محرارين، أحدهما للماء والآخر للطقس ومن كفري اتجهوا إلى طاووق، وعلى مسافة أميال قليلة منها، في الطريق الذي سلكوه، تشعب ذلك الطريق إلى الشمال الشرقي باتجاه السليمانية حيث واصلوا السفر فيه إلى مسافة مائة ميل تقريباً حتى وصولهم إلى الممر في دربند أودار الحراسة في بازيان، على النتويدات القصبة لجبال كردستان.

وبالاتجاه شرقاً واصلوا شق طريقهم حتى أصبحوا في ضواحي المدينة نفسها. الطرق حجرية ولكنها ليست شديدة الانحدار، وقد اتجهت

إلى الوادي بصورة رئيسة، صعوداً إلى ممر أو نزولاً منه بين وادٍ لآخر. الروابي مكسوة بالأشجار وإن لم تكن ذات ارتفاعات شاهقة، عدا قمة عالية في جبل غوردون الساحق، وتكللت تلك الروابي بالثلوج فتحدرت عدة انهار جليدية منها في الوديان ذات المواقع العالية، حيث سقت كثيراً من السهول الصغيرة التي زرعت بالرز.

ونزولاً عند رغبات محمود -باشا السليمانية- أقاموا مخيمهم خارج المدينة حتى يمكنه الاستعداد لدخولهم عاصمته صباح اليوم التالي، لأن اليوم والوقت يخضعان إلى معتقدات فلكية خرافية معينة.

ومع ذلك، فقد كان الباشا رجلاً كريماً ومهذباً يتجاوز المألوف، فقد امتطى صهوة جواده عصراً لتقديم احتراماته إلى ريج، غير مبال بالرسميات تماماً. المشهد بهيج وإن بدا مجانفاً للذوق، فقد اعتلى الباشا ظهر حصانه وحيداً تحيط به ثلة من الكرد طوال الأجسام سيراً على الأقدام، يرتدون الملابس بألوان قوس قزح-الوردي والأصفر والقرمزي بصورة رئيسة. وعلى هذا، فقد اصطف الحرس السباهيون وأدوا التحية عند وصوله. ثم ظهر ريج خارج خيمته لاستقباله، في وقت ترجل فيه الباشا وسط هتافات أطلقها أتباعه. وبعد مصافحة بكلتا يديه دخل الخيمة فجلس كلاهما على قطعة شال هيئت على عجل. ولكن بعد بعض الصعوبة، استطاع كلوديوس إقناع الباشا في اختيار الطريقة الاسهل لجلوسه وهي القرفصاء (رجلا إلى رجل)، أما الباشا فقد أصر على أكثر الأوضاع الجسدية إختراما وصعوبة بهيئة

الركوع مستنداً على عقبيه. (وهذا هو التفسير الذي اورده ريج!)

رحب الباشا بمقدم ريج إلى كردستان المرة تلو المرة، وبكثير من عبارات المجاملة المزوقة، ودار بينهما ترديد لفيض من الألطاف بصوت مسموع لصالح الاتباع. دخنت الغلايين في تلك الجلسة، ووزع الشربت وماء الورد وإحضار البخور. وبعد مضي الوقت، انصرف الباشا مودعاً بمثل ما استقبل به. وفي غضون ذلك الوقت، قدم أحد التتار من بغداد حاملاً نبأ وفاة الملك جورج الثالث في التاسع والعشرين من كانون الثاني، وكذلك وفاة دوق كنت (والد الملكة فكتوريا) في الرابع والعشرين من الشهر نفسه وهذا بالطبع، تطلب كثيراً من المراسلات، فالأنباء كان لابد أن ترسل إلى الهند فوراً. بدا أن وصول هذا التتري بتلك الأنباء الرسمية من مدينة استنبول قد أثار في قلب باشا بغداد مزيداً من عدم الثقة بالمقيم ريج، فقد ظن كما يظهر انها أوامر لإثارة الاضطرابات في كردستان.

وأخيراً، اتخذ قرار بأن العاشر من آذار هو اليوم الذي حدده الفلكيون لدخول ريج مدينة السليمانية واستقباله فيها استقبالاً رسمياً. على هذا، فقد جاء عثمان بك، الأخ الأصغر للباشا، تصحبه ثُلّة من الكرد الراجلين لتولي إرشاد ريج إلى المدينة.

وكان أمر التوجه إلى المدينة على وفق الترتيب الآتي:

- تقدم أحد المرشحين، ثم عازف البوق الخاص من حاشية ريج وحامل لوائه، وألحان إنكليزية يؤديها ذلك العازف.

– ثلاثة خيول مقادة يتبعها مدير إدارة شؤون الخيول، ثم مجموعة من الراجلين المسلحين الخاصين بخدمة المقيم، سار بعدهم السباهيون بطبولهم ونایاتهم. وبعد ذلك ظهر ريج على صهوة جواده (فنفار)، مع اثنين من حاملي الرُكُب مسلحين بالفؤوس الحربية والدروع، ويعدهم تقدم السيد بيلينو والدكتور موراندو يتبعهما عثمان بك على جواده العربي الجميل مع ثلاثمائة كردي في أعقابه سيراً على الأقدام.

ثم تقدم أعضاء مجلس الباشا، أعقبهم مدير خزينة ريج ومجموعة من التابعين على ظهور الخيول، فانتهى بهم الركب.

كانت الحشود، التي راقبت هذا التجمع، كبيرة حيث لم يسبق أن رأى أغلبهم أوربياً بالمرة. أما مدخل القصر فكان وضيعاً وسخاً، يقع أسفل شارع جانبي، ورتب بقصد الدفاع، ولكن أعضاء الوفد ألزموا بالرجل والاستدارة لارتقاء سلم حسن الدرجات أفضى إلى بهو الاستقبال الرسمي.

استقبل الباشا ضيفه ريج، وقاده للجلوس على كرسي في صدر المكان. وقُدم كرسيان لكل من بيلينو وموراندو، في حين جلس عثمان بك ورجال الباشا على سجادة سميكة من اللباد، وغصت قاعة الاستقبال بضباط الباشا وأتباع ريج. تجنب المقيم الخوض في السياسة التي كانت مضطربة حينذاك، فقد أتخذ الاكراد جانب تركيا، واتخذ البعض الآخر جانب الفرس، فهو، بدلاً عن ذلك، بحث أحوال القبائل

والعشائر المختلفة متسائلاً عن عاداتهم... الخ وقد كشف هذا عن موضوع رائع راح الباشا يتحدث من خلاله عن تفوق عشيرته مقارنة بجميع العشائر الأخرى الأقل شأناً منها. وبمرور وقت مناسب، انصرف إلى بيت مخصص له، برهن على أنه بيت واسع، وإن كان قذراً وفي حالة متداعية. أثار ذلك اشمئزاز ريج، ولكن لا بديل لذلك. وعلى هذا، فقد تظاهر بأنه قد وجده ملائماً، وذلك من خلال ما كان يتمتع به من سلوك سمح في مثل هذه الأحوال. كان عليه أن يرسل آغا ميناس لإحضار ماري وحاشيتها من النساء، لأن الكرد كانوا متطيرين لدرجة لم يسمحوا معها للمقيم ريج بمغادرة المدينة في ذلك اليوم.

أمضى ريج وقته يتفقد حال البيت قبيل وصول زوجته، وهو بيت وصفه بأنه أفضل أنواع البيوت المتاحة في السليمانية- بناء مربع الشكل ذو طابق واحد، قائم على دور تحتاني أسفل البيت يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام، مبني بآجر من اللبن ومكسو بطبقة من الجبس. وسطحه منبسط يتكون من عوارض خشبية تعلوها طبقة من التراب، والبناء قائم في فسحة واسعة مفتوحة، ينقسم إلى فناءين بواسطة جدار يوصل البيت في كل جانب منه قريباً من وسطه، مقسماً الحديقة والبيت إلى حرم وديوان (ديوانخانة). الديوان بمثابة قاعة للاستقبال لصاحب الدار، حيث يوجد فيها جميع الخدم من الرجال، وليس ثمة اتصال بين قسمي البيت، فطريق الاتصال الوحيد يتم بواسطة باب في جدار الرقعة المكشوفة. وهذه الرقعة خططت لتكون

حديقة بيتية زرعت فيها الأشجار الصغيرة والكبيرة والأزهار وفيها ساقية ماء جار صغيرة. وفي كل جزء من البيت هناك غرفة مفتوحة تستخدم للنوم صيفاً، حيث لا ينام إلا قليل من الناس على سطح الدار.

اعتادت عائلة ريج باستمرار استخدام الأسرة المطوية للنوم حتى لا تضطر إلى الرقاد على الأرض أو على قطع السجاد. وبدا أن البراغيث كانت الحشرات المؤذية الرئيسية هناك، وإن كانت أمهات الأربع والأربعين والعقارب والأفاعي كثيرة نوعاً ما. وريج، عند وصول امتعته، نصبت له احدى الخيم الواسعة المزركشة، حيث استخدمت تلك الخيمة غرفة للاستقبال، بدلاً من الغرفة القذرة في البيت.

مضى عليهم أكثر من شهر في مدينة السليمانية، التي أكرمت فيها وفادة ريج وحاشيته ووفرت لهم كل أسباب التسلية التي استطاع مضيفوهم التفكير فيها، كانت إحدى تلك التسليات الرئيسية مصارعة طيور الحجل التي خلت أرجلها من المناخس، والبراعة الفائقة تمثلت في مسك أحد تلك الطيور بقفاز رقبة الطير الخصم. لقد أخضعت تلك الطيور للترويض ودون أن تقص أجنحتها، كما أن كل واحد منها يعرف اسمه، فضلاً عما تتمتع به من رعاية كبيرة. وهناك مهارشة الكلاب التي تعد رياضة هي الأخرى، علماً بأن تلك الكلاب كانت من السلالة التي اعتاد الرعاة تربيتها، غير أن ريج وجد تلك الرياضة عرضاً يثير الغثيان. أما مظاهر التسرية الأخرى، فهي عوض

المهارة- التسديد على الأهداف واللعب بالسيوف ومباريات المصارعة البدنية. وهناك الولائم وحفلات الاستقبال التي يطلق عليها ريج اسم «نادي» حيث يلتقي مختلف الأطراف والزعماء وضباط حاشية الباشا في الساحة (الميدان) خارج قصر الباشا فيتبادلون الأحاديث وترديد القيل والقال. منهم استطاع ريج معرفة الشيء الكثير عن عوائل ونبلاء الأقاليم الأخرى، بضمنها السليمانية. أما باشا العمادية، على سبيل المثال، فقد كان ينظر اليه بأعلى ما تكون عليه الإمارة والعظمة لأن عائلته تنحدر من الخلفاء العباسيين.

لقد عاش في مركز سلطوي عظيم مغاير للنمط العائلي السعيد الذي كان فيه محمود - باشا السليمانية.

ومن ناحية أخرى، كان الحمام على الدوام مبعث سرور نفسي كبير، كما هي الحال في جميع الأقاليم التركية. يصف ريج الحمام هناك بأنه بناية رائعة، حسنة الاضاءة، وبأنه أحد أجمل الحمامات التي سبق أن شاهدها في تركيا، عدا ما هو موجود منها في المدن الكبيرة جداً. كان واسعاً، يحتوي على أحواض ماء كبيرة فيها حنفيات، وجدرانه بلطت بالإسمنت الأبيض وزينت بالأرابيسك. سارت الأيام على نحو مرض تماما، وقد قام وجهاء الكرد بزيارات متواصلة، كان ريج فيما مضى قد تعرَّفَ على قسم منهم في بغداد، بينما القسم الآخر ضم أصدقاء جدداً، مما استوجب، والحال هذه، رد تلك الزيارات. ومن خلال تلك الزيارات جمع ريج معلومات عن هذا الجزء من الشرق غير المعروف

تماما، وحكى لهم، مقابل ذلك، شيئاً عن إنكلترا وحكومتها وجيوشها وقوانينها، نظراً إلى أن المفهوم السائد لدى الكرد عن فرنكستان (بلاد الافرنج) كان مفهوماً أولياً ساذجاً ينبع بصورة رئيسة عن حكايات الفرس والأتراك الذين كانوا يقيمون في الممتلكات الانكليزية في الهند. لقد أصبح كثير من هؤلاء الكرد على ود كبير مع ريج، ومن بين الكرد الآخرين كان الباشا نفسه على مثل ذلك الود. كان ينتمي إلى العشيرة اليابانية المعروفة التي أسبغت اسمها على المقاطعة، وهي قبيلة عسكرية. مقابل الفلاحين الذين كانوا مجرد حراث للأرض في ذلك الجزء من كردستان على أقل تقدير، فهم كالعبيد من الناحية العملية. تماسك الكرد المتعصبون فيما بينهم لبني قومهم، وأضمروا حباً جماً واخلاصاً كبيراً لزعمائهم. أما ريج، فقد تحدث معهم باللغة التركية، ولكنه لم يلبث ان استطاع، بعد فترة قصيرة، من جعل كلامه مفهوماً باللهجة المحلية.

ومن خلال مظاهر التسليات التي تمتع بها ريج، اعتادت ماري إزجاء وقتها مع زوجة الباشا، لأن ذلك عملياً كان بالنسبة لها التسلية الوحيدة لتعذر تحركها خارج حديقتها دون وضع الحجاب الثقيل (البرقع) على وجهها وارتداء العباءة الفضفاضة. راقت لها زوجة الباشا التي كانت في مثل سنها، بالإضافة إلى كونها امرأة رقيقة ودية كرست حياتها لولديها الصغيرين اللذين قدرت لهما الحياة بعد تفشي مرض الجدري الذي كان بمثابة السوط الذي ألهب ظهر

كردستان. وعلى هذا، فقد كانت ماري متلهفة على إجراء التلقيح ضد ذلك المرض بالمصل الذي وإن عرف في استنبول منذ سنوات كثيرة، إلا أنه لم يصل إلى هذه المقاطعة النائية بعد. في الثامن من شهر حزيران التحق بهم السيد بيل، الذي عين بدلاً عن السيد هاني. كان بيل طبيبا جراحاً، لكنه في وضع صحي مُتَرَدٍّ نوعاً ما إبان ذلك الوقت. التحق بالفريق للإفادة من الطقس البارد والخروج من مدينة بغداد صيفاً. وعلى الرغم من التغيير الحاصل للجميع، لم يشعر كلوديوس بتقدم في صحته، فقد ارتفعت درجة حرارته فشعر بوطأتها الشديدة عليه. تقع السليمانية في واد عميق، تبعد حوالي ميلين عن سلسلة الجبال الصخرية الجرداء التي تعكس الحرارة، مع ما هنالك من ريح حارة بغيضة في أغلب الأحيان. استبد بالمقيم شوق للتغلغل في الجبال شرقاً، تلك المنطقة المجهولة لاغلب الناس، التي لم ترسم لها الخرائط المناسبة. وعلى هذا، فقد وضع خطة للقيام بجولة شرع ينفذها في منتصف شهر تموز. كان هدفه الذهاب إلى (سنة) – الإيالة الكردية في كردستان بلاد فارس. كان الطريق في بدايته جبلياً تكثر فيه اشجار الدلب الشرقي فضلاً عن أشجار الحور والصفصاف والجداول الصغيرة اتي تشاهد في كل مكان.

سافروا بنفس الأسلوب الذي استخدموه في سفرهم من بغداد، غير أن معهم الآن، بالإضافة إلى مجموعتهم، شخص آخر يدعى «عمر آغا»– أحد افراد عشيرة الباشا، الذي كان بمثابة أمين الإمدادات

والإرشـاد في الطريق (مـهـمـا نـدار)، والذي سـاعـد على تأمين احتياجاتهم الضرورية من قرية إلى أخرى. لقد راق هذا الرجل للمقيم كثيراً وسره أن يكون أحد أعضاء الفريق المسافر. أخذ الطريق بالتعرج والالتـواء في قلب الجـبـال، مـحـاذيا الوديان التي زرعت بالحـبـوب والتبوغ، وآتت الأثمار في البساتين وحقول الكروم أكلها. كان السفر، كما يمكن أن يتصوره المرء، قاسياً في أغلبه، والطرق كثيرة الصخور، شـديدة الانحـدار، بخـاصـة عند مـغـادرتهم ممرات الوديان وتسلقـهم الصـعب خـلال الممـرات الجبليـة. ومن هناك كـانت مـاري سـتـمـتطي حصانها القزم الذي أهداه لها عثمان بك - أخو الباشا.

انتهت بهم رحلة الأيام الخمسة إلى «أحمد كلوان» حيث اقيم لهم هناك مكان لايوائهم بأمر من حاكم المنطقة. مكان يسعد النفس إلى جوار نبع مـاء رائق ينسـاب جـدوله خـلال مـخـيـمـهم، وهم إذا كـانوا ينشدون الظل، فثمة أجمة من أشجار الدلب إلى جوارهم. شاهد ريج في هذه البـقـعـة ضفـدع أشجار أخضر يتسلق مطارداً الذباب والجراد، ورأى أسرابا من البعوض كانت بمثابة اللعنة في هذا المكان. وبعد ايام قليلة باردة بهيجة، سار ركبهم إلى بيستـان - حاضرة المنطقة. بعد مـيل سـيئ، فـضـلا عن كـونه مكاناً مـوبوءا أصـيـب فـيـه أغلب أفـراد المجموعة بمرض شديد.

يقع هذا الجزء من كردستان على الحدود الفعلية لبلاد فارس وتركيا كِلْتَيْهِمَا، ولذا كـان عرضة لغارات متواصلة أشار إليها ما شاهده من

قرى وتحصينات مهجورة.

عند وصولهم إلى بيستان، سروا كثيراً بحسن وفادة آل (بلك) بهم، ولكن المسافرين الذين قاسوا كثيراً من الحمى، لم يعد بإمكانهم الاستمتاع بذلك الاستقبال كثيراً. وقريباً من المكان هناك خرائب قديمة، وصخور قيل أنها كانت في الأصل منحوتات، بيد أن ريج وبيلينو لم يكونا في وضع يغريهما بالمعاينة الدقيقة، ولذا اكتفيا بإلقاء نظرة عابرة على سور بدا أنه يحيط بالصخور وبعض الأجم المترامي حول المكان، الذي ظنوا انه يرقى إلى العهد الساساني. هذا هو ما حاولا القيام به.

تدهورت صحة ريج بشكل خطير، مما دفع السيد بيل لفصده تخفيفاً لآلامه، وبالإضافة إلى ذلك، كان ريج يعاني من التهاب شديد في عينه. وحالما واتتهم الفرصة لمغادرة بيستان، أعاد ريج كلاً من السباهيين والخدم المرضى والأمتعة الفائضة إلى مدينة السليمانية. وفي غضون ذلك، واصل هو وبقية الرجال والحاشية الصغيرة، طريقهم نحو مدينة زسِنهس. وفي كل قرية توقفوا فيها، خرج حشد من القرويين لحراسة مخيمهم ليلاً. لقد أضفى وجود عمر آغا كثيرا من الاطمئنان إلى نفوسهم، والترتيبات التي قام بها لضمان سلامتهم كانت ضرورية للغاية، لأن الكرد المتشردين كان يمكن مشاهدتهم حواليهم في كل مكان.

وبالتغلغل شرقاً، مروا قريباً من بحيرة «زيري بار» مخترقين سلسلة

جبال زاكروس، وتقول الاسطورة المتعلقة بالبحيرة، كما نقلت إلى ريج أن تلك البحيرة غمرت مدينة شريرة، لدرجة أن الله تعالى أمر أن تبتلعها هزة أرضية عنيفة-وهي قصة معروفة على نطاق واسع. وقريبا من هذا المكان سعدوا كثيراً بكرم وفادة أحد البيكات، الذي سبق أن التقوه في السليمانية. ولكن، بعد أن أمضوا يوماً واحداً فقط، شرعوا برحلة استغرقت وقتاً طويلاً، وصلوا في نهايتها إلى «سِنه».

وفي هذا الجزء من الرحلة تغير المشهد تماماً، فقد أصبحت الجبال جرداء امتدت كأنها بحر من رواب عارية، وشوهدت هنا وهناك تلال اصطناعية وخرائب أخرى لم يجر ريج الفحص عليها. لقد أصدر والي «سِنه»، الذي كان غائباً عن المدينة، أمرا بوجوب تهيئة قصره لهم، غير أن الفريق التمس حلاً وسطاً مقترحين إقامة مخيم لهم في الحدائق. كانت المنطقة رائعة إلى حد بعيد، أحاطت بها أشجار الحور، مع أزقة طرزت بنفس نوع الأشجار تقضي إلى دار جنائنية ذات بركة جميلة عليها نافورة، وحول الحوض ضفت، بشكل آسر، سلاسل كبيرة فيها أثمار متألقة الألوان أضفت على المكان زخرفة جميلة. كان جناح القصر شاهقاً طلي على وفق الأسلوب الفارسي. هذا وقد زرعت في حديقته الأشجار المثمرة والشجيرات الصغيرة والأزهار. كان هذا، في واقع الحال، أحد أجمل الأماكن التي شاهدها ريج. وفي اليوم التالي ذهب لتقديم احتراماته لابن الوالي الصغير الذي كان تحت رعاية أحد أعمامه وإرشاده، ويقوم بمهمات التشريفات في غياب أبيه. وكما هي العادة فقد

ترددت في تلك الجلسة كلمات المديح والإطراء، وتناول الجميع القهوة والشربت.

وبعد انصرافه، ذهب كلوديوس لمعاينة الجناح الذي شيد حديثاً وكذلك بهو الاستقبال، الذي غشي جداره بالمرمر الملون على ارتفاع نحو أربعة أقدام، وفوقه علقت صور تمثل أحداثاً تاريخية فارسية مختلفة، من بينها صورة للإسكندر الكبير، بوجه امرأة، في حين يسود الاعتقاد انه كان شاباً وسيماً أمرد. وفي قاعة أخرى ثمة صور تثير استغراباً أكبر، وذلك لما قيل انها صور لشخصيات أوربية شهيرة - صورة إمبراطور روسيا وأمير ويلز وحاكم الهند العام ونابليون. ومع ذلك، فليس هناك في مظهرها الخارجي ما يربط بينها وبين تلك الشخصيات، مما جعل ريج يصرخ محتجاً بأنها صور مشوهة فظيعة، حتى وإن كان الرخام المعروق الذي يحيط بها رائعاً.

في المدينة جامع فخم وحمام ممتاز وخان كبير، وهي معالم منحت ادارة الوالي مصداقية وسمعة حسنة، ولكن لسوء الحظ كان رجلاً قاسياً وجشعاً إلى درجة تتجاوز الحدود، فقد سحق طبقة التجار واجبر كل واحد منهم بدفع ضريبة سنوية ثقيلة على بضائعه.

أمضوا عدة أيام في زيارات روتينية أعقبتها مقابلات رسمية وولائم، وفي غضون هذا الوقت غادر بيلينيو الفريق في جولة آثارية إلى همدان وكرمنشاه، التي كانت الثانية منهما على مسافة نحو ستين ميلا جنوباً، غير أن الرحلة تكشفت عن شؤم بالنسبة إلى هذا الشاب الألماني الذي لا

يعرف الملل، فقد أصيب بنوع من الحمى. وهو، وإن أمكنه الالتحاق بالمقيم في الموصل بعد قرابة ثلاثة شهور، إلا أنه لم يتماثل للشفاء من آثار تلك الحمى وتوفي في تلك المدينة في تشرين الثاني. ومع ذلك، فإن مثل هذه الحوادث متوقعة. وها نحن، ما نزال مع فريق ريج الذي انطلق ثانية في آخر يوم شهر آب متجهاً نحو الشمال. كان الفريق منهاراً لأن أغلب الحريم كنّ يعانين من الحمى، ولو أن كلوديوس كان في وضع صحي أفضل والتهاب عينه خف كثيراً. وبالطبع، فقد كان الطريق خلال منطقة جبلية لم تمتد إليها يد الرعاية بسبب ارتفاعها الشاهق، ولم يستخدمها الكرد إلا مراعي صيفية فقط. والطريق في أغلب أجزائه ضيق شبيه برف صخري نائي. وريج، كما نعلم، لم يكن بإمكانه مقاومة هذه الارتفاعات، وعلى هذا، فقد اضطر في بعض أقسامه إلى الترجل بسبب الدوار الشديد.

وداهمته نوبة حمى عنيفة فوصل بعد رحلة يوم واحد خائر القوى. كان الهواء أكثر نقاء والشمس معتدلة الحرارة، ومع ذلك، فقد ساءت صحته. ثم إن الجهد الذي بذله في الرحلة عبر طرق وعرة،

أصابه بدوار ثقيل، وبهذا الصدد أُثير مرةً أو مرتين، سؤال عما إذا كان بإمكانه مواصلة التقدم في تلك المرحلة أم لا. برز هذا السؤال نتيجة لما اقترفه بعض أفراد قافلة ماري من خطأ، فقد اعتاد أولئك الرجال السير في المقدمة دوماً، لأن المألوف هو ألا تسير الحريم جنباً إلى جنب مع سيدها. اجتازت ماري وحاشيتها القرية التي كان مقرراً قضاء الليل فيها، في وقت

كان ريج قلقاً للحاق بها، بيد أنه قد سيطر عليه الإنهاك الشديد لدرجة تعذر عليه التحرك واستلقى يلحف بالسؤال تلو السؤال عن سلامتها. وهنا يمكن بيان أن آغا ميناس - المترجم الأول - والسيد بيل عادة ما كانا يلازمان ماري مع خدمها وحرسها القليل، لأن من غير المألوف، وفقاً للتقاليد المرعية، أن تكون إلى جانب زوجها، لا سيما عندما يحدث أن يقابله أي واحد من الوجهاء أو الحكام المحليين الذين ربما أرادوا مرافقته في السفر.

وقريباً من (بانه) فوجئوا بإقامة مخيم أعده لهم والي زسِنهس إلى جوار عين ماء باردة تحت بعض أشجار الصفصاف الرائعة. وجاء لزيارتهم فتى -ابن الوالي- وهو أكبر من أخيه الذي التقوه في عاصمة المنطقة، يردد على مسامعهم كلمات اطراء أنيقة باللغة الفارسية ويطرح الأسئلة عن إنكلترا، ثم أرسل لهم، الطعام من مطبخ الوالي الخاص، وفي أثناء ذلك شعر ريج بمزاج أفضل للمرة الأولى بعد نوبة الحمى الحادة التي ألّمت به، وبقدرة أكثر على الاستمتاع بذلك الطعام. ذهب ريج والسيد بيل لتقديم احتراماتهما للوالي، فوجداه شخصاً أشبه بريفي جلف، لا ينم عن شخصيته أي تعبير يسر الناظرين، فقد كان حديثه سلسلة لا تنقطع عن عمر ريج ورايته وأعراض مرضه. لقد عاش خدمه في رعب شديد منه، ووجهه المقطب ادخل الرهبة في نفوسهم، وعرف عنه أنه كان رجلاً جشعاً إلى حد الضراوة، قاسياً وحقوداً لا يرضى بغير الانتقام بديلاً، وقد انتزع، بواسطة الضرب بالعصا على أخمص القدمين

(استخدام الفلقة) جميع النقود من الفلاحين البؤساء في المقاطعة . وفي اليوم التالي رد الوالي على زيارة ريج بزيارة اتسمت بأقصى ما يمكن من ود، وتساءل عن نوع الهدية التي يمكن تقديمها إلى ريج، والكتب، كما نعلم، كانت على الدوام تمثل الشيء الذي يبحث عنه ريج، وكتاب «تاريخ الكرد»، الذي هو تاريخ كردستان الشهير، كان أحد المخطوطات الذي تلهف على اقتنائه فاخبر مضيفه بأمره . وعندها أجابه الوالي أنه على علم بوجود نسخة منه وسوف يدبر أمر الحصول عليها . وبالفعل، فقد حصل ريج على ذلك الكتاب، ولكن من غير المؤكد أن تكون النسخة جاءت من نفس المصدر الذي ذكره الوالي .

لم يرق الوالي وشعبه للمقيم ريج، وإن أظهر بعض الضباط قدراً مقبولاً من اللطف والتهذيب نحوه. عدّهم خانعين وأهل غدر وخيانة، وليست أعمال الوالي الشائنة ضدهم أقل منها قسوة وهمجية . وفي اجتماع لعبت فيه الخمرة بالرؤوس، أصبح الوالي صفيقاً لدرجة نقض فيها الأمر المتعلق بالبغال المخصصة للمقيم ريج، والبغال الوحيدة التي أرسلت إليه كانت قد صودرت قسراً من مرشد قافلة تعيس أعادها له ريج فوراً . لقد خلق هذا الموقف كثيرا من الإزعاج، لأن كلوديوس لم يعتد مثل هذا النوع من المعاملة، ولذا أعلن أنه يفضل حتى السير على الأقدام تاركاً متاعه لكي يرسل بعده . حدث بسبب هذا الموقف إرباك شديد لدى جميع أفراد حاشية الوالي التعساء الذين تحركوا على ظهور خيولهم رواحاً ومجيئاً في محاولة منهم لتسوية الأمور . وعلى أية حال، فبعد أن

استرد الوالي وعيه، أرسل رسالة يذكر فيها حدث خطأ إجرائي، عارضاً حصانه الخاص للمقيم وراجياً منه الالتقاء ثانية. كان من الصعوبة بمكان رفض هذا الرجاء، وبعد انتهاء المقابلة انطلق ريج الذي كان قد تأخر إلى ما بعد منتصف النهار. أفضى بهم الطريق إلى السليمانية إلى سلوك ممرات جبلية سمت فوق القمم الشاهقة. تردت سمعة تلك المناطق بسبب انتشار اللصوص فيها، وقد هوجم مخيمهم في إحدى الليالي، غير أن ما سرق لم يكن أكثر من قطع فضية ومكابح خيول فقط.

ينتمي هؤلاء الكرد في بلاد فارس إلى عشيرة تختلف كلياً عن العشائر الموجودة في السليمانية وتتميز عنها. أضف إلى أنهم قوم يتصفون بالفظاظة وسوء الطوية والريبة، ولا يمكن الاعتماد عليهم.

وفي رحلة العودة رفضت البغال التي تحمل الأمتعة من مواصلة السير مرة أو مرتين، فعرضت القافلة بذلك إلى كثير من الإعاقة والإزعاج. ومع ذلك، فقد كان للتهديدات والفرامين المرسلة إلى الزعماء المحليين، في آخر الأمر، تاثير في إجراء ما يلزم، غير أن الرحلة لم تبعث السرور في نفوسهم، فقد كانوا على الدوام وجلين من الهجوم عليهم وإن كانت القافلة كبيرة بما يكفي. كان الطريق رائعاً حد الإسراف، ولذا وصفه ريج بأنه بحر من جبال تنتشر الأحراج في كثير من أجزائه وتجري الجداول في كل مكان. وبعد رحلة استغرقت خمسة أيام، حلوا ثانية في إقليم مضيفه الكرماء ولاحت لهم قمة جبل غودرون المكللة بالثلج محلقة في السماء اللازوردية –يا له من منظر بهيج تتراص فيه مدينة السليمانية

القريبة من قاعدة ذلك الجبل – تلك المدينة التي استحوذت على خيال ريج. ولابد من الإشارة إلى أن الرحلة داخل بلاد فارس لا تبعث السرور في النفس كثيراً، لكنها ممتعة من الناحية الجغرافية بصفة خاصة، لأن ريج وضع خريطة لذلك الجزء من البلاد الذي لم يسبق أن أجري عليه المسح قط، وأمكنه عياناً مشاهدة الناس والأماكن التي كان يعرفها سمعا فقط. وعند دخولهم مدينة السليمانية جرحت مشاعر ريج كثيراً، لأن خططهم لإحضار المصل الخاص بالتلقيح قد أخفقت تماما، وذلك لأن الشخص الذي قدم من بغداد لم يكن مؤهلاً قانوناً والطلب على أخذ المصل غير شرعي، ونتيجة لهذا الإجراء، وبدلاً من الوقاية من المرض، توفي كثير منهم متأثرين بالجدري، من بينهم طفل رضيع – ابن عثمان بك – أخي الباشا.

قاموا بزيارة مواساة وتعزية لعثمان بك، الذي تقبل تلك الزيارة وعبارات ريج المؤسية بإيمان صادق بقضاء الله وقدره، وهو شيء معروف في الشرق.

أمضوا هنا شهراً استمتع فيه ريج كثيراً، فقد شغف حباً بهذا المكان وأهله. ووصفه لحفلة زفاف حضرها بصحبة السيد بيل كان وصفاً مثيراً، فقد ارتدى العريسان عباءتين مع شالين وضع كل واحد منهما على رأسيّ العريسين لتجنب التحديق فيهما خوفاً من الحسد. أقيم الاحتفال في أحد البيوت، الذي لم يتجاوز ارتفاع سطحه ستة الأقدام عن الأرض، حيث كان بمثابة شرفهم لعدد كبير من الناس. حضر الحفلة جمع غفير

من مختلف الأعمار والطبقات، ابتداء من وجهاء الكرد، وحتى الفلاحين الذين ارتدوا جلود الأغنام. وكان الرقص، على ما يبدو، سمة مميزة في تلك الحفلة، اذ تواصل، وهو حينما تنتهي منه مجموعة تأخذ مجموعة أخرى مكانها فوراً، ويحدث كل شيء تحت إشراف رب البيت طبعاً. وإحدى تلك الرقصات الغريبة التي تثير الفضول، رقصة أدتها سيدات متألقات ببدلات حريرية موشاة بالتريتر، ولكن دون حجاب من أي نوع ! كانت حركة إيقاعية رائعة تسر الناظرين. أما ريج فقد خطط بالرسم هذا المظهر غير المألوف إلى حد ما في بلاد الشرق والملابس الشائعة فيه. ارتدت النساء السراويل التركية الفضفاضة، وثوباً مربوطاً بابزيم للزينة، وفوق هذا، ارتدت كل واحدة منهن ثوباً نسائياً مزرراً عند الرقبة، وإن كان مفتوحاً أسفل القسم الأمامي، وفوق ذلك كله ارتدت ما يعرف بالمشلح من الساتان، أما لباس الرأس، فهو غريب في بابه، لأنه مخروطي الشكل، يتكون من مناديل حريرية أو شالات ملونة، مثبتة بالدبابيس ليتكون منها ما يشبه التاج وتنساب أطرافها أسفل الظهر. كان الرقص يشكل متعة كبيرة للنساء الكرديات، وغالباً ما كن يقدمن بعض الخدمات الطوعية لكي يحضرن حفلات الزفاف، وإذ كن غير مدعوات، فهن، مثلا يجلبن معهن هدايا للعروس مقابل السماح لهن بالحضور. اعتدنا الرقص دون حجاب، وإن كن يدققن كثيراً في ارتداء تلك الحجب لدى مغادرة البيت. والباشا،الذي أدرك مدى شغف ريج بجمع المعلومات عن التقاليد والأنساب والتاريخ، أو

بالاختصار كل ما له علاقة بعشيرته أو العشائر في الأجزاء الأخرى من كردستان – اعتاد إصدار أوامره إلى أقربائه المسنين والملالي والقصاصين للحضور وإمتاع كلوديوس بأحاديثهم. وهو ما فعلوه ساعات طويلة في الحقيقة. استطاع ريج من خلال كثير من الحكايات المشوشة و المحترفة ربط كثير من المعلومات بعضها ببعض ليخرج منها بحكاية متكاملة. كذلك جمعت له الكتب القديمة وأضابير الوثائق التي نقل منها ودون كثيراً من الملاحظات نظرًا إلى أن الحرص الشديد الذي حفظت به تلك المقولات بلغ درجة استحالة بيعها له.

وفي يوميات رحلاته التي نشرت مؤخراً يصف كثيراً من سجايا الكرد وتقاليدهم. ولتلك الميزات والتقاليد الخاصة بمدينة السليمانية، كان يحتفظ بإعجاب شديد، إذ بدت له المدينة بأسمى ما يكون عليه التفتح والحب. والكرد، بكونهم عرقاً، كان ينظر إليهم بشيء من الريبة، كونهم قوماً غلاظ الطباع وقطاع طرق، لكن المرء يستطيع إدراك أن المقيمين منهم قريباً من حدود فارس هم الذين لا يظهرون وداً اتجاه الآخرين.ويتصرفون بعض الأحيان بطرق خيانية.

وقبل رحيلهم بعشرة أيام توفي الابن الصغير للباشا بالجدري، وقد سبب هذا الحادث حزناً شديداً للباشا وزوجته، لأن الابن الوحيد الباقي على قيد الحياة كان في السابعة من عمره فقط، وقد أخذ رهينة في كرمنشاه. كان الباشا معنياً جداً بحياته العائلية والمنزلية، وهي صفة نادرة عند الفرد التركي، وكان شديد التدين أيضاً ومتعصباً. ولذلك

كان من الغرابة بمكان حبه للتحدث طويلاً مع كلوديوس، الذي كان يعلم أنه مؤيد قوي للعقيدة المسيحية، ومع ذلك كان مخلصاً يتحدث معه بود عن جميع الأمور المتعلقة بحياته ودينه وآرائه السياسية والصعوبات التي تكتنف مركزه الوظيفي.

غادرت العائلة في الواحد والعشرين من تشرين الأول، وها هو يكتب:

«أغادر كردستان بأسف حقيقي، لا تكلف فيه. لقد اكتشفت فيها دون توقع أن شعبها من أفضل الشعوب التي التقيتها في الشرق، في أي وقت مضى. عقدت فيها صداقات وطيدة وعوملت رسمياً بدرجة عالية من الإخلاص والعطف وحسن الوفادة، التي لا حدود لها، والتي أخشى أنه يجب أن لا أتطلع لمثلها ثانية لأن ذكراها معي سوف تبقى بقاء الحياة.»

ان الملاحظة السوداوية التي أوردها تثير الأسى في قلب الإنسان، خاصة أنه كان في الرابعة والثلاثين من عمره فقط، ولكن مما لاشك فيه أن تلك السوداوية قد عززتها سنوات طويلة من تردي صحته، ناهيك عما أطلقه عليه رؤساؤه من انتقادات متواصلة جرحت على الدوام مشاعره النفسية المرهقة. وبعد مغادرة السليمانية اتجه الركب غرباً، ومن هناك شقوا طريقهم شمالاً. لم يزل ريج يحظى بصحبة صديقه القديم عمر آغا، وبنفس الطاقة الضرورية لتلك الصحبة كالسابق. وبانتهاء أربعة أيام بلغوا التون كوبري، المدينة التي زاروها في رحلتهم إلى

استنبول . لقد دونوا ملاحظاتهم عن كثير من تلك التلال الاصطناعية المنتشرة على امتداد الطريق الذي سلكوه وعلى مسافات تفصل بين التلال ما بين أربعة إلى ستة أميال. لعلها نقاط حراسة على الطريق في مواجهة الغزاة من بلاد ما بين النهرين، في الأقل كان هذا مجرد رأي اقترحه كلوديوس.

وحينما واصل المسافرون رحلتهم إلى أربيل، استقبلهم الحاكم على رأس مجموعة من الحرس يقرعون النقاريات (الطبول الصغيرة)، وهو إجراء يقتضيه الموقف. لم تدق للمقيم هذه المراسيم العامة لدخول المدينة، لكن ذلك كان جزءاً من الأتيكيت المتعارف عليه وما عليه إلا الأذعان للامر. أمضوا في هذه المدينة ثلاثة أيام كان ريج خلالها منهمكاً في مسح المدينة والسهل الذي ترامى بعيداً في قاعدتها. شرع في يقيس الآثار الباقية، وعاد ورسم التخطيطات وتصحيح جميع ملاحظاته مع تجميع كل المعلومات اللازمة، قدر استطاعته، تلك المعلومات التي تخص المدينة القديمة والمنطقة المحيطة بها التي شهدت كما يفترض المعركة الأكثر حسماً التي قام بها الإسكندر ضد داريوس في (٣٣١ق.م).

برزت أهمية مدينة أربيل عدة مرات بعد ذلك في التاريخ – تحت حكم الرومان والمغول وتيمورلنك وكان هذا كله مبعث متعة واهتمام كبيرين بالنسبة للمقيم، فقد أضيفت كل تلك المعلومات إلى الملاحظات التي كان يحصل عليها للتاريخ الذي كان ينوي تدوينه.

وحين مغادرة أربيل ومواصلة الطريق الذي سلكوه سابقاً، دخلوا مدينة الموصل بعد مضي يومين. وعند استقبال الباشا لهم أعربوا عن رغبتهم في الإقامة في حديقة الباشا الخاصة ببيته، ذلك البيت الذي أصبح في الشهور الأربعة اللاحقة مركزاً لإدارة أعمالهم.

الفصل الثامن عشر

نينوى والموصل (١٨٢٠-١٨٢١م)

استشاط باشا بغداد غضباً، كما سيتضح لنا على ريج لذهابه إلى الموصل، فقد أصبح شديد الارتياب فيه، وبعث بالرسائل المهينة، بالإضافة إلى ما بدا منه من صفاقة في سلكوه وجشع في مطالبه تجاه كل فرد من الرعايا البريطانيين في بغداد، أما الآن، فقد أصدر الأمر بمنع ريج من العودة إلى بغداد، وسوف أوضح طبيعة هذه المشكلة في الفصل القادم. لكن ريج وجد أن من الحكمة إرضاء داود باشا وتهدئة روعه، فقرر أن يدير أعماله من الموصل، لأن السيد هاين لم يغادر بغداد حتى الآن.

ونظراً إلى أن العمل الإداري في الموصل قليل، فقد وجه كلوديوس أنظاره إلى معاينة التلال التي غطت موقع نينوى الأثري. امتدت تلك التلال على ضفة دجلة الشرقية، وأن تلك التلال الواسعة التي شكلت ما يبدو طوقاً رئيساً لأرض مكشوفة شطرها نهر الخازر، أحد روافد دجلة، من الشرق إلى الغرب تقريباً. استقرت على أحد تلك التلال قرية النبي يونس (ع) مع الضريح المفترض له، وهو ضريح يتمسك به الجميع وسط مظاهر التوقير العظيم. وقام المزارعون في كل ما كان يبدو تلالاً اصطناعية أو بين الروابي، بحراثة الأرض وزراعتها. كان من المتعذر القيام بتلك التنقيبات دون الحصول على الإجازات الخاصة ودفع الأجور

العالية. ومع ذلك فلم تكن تلك الأمور هي التي شغلت بال ريج، لأن رأيه كان موجهاً إلى إكمال مسح الارض المكشوفة وما يحيط بها، وهكذا، فقد أجرى فحوصاته هنا وهناك على سطح الأرض وعلى البقع التي تركها السكان المحليون مفتوحة في أثناء عمليات الحفر رغبة منهم في الحصول على الآجر لترميم مساكنهم الخاصة. أعانه على ذلك، وبحماسة منقطعة النظير، شاب يوناني يدعى «الكابتن كيفالا» الذي كان في الهند في مهمة خاصة، وهو الآن في طريق العودة إلى بلاده. إن مساحة الأرض التي يطوقها السور فعلاً، لما تدعى نينوى كانت على وجه التقريب تبلغ ميلاً ونصفاً إلى ميلين عرضاً وأربعة أميال طولاً، وتتضمن هذه الرقعة موقع قبر النبي يونس (ع) وتلاً يدعى قوينجق، على الجهة الشمالية ويشطرها نهر الخازر.

وهنا لابد من توضيح أنني أحاول بيان طبيعة العمل الذي يقوم به ريج، وكيف بدت له تلك الأطلال، وإن أصبح الآن بإمكاننا تقدير ما أنجزه المكتشفون من تنقيبات على نفس الأرض التي يقوم بقياسها الآن ووضع الخرائط مع إظهار عجائبها الدفينة التي سيكون أول السعداء باكتشافها.

يتحدث ريج باقتضاب عن تاريخ نينوى، ولكنه كان سيطلع على جميع البيانات التوراتية المتعلقة بها، وهي أن نينوى مثلها مثل بابل، بدأت مسيرتها التاريخية في عتمات الزمن السحيق.

فسفر التكوين يبين: «حينما ذهب نمرود ــ الصياد العظيم في حضرة

الله تعالى نحو آشور (أو في آشور) وشيد نينوى..» وقبل حلول عام (١٧٠٠ق.م) جاء أن المملكة التي وضعت أسسها هناك، نمت لتصبح مدينة لها من القوة ما يكفي لتأكيد استلالها والدفاع عنها. ولألف سنة من الزمان أصبحت أعظم شأناً وأقوى، وذرت قرنها إلى الشمال الغربي لتكتسب صفة الإمبراطورية. كان خصمها اللدود بابل ذات الحدود المترامية. والاجتياحات التي عرضت لها سورية من قبل الملوك الآشوريين شلمنصر الثالث[١] وتيجلاثبليزر الثالث[٢] وسنحاريب[٣]، كما هو مدون في العهد القديم، لابد أنّها كانت في الواقع عقاباً... حل بالقبائل الإسرائيلية، وأبدل سكان مدنها بالآشوريين. وفي الأخير تغلبت بابل على نينوى، وبعد أن اتحد أعداؤها القدماء (الكلديون) مع الميديين، واختلت المدينة قرابة سنة (٦١٢م)، قام الجنرال البابلي- نبوبلاصر[٤]، بتأسيس إمبراطورية جديدة ضمت المدينتين. أما سليله – بيلشاصر (ابن تبونائيد)، فقد أطاح كورش الغازي عام (٥٣٩ق.م) في مدينة

(١) ابن آشور ناصربال الثاني–احتل كريكش (جرابلس) وفلسطين واجبر ييهو–ملك اليهود–على الركوع امامه، وحكمه من (٨٥٨–٨٢٤ق.م).

(٢) حارب ايضاً اعداء إمبراطوريته وخلد اعماله الحربية على جدران قصره في تل رسيب، حكمه من (٧٤٥–٧٢٧ق.م)

(٣) ملك آشوري عظيم (٧٠٥–٦٨١ق.م)–ابن سرجون الثاني–وقد بلغت آشور ذروتها في عهديهما وهو الذي اعاد بناء نينوى.

(٤) ملك الكلدانيين الذي هاجم الآشوريين مسيطراً عل القسم الجنوبي من بلادهم، وهو ملك بابل (٦٢٥–٦٠٥ق.م)، ومؤسس الإمبراطورية الكلدانية عام (٦٢٥ق.م) علماً بان آشور قد احتلت عام (٦١٥ق.م)

أوبيس، فخضعت العاصمة الآشورية، إلى الغازي، المنتصر الغاصب.

وفي أغلب الأيام التي يروق فيها الطقس، يخرج ريج عادة مع الكابتن وسيد آغا - السكرتير الفارسي-ومختلف افراد البيت، للتجول فوق التلال منهمكين في استخدام الشريط وسلسلة القياس لتثبيت قياسات الأطلال القديمة، وكثيراً ما كان ريج يعمد إلى عمل التخطيطات وعلى الحد الشرقي لتلك الأرض المكشوفة ثمة بناية مقببة تعرف بـ(الداملاماجة) فيها بئر ينبع منها ماء عذب، سماها كلوديوس «بئر طيبة»[1] لقد فكر، فعلاً أن من المحتمل أن تكون نينوى هي موقع القصة الأصلية، مشيراً إلى أن «أوفيد[2]» قد جعل بابل مشهداً لهذه القصة، التي كانت ذات مسحة محلية. كانت البئر موضع احترام وتوقير الفلاحين، الذين يجتمعون سنوياً، يضحون بالخراف وسط آلات الموسيقا واقامة الاحتفالات الأخرى، التي سبقت الاحتفالات التي

---

(١) بيراموس وطيبة عاشقان شابان من بابل، لقول الاسطورة أنه في مكان لقائهما هربت طيبة من أسد هاجمها وحيدة فسقطت عباءتها. ولما جاء بيراموس وجد العباءة ملطخة بالدماء فظن أنها ماتت، فانتحر. أما طيبة فهي بعد أن عادت ورأت جثته، انتحرت بسيفه. ونتيجة لذلك، لطخت ثمرة التوت البيضاء بدم بيراموس فاصبحت حمراء إلى الأبد. ويشبه ما حدث في هذه الاسطورة، ولو قليلاًن ما حدث في مسرحية «روميو وجوليت» بقلم شيكسبير (المترجم).

(٢) شاعر روماني (٤٣-١٧ق.م)، عرف شعبياً بصوره الشعرية الخيالية الرائعة، تعكس مثاليته الشعرية المثيرة للذة مظاهر ثلاثة هي:

١-فن الحب. ٢- قصائد ميثولوجية. ٣-قصائد المنفى وافاه الأجل، منفياً قرب مصب نهر الدانوب.

أقيمت في العهد الإسلامي، وعلى جدار البئر نقش الكابتن كيفالا أسماءهم. ويقول ريج:

«سوف يدهش بعض الرحالة في أزمان لاحقة..» وهم يقرؤون اسم ماري ريج من أن هذه المرأة المغامرة هي نفسها التي زارت خرائب نينوى».

وثمة ربوة أصغر قائمة على حد تلك الأرض المكشوفة شمال قوينجق، وعلى ارتفاع قدم واحد تقريباً فوق تلك الربوة، هناك قطعة نحت كبيرة ظهرت للعيان قبل سنوات قليلة، وحسن آغا، أحد ضباط الباشا الذي كان حاضراً عند اكتشافها، وصف المنحوتة بقوله إنه قد أستعصي عليه أمر الوصول إلى ذروة ارتفاعها وأنها سميكة جداً. وذكر أن الحفر عليها يمثل رجلاً يمتطي صهوة جواده، ويحمل رمحاً بيده يتبعه جمع غفير من الراجلين، كانت المنحوتة من الروعة لدرجة جعلت الباشا والبكوات الآخرين يخرجون لإلقاء نظرة عليها، وبعد أن أرضوا فضولهم، أمر الباشا بتحطيمها وتسويتها بالأرض. وفي موقع قبر النبي يونس اكتشف ريج مسند رأس صخرياً موجوداً الآن في المتحف البريطاني. وهذا المسند فريد في بابه بين الآثار الآشورية، لأن المسند ترف مصري قديم[1]، ولو أن ريج دعاه بقوله: «هذا الكرسي الصخري الصغير المثير للفضول». وكذلك اكتشف ريج في نفس الموقع بعض

(١) هو جزء من غناء أسرحدون عند غزوه لمصر حيث عثرت دائرة الآثار العراقية لاحقاً على آثار مصرية اخرى في تل النبي يونس.

الآجر بكتابات مسمارية، مع أسطوانات طينية .وعلى مسافة أربعة أميال تقريباً نحو الشمال، شوهد دير مار كوركيس للراهبات، الذي يعود إلى الكلدانيين، وإلى جواره يوجد مزيد من الأطلال، ومن الجدير بالذكر هنا القول أن ديري الراهبات والرهبان يمثلان كلمات متعاوضة،لأن كليهما يعني مأوى لمجموعة الرهبان وليس للراهبات قط. وريج نفسه لم يسبق له أن وجد بالمصادفة أي دير للراهبات عدا واحد شاهده على جبل لبنان ودير ماركوركيس المذكور أعلاه... اتخذه الأتراك في الموصل للترويح عن نفوسهم في فصل الربيع، إذ كانوا يقصدونه للانغماس في ملذاتهم على شرف باخوس[١] لأن جميع سكان المدينة مدمنون على الشراب واشباع اللذات الحسية[٢] .

وفي أثناء إقامة عائلة ريج في الموصل، عاد بيلينو تحت وطأة الحمى التي لازمته ولم يسترد عافيته وإن رعاه بيل بكل ما أوتي من حرص وعناية، وبرغم كل الرعاية التي أسبغها عليه كلوديوس وماري، فقد توفي في العشرين من تشرين الثاني عام (١٨٢٠م) وسط لوعة الجميع. كانت ضربة مؤلمة للمقيم، الذي أولع بصحبته كثيراً، فضلاً عن فقدانه له بوصفه سكرتيراً فذاً. لقد امضى بيلينو معهم أربع سنوات أعان فيها كلوديوس إلى حد بعيد في بحوثه الخاصة بالمعارف الشرقية وتقاليد

(١) هو، في الأساطير الإغريقية والرومانية، إله الخمر، ويعتبر أيضا إله الخصب والنماء، وتتسم شعائره بالقصف والعربدة.

(٢) لا أظن أن مثل هذا القول يشمل للدينة كلها، لأن أغلبهم من المسلمين الملتزمين دينياً. إنّها مجرد ادعاءات استعمارية سخيفة.

البلاد بالإضافة إلى معارفه الآثارية العظيمة.

ولكي ينتشلوا أذهانهم من هذه الأفكار الحزينة، قامت العائلة بجولة استغرقت أسبوعين في الجبال، التي ترامت شمال الموصل وشرقها. كان جزء منها لأغراض المسح والجزء الآخر لزيارة بعض الأديرة المسيحية المستترة بين ثنايا الجبال. انطلق ريج بصحبة كل من السيد بيل والكابتن كيفالا وماري وسيد آغا، مع حاشية صغيرة، فأفضت بهم مسيرة الأيام الأولى في المنطقة الشمال شرقية إلى بعشيقة، إحدى معاقل اليزيديين، التي ضمت إلى جانب ذلك أعداداً متفرقة من المسيحيين اليعاقبة. بدا أن اليزيدين كانوا على علاقات ودية مع جيرانهم المسيحيين، يحدوهم شعور مشترك على ما يحتمل، لأنهم كانوا جميعاً معرضين لخطر دائم من الاضطهادات والمذابح التي يمارسها الأتراك ضدهم. وبعد أن أمضوا ليلة استراحوا فيها، اتجهت العائلة ومرافقوها إلى دير مار متي متسلقين ما كان يبدو واجهة جرف شاهق. كان الدير شبيهاً بقلعة محصنة منيعة يقوم على حافة صخرة كأنه أحد أوكار النسور. وفي الماضي البعيد شهد الموقع معركة ضارية أثار أوراها الغازي تيمورلنك[1]، الذي أغار على بلاد ما بين النهرين في القرن الرابع عشر.

الدير خاص بالمسيحيين اليعاقبة، وفي هذا المكان دفن المؤرخ الشهير غريغوريوس بارهبريوس عام (١٢٨٤م). ومار متي، الذي شيد الدير

---

(١) تيمورلنك (١٣٣٦-١٤٠٥م)، الغازي المغولي الذي اجتاحت جيوشه المنطقة الممتدة من منغوليا إلى البحر الأبيض المتوسط.

عام (٣٣٤م)، يفترض أنه كان رفيقاً للقديس جورج، الذي هرب إلى هذا المكان خلال اضطهاد الإمبراطور الروماني-ديوقليتانُس[1] له، ويجب ألا يخلط اسم مار متي خطأ مع أحد المبشرين (مؤلف أحد الأناجيل الأربعة – القديس متى). كان الدير سيئ البناء، وهو أمر لا يثير الدهشة، لأن ساكنيه ليسوا أكثر من أسقف واحد وراهب آخر كان يدربه لتسلم الكهانة. سعدا كثيراً بوجود زوار للمكان ورحبا بهم قلبياً. ووجد ريج أن المكان رائع يصلح للقيام لعمليات المسح، فقد بدا، في الواقع، ذا ارتفاع مناسب يشرف على السهل، حيث ينبسط أمامهم منظر مدهش إلى الجنوب. تلوى نهر الخازر (بومادوس) في سفوح الجبال، وكلا النهرين – الزاب ودجلة – شق طريقه خلال الأصقاع المستوية في تلك المنطقة، في حين انحدرت، الجبال تدريجاً من جهة الشرق إلى السهول المحيطة بالموصل، التي ومضت بوهن خلال سديم مغبر لشمس ظهيرة حارة. وفي الدير أتيح للمقيم شراء جزء من الكتاب المقدس مدون على الرق من الأسقف بالألفباء السريانية. يبدو أن الكتاب كان ذا فائدة قليلة بالنسبة للرجل المسن، ولم يستطع قراءته، غير أن النقود التي دفعها له ريج كانت ذات قيمة أكبر للدير، وشوهدت خرائب تخص الدير في كل مكان حواليه، وترامت إلى بعض المديات لتظهر للمشاهد مدى قوتها السابقة وأهميتها، وإلى الأعلى بمواجهة الجرف، هناك غرفة نحتت في الصخر، قيل أنها كانت سكناً لمؤسس

---

(١) إمبراطور روماني (٢٤٥-٣١٦م)، أصلح الإدارة والجيش.

الدير قبل الشروع بالبناء، بيد أنها كانت في وضع لا يمكن الوصول إليها، لذا لم يحاول ريج الصعود لمعاينتها.

وبعد مكوثهم هناك ثلاثة أيام، انطلق الركب، متجهاً هذه المرة إلى الجهة الشمال غربية. لم تكن المنطقة كثيفة السكان، والقرى القليلة التي أمكن زيارتها اتسمت بمظاهر البؤس والزراية، اذ دمرها الكرد القادمون من الجبال المحيطة بالمكان، وكان قسم من السكان يزيديون والآخر من المسيحيين وعلى ما يبدو لم تواجه عائلة ريج أية مشكلة في رحلتها وبأي شكل من الأشكال.

وبعد أن حلوا في قرية يزيدية (سراج خان)، تبعد حوالي ثلاثين ميلاً شمال الموصل، شنَّف أسماعهم موسيقي يزيدي أعمى راح يعزف لهم على الدف وغنى لهم مختلف الأغاني، بعضها تقليدي والآخر غرامي، وكلها في نفس الأسلوب فبدت كأنها عواء وحشي! وعزف لهم، كذلك، ألحاناً فارسية لقت لديهم قبولاً أكثر.

لقد راق للمقيم هؤلاء الناس غريبو الأطوار، واصفاً إياهم بالحيوية والسخاء والطيبة. كانت تحدوه الرغبة في المكوث معهم فترة قصيرة للاطلاع على تقاليدهم وتاريخهم، غير أنهم اعتادوا ألا يتفوهوا بشيء أمام المسلمين. وعلى هذا، يقول: «في ظل الحكم البريطاني[1] يمكن عمل الكثير من هؤلاء الناس».

---

(١) يشير هذا إلى رغبة ترقى إلى ما قبل (٢٠٠ سنة) في احتلال المنطقة واستعمارها، وما دخول مود لبغداد واحتلال البلاد إلا دليل على ذلك.

وأفضت بهم مسافة تربو على عشرة أميال أو خمسة عشر ميلاً، إلى الدير الكلداني (رابن هرمز) وهو مكان غريب للغاية. فهم، بعد دخولهم في ممر ضيق، ظهروا فجأة ليجدوا أنفسهم فيما يشبه أرضاً متدرجة تحيط بها جبال جرداء، وفي منتصف الطريق إلى أعلى ذلك الجانب، كان الدير. يتألف الدير من سلسلة بنايات وعدة كنائس تتشبث بقوة على حافة الأجراف (المنحدرات الصخرية). ولكن الأكثر غرابة هو الكهوف والمغاور التي نُقطت بها وجوه الصخور حيث استخدمها الرهبان صوامع أو حجيرات سكن - لكل واحد منهم حجرة صغيرة يعمل فيها وينام. ويقيم في الدير نحو خمسين راهباً يدير شؤونهم رئيس الدير، وهم من رهبنة سنت انطوني المتشردة في شعائرها وطقوسها. فاللحم لا يؤكل إلا في عيدي الميلاد والفصح، وطعامهم اليومي نوع من العصيدة والخبز بكميات قليلة. ويقوم نزلاء الدير بجميع الحرف ولذا اكتفوا اكتفاءً ذاتياً، أما التحدث فيما بينهم فهو غير مسموح به، لديهم جرس يدعوهم إلى الكنيسة عدة مرات في اليوم إلى جانب حضورهم قداديس منتصف الليل والفجر وغروب الشمس ويعودون إلى صوامعهم دون شمعة أو نار. يقع بعض هذه الأديرة على مسافات نائية معزولة، على ارتفاعات شاهقة في الجبال بمحاذاة ممرات شديدة الانحدار يكون فيها البرد قارصاً في بعض الأحيان ويرتدي الرهبان أرواباً داكنة الزرقة أو سوداً يضعون عليها الصايات البنية. أما رؤوسهم، فمغطاة بقرنس ضيقة تلف حولها مناديل سود، وممارستهم

الدينية ذات طبيعة قاسية تفني الأجساد وتكبح الشهوات.

ويضيف ريج إلى وصفه قائلاً:

«لم يبد أنهم سعداء أو في صحة جيدة وقد اخبرنا انهم يموتون في شرخ الشباب.»

نال رئيس الدير تعليمه في ديار بكر على يد صديق ريج سابقاً - الموسنيور أوغسطينو، ولذا، فقد سر كثيراً في استقبالهم. أمضى اثنتي عشرة سنة يخدم في دير ربان هرمز، وعمل الكثير لإصلاح الدير والكنائس هناك وتردد ان رئيس أساقفة المدائن - تومارسا - هو الذي وضع أسسه نحو (٣٩٠م) وخصصه للقديس هرمز، الذي كان قديساً قومياً في العقيدة الكلدانية ويفترض أنه كان ابناً لأحد ملوك فارس ثم أصبح كاهناً مسيحياً، وبالتالي أسقفاً، واستشهد تحت حكم « ديوقليتانس ». والواقع، هو ان رئيس الدير لم يستطع إخبار ريج كثيراً عن هذا القديس الراعي وإن كان مشدوداً إليه بتوقير كبير!

كان ريج يطمح في العثور على تاريخ مبكر لهذا المكان بين كتبهم القديمة، ولكن لسوء الحظ كانت جميع المخطوطات قد أودعت قبل سنوات قليلة في أحد الكهوف الكثيرة التي امتلأت بها الأجراف الصخرية فظهرت كأنها ثقوب في أقراص للنحل، وأن سيلاً عارماً تفجر خلال هزة أرضية عنيفة غمر ذلك الكهف بالذات فأتلف كثيراً من تلك المخطوطات التي لم تعد ذات فائدة للرهبان مما حدا بهم إلى رميها بعيداً عن المكان. وهنا أيضاً، نقش أفراد العائلة أسماءهم على مدخل

الباب قبل مغادرتهم ليشاهدوا رحالة يزورون المكان فيما بعد وبالفعل فقد ذكرت مس جيرترودبيل[1] في كتابها الموسوم «من مراد إلى مراد»[2] هذه الأسماء المحفورة، مع العلم أن الإسم المتداول هو «من أموراث إلى أموراث».

وعلى مسافة نحو خمسة اميال من الدير،عبر الجبال،ظهرت للعيان قرية القوش، التي قيل أنها كانت موطن النبي ناحوم، الذي دفن في ثراها. وقد اعتاد اليهود شد الرّحال من جميع الأرجاء لزيارته في هذا المكان وجاء في الآية الأولى من كتابه انه كان يدعى «ناحوم القوشي» ويتذكر المرء أن نبوءاته كانت محلية تعنى بقضية الشرور التي اقترفتها نينوى.

عاد الركب إلى الموصل ليكونوا هناك قبل حلول عيد الميلاد، وامتد طريقهم مترامياً في أغلبه خلال قرى مسيحية كلدانية. ودهش السكان المحليون لرؤية أن يكون أحد الأشخاص المشهورين مسيحياً، وأن بامكانه التحكم بالاتراك وباقي المسلمين وإصدار الأوامر إليهم، لدرجة ان حشوداً

(١) هي جيرترود مارغريت لوثيان بيل (١٨٩٨-١٩٢٦)، الخبيرة في شؤون الشرق الأدنى والرحالة والمؤلفة. كانت (ضابطة) ارتباط في المكتب العربي في العراق، ومعاونة الحاكم السياسي، ولعبت دوراً كبيراً في تتويج الأمير فيصل ليكون الملك فيصل الأول في العراق، واشتهرت في بغداد بلقب الخاتون.

(٢) كتاب عن مرحلة شرعت فيها من حلب عام (١٩١٠)،وجاءت إلى بغداد ثم توجهت إلى شمال العراق، ومن هناك إلى تركيا وتوقفت في قونية. ظهرت طبعة الكتاب الأولى في لندن عام (١٩١١م) والثانية في عام (١٩٢٤م).جاء اسم الكتاب في ص (١٢) من ترجمة المرحوم جعفر الخناط (١٩٧٧م) لرسائل مسس بيل.

كبيراً من الناس ساروا في أعقاب ريج وزوجته وصديقيهما. ويشار بهذا الصدد إلى أن إحدى المسنات حاولت، في الحقيقة، حرق البخور أمام كلوديوس إلا أن حصانه شمسَ فطلبوا الكف عن ذلك.

وخلال هذه المرحلة حصل ريج على عدة مخطوطات –أجزاء من الأناجيل باللغة الكلدانية – التي أضافها إلى ما حصل عليه سابقاً من مجموعة كبيرة منها. كانت رحلة الأيام العشرة ممتعة، فغادروا بصحة وروح عاليتين إلى بيتهم في حديقة الباشا، تلك البقعة الجميلة المليئة بالأزهار والأشجار، وفي ظل من الراحة والأمان إلى حد بعيد.

وخلال المدة التي مكثوا فيها في الموصل، تجول كلوديوس كثيراً على حصانه إلى مختلف الاماكن المثيرة في الجوار. فقد ذهب يوماً لمعاينة اطلال دير مار إلياس للسناطرة، الذي يدعي السكان المحليون أنه يعود إلى المسيحيين الرومان أو الإغريق قبل الفتح الإسلامي بزمن طويل. وبكل ما يتمتع به ريج من علاقة بالتراث المسيحي المبكر ومواقع ذلك التراث، تبادل الرأي بخصوص كتابات (أسيماني)، ذلك السرياني الذي أصبح أخيراً أسقفاً كاثوليكياً في مدينة صور على الساحل في جنوب لبنان وتوفي عام (١٧٦٨م). كان ذلك المرجل قد جمع تشكيلة كبيرة من المخطوطات التي تخص الكنيسة الشرقية–مؤسساتها وعاداتها وتقاليدها، وكتب كثيراً عن الموضوع. فهذا الأسقف، بعد أن نال قسطاً وافراً من التعليم في روما، سعى جاهداً لضم كنائس سورية والأناضول إلى الكرسي الأسقفي البابوي، اعترف به واحداً من المراجع الأولى بهذا

الخصوص. وعلى الرغم من تداعي دير مار الياس، واستخدام سكان الموصل له ملاذاً دائماً للمتعة والترويح عن النفس، فقد احتفظ بعدة لوحات جصية جدارية ونقوش بارزة قليلاً على الجدران الباقية. ووجد ريج أن ذلك الموقع مثير للاهتمام، لأن فنه العماري كان كثير الشبهة بالأسلوب الذي بني به البهو الكبير قي المدائن، وإن كان على نطاق أضيق. بدا أنه عمل ساساني، شبيه بأكثر الكنائس الشرقية القديمة، فقد احتوى على حرم المذبح العالي فقط، من غير أن تكون فيه أماكن جانبية للتأمل والعبادة. وفي الموصل، تثير الكنيسة الرئيسة -كنيسة مار توما او القديس توماس الرسول، شيئاً من الاهتمام لأنها الكنيسة اليعقوبية الخاصة برئيس الأساقفة في ذلك المكان. فالكنيسة بناية جميلة، وهي بدلا من احتوائها على مذبح واحد، كان فيها ثلاثة مذابح، الواحد جنب الآخر، وقد وصفها ريج بأنها تشبه أكشاك حراسة أو عروش ذات خشب مصبوغ. هذا وقد زين باب الحرم منها بالمرمر المنقوش الجميل. ولدى الباب علقت صورة للسيد المسيح (ع) وحواريه الاثني عشر، ونقل أنه خلال احتلال تيمورلنك للموصل، أخفيت تلك الصورة عن أيدي المخربين تحت أكوام من النفايات. وكذلك كانت الكنيسة الكلدانية -العذراء مريم- مثيرة للمتعة والاهتمام، هي الأخرى، لما أبانت عنه من اختلاف في فن العمارة الكنسية الشرقية، فضلاً عن نظافتها ووضعها الكنسي الكلاسيكي الآسر. كان مظهر هذه الكنيسة الخارجي مربع الشكل خالياً من الجمال، وليس فيه نوافذ. ويجد المرء

لدى دخوله من باب صغير خلال ممر مظلم، ومن خلال باب أصغر، نفسه في فناء أو رواق ذي أعمدة وممر معقود يدور في ثلاثة جوانب. وفي الجانب الرابع تنتصب كنيسة فيها بابان تسمحان بتسرب الضوء. وهذه الكنيسة ليست واسعة، حيث يبلغ طولها ثمانين متراً وعرضاً ستين متراً (عدا الحرم الكنسي)، وهي مزخرفة بمرمر غير صقيل، وبنقوش سريانية. وهي مقسمة إلى صحن لجلوس المصلين وإلى قسم جانبي من الأعمدة، وليس في الجدران الجانبية مذابح مقدسة. كان الحرم الكنسي في الركن الشرقي، بمعزل عن الكنيسة، ويمكن الوصول إلى المذبح العالي والمذبحين الجانبيين خلال أبواب صغيرة، وثمة أمام الباب المؤدي إلى المذبح العالي منصة مرتفعة ينتصب عليها منبران من المرمر، أحدهما مخصص للرسائل الإنجليزية والآخر للأناجيل نفسها. وإلى جانب ذلك قرابين النذور وبيض النعام وبضعة قناديل وشموع، ولكن دون زخرفة.

استخدم الكلدان الكاثوليك والمسيحيون النساطرة عهد الاسكندر، الذي يبدأ تقويمه عام (٣١١)، قبل التقويم المسيحي. وبدا أن في كل من الطائفتين طبقتين من الكهنة–طبقة مخصصة لتسنم المناطق العليا، يبقى أفرادها دون زواج، في حين يسمح لمن ينتمي إلى الطبقة الأدنى، مثلما يحدث لرجل الدين الاعتيادي في الأبرشية مثلاً، بالزواج وفقاً للإجراءات الكهنوتية. كان بطريرك المسيحيين النساطرة يقيم قريباً من مدينة العماديه في كردستان، وهو يشبه زعيماً كردياً في عاداته وملابسه وأسلوب تفكيره. وقد أخبروا ريج أن ذلك البطريرك يوقّر

لكونه زعيماً أكثر منه رئيساً لكنيسة.

والبطريركية هي على الدوام في نفس العائلة، فقبل ولادة الطفل، الذي يفترض أنه سوف يرث المنصب، لا يسح لأمه بتناول اللحوم، وهي العادة التي استمر عليها البطريرك نفسه، لانها الممارسة الوحيدة التي تميزهُ عن الناس المنتمين له.

شعر ريج، قبل حلول شهر شباط، بوجوب عودته إلى بغداد والأشراف على سير الأمور شخصياً، نظراً إلى تفاقم الأزمة وتصاعد الأمور إلى أوجها. سبقه السيد بيل إلى بغداد، لان السيد هاينكان قد غادر المدينة متوجهاً إلى بومبي، ومع ذلك، فقد سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ. وعلى هذا الأساس، ففي اليوم الأول من شهر آذار استقل السيد ريج وزوجته مع خدمهما أحد الأكلاك وانحدروا أسفل النهر إلى بغداد مودعين بحرارة مع كثير من كلمات شكرهم وامتنانهم للجميع، بالإضافة إلى كلمات الإطراء والمديح إلى مضيفهم الكريم، باشا الموصل.

الفصل التاسع عشر

النزاع الأخير بين ريج والباشا (١٨٢٠-١٨٢١م)

خلال فصل الصيف، وفي أثناء وجود ريج في كردستان، انفجر صراع في البصرة بين العرب المتنافسين وحرس المصلين وقد حذّرَ ريج مساعده-الكابتن تيلر أن يلزم نفسه بأشد أنواع الحيادية ضبطاً، وان يبسط حمايته على رعايا الحكومة البريطانية وحدهم. كان يرغب في ألا يرى، مع ذلك، ظلماً يحيق بكل من يطالب بالحماية البريطانية، وفي حالة حدوث أزمة يمكن أن تهدد معمل الشركة[1] في البلاد، عليهم الانسحاب إلى بوشهر. ففي تشرين الثاني، حينما كان ريج في الموصل، علمَ بواسطة وكلائه السريين أن شخصاً يدعى «زبوبدا»[2]، وهو تاجر

(١) المقصود به – معمل تصليح السفن وحزم البضائع الذي أنشأته شركة الهند الشرقية الإنكليزية في البصرة عام (١٦٣١م)، بعد حصول تلك الشركة على امتيازات لها من الدولة العثمانية.

تعليق المترجم المرحوم سليم طه التكريتي

في الجزء الثاني من رحلة بكنغهام ص٣٠٤

(٢) كتب الاسم في كتاب «حلة المنشئ البغدادية» ترجمة المرحوم عباس العزاوي ص١١، سكوبودا، ثم اشار في هامش تلك الصفحة الى أن صواب اسمه هو (زبودا) وفقاً لتحقيق المرحوم يعقوب سركيس، ويقول إن بقية افراد أسرته في بغداد، وله معرفة ببعضها. والجدير بالذكر أن اسمه ورد بإملاءين مختلفين (زبوبدا وزبوبودا). اما الأستاذ يعقوب سركيس رحمة الله فقد قال في الجزء الثالث من كتابه (مباحث عراقية) انه موظف في شركة «بيت ليخ» وكتب اسمه (زفوبودا).

أوربي يتمتع بالحماية البريطانية في بغداد، كان ستصدر أوامر الباشا[1] بوضع اليد على كل ما يملك في دائرة الكمرك. وبإبلاغ هذه الأخبار إلى الكابتن تيلر، أشار ريج إلى أن هذا إذا حدث، فإن جميع الاتصالات سوف تتوقف مع حكومة البصرة (التي كانت تحت إدارة حكومة بغداد)، وأن أية بضائع، محلية كانت أو انكليزية تحت العلم البريطاني، لن تفرغ على الأرصفة.

تيلر، وهو يسمع من زبوبدا أن كل ما توقعه ريج قد حدث فعلاً، نفذ أوامره وانسحب من المحمرة، المدينة الصغيرة على شط العرب جنوب البصرة. والباشا، الذي استشاط غضباً لوضع العراقيل الفورية على أعماله، رفض السماح بعودة ريج مما سبب غيابه الطويل عن بغداد، وإن كان ذلك لا يعني أن الباشا كان مشلول الحركة. فقد تظاهر بالقول أن ريج كان مقيماً في الموصل لإثارة الاضطرابات والشقاق بين الباشويتين، لكن الحقيقة هي ان الباشا كان أداة بيد وزير مجرد من المبادئ الخلقية، شخص محاسيب السلطان، وضيع يبتز النقود من الباشا ويقترح أن يدفع الأجنبي فاتورة الحساب. وكانت الشكاوي التي أقرها ريج كما يأتي:

١ . مصادرة ممتلكات زبوبدا – التاجر البريطاني– بالقوة.

٢ . فرض ضريبة (١١,٧٥٪) بالإكراه على الممتلكات المشروعة

(١) هذا الباشا هو والي بغداد – داود باشا– الذي قتل سعيد باشا عام (١٨١٦م)، وهو من مواليد تغليس عام (١٧٦٧م).

للتاجر – السيد ستورمي– بدلاً من استحقاقات قانونية تبلغ (٣٪)، وهذا يعد سابقة خطيرة على جميع البضائع التجارية البريطانية.

٣. رفض حكومة بغداد العلني للحقوق والإعفاءات التي ضمنتها المعاهدات المعمول بها لحكومة بومبي.

٤. الظلم المتزايد على الرعايا البريطانيين.

٥. قضية حاكم ماردين الذي صادر وابتز النقود من «الوكيل البريطاني» في تلك المنطقة، وسلب ما يملكه ضابطان بريطانيان في طريقهما إلى استنبول من بغداد.

وفي رسالة أخرى إلى الحكومة، يعلن ريج أن الباشا، لبعض وقت مضى، كان غير ودي للغاية، وأن الأمور بلغت درجة بات معها تعذر تفريغ أية بضاعة لأي من الرعايا البريطانيين دون مشادات عنيفة، وحتى إن رفعته أعلن مؤخراً أن الحقوق الأوربية غير معترف بها في بغداد.

وبعد هذا، شرع في السفر أسفل نهر دجلة بأحد الأرماث، واستقبله، بعد نحو خمسين ميلاً، في قرية السندية، يخت المقيمية، وفي رسالة أخرى إلى الحكومة يكتب:

«إنه لامتياز يبعث على الفخر للحكومة البريطانية أن يكون الرأي العام، حتى في هذه الأجواء غير المتمدنة، منصباً على أن هذه الحكومة مشهود لها بالعدل والثقة والأمانة، وأن النزاع معها، بكل تأكيد، يحيل الأمير من أهل البلاد إلى شخص بغيض لدى الناس حتى في وجود الفئات التي لا رأي لها في وقائع الحالة الموضوعية. فهم، في الحقيقة، لا

يطرحون تساؤلاً اكثر من:

«هل أثار الباشا نزاعاً مع الإنكليز؟ فإذا كان هذا ما قام به فعلاً، فهو المخطئ طبعاً.»

لدى وصول ريج كان الباشا فظاً للغاية، لا يظهر احتراماً للآخرين، فضلاً عن عدم إلغاء أوامره السابقة. وعند ذلك طلب ريج جوازات السفر والأوراق الرسمية استعداداً لمغادرة بغداد، وهو الشيء الذي رفضه الباشا، فيكون بذلك قد منعه من السفر نهائياً.

وفي الخامس عشر من آذار عام (١٨٢١م)، تسلم ريج إشارة بواسطة مصدر خاص يلمح فيها إلى أن الباشا كان يرسل جنده لاحتجازه في المقيمية. وحينذاك، كان أول عمل قام به ريج هو وضع البيت في حالة دفاع. ورابط في دار المقيم شخص يدعى الكابتن اليوت من القوة المحمولة الواحدة والعشرين بالإضافة إلى الكابتن تيلر من سلاح الفرسان في مدراس وآخر يدعى هوست – الطبيب الجراح، مع السيد بيل. هذا، وقد تصرف السباهيون من حرس بومبي بثبات وحماسة رائعين. تسلم الكابتن اليوت زمام القيادة فأصدر أمره بإرساء اليخت أسفل نوافذ المقيمية ليكون تحت رقابتهم. وكان السيد تبلر والطبيبان مسؤولين عن مختلف أقسام البيت، مع مختلف الخدم من الأتراك والأرمن، الذين وضعوا تحت خدمتهم، حيث تصرف الجميع بكل شهامة. لقد تسلحوا على الفور وتحلقوا حول ريج، الذي رجاهم بالعودة إلى بيوتهم وألا يجازفوا بحياتهم أو حياة عوائلهم في نزاع لا يعنيهم–كانوا، على أية

حال، يرومون مجرد الإعراب عن استعدادهم للموت دفاعاً عنه أو الثأر له في حالة جرحه أو قتله، وألا شيء يوجب تخليهم عنه. لقد أثر فيه هذا الإخلاص جداً إلى حد أنه آثر تدوينه في الرسالة التي أرسلها إلى الحكومة.

وما كاد البيت يتخذ استعداداته حتى بدأت مظهر الباشا العدائية، إذ أرسلت المفارز إلى بوابات المدينة المختلفة لمنع المحاصرين عن الهرب، هذا، وقد اتخذ رئيس الوزراء نفسه موقعه على شاطئ دجلة، خارج البوابة الجنوبية، في حين رابطت كتيبة من فيلق الهجانة مكاناً أسفل النهر. كما أرسل مدفع من سلاح المدفعية إلى الضفة المقابلة-لعل ذلك كان، على أية حال، عرضاً لإرهاب ذلك الجزء من بغداد، الذي كان، في العادة، الأكثر إثارة في أي اضطراب ينشأ، أكثر منه عملاً لمواجهة المقيمية. وفضلاً عن ذلك، وضع جند آخرون حول مخارج الدار، حينما أعلن أخيراً أن المشاة النظاميين يتقدمون نحوهم.

أصدر ريج أمراً ابلى رجاله لاتخاذ وضع دفاعي صارم وتجنب الشروع في إطلاق النار. وحالما رأى جنود الباشا مدى الاستعدادات التي اتخذت، تراجعوا متخذين لهم موقعاً في إحدى مقاهي بغداد القريبة. وبعد مدة قصيرة، تقدم قائد جند الباشا المشاة، وهو صديق سابق للمقيم كان الأخير قد أنقذ حياته، بصحبة ضابط آخر، وطلب السماح له بالدخول باحترام بالغ، عارضاً نفسه رهينة لدى ريج، إذا كان ريج يود الاتصال بالباشا وذلك لضمان تنفيذ أي اتفاق بينهما.

سمح لهما ريج بالدخول وكتب فوراً إلى الباشا متذمراً مما يحدث من هياج واضطراب. وخلال نقل الرسالة بواسطة الضابط الثاني، أكد قائد جند الباشا إلى كلوديوس أنه سوف يستخدم كل ما يتمتع به من تأثير لمنع الجنود من إطلاق طلقة واحدة ضد إنسان سبق له أن أنقذ حياته. وبعد وقت قليل وصل ثلاثة من وزراء الباشا لعرض شروطهم. ومع ذلك، فلن يصغي ريج إلى أي شيء ما لم يتفرق جميع الجنود، وبعد تأخير كثير وصلف كبير أبداه الأتراك، تعكر مزاج كلوديوس، الذي انهزّت أعصابه حدًّ الانكسار، مسك عصاً بيده وراح يهزها لإرعاب المبعوثين الثلاثة لدرجة جعلت هؤلاء الثلاثة يطلبون الإذن بالانصراف فوراً لكي ينفذوا طلباته. شعر ريج بالخجل إلى حد ما عن هذا الاهتياج، وإن أدى تأثيره المطلوب، إذ صدرت الأوامر للجنود ليلاً بالتوقف عن القيام بأي شيء. كان خائر القوى جداً بعد هذه الحادثة، لانه كان لزاماً على المدافعين البقاء يقظين وحذرين خلال تلك الليلة خشية حدوث أية خيانة أو هجوم مفاجئ. لم تمد يد العون للباشا من مدينة بغداد، لأن العرب كانوا ينتظرون مجرد إشارة لإطلاق النار لإثارة عصيان كامل ضده، تدفعهم الرغبة في قتاله تعاطفاً مع المقيم. كما رفض قائد كتيبة من المدفعية وصلت تواً في طريقها إلى بلاد فارس، بشكل قاطع مد يد العون إلى الباشا دون تسلم أمر بذلك من السلطان، للقيام بعمل ضد سلطة كانت آنذاك في حالة سلم من الباب العالي. لهذا كله، وجد ريج نفسه سجيناً من الناحية العملية، ولو

سمح للضباط الإنكليز الثلاثة، الذين كانوا معه، بمغادرة بغداد، فقد أعلن الباشا مشيراً بقوة إلى أنَّ ريج لا يمكن أن يغادر المدينة، وهو إعلان جعله أن يتصور أنه قد أصبح رهينةً فعلاً.

كان الباشا يدرك أنه كان مخطئاً وأنه لن يُنصف من استنبول على ما قام به، لكنه لم يشأ التخلي عن أي طريقة تمكنه عن السيطرة على ريج، الذي شعر أنه أبعد ما يكون عن التمتع بالصحة، فقد شدت هذه القضية أعصابه إلى حد خطير أعادت إلى جسده أعراض الحمى القديمة.

كان ريج يعلم أن بإمكانه النفاذ بجلده وأن عوناً كبيراً سوف يتهيأ له، لأن الناس يضمرون له حباً وافراً، ولكنه إذا فعل ذلك فإن عمله سوف يشبه هروباً، وهو أمر يجب عدم التفكير فيه، وكذلك سوف يترك وراءه عدداً كبيراً من الذين وقفوا إلى جانبه في ساعة الشدة التي حاقت به معرضاً إياهم إلى انتقام الباشا، في حين لم يزل وجوده معهم في بغداد حمايةً لهم.

وكتب حاكم بومبي حينذاك – السير الفينستن – على الفور، حينما تلقى الأخبار في مايس، رسالة احتجاج إلى داود باشا – والي بغداد – مؤكداً أن ذلك الهجوم الوحشي سابقة لا مثيل لها، وطلب تحرير المقيم واهل بيته دون مضايقة. وفي الوقت نفسه أرسلت رسالة من بومبي إلى للورد سترانغورد – السفير البريطاني لدى الباب العالي– طلب فيها تعويضاً كاملاً علنياً نظير الإهانة التي وجهها الباشا

لبريطانيا، من خلال ممثلها في بغداد - السيد ريج.

ولم تكد هذه الرسائل تكتب، حتى كان كلوديوس قد حرر نفسه ومؤسسته الرسمية من هذه المحنه بكل شرف وأمانة. لقد نظمت له مظاهرة كبرى في اليوم الذي أبحر فيه في نهر دجلة بيخته الخاص مودعاً بكلمات أسف لفراقه وأمانٍ طيبة له من جميع سكان مدينة بغداد تقريباً. وعلى ما هو واضح، فهو حينما كان يتجول في ربوع كردستان في الصيف السابق، أعلن في تقرير موثوق بأنه قد رشح لمنصب ملكية سورات (المدينة الغربية في غرب البلاد)، وتجدد هذا الخبر خلال النزاع الذي نشأ مؤخراً. وحينما سئل ريج بطريقة ملتوية غامضة مألوفة لدى الناس هناك، أجاب بنفس الالتواء والمراوغة قائلاً انه كان يعتقد انه قد رشح لمنصب في الهند، وأنه كان في سبيل الذهاب إلى هناك نتيجة لما حدث من نزاع بغيض، ولأن بقاءه في بغداد كان مصدر إزعاج له وللحكومة.

وبعد مناقشة طويلة من هذه القبيل، فكر وزراء الباشا الماكرون أن هذه يمكن أن يكون منفذاً يمكنهم التخلص بواسطته من ريج إرضاءً لطموحاتهم الخاصة، إذا كانوا، طبعاً، متأكدين من سفره إلى الهند، وبالتالي تهدئة خواطرهم بالقول أنه كان قد استدعي قبل اثارة الاضطراب، وذلك لأنهم كانوا سيخشونه أكثر فيما إذا اختار البقاء في البصرة. وهكذا، فقد تابع ريج مسار تفكيرهم، وحينما فكر أن الباشا كان على استعداد نفسي مناسب، جاء فجأة وطلب سحب جوازات

سفره رغبة منه في مغادرة بغداد لأسباب شخصية خاصة ملحة.

بدا أن الباشا قد أُخذ على حين غرة فأعطى موافقته، إذ كان متأكداً تماماً من مسألة منصب ريج الجديد لدرجة أنه أعطاه رسالة لتوصيلها إلى حاكم بومبي. وبعد أن حسمت هذه القضية، تطلع ريج إلى ضمان حماية أتباعه.

وفي الحادي عشر من شهر مايس، غادر كلوديوس المقيمية بيخته مبحراً إلى البصرة فوصلها في التاسع عشر من الشهر نفسه. وسافر معه بضعة ضباط من المقيمية كانت الحكومة التركية تمقتهم مقتاً شديداً، بخاصة أولئك الأرمن. وكذلك سافر معه أغلب حاشيته من الخدم.

الفصل العشرون

برسوبوليس[1] (١٨٢١م)

غادرت عائلة ريج مدينة البصرة في الثالث عشر من حزيران عام (١٨٢١م)، تاركة وراءها بلاد ما بين النهرين بكثير من عبارات الشكر وقليل من الأسف. أبحروا جميعاً في السفينة (فولنتير) مع الكابتن (وترمان)، الذي كانت زوجته معه على ظهر السفينة. وبعد خمسة أيام شديدة الحرارة أمضوها في رحلة مضجرة. ألقت السفينة مراسيها في طرق بوشهر الداخلية، حيث كان رصيف الميناء على مسافة قصيرة من هناك.

لم تكن صحة أي من كلوديوس وزوجته – ماري– على ما يرام، وكانت الحرارة المخضلة بالدبق مصدر ضيق رهيب، كان كلاهما يعاني خلالها من الحمى الشديدة، وبما أن ريج لم تكن لدية أوامر محددة بخصوص عودته إلى بومبي، فقد شعر أن مسؤوليتة تقتضي منه عدم التقدم إلى مدى أبعد. وهو، بعد اضطراره إلى مغادرة باشوية بغداد، اختار بوشهر بوصفها مكاناً وسطاً، حيث كان لشركة الهند الشرقية معملاً يشرف على إدارته احد الوكلاء السريين.

وعند وصوله إلى هناك، تسلم عدداً كبيراً من رسائل المديح لعمله

---

(١) مدينة فارسية قديمة تقع في جنوب غرب البلاد، وشمال العراق شيراز. يطلق عليها العرب «إصطخر»، ويقال إن الإسكندر الأكبر، بعد أن هزم دارا في أربيل، خرَّب هذه المدينة.

الصارم في بغداد. ثم إن الرسائل التي تسلمها من اللورد سترانغفورد - السفير البريطاني- كانت، هي الأخرى، تتسم بالاطراء الرفيع، وتعبر على ثناء كبير. وهذا، كما يمكن تصوره، قد رفع معنويات ريج كثيراً. وخلال مكوثه في بوشهر، شعر أيضاً أن بإمكانه الاتصال والإفادة من بعض التجار الذين بقوا في بغداد يمارسون اعمالهم التجارية تحت الحماية البريطانية.

وأدرك أن ليس ثمة ضرورة لبقاء ماري، فضلاً عن أنها كانت في وضع سيئ جداً، ناهيك عن أن بوشهر نفسها ليست ذا نفع صحي لها. وبما أن السفينة (فولنتير) كانت مبحرة في اليوم السادس والعشرين، فقد افترقا، إذ تقرر سفرها إلى بومبي للبقاء مع عائلة أرسكن انتظاراً لوصول ريج، فضلاً عن أن تغيير المشاهد والرحلات البحرية تعد علاجاً مألوفاً ضد الحمى، لم يدركا أن لن يكون بينهما لقاء آخر بتاتاً، وأن ذلك الافتراق كان الأخير في هذه الحياة الدنيا. كانت آخر لمحة لحبيبها - كلوديوس- وقوفه على رصيف الميناء يراقب سفينتها عند إبحارها في ذلك السديم الرقيق الذي غشي الخليج العربي.

كانت الحرارة فظيعة، وحتى أن خدم ريج من سكان بغداد شعروا بالشلل في قواهم قائلين:

«بإمكاننا مواصلة الحياة في النار، كما هي الحال في بغداد، ولكن ليس في حمام، كما هي الحال هنا.»

صحب ريج كل من الدكتور تود والسيد ستورمي، وبقوا جميعاً في المعمل، الذي اتخذ منه الوكيل سكناً له. لقد تعذر عليهم التمتع ولو بنسمة هواء باردة في أي مكان في المدينة، حتى في منطقة البحر الذي بلغت فيه درجة الحرارة (٩٠ فهرنهايت) فجراً. كان ماء الشرب الوحيد هو المطر الذي جمع في خزانات كبيرة، وكان ماءً فاتراً. أما عيون الماء والآبار حول بوشهر فماؤها مالح قليلاً. إن قضاء شهر بهذه الحال هو كل ما يستطيع المرء تحمله. وبعد انتظار وصول السفينة (تاينموت)، التي تحمل الرسائل إلى بومبي عادة، والتي لم ترد فيها إلى ريج أية اوامر محددة حتى الآن، قرروا السفر إلى شيراز لتمضية أسابيع قليلة في مناخ أكثر برودة.

شهدت ليلة الرابع والعشرين من تموز استعداد ثلاثة رجال – ريج والدكتور تود والسيد ستورمي– للشروع في السفر إلى مدينة بوشهر. وكان ريج يعاني من تدهور كبير في صحته بسبب شكواه القديمة. وبعد السفر ليلاً والنوم أو الاستراحة نهاراً في قرى صغيرة مبثوثة بين بوشهر وشيراز، وامتطاء ظهور البغال مسافة تربو على السبعين ميلاً، أمكنهم الوصول إلى هناك فجر اليوم الثالث من شهر آب. كانت الرحلة متباينة المظاهر، ولكنها آمنة. فهم، بعد مغادرة بوشهر بأميال قليلة بلغوا جبالاً زرعت سفوحها بالتبغ، ولو أن أشجار النخيل ما تزال ماثلة للعيان. وحينما توغلوا في شعاب صخرية ضيقة تفضي إلى الجبال، بدت تلك الجبال جرداء، لأنها تكونت من الحصى بصورة

رئيسـة، على الرغم من أن مجـموعـة معينة من طرائد الصـيـد أمكـن وجـودها، بالإضافة إلى منابع النفط والكبريت، أو بالأحرى استنشاق روائحـهـا القـوية بكل تأكـيـد. وكـانـت أشعـة الشـمـس التي انعكست على الصخور محرقة تشوي الوجوه وتسخن الوديان كالأفران، فبقيت ساخنة طوال الليل.

سار الركب بمحاذاة ممرات ضيقة، وعلى طريق وعرة غالباً ما يشتد انحدارها فتعذر متابعتها في حلكة ظلام الليل. وعلى الرغم من عدم ارتفاع أي جزء من هذه السلسلة ارتفاعاً شاهقاً، فقد خمن ريج أنهم لم يرتقوا أعلى من ثمانمائة قدم. وحتى في هذا الارتفاع أصبح الهواء أكثر إنعاشاً، مما جعله يشعر بتحسن أكثر لهذا التغيير. والأنهار، وإن كانت قليلة هناك، إلا أنها ظلت تتعقب نهر شابور الكبير وتقاطعت معه في آخر المطاف. وكانت النباتات تتغير تدريجاً، فمروا خلال منحدرات من نباتات خلنجية مزهرة، ومن شجيرات القبّار والطرفاء – ياله من منظر رائع يبهج النفس بعد المنظر الدائم للصحراء والنخيل.

وفي إحـدى القـرى أمكنهم الحـصـول على الثلج، وهو، مع التين والرقي والبطيخ، يعني تقديم وجبـة طعام حلوة باردة، بعد ذلك الماء الفاتر السابق وطعام بوشهر الذي يغطيه رذاذ الرمل. وبعد هبوطهم من الجبـال، أفضى بهم الطريق إلى سهل منبسط، ومن خلال ممر مرتفع، في عـمق أرض سبخـة، ومن ثم بواسطة طريق ذي تسـوية هندسـيـة رائعـة، اقـتيـدوا إلى سلسلة جبـال أخـرى. كـان شق هذا الطريق من

الجودة لدرجة أن ريج دعاه «طريق جبال ألب بلاد فارس»، فقد أعجب كثيراً بمثل هذا العمل الرائع في الشرق.

كانت سلسلة الجبال الثانية أعلى من سابقتها وأكثر برودة، وعلى هذا، فإنهم، عندما وجدوا ناراً من أشجار البلوط الصغيرة في إحدى محطات الحراسة، امتنوا كثيراً للجلوس من حولها، وفي قرية أخرى قابلوا بعض الكرد، وهو لقاء أسعد كلوديوس، الذي أجرى معهم حديثاً طويلاً، ثم وجهت لهم الدعوة في إحدى خيم أولئك الكرد فاستمتعوا بوجبة طعام شهية من خروف محشي كامل!

وبعد مواصلة طريقهم عبر طرق جبلية ساحرة، وصلوا إلى دائرة الكمارك التي تقع في مدخل سهل شيراز تماماً. وحينما عبروا تلك النقطة، سار ركبهم خلال مدينة شيراز حتى وصولهم إلى جنائن «جهان نُما» حيث اتخذوا منها مأوىً لهم في بعض الوقت، واستقبلهم بترحيب كبير صديق حميم – الميجر ليجفيلد– الذي كان، هو الآخر يقيم في تلك الجنائن.

كانت «جهان نُما» منبسطاً مربع الشكل تبلغ مائتي ياردة في كل جانب، وخططت في ممشيين متقاطعين تحف بهما أشجار السرو. وفي وسطها بناية صغيرة تشبه البرج، تحتوي على بهو فيه نافورة ماء، وشيدت في الأركان العليا منها غرف صغيرة، وجرى ماء في ساقية صغيرة أسفل الممشى الرئيس ليصب في خزان للماء عند البوابة التي كانت في أعلاها بهو مفتوح يدعى «بالاخانة» (سكن مرتفع قليلاً)

في حالة بائسة إلى حد ما. وخططت حديقة البنايات على وفق الطراز الإيطالي، ولكنها تفتقر إلى العناية.

خصصت بستان حافظ، التي دفن فيها الشاعر المعروف حافظ، فيما بعد المقيم وصديقيه، ولكن، بما أن الميجر ليجفيلد قد أقام مخيمه في «جهان نما»، والبناية الوسطى كانت غير مأهولة، فقد فضلوا جميعاً البقاء معاً.

كان مناخ شيراز اكثر برودة وإنعاشاً، وبعد إقامة امتدت عشرة أيام، شعرت الجماعة بالتحسن لذلك التغيير، ريج بصورة خاصة، إذ تخلص جزئياً من الحمى التي ألمت به، ولو أنها كانت حمىً مرتدة تتكرر دورياً، لأن تغييراً يستغرق أسابيع قليلة يندر أن يكون شفاءً لشكوى كان يعاني منها زمناً طويلاً.

وشيراز مكان جذاب، آسر، تمتلئ بالحدائق المزروعة بأشجار السرو، في حين تفضي عليها الجبال الباهتة الزرقة، التي تحيط بها، موقعاً يداعب الأحاسيس الرقيقة. لقد تعهدتها يد العناية جيداً لتكون مدينة شرقية صرفه، ثم إن أسوارها وحصونها ممتازة. ويشير كلوديوس إلى المؤن الجيدة المزمع الحصول عليها، الأثمار والخضراوات خاصة، وأعتقد أن الخوخ فيها كان من أفضل أنواع الخوخ الذي ذاق طعمه خارج انكلترا!

أمضوا أيامهم في الاستراحة هنا وهناك في الجنينة، وترديد الأقاويل دون شك، أو في التجول لمشاهدة معالم المدينة، وفي صباح أحد الأيام

ذهبوا لمعاينة جنائن الشاه زاده الجديدة المحاذية لجنائن « جهان نما ». تحتوي تلك الجنائن على ثلاثة أكشاك وساقية ماء صغيرة تحت الكشك الاوسط، وتحتوي على نافورات صغيرة. وفي أحد أبهاء البنايات صورة شائنة للشاه يستقبل سفيراً إنكليزياً، قيل إنه السير هارفورد جونز، في موقف ينم عن ضراعة وخنوع. لقد أزعجت هذه الصورة كلوديوس، الذي انتقدها بكونها صورة سيئة تثير السخرية.

كان أحد أحلام ريج منذ طفولته زيارة أطلال إصطخر. فهذه الأطلال المهيبة لا تبعد سوى خمسين ميلاً من هناك، ويمكن الوصول اليها بيسر وسهولة، وربما كانت أيضاً فرصة لا يمكن أن تحدث ثانية. وهكذا، وبعد أن أفاد الدكتور تود وريج من ضياء بدر متلألئ غمرهما، غادرا شيراز في الخامس عشر من آب يمتطيان ظهور الحيوانات إلى ممر « تنج الله أكبر »، الذي يقع على مسافة ميل واحد، ويغلق بوابته، وأعلى هذه البوابة ثمة غرفة فيها نسخة من القرآن الكريم لكي ينال المسافرون فيضاً من البهجة لدى مرورهم تحت هذا الكتاب المقدس.

تدرَّج الصعود من هذا المكان، لكن الطريق كان رائعاً. والسفر، الذي استغرق يومين، أتى بهما مساءً إلى حافة سهل إصطخر حيث أقيمت لهما خيمتان في إحدى الحدائق الملحقة ببيت مهدم. كان القمر بدراً، وقد أضاء نوره المتلألئ السهل إلى مدى بعيد، إلى حدود الجبال التي غمرت بظلال أرجوانية. جلس كلوديوس متأملاً المنطقة

التي باغتته بجمالها الساحر، والتي اقتربت إلى حد بعيد من تحقيق احلامه فيما يخص المكان. وفي ذلك الامتداد الشاسع أمكنه تصور جيوش داريوس تتحرك وتعسكر قرب عاصمة دولتهم، في حين تتم الطقوس البربرية وتستعرض المواكب المقدسة المهيبة تكريماً للشمس بواسطة السحرة والكهنة الذين يقيمون الاحتفالات بطريقة تَعَبُّدِيَّة ملغزة. نحن على علم بواسطة الكتاب الكلاسيكيين كيف كان ملوك الفرس يديرون شؤون بلاطاتهم بتلك الأساليب الفخمة الرفيعة وبتلك الدرجة من المبالغة المتكلفة حدَّ الحماقة. لقد اختلط ذلك الإرباك بكل ما فيه من أبهة بربرية وتنافر في الأصوات لا حصر لها، بصهيل الخيول وصراخ الفيلة المدوي في وقت كان يمكن فيه تمييز كل طبقة موجودة بين تلك الحشود، من سفراء وجنود مرتزقة وأسرى وسكان محليين، تتحد كلها لتقدم إفراطاً مدهشاً من البهاء والألوان. وها هو ريج يكتب موضحاً:

«لا يمكنني أن أصف أحاسيسي لدى اقترابي من أطلال برسوبوليس، فقد بدت قمة الجبل المستدقة التي تستقر تحتها الأطلال تتحرر تدريجياً من سلسلة الجبال التي تطوقها. وقد أشار الدكتور تود أن تحت تلك القمة تترامى الأطلال. وفي تلك اللحظة ظهر القمر بروعة غير اعتيادية من خلفها، فبدت على الفور عصور سحيقة تعرض نفسها على خيالي.»

ومع ذلك، فقد عقدنا العزم على زيارة مورغاب وأطلالها على مسافة

ثلاثين ميلاً تقريباً قبل التوجه إلى العاصمة القديمة. شرعا مبكرين صباح اليوم التالي على ظهور البغال أسفل الجبال الشاهقة الشبيهة بالأجراف، واجتازوا بعض المراقد المشيدة بالصخور وبتصاميم نحتية مميزة تعرف محلياً بـ« نقش رجب». وبعد استراحة امتدت نصف ساعة لمعاينتها، تقدما إلى أعلى واد ضيق ثم جاءا إلى ما بدت لهما خرائب قلعة قديمة ذات أبراج وخنادق دفاعية ما زالت ماثلة للعيان. أخبروهما أن هذا المكان كان مدينة إصطخر العاصمة السابقة لبلاد فارس- وهي مدينة اكتسبت أهمية خاصة أيام الخلافة العباسية، لكن شأنها تضاءَلَ في القرن الثاني عشر، ثم هجرت في آخر المطاف. أمضيا ليلتهما في قرية كبيرة تحت اجراف الجبال العالية العمودية، حيث أقاما خيامهما، كالعادة، في إحدى البساتين. وتواصلت الرحلة في الطريق المرسوم في اليوم الثاني إلى أعلى الوادي يدوران حول قنن جبال تكسوها الأحراج.

وبعد هبوطهما وصلا إلى سهل صغير برزت فيه اطلال مدينة (مسجد سليمان) متوهجة كعرق لؤلؤ زاهٍ في خيوط أشعة الشمس الذهبية عند الغسق، وبدت ببياضها الناصع كأنها معبد إغريقي صغير يعاني من الضياع في سهل مورغاب. وبنظرة خاطفة مساء ذلك اليوم، تفحصا الموقع فحصاً دقيقاً صباح اليوم التالي. وحوالي المكان هناك آثار لبنايات كثيرة تعرف أطلالها اليوم «باسارغارديه» التي بناها الملك كورش. وثمة منصة تدعى « تخت سليمان» أو عرش سليمان، على مسافة غير بعيدة، وهو ظاهر للعيان بما فيه من قطع المرمر الأبيض الذي

شيد به. وقد قام ريج بقياس قطعة المرمر فوجد أنها تبلغ أربعة عشر قدماً وبوصتين طولاً وثلاثة أقدام عرضاً. يفترض أن يكون هذا هو بهو الاستقبال للملك. وثمة بناية أخرى فيها أربعة أعمدة تعلوها تيجان، وفوقها تمثال غريب جميل له ستة أجنحة وعلى رأسه قرنا كبش يسندان ثلاثة أشجار سرو مخروطية الشكل، وفوق الجميع نقوش. هذا ما نسخه ريج، ومنذ ايامه تقرأ تلك النقوش هكذا!

« أنا كورش. الملك الإخميني. »[1]

ترى، بأي متعة كان سيقرأ تلك الكتابة، إذا كان لا يفهم سوى النصوص المسمارية؟

اكتشف الرجلان أخيراً أكثر جميع الأطلال متعة – مسجد سليمان– الضريح الحجري لأم سليمان، كما كان يعرف محلياً. وها هو ريج، يصفه بأنه في حالة جيدة للغاية، فيقول:

« تابوت كامل موضوع على هرم، كله من المرمر الأبيض، والبناء بأكمله من الكتل الحجرية الكبيرة. يطغى اللون الأسود على الداخل بفعل دخان القنديل، وهناك كتابات عربية نقشت على المرمر. التأثير إغريقي غاية في الجمال. وقد اعترتني خشية مفاجئة من هذا المظهر الوقور في هذا الجزء من الأطلال، واكتشف أن ليس لدي تصور صحيح عنه. جلسْتُ قرابة ساعة على الدرجات أتأمله حتى ظهور

---

(١) الحقيقة الجديرة بالذكر هي ان الملك الذي حارب كورش هو بنونائيد وليس ما هو مذكور في التوراة الذي خضع إلى كثير من التزوير من قبل اليهود.

القمر، وبدأت أفكر لا بد أنه، في الواقع، أفضل ما شاهدت من أضرحة ملوك الشرق شهرة واثاره للاهتمام.»

ويشار إلى أنه، حتى في أيام ريج، كان يفترض ان ذلك الضريح هو ضريح الملك كورش، ولذا يحتمل انه كان يلمّحّ له.

شهد يوم الثلاثاء، الواحد من والعشرون من آب، رحيل المسافرين في طريق عودتهما إلى برسوبوليس بطريق آخر، رديء ولكنه أقصر. يمتد هذا الطريق بين جرفين جبليين عموديين من المرمر، بارتفاع شاهق، وهو طريق لا يعدو أن يكون شقاً أو فرجة بين الجبال. وبعد قضاء يوم في مخيم احدى القرى، والمرور ثانية بأطلال إصطخر، نصبا خيمتيهما مساء اليوم التالي قريباً من أطلال برسوبوليس، إلى جوار أعلى السلم الرائع الذي لم يزل باقياً لإظهار بعض أمجادها التي كانت عليها فيما مضى. أمضينا في هذا المكان خمسة أيام. وهذه المدينة التي يفترض أن دارا هو الذي شيدها، وهو الملك نفسه الذي دحر بيلشاصر واستولى على بابل، شهدت كذلك انتصارات وأمجاد الذين أعقبوه - أحشويرش[1] وارتحشتا[2]. وبعد قرنين، باعتبارها واحدة من عواصم بلاد فارس، عرضت هذه المدينة للنهب والحرق من قبل الإسكندر الأكبر، وقد قيل إن ذلك تم خلال طقس سري في عيد تميز بالقصف

---

(١) ملك فارسي حكم من (٤٨٦-٤٦٥ق.م)، غزا بلاد اليونان عام (٤٨٠ق.م).

(٢) ملك فارسي ابن احشويرش- حكم من(٤٦٥-٤٢٥ق.م). ضعفت دولته بسبب الاضطرابات في مصر وحروبه ضد اليونانيين.

والعـربدة والخمـر. كـان منظر الأطلال العام فـخـمـاً يتـسم بالشـمـول والعظمة، ويفترض أن المنصة الواسعة، التي تشكل أثراً يعرف بـ« تخت جمشيد »[1] تعني الأساس لبلاط الملك – دارا –، وصف الأعمدة الذي يعد إحدى سمـات ذلك الأثر الرئيس، حيث لا يزال خـمسة عشر عموداً، قائماً حتى الآن، رائع إلى حد كبير.

تجول ريج حول برسوبوليس في أول ليلة تحت ضوء القمر، مكرراً في نفسه مقاطع من قصيدة درايدن – الشاعر الإنكليزي– بعنوان « وليمة الإسكندر ». وبدت نزهة ريج المتوحدة في ذلك الضوء الملغز صورة تعج فيها الخرائب بالناس بعدما هُجرت منذ زمن سحيق. وظهر بعض بقايا بناياتها الرئيسة ثقيلاً في عين ريج إلى حد ما، وذلك بسبب كتل الأحجار الكبيرة المستخدمة في تشييدها وقلة النسب المئوية الخاصة بأصول البناء حسب رأيه. ومع ذلك، فقد كان تنفيذ العمل كله مبهراً. وعلى هذا، فقد انهمك في عمل التخطيطات ودراسة الكتابات المنقوشة، غير أن تلك الرسوم والتخطيطات قد اختفت لسوء الحظ! وعلى الرغم مما حدث، فإن المدونات الخاصة بوصف رحلته قد نشرت قبل تسعين سنة تقريباً. لقد زار كثير من الرحالة موقع برسو بوليس قبل رحلة ريج، والشخص الذي اتخذه مرشداً رئيساً له كان

(١) من الآثار المعروفة في مدينة إصطخر. وتخت جمشيد الأثرية تنسب إلى الملك جمشيد. وإصطخر تدعى برسوبوليس.

«نيبور»[1]، الذي أجرى دراساته على الأطلال بصورة شاملة عام (١٧٦٥م) وكذلك زار، قبل سنة أو سنتين، تلك الاطلال السير روبرت كير بورتر. ومع أن كتاب بورتر لم ينشر في ذلك الوقت. فقد أبان للمقيم بعض رسومه الجميلة الدقيقة للمنحوتات في أثناء إقامته معه في بغداد. وفي يومياته، لم يحاول ريج وصف أية جزئيات لمشاهداته، ولكنه انهمك، بصورة رئيسية، في عمل التخطيطات وتدوين الكتابات المنقوشة، متابعاً الأفكار الرئيسة في الخطة التي وضعها نيبور في كتابه.

كان بعض الكتابات على علو شاهق، وبما أن ريج لم يكن في وضع صحي يؤهله للنظر إلى المرتفعات العالية، فقد ربط منظاراً صغيراً على عمود ثبت في الارض. وسكرتيره الفارسي[2]، الذي رافقه في تلك الرحلة، كان، هو الآخر، مستحقاً بالعمل معه، فقد أعانه في تدوين بعض الكتابات المنقوشة التي يتعذر الوصول إليها بواسطة السلم.

---

(١) هوكارستن نيبور- الرحالة الالماني الاصل- الذي ولد في (١٧) آذار عام (١٧٣٣م). دخل في بعثة ملك الدانمارك العلمية في الشرق الأدنى وجنوب جزيرة العرب، ووصل إلى بوشهر عام (١٧٦٥م)، ثم ذهب الى شيراز ورسم خرائب برسو بوليس. كتب جزأين عن رحلته – الثاني خاص بالعراق عام (١٧٧٨م).

(٢) هو (آغاسيد) – لسيد محمد بن السيد احمد الحسيني، كما جاء في «رحلة المنشئ البغدادي»، ترجمة: المرحوم عباس العزاوي. وعلى هذا، فهو من سكان بلاد فارس. ومع ذلك، فإن ما يؤاخذ عليه هذا الرجل هو ملازمته بإخلاص للمقيم البريطاني -ريج- لأن ريج وغيره من الرحالة وبعض المستشرقين ليسوا أمناء في بلداننا، في ظل الاستعمار الغربي.

أمضى هذا الرجل سنوات طويلة مع ريج، وهو شخص ذكي جداً وقام بدور نشيط في بحوث ريج الادبية والآثارية.

كانا يتبادلان الرأي كثيراً فيما يخص النصوص المسمارية، التي كان منها الكثير في برسو بوليس. وبيلينو-سكرتير ريج الأخير، قام بدراسة حروفها الغريبة التي يتعذر فك مغالقها. وزار ريج، كذلك، الأضرحة الصخرية في «نقش رجب» التي توقف لالقاء نظرة فاحصة عليها في طريقه إلى إيستاكار، والتي حُفر عليه نقش لأحد الكهنة، حُفظ بعناية فائقة. لاحظ أن بدلته لم تكن ذات طراز بابلي، وإن كانت الكتابة مسمارية، فهي بدلة فضفاضة، واسعة وطويلة، رُبطت بحزام في الوسط وفيها أردان واسعة.

وفي الجانب الآخر من السهل كانت مدافن «نقش رستم» التي سُميت محلياً باسم البطل الفارسي. وهنا أيضاً يمكن مشاهدة الاضرحة الصخرية، التي يصفها ريج بأنها أضرحة سبقت عهد الإسكندر، وقد غطيت بمجموعة من الكتابة. وعلى جوانب مداخل الأبواب ثمة تمثال لكاهن في محراب، والكتابة من الصغر والارتفاع لدرجة أن ريج لم يستطع تدوينها. والمعروف هي أن تلك الأضرحة هي أضرحة دارا وثلاثة من الذين أعقبوه - أحشويرش وأرتحششتا ودارا الثاني. وأمكن مشاهدة التابوت الحجري خلال مداخل الأبواب، وان بدا أن الاضرحة قد انتهكت حرماتها. وبالإضافة إلى ذلك فحص كثيراً من الكتابات المنقوشة المحفورة باللغتين - الاغريقية والساسانية -

تحت مجموعة من التماثيل، فاستنتج ريج أنها تعود إلى الملك «ارتحششتا» وهو ينازع أحد الملوك الفرثيين على السلطة. يصف ريج الملك الفرثي بأنه يعتمر عصابة حول رأسه ويضع عليه تاجاً مفتوحاً، وقد جمع شعر رأسه ملتفاً خلال الجزء الأعلى. وعلى كتفه ينسدل شعرٌ أحمر، وشعر لحيته أحمر كذلك! أما الملك الساساني فيوصف بوجود بالون غريب على رأسه، وشعره يبرز في كل جانب بخصلات كثة منافية للعقل.

وبهذا الصدد يدون اللورد كيرزون في كتابه الموسوم «بلاد فارس» المنشور عام ١٨٩٢م ما يأتي:

«أقرأ بمتعة كبيرة هنا شيئاً، على شرفة الملك أحشويرش، وبحروف كبيرة: الكابتن جون مالكولم (١٨٠٠م)، وإلى الأسفل تماماً كتب: السير هارفورد جونز، وك. جي. ريج، والدكتور تود ١٨٢١م وهي كتابات محفورة، أنجزت في حالات كثيرة بأيدي رحالة معروفين في الماضي، يحتمل أن يكون زائر برسو بوليس، الذكي منهم، قد ألف أسماءهم بالدرجة نفسها التي ألف بها اسم الملك أحشويرش.»

وفي الثامن والعشرين من آب ودعوا الأطلال القديمة وشرعوا يرحلون عائدين إلى شيراز، سالكين طريقاً مغايراً ومجتازين نهر أراكسس، فبلغوا مستقرهم القديم في «جهان نما» مساء الثلاثين من ذلك الشهر.

الفصل الواحد والعشرون

النهاية (١٨٢١)

لدى عودتهم إلى شيراز، أمضى كلوديوس وقته في التجوال، ودخول الحمام ومشاهدة معالم المدينة وزيارة الجوامع والذهاب إلى السوق، الذي وصفة بانه اجمل مَعْلَم شاهده، وحتى أنه أجمل من أسواق إسطنبول نفسها، وإنْ لم تكن البضائع التجارية المعروضة فيه منظمة أو عالية التزويق. كان «جامع الوكيل» الذي دخله فاتناً، ولكن لا يمكن مقارنته ببعض الجوامع التي شاهدها في المدن الأخرى. والخانات جميلة أيضاً، وان لم تلفت النظر بشكل مائز.

اكتشف أن سكان مدينة شيراز قوم فيهم غطرسة وقحة، والسفر الكثير في الشرق ليس حكماً تافهاً. وخلال إقامته هناك اشترى ديوان الشاعر حافظ، ثم توجه فوضعه على ضريح ذلك الشاعر الشهير، كما جرت عليه العادة عند الفرس. والشاعر حافظ، الذي كان أعظم الشعراء الغنائيين، توفي عام (١٣٨٨م)، ومجّده الناس باعتباره قديساً. واقترح ريج على سكرتيره -السيد محمد آغا- أن ينظم كراساً فيه جميع الأبيات الأولى لقصائد الشاعر الغنائية، وقد أعانه في ذلك أحد الدراويش المسنين، الذي كان سادناً للمرقد، ويحفظ جميع قصائد حافظ على ظهر قلب. وعلى هذا، فقد دونت الأبيات الأولى لكل القصائد في هذا الكتاب، وهو ما يرفع قيمته بوصفه كتاباً لافتاً

للنظر لغرابته وجدته، بخاصة أن كثيراً من تلك الأبيات لم يكن معروفاً معرفة دقيقة.

انتزع ريج من على جسده، ولو جزئياً، الحمى التي لازمته، ولو أن النوبات أخذت تعتريه في حالتي الإرهاق والتعرض للبرد القارس. ولم يكن ثمة، على ما يبدو، علاج ناجح للتخلص منها نهائياً أو حتى التخفيف من شدتها في ذلك الوقت، أو علاج، في حقيقة الأمر، يمكنه القضاء عليها، وقد جعلته نوبات القشعريرة المصاحبة للملاريا وآلام الصداع الحادة، يعاني من المرض والكآبة كثيراً.

وبمعزل عن هذه الأعراض البغيضة، مرت الأيام بما يكفي للبهجة والفرح، فخلال الأسبوع الثاني من أيلول، شاهدوا احتفالاً رائعاً مؤثراً يتعلق باحتفالات زواج امير شيراز، الابن الثاني للشاه زاده، ووريث العرش الشرعي بعد أبيهِ الذي احتفظ ببلاطه في شيراز. كان العريس في الثانية عشرة من عمره وقد منحهُ الشاه رتبة جنرال في الجيش الملكي. أما الأميرة فهي أكبر منه بعدة سنوات. كانت ابنة عمه —من البيت الكرماني نفسه. ولكونهما من منزله رفيعة، فقد أمر الشاه زاده بإقامة الأفراح والاحتفالات الكبيرة، التي تقرر أن تواصل عدة أيام. ثم أرسل وفداً إلى مدينة كرمان لإحضار العروس، وحدد اليوم الثاني عشر من أيلول موعداً لوصولها. وفي الواحدة صباحاً، استيقظت المدينة على وقع خُطا جنود يتقدمون لتشكيل حرس خاص يستقبل الأميرة، وراح الجنود يطلقون نيران بنادقهم طوال الطريق، فجعلوا الجبال المحيطة

تردد صدى إطلاق البنادق كقصف الرعد.

ارتدى الرجال بدلات قرمزية اللون وقلنسوات بذلك اللون نفسه، ودروعاً نحاسية، وكسيت سروج الجمال بالقماش القرمزي كذلك، وحمل كل واحد منهم راية مثلثة الشكل. وفضلاً عن ذلك، فقد شكلت المدفعية والمشاة جزءاً من الحرس، واحتشد الجموع على الطريق للترحيب بالأميرة.

وفي الساعة السابعة صباحاً ازداد إطلاق النار مصحوباً بقرع الطبول ونفخ الابواق إعلاناً عن قرب وصول الأميرة. تقدمت الموكب قوات من الفرسان، التي لا بد أنها كانت تحت قيادة العريس الشاب، الذي كان، مع ذلك، مصاباً بالحمى على ما يبدو. ثم تقدمت المدفعية تئن وتئز خلال تحركها الثقيل، وتطلق الرصاص الخلبّ على طول الطريق، ثم تقدم حرس شرف من الخانات (الزعماء المحليين)، تليه الطبقة الحاكمة وضباط الدولة مع جوقة موسيقية عسكرية.

وبعد ذلك لاحت العروس محمولة في سلة كبيرة على ظهر جمل حيث كانت تجلس هناك، لأن قواعد التشريفات كانت تقضي ألا تركب العروس، التي تزف إلى بيت زوجها، بالمحمل (التخت روان). كانت برفقة عمتها التي احتلت السلة المقبلة لسلتها، التي غطيت بقطع قماش الكشمير الراقي المزخرف بالترتر (البُلك) واللؤلؤ، وتقدمتها مجموعة من المصارعين بنقاراتهم الإيقاعية وعصيهم التي يلوحون بها. وخلفها مباشرة جاء حرس مؤلف من نحو أربعين سيدة

قاجارية (والقاجار اسم عائلة ملكية في بلاد فارس) . وصفهن ريج بأنهن كن يرتدين بدلات عسكرية مناسبة وفي أرجلهن جزمات في غاية الأناقة، وارتدين على بدلاتهن « صايات » من قماش أحمر ولفت رؤوسهن بالشالات الكشميرية الجميلة المزخرفة بالترتر واللؤلؤ، وتدلت قطع الشال إلى منتصف ظهورهن. وحجبت وجوههن ببراقع بيض فيها ثقوب واسعة للنظر، عولجت بشكل متطور. تنتمي هذه السيدات إلى عائلة ملكية معروفة، وتسلحن على وفق هواهن، حمل بعضهن المسدسات وبعضهن الآخر حمل الأقواس والسهام، وبأشكال زخرفية جذابة، كما حملت اثنتان منهن سيفين مرصعين بالجواهر، وامتطين سروج الرحال بكل روعة.

أما رجال الشرطة وحشود المتفرجين، فقد سدوا طريق الموكب يتدافعون بالمناكب ويعلو صراخهم.هذا، وقد تركت الامسية على سجيتها ليطغى عليها الصخب والموسيقا والرقص والقصف والشراب، لانهم ليسوا كبقية المسلمين الملتزمين بعدم تعاطي المسكرات، فهم، كما لاحظ ريج حقيقة، »سكارى بكل صفاقة »، إذ قال:

« تخضع مختلف طبقات شيراز إلى ذلك النوع من الرذيلة، ولم يحاولوا استنكارها أو التستر عليها. »

وصدر أمر بإقامة معالم الزينة الضوئية بطريقة غريبة تثير الفضول، فقد كان كل فرد ملزماً بإضرام نار كبيرة من حطب الجولق (شجيرات شائكة) أو التبن في العراء، على سطح بيته المنبسط، كما أضرمت

النيران على جميع سطوح البنايات العامة والجوامع والأسواق، فضلاً عن انتشار أضواء زرق قليلة في فترات قصيرة. وهكذا، فقد أضيئت المدينة بأكملها إضاءة رائعة. وقيل إن إضرام النار في العراء خلال مراسيم الزواج كان مستمداً من عادة قديمة عند الزرادشتيين[1]، فقد احتفظ الفرس بكثير من احتفالات أسلافهم – عبدة النيران حينذاك.

وفي المساء شاهد الإنكليز، في حديقة مجاورة، عرضاً لافتاً للنظر لزمرة من حاشية الوزير استبد بهم صخب سكران لعبت الخمرة برؤوسهم إلى حدٍ كبير، وإن لم يتعد هذا الهرج غير الميل إلى البهجة والخدر، دون إثارة للشجار أو تعكير المزاج.

ولاحظ ريج: «أن جنة الفرس هي الخمرة والماء الجاري والتدخين، فاحتساء الخمر إلى جانب جدول ماء أو ساقية يعني سروراً بالغاً. إنهم غافلون يستبد بهم الطيش، ولم يسبق لي أن التقيت أمة مثلهم محرومة تماماً من أي نوع من الشعور أو العاطفة أو أية مشكلة وجدانية. وهم، بذلك الوضع، أقل شأناً بكثير من الأتراك، الذين غالباً ما يتعلق أحدهم بالآخر تعلقاً شديداً، وبخاصة بين السيد والخادم على الرغم من مبادئ دينهم وحكومتهم. يندر وجود مثل هذا السلوك بين

(١) الزرادشتية نسبه إلى زرادشت، مؤسس المذهب المعروف باسمه، الذي ظهر في بلاد فارس قرابة عام (١٠٠٠ق.م). يقوم مذهبه على وجود إلهين–اله الخير واله الشر. وقد اصبحت الزرادشتية عام (٧٠٠ق.م) الدين الأول للفرس، وجمعت تعاليم مؤسسها بعد (١٠٠٠) سنة من وفاته في كتاب يسمى (فستا). واتباعه هم عبدة النار المعروفون باسم المجوس، وظلت تلك الديانة حتى الفتح الإسلامي لتلك البلاد حيث تمَّ إلغاؤها.

الفرس، فالسيد طلق المحيا، ودّي، ولكنه دون رحمة أو عطف، حتى وإن كان قليلاً، إذ لا يمكن أن يثيره شيء أو يحدد وضعه أو يؤثر فيه.»

تواصلت مظاهر الاحتفالات والفرح أسبوعاً بأكمله، وأثارت العربدة وشعائر الانغماس بالملذات الفحش والاشمئزاز، إذ إن كثيراً من تلك المظاهر لا يعد أن يكون ضجيجاً وتنافراً مشاكساً. ومع أن عروض الألعاب النارية كانت، هي الأخرى، تسلية ليلية، إلا أن المدينة كانت مسرحاً لشجار كثير، لأن أتباع كبار النبلاء، الذين اعتادوا حضور احتفالات الزواج، كثيراً ما كان أحدهم يصفع الآخر بشتى أنواع السباب.

انتشرت في المدينة إشاعات عن حدوث وفيات بسبب الكوليرا، ولا ريب في أن الناس، الذين حضروا الاحتفالات من مدن أخرى، هم الذين جاؤوا بهذا الوباء، كانت الإصابات في البداية لا تتجاوز العشر أو الخمس عشرة إصابة، لكن الخوف ازداد بعد انتشار حكايات عاصفة عن سير المرض. ثم إن كلوديوس كان في وضع صحي بعيد عن الراحة والاستقرار، فقد عاودته نوبات الحمى، ناهيك عن أن الصخب المتواصل، الذي رافق وسائل التسلية، لم يخفف آلام صداعه الشديد. لقد حاول إشغال نفسه لاهياً بامتطاء حصانه والتجول في الريف لتغيير الجو والمناظر المتكررة وزار الجنائن الكثيرة التي اشتهرت بها شيراز. ومن بين الجنائن التي ذهب إليها كانت البستان التي ضمت ضريح الشاعر المعروف – سعدي – الذي توفي عام (١٢٧٦م). وفي هذه

البساتين غالباً ما توجد دور للاستراحة يشرف عليها الدراويش لتلبية طلبات المسافرين. كان ضريح الشاعر أسفل إحدى البنايات الصغيرة، ذا بلاطة أصلية وكتابة محفور عليها. وسعدي، مثله مثل حافظ، أضيفت عليه هالة قدسية بعد وفاته. وفي البستان حوض يجري فيه الماء رقراقاً كالبلور، ويحتوي على أسماك كان الشاعر ينظر إليها بقدسية، ولم يفكر أحد في صيدها. وزار، أيضاً، حدائق دلكوشا، التي توجد فيها متاهة مائية، حيث يجري الماء في حوض اصطناعي ، ثم يتعرج ليصبح سواقي ماء ملتوية، ويخرج خلال أنابيب تحت الأرض، وبهذا الصدد يوجه ريج انتقاده قائلاً:

«انها أشياء تافهة لا قيمة لها إلى حد الإفراط، ومع ذلك، فهي مصدر بهجة للجميع.»

لقد تسارع حلول وباء الكوليرا فعلاً، فأهلك خلقاً كثيراً في المدينة. وكان علاج من يتعرض للإصابة به، هو أن يغمر الشخص المصاب بالماء البارد ويجبر على تناول عصير العنب، وكثيراً ما يحدث لأولئك الذين يعلن عن إصابتهم بالمرض أن يرموا، بلا رحمة، خارج بيوتهم، في الشارع، وذلك لأنهم مصدر عدوى سريعة لأفراد العائلة.

كان اليوم الثامن عشر من أيلول يوماً كئيباً يقبض النفس، فقد أوقفت الاحتفالات، لأن زوجة الأمير قد فارقت الحياة ليلاً، بالإضافة إلى وفاة خمس أو ست خادمات ممن يعملن في بيت الحريم. وانهار أخو زوجة الشاه زاده في أثناء امتطاء حصانه، فلفظ أنفاسه الأخيرة

قبل وصوله إلى البيت. ذعرت مدينة شيراز وتبدد شمل الناس خارج المدينة في كل الاتجاهات، وحتى إن بعضهم كثيراً ما كان يترك عائلته أو أفراد أسرته بأكثر الأساليب أنانية وقسوة. والشاه زاده نفسه يضرب به المثل بهذا الصدد، فهو، بعد أن هجر بلاطه مع أمه وبعض أفراد عائلته وحاشيته، ذعر حينما أبلغوه أن أمه قد أصيبت بالكوليرا في محفتها، وصرخ: «ماذا أفعل؟ ماذا سيؤول إليه أمري؟».

وبعد أن جنَّ خوفاً وهلعاً، امتطى جواده، تتبعه إحدى أخواته وقلة من خدمه، وأسرع تاركاً وراءه السيدة المسنه تعاني سكرات الموت على جانب الطريق.

وسار النبلاء وموظفو الحكومة في أعقاب سيدهم، وحتى أنهم تركوا حريمهم وأفراد عوائلهم في المدينة التي ضربها الوباء، لا يفكرون إلا النفاذ بجلودهم. لقد خمد صوت الحكومة وحل الفناء بأعلى درجاته بين طبقات المجتمع العليا، فقد أعلن أن مائتي حالة وفاة أو أكثر سجلت يومياً.

وبدأ الخوف يدب في نفوس رجال الدين، إذ بدت الكوليرا لهم عقاباً على ما ظهر من فسق وإسراف في اتباع الشهوة والسكر، وهي الأمور التي تجاهلوا عواقبها في المدينة اللاهثة وراء الشهوات والمتع الحسية. وعلى هذا، فقد أصدروا أمراً بإتلاف الخمور، وحتى أنهم ولجوا بيوت الأرمن وحطموا دنان المشروبات الروحية. وكذلك أمروا بطرد جميع الراقصين والمغنين والبغايا من المدينة، وعن هذا يكتب ريج

ساخراً[١]:

«حينما ساءت صحة الشيطان، أراد أن يكون راهباً، وحينما تحسنت صحته، هل بقي راهباً؟»

هذا، ولم توزع الصدقات على الفقراء، الذين حف الخطر بأحوالهم، وإن أحد السادة (المنحدرين من النبي «صلى الله علية وسلم»)، وهو مواطن من شمالي البلاد، ظل يقاسي سكرات الموت ثم توفي في فناء أحد المساجد، وترك هناك ميتاً ما دامت هناك طاقة بشرية على تحمل منظره ونتانة جثته، ولم يبد الناس شيئاً من اللياقة والأصول لدفنه، وهو إجراء ما كان سيكلف إلا نزراً قليلاً من المال.

عاد إنكليزيان من تبريز في هذا الوقت – الدكتور جفريز واللفتنانت كامبل–، وبعد أيام ازداد أفراد المجموعة الصغيرة في (جهان نُما) بمجيء السيد فريزر قادماً من بوشهر. شعروا باطمئنان كبير في بستانهم، فلم يكن أمامهم، على أية حال، مكان آخر يذهبون إليه، لأن الكوليرا قد تفشت في كل أنحاء البلاد. ومع ذلك، فقد أصيب اثنان من خدم ريج بالوباء – سائس خيوله، الذي توفي، وحامل غلايينه، الذي شفي من المرض– وهذا يعني أن الوباء حل بحاشيته، إذ

---

(١) لا حق له ان يسخر، لانه يجهل تعاليم الإسلام الحنيف، فقد جاء في سورة الاسراء – الآية (١٦) ما ياتي: «وإذا أردنا ان نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً»

صدق الله العظيم

لا حصانة لأحد منه على الإطلاق، والموظف الوحيد الذي ظل يكافح المرض - اغا بابا خان - زار ريج في الثاني من تشرين الأول، متلهفاً على وجوب أن يكون كل شيء على ما يرام بين الأجانب، لأنه ليس ثمة أي من الرجال بمثل منزلته في المدينة يمكنه التحدث إليهم أو التشاور معهم، لقد احتفظ بأرقام دقيقة للغاية عن الموت الجماعي الذي سببه الطاعون. ففي يوم وصوله بلغ عدد الموتى رقماً كبيراً، هو (٥٦٠٠)، خلال ثلاثة أسابيع. وأكد له، مع ذلك، أن الوباء بدأ ينحسر، وبذلك تناقص عدد الضحايا كل يوم. لقد أغرت هذه الأخبار أغلب الإنكليز وأقنعتهم بمواصلة رحلاتهم إلى مختلف الجهات، لكن صحة ريج ليست مطمئنة. وبما أن السيد فريزر والدكتور نود بقيا في المدينة، وأن أية أوامر لما تصل من بومبي حتى الآن، فقد آثَرَ البقاء أيضاً. وفي اليوم الرابع من تشرين الأول، تردت صحته فعلاً، إذ بلغ به المرض، في الواقع، حداً جعل الطبيب يقلق عليه، أضف إلى أن ريج كان كثير التوجع حتى في أحسن الأحوال، لكن هذا المرض كان يحمل في طياته إمارات الإصابة بالكوليرا. وعند العشاء، مساء ذلك اليوم، أصر ريج على الجلوس على مائدة الطعام، لكن نوبة من قشعريرة باردة انتابته فحمل إلى فراشه على الفور. وضع تحت عناية مركزة أسبغها عليه رفيقاه، إلا أنهما، عند منتصف الليل، حينما بدا عليهِ الارتياح كثيراً وخلد إلى نوم طبيعي، انصرفا عنه لنيل قسط من الراحة. غير أنه بعد ساعة أو ساعتين، أصيب بتشنج عنيف

فصرخ موقظاً خادمهُ الذي أسرع لاستدعاء الطبيب، لكن فات أوان العلاج الذي لم يكن في متناول يده. وهو، وإن أمكنه إعطاء بعض الدواء لتخفيف ألمه، إلا أن ريج فارق الحياة في الساعة العاشرة صباح اليوم الخامس من تشرين الأول. لم تطل معاناته، ولعل ذلك كان من باب الرأفة به، كان ممكناً إستعادة صحته لولا وضعهُ الصحي الذي استهلكته الحمى المتواصلة في الاثنتي عشرة أو الخمس عشرة سنة الماضية.

لم يزل شاباً، في الخامسة والثلاثين من عمره فقط، وقد انتزعت منه تلك الحياة الرائعة الثمينة بكل ما فيها من تطلعات وآمال في المستقبل. وريج، الذي وهبه الله ذهناً وقاداً وتفكيراً عميقاً، كان على اطلاع واسع بكثير من فروع المعرفة القديمة والحديثة، وكان رائداً، ليس باعتباره عالماً بالآثار ورحالة وحسب بل في إدراكه للواجبات والامتيازات التي يتمتع بها العاملون في حكومة الإمبراطورية البريطانية، وهو إدراك كان في بداياته الأولى في ذلك الوقت. لقد عزز ريج حقوق بريطانيا بأسلوب لم يعرف سابقاً في بلاد ما بين النهرين، ورفع مقامها إلى أعلى مما كانت عليه فيما مضى، فتجاوزت بذلك الحكومات الأوربية الأخرى مقاماً كان سيبقى عالياً حتى في الوقت الحاضر[1]

ولا يتذكر ريج إلا القليل من الناس، يتذكره الرحالة المثقفون وعلماء

---

(١) هذه هي حقيقة النوايا الاستعمارية، فبعض الاستشراق والرحلات المشبوهة في بلاد الشرق، ومنها بلادنا، إلا بعض غايات لتلك النوايا. ولكن ا فتقدرون وتضحك الاقدار، شيء لا يقدره الأجانب.

المترجم

الآثار في أغلب الأحوال، فهو، في زمانه كان يعد أسطورة من الأساطير. لم تتح له فرصة العودة إلى إنكلترا منذ مغادرته لها في السابعة عشرة من عمرهِ، وتوقف عن الاتصال الاعتيادي برجال عصره. فبغداد على مسافة طويلة، وقليل جداً من الناس الذين قطعوا تلك المسافة، والرحلة إلى أوربا كانت وسيلته الوحيدة للاتصال بالاحداث المتفاعلة في ذلك الوقت، ومع ذلك، فقد ترك بصماته على مجريات الأحداث، وهو، وإن نسي اسمه تقريباً، فإن العمل الذي استهله في السياسة والتنقيبات الآثارية، لم يكن خلواً من انتائج، ولو كان قد قيض له أن يمتد به العمر، لكان قد وصل إلى أي منصب رفيع تقريباً. فقد كانت في انتظاره وظيفة مرموقة لدى حكومة بومبي براتب يبلغ خمسة الاف باوند في السنة، بكونه عضواً في المجلس الاستشاري، لكن ذلك لم يقدَّر له ان يحدث. أما العمل الذي أنيط به لإنجازه، والمهمة التي قضت بها السلطات العليا، فقد أنجزا بكل أمانة وإخلاص. لكنه، ها هو الآن مسجىً ليستريح الراحة الأبدية في إحدى بساتين جهان نُما بين أيدي مجموعة صغيرة حزينة من أصدقائه – الدكتور نود والسيد بيلي فريزر وطبيب آخر يدعى جيكوز– أحد أصدقائه القدماء، الذي كان يجوب أنحاء بلاد فارس، ولما سمع بخبر وفاته جاء مسرعاً إلى شيراز. قرأ السيد فريزر قداس الدفن على وفق الكنيسة الإنكليزية على قبرهِ، وحضر القداس كثير من الأرمن في المدينة بكل احترام ووقار.

ووضعت صخرة لتكون شاهد القبر، وعليها كتب:

الموقر كلوديوس جيمز ريج،

توفي في الخامس من شهر تشرين الأول عام (١٨٢١م)

وبعد حوالي ست سنوات، حصل الكولونيل كنيير – صهر السير جون مالكوم– خلال مروره بمدينة شيراز، على إذن بنقل رفات ريج ووضعه بكل تبجيل واحترام بكاتدرائية جولفا الأرمنية، في إحدى ضواحي أصفهان التي يقطنها كثير من المسيحيين، وهناك سجي الرفات تحت صخرة حفر عليها ما يأتي:

تكريساً لذكرى كلوديوس جيمز ريج الموقر، من إدارة بومبي للخدمة المدنية، والمقيم البريطاني في بغداد سنوات كثيرة، الذي رحل عن هذه الحياة في مدينة شيراز، في الخامس من تشرين الأول عام (١٨٢١م) بعمر ...سنة، التي نقل منها، صديقه الحميم الكولونيل جي. ماكدونالد كنيير، رفاته وأعاد دفنه هنا في السابع عشر من تموز عام (١٨٢٦م).

يشعر المرء أن مثل هذا الإجراء سوف يرضي ريج، أن يدفن في أرض مقدسة تحت رعاية طائفة كثيراً ما ساعدها مادياً بقدر ما ساعدها عاطفياً. ولا يزال القبر ماثلاً للعيان هناك، والكلمات المنقوشة واضحة تماماً.

فلنصلِّ لراحة المتوفى مجاراةً للروح التي نأمل أنها تنتظر باطمئنان ذلك اليوم الذي يتم لقاؤه بحبيبته – ماري – وسوف تميز الأشياء كلها وتدرك

إدراكاً تاماً.

ولعل ما يثير اهتمام أولئك الذين قرؤوا هذه الصفحات أن يعرفوا ان ماري قد امتد بها العمر طويلاً، فقد توفيت عام (١٨٧٦م). فهي لم تتزوج بعد ريج قط، مع ما أتيح لها من فرص الزواج الكثيرة، لأن حب حياتها قد سجي ليرتاح راحة أبدية في أرض فارس النائية، ويستلزم الأمر ألا يخلفه أحد. ونادراً ما كانت ماري تذكر اسم كلوديوس، ويقال أنها دفنت مع علبة صغيرة معدنية تحمل صورته الصغيرة وشعيرات تخصه، اعتادت أن تحملها قلادة مدلاةً على صدرها.

منحتها شركة الهند الشرقية، بعد مناشدة قدمت للقائمين على إدارتها، راتباً تقاعدياً يبلغ مائتي باوند سنوياً، كما أن المتحف البريطاني اشترى من زوجته المجموعة الكبيرة من المخطوطات الشرقية وقطع النقود المعدنية والمنحوتات الآشورية بمبلغ سبعة آلاف باوند.

ويقال أنها، لدى سماعها خبر وفاة كلوديوس، أغمي عليها وأصبح شعرها أبيض كالثلج. وبعد أيام من استعادة وعيها، بدت كأنها أصيبت بالدوار والذهول، وإن أخشى ما كان يخشى عليها هو انهيار عقلها.

وجدّي، الذي كان حينذاك طفلاً يبلغ بضعة شهور من عمره، وسمي تيمناً باسم خاله، وضع بين ذراعيها حينذاك في حين انصرفت أمه لتفقد احتياجات البيت وإدارة شؤونه. كركر كلوديوس الصغير وناغى متودداً بطريقته الطفولية المحببة أمام وجه خالته المقطّب ورفع احدى يديه

الصغيرتين يربت على وجهها. وهنا انفجرت دموعها، فخفف نشيجها المفاجئ التوتر الذي أصاب ذهنها.

وهكذا، أصبح الطفل الصغير، بالنسبة إلى أولاد أخواتها، مثار هيامهم وحبهم الكبيرين. وربما كان، لهذا السبب، أم اطفاله–أسي أخوتها وأخواتها، قد سمح لهم في شيخوختها بنيل ثقتها أكثر من غيرهم، فأخبرتهم قصصاً وحكايات رومانسية كثيرة عن حبيبها–كلوديوس ريج.

مراجع التحقيق

المراجع العربية

١. العراق قديماً وحديثاً–تأليف السيد عبد الرزاق الحسني (الطبعة الرابعة)، (١٩٥٨م).

٢. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث–تأليف ستيفن هيمسلي لونكريك–ترجمة جعفر الخياط، (١٩٦٢م).

٣. العراق في رسائل المس بيل–ترجمة جعفر الخياط، (١٩٧٧م).

٤. مدن العراق القديمة–تأليف دورثي مكاري–ترجمة يوسف يعقوب مسكوني، (١٩٦١م).

٥. اليزيديون – تأليف صديق الدملوجي، (١٩٤٩م).

٦. الشبك – تأليف أحمد حامد الصراف، (١٩٥٤م).

٧. رحلة المنشئ البغدادية–تأليف السيد محمد بن السيد أحمد الحسيني–ترجمة عباس العزاوي المحاسي، (١٩٤٨م).

٨. رحلة ريج في العراق عام (١٨٢٠م) ترجمة بهاء الدين نوري، (١٩٥١م).

٩. رحلتي إلى العراق–تأليف جيمز بكنغهام–ترجمة سليم طه التكريتي، (جزءان ١٩٦٨،١٩٦٩).

١٠. رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربا – تأليف أبي طالب بن محمد خان– ترجمة د.مصطفى جواد، (١٩٦٩م).

١١ . رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر– تأليف كارستن نيبور–ترجمة د. محمود حسين الأمين، (١٩٦٥م).
١٢ . مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة–تأليف كارستن نيبور–ترجمة سعاد هادي العمري، (١٩٥٥م).
١٣ . رحلة نيبور إلى بغداد في القرن الثامن عشر–تأليف كارستن نيبور–ترجمة سعاد هادي العمري، (١٩٥٤م).
١٤ . معجم البلدان–ياقوت الحموي، (١٩٧٩م).
١٥ . لسان العرب المحيط–ابن منظور، (دار لسان العرب / بيروت–بلا تاريخ).
١٦ . دائرة المعارف الاسلامية–تأليف نخبة من الباحثين الأجانب–إعداد وتحرير وترجمة نخبة من الباحثين المصريين، (١٩٦٩م)، دار الشعب.
١٧ . الموسوعة العربية الميسرة–باشراف محمد شفيق غربال، الشعب / صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥م.
١٨ . قاموس «محيط المحيط»–الأستاذ بطرس البستاني، (١٩٨٧م).
١٩ . «المنجد»–لويس معلوف، الطبعة السابعة عشرة، (١٩٦٠).
٢٠ . القاموس التركي العربي–د. إبراهيم الداقوقي وعبد اللطيف بندر أوغلو ومحمد رشيد داقوقلو، (١٩٨١م).

٢١ . المعجم الذهبي-محمد التونجي، (١٩٨٠م)-دار العلم للملايين.

٢٢ . «المنهل» قاموس فرنسي عربي-تأليف د. جيور عبد النور و د. سهيل إدريس، (١٩٧٩م).

٢٣ . قاموس ألماني عربي-شراجله، (١٩٧٧م).

٢٤ . مباحث عراقية/يعقوب سركيس، (١٩٤٨-١٩٨١م)- ثلاثة أجزاء.

٢٥ . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (الجزء الأول)/طه باقر (١٩٨٦م).

– المحتويات –

الفصل الاول	الطفولة والشباب، ١٧٨٦-١٨٠٧	17
الفصل الثاني	بومبي والزواج، ١٨	41
الفصل الثالث	بغداد، ١٨٠٨	57
الفصل الرابع	سفارات وشؤون سياسية وإدارية، ١٨٠٨-١٨١٠	83
الفصل الخامس	مجموعة كتب وعاديات ورحلات قصيرة، ١٨١٠-١٨١١	117
الفصل السادس	بعثة إلى بابل، ١٨١١	145
الفصل السابع	العودة إلى بغداد، ١٨١٢	161
الفصل الثامن	رحلة من بغداد إلى اسطنبول، ١٨١٣	173
الفصل التاسع	مواصلة الرحلة من بغداد إلى اسطنبول، ١٨١٣	191
الفصل العاشر	استنبول والرحلة إلى فيينا، ١٨١٤	213
الفصل الحادي عشر	مواصلة الرحلة من استنبول إلى فيينا، ١٨١٤	227
الفصل الثاني عشر	فيينا وباريس، ١٨١٤-١٨١٥	248
الفصل الثالث عشر	من باريس إلى اسطنبول، ١٨١٥	269
الفصل الرابع عشر	من اسطنبول إلى بغداد، ١٨١٥-١٨١٦	297
الفصل الخامس عشر	مواصلة السفر من اسطنبول إلى بغداد، ١٨١٦	317
الفصل السادس عشر	العودة إلى بغداد، ١٨١٦	336
الفصل السابع عشر	الرحلة داخل كردستان، ١٨٢٠	363
الفصل الثامن عشر	نينوى والموصل، ١٨٢٠-١٨٢١	389
الفصل التاسع عشر	النزاع الأخير بين ريج والباشا، ١٨٢٠-١٨٢١	405
الفصل العشرون	برسوبوليس (إصطخر)، ١٨٢١	415
الفصل الواحد والعشرون	النهاية، ١٨٢١	431
مراجع التحقيق		447

طبعت لدى شركة ابوظبي للطباعة والنشر [بن دسمال]